هنري لورنس

مسألة فلسطين

المجلد الأول

١٧٩٩-١٩٢٢

اختراع الأرض المقدّسة



الكتاب الأول

١٧٩٨-١٩١٤

أوروبا تصوغ العالم وشرقٌ آخذٌ بالتحول

ترجمة: بشير السباعي





المشروع القومي للترجمة



AMBASSADE DE FRANCE EN RÉPUBLIQUE ARABE D'ÉGYPTE

Centre français de culture et de coopération

المركز الفرنسي للثقافة والتعاون



العدد: ١٠٠١

مسألة فلسطين

الكتاب الأول

١٧٩٨-١٩١٤

هنري لورنس

مسألة فلسطين

المجلد الأول

١٧٩٩ - ١٩٢٢

اختراع الأرض المقدَّسة

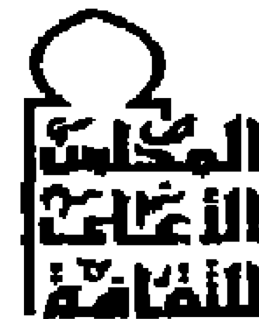
الكتاب الأول

أوروبا تصوغ العالم وشرقٌ آخذٌ بالتحول

١٧٩٨ - ١٩١٤

ترجمة

بشير السباعي



القاهرة
٢٠٠٦

- صورة الغلاف : صلاة أمام حائط المبكى بالقدس
بطاقة بريدية ترجع إلى نحو عام ١٩١٠ .
- تصميم الغلاف : هبة حلمى

إلى السيد كلود فاتان، الـ"كيريوس*" الذى اتخذته قدوة لي، منذ ربع قرن، في البحث الجامعي الحقيقي الذي لا يستلهم سوى الرغبة في المعرفة. فليتقبـل هو وأسرته شكري على ما قدماه لي دومًا من آيات الصداقة والمساندة.

---

* الـ"كيريوس": السيد أو الأستاذ. باليونانية. ـــ م.

شكر وتقدير

يحرص المؤلف على أن يوجه الشكر بشكل خاص إلى موظفي ومسئولي أرشيفات وزارة الخارجية (باريس ونانت) والتحالف الإسرائيلي العالمي (باريس) ومختلف الأرشيفات العسكرية بقلعة فانسان، ومكتب السجلات العام (لندن) ومؤسَّسة الدراسات الفلسطينية (بيروت). ويوجه المؤلف شكرًا خاصًا أيضًا إلى عدد معين من المكتبات، بينها في المقام الأول مكتبة السوربون ومكتبة اللغات الشرقية ومكتبة التحالف الإسرائيلي العالمي ومكتبة وزارة الشئون الخارجية.

كما أن السيد بيير فورنييه، أمين الأرشيف بالكيه دورسيه، قد قدم كعادته عونًا متصلاً ولا يقدر بثمن. وأنا مدين للمعهد القومي للغات وللحضارات الشرقية بعون مادي جد مفيد في جمع المعلومات. وقد تسنى لزملائي بشعبة الدراسات العبرية أن يدلوني على دروب مفيدة في التوجهات والتأملات في مجال التاريخ اليهودي الذي كان أقل ألفة بالنسبة لي من التاريخ العربي. كما يدين هذا الكتاب بالكثير لمدرسة فرنسية في الدراسات العثمانية فرضت نفسها على المسرح الدولي.

وعلى مدار سنوات، كان تلامذتي والباحثون الشبان الذين أرعى عملهم بالمعهد القومي للغات وللحضارات الشرقية أول من اطّلعوا على محتوى هذا الكتاب. ولابد لهم أن يعرفوا إلى أي مدى كانت ملاحظاتهم وانتقاداتهم ضرورية في بلورة هذه التأملات. ولابد من الإشارة بشكل خاص إلى أولئك الذين قاموا ببحوثهم حول موضوعات قريبة وشاركوا في التبادل المشترك للوثائق وللأفكار. وأنا أقصد بالأخص إليزابيث عنتيبي وفانسان كلواريك ورينا كوهين وأمل جايدي وجيرار خوري وجليله سباعي. ولابد من الإشارة بشكل خاص إلى شخصية جان ـ ماري دولمير النيرة التي التقيتها بشكل جد متأخر للأسف.

أما دوني مارافال، من دار فايار، فقد قبل مشروع الثلاثية هذه وأيده بالرغم من ضخامته.

ومن الواضح تمامًا أن المساندة المتصلة من جانب أسرتي في هذا المشروع كانت ضرورية وأنه ما كان يمكن لشيء أن يتحقق دون عونها.

استهـــلال
العام ١٧٩٩

في فبراير/ شباط ١٧٩٩، يغزو سيناء جيش فرنسي قادم من مصر، تحت قيادة بونابرت، ثم يدخل السهل الساحلي الفلسطيني[١]. و"حملة سوريا" هذه، في مستهل حروب الائتلاف الثاني، تحرك مشاعر أوروبا التـي كانـت أسسـها الاجتماعية والسياسية قد اهتزت قبل ذلك بعشر سنوات مـن جـراء الثـورة الفرنسية. فباسم المساواة والعقل، كان النظام المسمى بالقديم، بهيكله الاجتماعي المرتب ترتيبًا هيراركيًا في جماعات وظيفية، قد أطيح به لصالح الأمة، المكوَّنة من مواطنين ولدوا متساوين في الحقوق. وتترافق الإطاحة بـالمجتمع الملكـي بتهديد لوضعية الديانات القائمة. ومع إلغاء التمايزات القائمة على الديانة وإقرار الدستور المدني الخاص برجال الدين ونزع المسيحية بالإكراه في عهد الإرهاب و،أخيرًا، فصل المجال المدني عن المجال الديني، خاض الثوار الفرنسيون أول حرب بين الإيديولوجيات التي أفرزها التنوير والكنائس ذات الماضي الطويل. وقبل ذلك ببضعة شهور، كان دخول الجيوش الفرنسية روما وفرار البابـا قـد أثارا هلع الكاثوليك وحركا مشاعر البروتستانت تحريكًا عميقًا، بينمـا اهتمـت النخب الحاكمة للدولة الإسلامية الكبرى المتمثلة في الدولة العثمانيـة بتطـور النضال المعادي للدين في أوروبا.

وكانت الحملة الفرنسية على مصر في يوليو/ تموز ١٧٩٨ قد اضـطرت هذه الدولة الإسلامية إلى الانضمام إلى الائتلاف الذي شكلته بريطانيا العظمـى البروتستانتية والنمسا الكاثوليكية وروسيا الأرثوذكسـية. ولمواجهـة الدعايـة العثمانية الرامية إلى حشد جميع المسلمين تحت لواء خليفة القسـطنطينية فـي النضال ضد الغزاة الكفار، كان بونابرت قد اتجه إلى فكرة جديـدة ومبتكـرة: تمرد جميع العرب، و، بشكل أعم، جميع شعوب الدولة العثمانية، ضد السلطان ـ الخليفة. وإذا كانت فكرة الجماعة القومية نفسها آنذاك فكرة لا يسهل فهمهـا من جانب سكان الدولة العثمانية (باسـتثناء بعـض النخـب بـين اليونـانيين

والأرمن)، فإنّ محتوى الخطاب الموجه إلى سكان سوريا وفلسطين كان ملموسًا أكثر بشكل لا لبس فيه: فالمقصود هو إنهاء حكم والي عكا الرهيب، أحمد باشا الجزار، وحشد جميع أعدائه تحت راية الفرنسيين.

وفي القرن الثامن عشر، تعرف الولايات العربية للدولة العثمانية، شأن بقية ولايات الدولة، نظامًا قوامه اللامركزية القصوى. والسلطات المحلية تزداد قوة باطراد، وذلك بفضل قيام تحالف بين أعضاء الطبقة الحاكمة العثمانية وقولات السلطان والأعيان المحليين. ومنذ القرن السابع عشر، كان قولات السلطان ذوو الوضعية غير الوراثية متحالفين مع الأعيان في استغلال الثـروات الرئيسـية. ومنشأ وسط الأعيان مركّب: إذ نجد بينهم أحفاد قولات السلطان، القادمين غالبًا من البلقان والمستقرين في البلد. وبما أنهم لم يعد لهم الحق في الصـعود إلـى خدمة الدولة، فإنهم إنما يتمتعون بالثروات التي راكمها سلفهم ذو المكانة المهمة في مختلف وظائفه الرسمية. وبوجه عام، كانت ممتلكاتهم قد تحولت إلى أوقاف عائلية (فهي مخصصة لخدمة دينية أو عامة محددة كرعاية المساجد أو الأسبلة، لكن غالبية الإيرادات يحتفظ بها أحفاد المتبرع). وإلى جانبهم توجد العـائلات الكبيرة المنحدرة من سلالة عربية شهيرة تربطهم بنبي الإسـلام وبصـحابته: وهكذا، ففي القدس، يتباهى آل الحسيني بنسبهم إلى محمد عن طريـق حفيـده الحسين، شهيد كربلاء الشهير، بينما يزعم آل الخالدي أنهم ينتسبون إلى خالـد بن الوليد، فاتح القدس وسوريا. وقد سيطرت هذه العائلات ذات المكانة المهيبة على مناصب السلطة الدينية، كمنصبي المفتي والقاضي. كما أنها تدير أوقافًـا عائلية أو خيرية، الأمر الذي يعود عليها بإيرادات مهمة[٢]. وتنحدر مجموعات الأعيان الأخرى من زعماء القبائل البدوية المستقرة الذين يواصلون ممارسـة سلطتهم على أبناء قبائلهم، ومن الزعماء الأكراد المستقرين في البلد بفضل فتن القرن السابع عشر، ومن التجار المسلمين الذين كونوا ثـروات مـن التجـارة الداخلية للدولة العثمانية.

والالتزام هو المصدر الأول للثروة: ففي المدن والأرياف، جـرى تلـزيم الضرائب الرئيسية لفترات طويلة إلى هذا الحد أو ذاك. وفي الأرياف، يجـري تعريف الجانب الأكبر من الأرض الزراعية على أنه ملك للدولة. وهذا نوع من

الملكية الأعلى (الميري) والذي يقابله حق الفلاحين في الانتفاع. ويتم استغلال الأراضي الزراعية استغلالاً جماعيًا من جانب مجموعات من الفلاحين الأقارب (الحمولة) الذين يعيدون توزيع الأراضي فيما بينهم بشكل دوري. والحال أن الالتزامات، التي قد تستوعب قرى عديدة، إنما تقوم بتحصيل الجانب الأوفر من الدخل الزراعي وتترك الفلاحين في مستوى الكفاف. وتوجد نخبة فلاحية صغيرة من شيوخ العائلات والقرى تدير الالتزام على مستوى الأراضي الزراعية وتحصل في المقابل على جزء من الضرائب.

ويختلط الملتزمون عمومًا بجماعة الأعيان وقولات السلطان. ومن ثم فهناك على المستوى المحلي نوع من الاتحاد بين موظفي الدولة الإمبراطورية ومختلف جماعات الأعيان، وهو اتحاد يجد ترجمة له في علاقات المصاهرة. وقد أخذت السلطة المركزية هذا الوضع في حسبانها، وهي تميل إلى اختيار الحكام المحليين من جماعة الأعيان. بيد أنها لا يمكنها السماح بنشوء وبتطور قوة لا تستمد شرعيتها من قرار سلطاني. وهكذا، ففي الشطر الثاني من القرن الثامن عشر، ينجح ملتزم من الجليل من أصل بدوي، هو ضاهر العمر الزيداني، في أن يشكل لنفسه، بالرغم من اعتراض الباب العالي، نوعًا من إمارة تمتد من الجولان إلى البحر، وذلك بالتحالف مع أعيان المنطقة الرئيسيين. وقد اختار عكا عاصمة له بإعادة إحياء هذه المدينة القديمة التي ترجع إلى العصر الوسيط.

وهذا التواجد على الساحل علامة على حركة أوسع: الاستيلاء على الشاطئ من جديد. ففي أواخر القرن الثالث عشر، كان المماليك المنتصرون على الصليبيين قد ألغوا الموانئ الفلسطينية الرئيسية، سعيًا منهم إلى درء عودة الأوروبيين في عمل هجومي. وكان الجانب الرئيسي من السكان يحيا في روابي وجبال الداخل. وقد واصل العثمانيون في البداية هذه السياسة. إلا أنهم، بسبب الوجود شبه الدائم للقراصنة المالطيين في منطقة حيفا، قلبوا هذا الوضع في مستهل القرن الثامن عشر بتشجيعهم إعادة التواجد على الشاطئ. ويرتبط إحياء الموانئ الفلسطينية بنمو للعلاقات مع أوروبا التي تقوم على نحو متزايد باطراد، في مقابل منتجاتها المصنعة، بشراء منتجات ذات منشأ زراعي كالحرير

والقطن، وإن كانت تشتري أيضًا الحبوب الزراعية.

وفي عكا، كان ضاهر العمر قد نسج علاقات وثيقة مع تجار الجملة الفرنسيين وأقام نوعًا من دولة جنينية. وقد رد الباب العالي على ذلك في عام ١٧٧٥ بتكليفه مملوكًا من أصل بوسنوي، هو الجزار، بإعادة النظام العثماني. والحاصل أن الباشا الجديد، مع التزامه بحدود الشرعية العثمانية، وإن كان بنشاط وبوحشية، قد أجهز على قوة آل الزيداني وأقام لصالحه هو قوة أعظم. وقد قمع شيعة جبل عامل (الجنوب اللبناني الحالي) وأخضع لسلطته إمارة الجبل اللبناني (كان الجبل تحت سيطرة شبكة من "الإقطاعيين"، هم في حقيقة الأمرملتزمون يسمون بالمقاطعجية، زعيمهم هو أمير الجبل، وهو مسيحي من عائلة شهاب في نهاية القرن الثامن عشر هذه). وبعد ذلك ولعدة مرات، قلّد الباب العالي الجزار جميع السلطات الخاصة بالولايات السورية.

وعلاوة على العلاقات التجارية مع أوروبا، استمد ضاهر العمر والجزار دخولهما، ومن ثم قوتهما، من نمو لعدد البشر في مناطق سيطرتهما. وعلاوة على الاستغلال الضريبي الفادح وتواتر أوبئة الطاعون، كانت العقبة الرئيسية أمام الازدهار الريفي هي الانعدام الدائم للأمن بسبب غارات النهب التي يشنها البدو وبسبب "إتاوات" الحماية التي كانوا يفرضونها على الفلاحين. ومنذ ذلك الحين، مالت الأراضي الزراعية إلى الاقتصار على جوار القرى المقامة على المرتفعات. والحال أن سيديّ عكا، بدفعهما البدو إلى الصحراء وباستخدامهما بعضهم في مطاردة البعض الآخر، قد أقاما نوعًا من الحدود التي تكفل حماية الأرياف في لحظة كان فيها الرحل القادمون من شبه الجزيرة العربية قد دشنوا، في مجمل الهلال الخصيب، حركة تغلغل واستيلاءات جديدة على مناطق استقرار

والحاصل أن قرى فلاحية صغيرة مؤقتة في البداية ثم دائمة فيما بعد إنما تتكون، موسعة بذلك الأراضي الزراعية الجذمورية وسامحة باستصلاح المنطقة الساحلية لأغراض الزراعة، وذلك مع احتفاظ هذه القرى الفلاحية الصغيرة بعلاقاتها مع القرى الكبيرة في الداخل. أمّا تزايد الموارد الراجع إلى استعادة النظام العام،وهو ظاهرة متكررة في التاريخ العثماني، فهو يسمح بنمو

ديموغرافي حيوي. والفارق بين الكثافة السكانية فيما بين الساحل والداخل يفسر السبب في أن بونابرت، بعد أن أرسل جنود استطلاع اكتشفوا خطورة المقاومة التي قد يبديها فلاحو جبال اليهودية، إنما يكتفي بالتقدم على طول الساحل دون أن يسعى إلى الزحف على القدس.

وما يسميه بونابرت باللعب على وتر الوطنية العربية إنما يتمثل في حفز تمرد واسع يجمع أنصار آل الزيداني والشيعة والجماعات الدرزية ـ المارونية في الجبل اللبناني (هو لا يميز تمييزًا جيدًا بين الاثنين). أمّا الجزار، المتحصن في مدينته الحصينة عكا والمتمتع بدعم من البحرية البريطانية، فهو ينتظر راسخ القدمين الجنرال الفرنسي الشهير. وفي ١٩ مارس/ آذار ١٧٩٩، يبدأ حصار عكا.

وفي هذا السياق بالتحديد يظهر الخبر التالي الذي نشرته الصحيفة الرسمية الفرنسية، **لومونيتور اينيفرسيل**، في عددها الصادر بتاريخ ٣ بريريال من العام السابع [للجمهورية الفرنسية] (٢٢ مايو/ أيّار ١٧٩٩):

سياسة، تركيا، القسطنطينية، ٢٨ جيرمينال (١٧ أبريل/ نيسان ١٧٩٩)، نشر بونابرت بيانًا يدعو فيه جميع يهود آسيا وأفريقيا إلى الانضواء تحت رايته لأجل استعادة أورشليم القديمة. وقد قام بالفعل بتسليح عدد كبير منهم وكتائبهم تهدِّدُ حلب[٣].

وتجري استعادة هذا الخبر في العدد الصادرفي ٩ ميسيدور (٢٧ يونيو/ حزيران ١٧٩٩):

عن الاستيلاء المحتمل على الدولة العثمانية من جانب بونابرت، نترقب تأكيد هذه الأنباء السعيدة. وإذا كانت سابقة لأوانها، إلاّ أننا نود أن نصدق أنها سوف تتحقق يومًا ما. فلم يفتح بونابرت سوريا لمجرد تسليم اليهود أورشليمهم.

على أن البحوث المختلفة في الأرشيفات الفرنسية قد أثبتت أنه لم يوجد شيء كهذا في مشاريع بونابرت وأنه، في هذه الأشهر الأولى من عام ١٧٩٩، لم تكن هناك اتصالات مباشرة بين جيش الشرق وفرنسا المتروبولية. ومن المؤكد أن كتّابًا فرنسيين قد طرحوا بالفعل أفكارًا من هذا النوع، خاصة عشية

الحملة، إذ كتبوا أن اليهود سوف يكون بوسعهم تكوين "قوام أمة" في فلسطين تقوم بتنميتها واستثمارها وتشكل دعامة سياسية لإمبراطورية فرنسية في شرق البحر المتوسط، غير أن بونابرت الشاب، بالرغم من مسارعته إلى التفكير في مشاريع جسورة وعظيمة، لم يحذ حذو هؤلاء الكتاب البتة في هذا الدرب. وحتى في كتابات سانت هيلانه، حين يذكر هذه الأحداث، نجده يتحدث عنها بوصفها شيئًا غريبًا عنه. وإذا كان بعض الأشخاص في الشهور الأخيرة لحكومة الإدارة قد تسنى لهم طرح مشروع إحياء قومي يهودي، فإنّ الحكومات الأخيرة لفرنسا الثورية لم تشجع مثل هذه الآراء. على أن الشائعات الخاصة بها قد راجت في فرنسا خلال فترة الحملة على سوريا(٤).

وكان يتعين أولاً أن تتقاسمها جماعات يهودية مهمة. والحال أن سكان فرنسا اليهود، وهم بضع آلاف من الأفراد آنذاك، كانوا عاجزين تمامًا عن تقديم الموارد البشرية الضرورية. وبالنسبة لهم، كما بالنسبة لجميع السكان اليهود الآخذين بالتحرر، لم تكن صهيون الحديثة سوى البلد الذي قام بتحريرهم للتو(٥).

أمّا الطوائف اليهودية الألمانية، الأوفر عددًا، فقد كانت في غالبيتها خارج حقل السيطرة الفرنسية. وكانت غالبية يهود العالم العظمى موجودة في مملكة بولنده – ليتوانيا القديمة، من بحر البلطيق إلى البحر الأسود، وكانت تشكل، مع اليهود الألمان، الكيان المسمى بالأشكيناز (يهود ألمانيا أو اليهود الذين ينحدرون من ألمانيا). وكانت هذه الأراضي قد تم اقتسامها خلال مختلف تقسيمات بولنده بين بروسيا والنمسا وروسيا، وكانت هاتان الدولتان الأخيرتان في حرب ضد فرنسا.

ومن ثم فمن غير الجائز تاريخيًا الحديث عن وعي قومي يهودي في نهاية القرن الثامن عشر هذه. وكانت الطوائف اليهودية في أوروبا الشرقية تشكل جزءًا لا يتجزأ من النظام الاجتماعي للنظام القديم، الذي كان ما يزال قائمًا بتمامه من الناحية العملية في المناطق الشرقية لأوروبا: لقد شكلت "فئة"، أو فئة في داخل مجتمع فئات. وفي العقود الأخيرة لمملكة بولنده، كانت هذه الطوائف محرومة من أي تمثيل جماعي لدى الدولة المركزية (أو لدى ما كان يقوم مقامها) . ولم تكن تشكل غير سلسلة من الجماعات المتمايزة المدارة على

مستوى محلي بشكل دقيق. وكانت في مجموعها جد فقيرة: فالجانب الأعظم من السكان اليهود إمّا أنه كان يستخدم على شكل وكلاء لـدوائر أمـلاك السـادة الإقطاعيين، خاصة في إدارة الاحتكارات الخاصة بـالأملاك (لاسـيما إنتـاج الكحول) أو أنه كان منخرطًا في نشاطات تبادلات اقتصادية جد أوليـة (البيـع بالتجول، الحرف الصغيرة، بيع المشروبات الكحوليـة بالتجزئـة، القـروض الربوية). وخارج "يهود البلاط" الألمان، وهم عبارة عن أمناء تابعين لأمـراء مستقلين، لم توجد ثروة يهودية كبيرة. بل إن اليهـود "البرتغـاليين"، المـارّان السابقين الموجودين في الموانئ الفرنسية والإنجليزية والهولندية، لـم يكونـوا يحوزون غير إمكانات مالية تتناسب مع مهنهم كتجار جملة ميسورين.

وكانت الممارسة جد المتزمتة ليهودية تلمودية حافلةً بالإشارات إلى الحياة اليومية في الأرض المقدسة وكان الكثير من المناسبات يحيل إلى تقويم زراعي يربو عمره على ألفي عام. بيد أن المرشدين الدينيين للطائفة اليهوديـة كـانوا يؤكدون على أن العودةٍ إلى أرض الميعاد لابد لها من أن تمر عبر عمل قدسي عند مجيئ المسيا المخلّص. وفي القرن السابع عشر، قدم شابتّاي زيفي نفسـه على أنه المسيا المنتظر ودعا إلى العودة. وشايعه جمع غفير من يهود أوروبـا الشرقية والدولة العثمانية. غير أن السلطات العثمانية ألقت القبض على الداعية، الذي اضطر إلى التحول إلى اعتناق الإسلام (١٦٦٥) . فانفض عنه الجانـب الأعظم من مشايعيه، بينما انضم إليه فريق منهم في الردة التى اعتُبِرت قلبًا — تعديًا على أسس الشريعة، مما أدى إلى نشوء طائفة الدونمـة ("أولئـك الـذين ارتدوا")، التي استقرت في سالونيك، بينما قامت السلطات الدينية الأرثوذكسـية بإصدار الحرمان على مشايعي شابتّاي زيفي في أوروبا الشرقية.

وفي القرن الثامن عشر، عاودت الحركة الميلاد تحت قيادة يعقوب فرانك الذي قام، بعد أن أقام في سالونيك، بإعلان نفسه هو الآخر مسـيا، فـي عـام ١٧٥٤، ودعا إلى قلب الشريعة. وفي بولنده وبوهيميا، شايع عدد معـين مـن اليهود المذهب الجديد بينما طالبت سلطات الطائفة اليهودية بتدخل الدولة ضـد الهراطقة. وسعيًا إلى تفادي هجمات خصومه، يقرر يعقوب فرانك التحول إلى اعتناق الكاثوليكية بغرض تكوين طائفة مماثلة لطائفة **الدونمة** وتتمتع بـأرض.

وبعد كثير من الملمات، تستقر الجماعة في أوفينباخ، قرب فرانكفورت، حيث يموت يعقوب فرانك في عام ١٧٩١. وسوف تتلاشى الطائفة في نصف القرن التالي، إمّا من جراء العودة إلى اليهودية الأرثوذكسية من جانب أحفاد الفرانكيين، أو بحكم استيعابهم الكامل في المجتمع المسيحي(٦).

والحال أن الحاخامات وقد هزتهم مثل هذه المحن التي تعقبها الردة إنما يبدون منذ ذلك الحين معادين كلية لأي شكل من أشكال الميسانية والعودة إلى صهيون. وفي الوقت نفسه، يتعين على يهودية أوروبا الشرقية مواجهة ظهور حركة صوفية تحشد جماهير شعبية غفيرة خلف زعمائها الذين يتمتعون بالكاريزما ويحوزون قدرات إعجازية غالبًا، هي حركة الحاسيدية. ويعترض فريق من الحاخامات بقوة على ما يعتبر هرطقة ويستعر النزاع إلى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، حيث ينشأ نوع من التعايش بين المتمسكين بمختلف أشكال يهوديةٍ تحددها معايير دينية صارمة.

وفي اللحظة التي يغزو فيها بونابرت فلسطين، تشتد حدة السجال في أوروبا الشرقية ضد الفرانكيين. وهؤلاء الأخيرون، وقد علموا بالنص الذي ظهر في صحيفة لو مونيتور دون أن يعثروا على نص البيان المزعوم، إنما يقومون بكتابته بالعبرية سعيًا إلى تطوير حججهم المؤيدة لأرض يهودية (لاسيما أن الفرانكيين كانت لهم تعاطفات قوية مع الثورة الفرنسية). والحال أن هذا البيان المزور سوف يتم تداوله لمدة قصيرة قبل أن يعاود الظهور في عام ١٩٤٠ في ترجمة ألمانية. وهكذا، فإذا كانت التيمة التي استحدثتها صحيفة لو مونيتور قد لقيت صدىً معينًا لدى يهود أوروبا الوسطى، فإنّه يبقى أن أنصار هذه التيمة منبثقون من جماعة في قطيعة مع مجمل الطائفة، في حين أن السلطات الدينية تبدو معادية تمامًا لمثل هذه المنظورات.

فإذا كان من غير الوارد أن يكون يهود أوروبا على صلة بالأمر، فماذا إذًا عن اليهود الذين يقيمون في سوريا وفي فلسطين؟ إن التوسع العثماني في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر إنما يتزامن مع تفاقم وضع يهود إسبانيا ثم مع طردهم من جانب الملوك الكاثوليك. وعندئذ يبدو السلاطين من أكثر المرحبين باستقبال هؤلاء اللاجئين ذوي المواهب العديدة. والحال أن

يهود إسبانيا، أو السيفارديم، إنما يستقرون في غالبيتهم في البلقان، خاصة في سالونيك، بيد أن فريقًا منهم يختار الأرض المقدسة، خاصة في الجليل وصفد وطبرية. وبعد فترة من الازدهار في القرن السادس عشر، تكابد الطوائف اليهودية عين صروف الزمان التى كابدها سكان المنطقة الآخرون خلال القرن السابع عشر جد الرهيب، المتميز بأزمات اقتصادية وبواحدة من كبرى فترات انعدام الأمن، بسبب هجمات البدو والدروز.

وفي مجمل شرق البحر المتوسط، تتدهور مكانة اليهود الاقتصادية في القرن الثامن عشر: ففي بعض المجالات التي كانت تقليديًا مجالاتهم، كتمويلات الحكام وإدارة الجمارك، يتعين عليهم مواجهة المنافسة الظافرة من جانب الروم الكاثوليك (وهم عرب أرثوذكس انفصلوا عن بطريركية القسطنطينية التي يهيمن عليها اليونانيون عِرقًا وانحازوا إلى باباوية روما مع احتفاظهم بطقوسهم الشرقية). وبفضل توجيه المبشرين الكاثوليك، كان هؤلاء المتحدون بباباوية روما أكثر "حداثة" من السيفارديم، الذين فقدوا صلاتهم بالحضارة الأوروبية بالرغم من العلاقات المنتظمة القائمة مع شركائهم في الديانة في أوروبا الشرقية، خاصة الحاسيديم، الذين يقومون بزيارات حج منتظمة إلى الأرض المقدسة. ويترافق تدهور يهود شرق البحر المتوسط اقتصاديًا وثقافيًا مع ضعف ديموغرافي عظيم، إذ لايكاد يوجد غير خمس وعشرين ألف نسمة في مجمل سوريا (أي بنسبة تقل عن ٢ % من إجمالي السكان)، نصفهم في فلسطين. وبالرغم من ظهور تيار هجرة صغير قادم من أوروبا، الأمر الذي يسمح بتكوين الطوائف الأشكينازية الأولى في الأرض المقدسة، إلاّ أن الصدارة العددية لليهود السيفارديين إنما تظل ساحقة في هذه المناطق.

وقد تحسن الوضع في الجليل خلال حكم ضاهر العمر، وذلك بفضل عودة النظام والأمن. وسيد عكا الأول هو بالأخص حليف الروم الكاثوليك. وبالمقابل، نجد أن الجزار قد جعل من اليهودي إبراهيم فارحي مسئول شئونه المالية. وهو لم يَبْدُ مكدِّرًا بشكل خاص لليهود في المناطق التي يسيطر عليها. وعندما يدخل بونابرت فلسطين، لا يجد أي مصلحة خاصة في كسب ود يهود المنطقة والذين سوف ينحازون بالأحرى إلى صف الجزار، وتحالف بونابرت الطبيعي سوف

يكون مع الروم الكاثوليك.

ومن ثم فلا يمكن البحث عن تفسير لنصي صحيفة لو مونيتور لا من جهة اليهود ولا من جهة الفرنسيين. والحل موجود في مركب سياسي ــ ثقافي ثالث، هو البروتستانتية الأنجلو ــ ساكسونية. فمنذ عصر البيوريتانيين (أواخر القرن السادس عشر ــ القرن السابع عشر)، نجد أن المسألة اليهودية، أو، بشكل أدق، دور اليهود في تحقق النبوءات، أي تحقق نهاية الزمان، إنما يعد مركزيًا عند الألفيين البروتستانت. ففي تفسيرهم لبعض فقرات سفر دانيال ورؤيا يوحنا اللاهوتي، يرون أن اليهود سوف يتحولون إلى اعتناق المسيحية على إثر تَجَمُّعهم في الأرض المقدسة، والذي يشكل مرحلة ضرورية لقيام مملكة المسيح على الأرض. وحركة العودة إلى الإيمان (*revival* ــ الإحياء) في أواخر القرن الثامن عشر إنما تتخللها هذه الأطروحات، وكثيرون من المؤمنين يبحثون في الأحداث عن العلامات الأولى على نهاية الزمان. والحال أن الثورة الفرنسية إنما تحفز مناخ نهاية للعالم. والعلامات الأولى هي إعدام ملك فرنسا واضطهاد الكاثوليك. كما أن نفي البابا خارج روما، في أواخر عام ١٧٩٧، إنما يعلن قتل الدابة الرابعة التي تتحدث عنها رؤيا يوحنا اللاهوتي، وهي هنا مَلكية روما.

والحاصل أنه في تلك اللحظة بالتحديد جرت ترجمة نصوص الكتّاب الفرنسيين التي تتحدث عن عودةٍ لليهود إلى الأرض المقدسة: فمنذ ذلك الحين، من الواضح للألفيين أن الحشد المزعج لأسطول ولجيش فرنسيين في طولون، بعيدًا عن أن يستهدف الجزر البريطانية، إنما يهدف إلى إقامة "جمهورية يهودية" في الشرق. وليس من شأن الهبوط في مصر وغزو فلسطين سوى أن يؤكدا صحة هذا التفسير، ويعترف جانب من الصحافة البريطانية بوجهة النظر هذه على نحو مشترك(٧). ومن أكثر الأمور رجحانًا أن الفرنسيين يلتقطون عندئذ هذه المعلومة، و، لعدم رغبتهم في الإشارة إلى مصدرها، ينسبون مصدرها زورًا إلى القسطنطينية.

وفشل حصار عكا يقضي على حلم بونابرت الشرقي. وخلال مسيرة عودة الجيش الفرنسي، يصدر الفاتح الأمر بالتخريب التام لساحل فلسطين، كيما يجعل مرور جيش عثماني به أكثر صعوبة. ويظهر الجيش العثماني خلال شتاء

١٧٩٩ ــ ١٨٠٠ ويهزمه كليبر في نهاية الأمر في معركة هليوبوليس [عين شمس].

وسوف يبدو الجزار حريصًا بشكل خاص على صون استقلاليته وسيرفض التعاون مع العثمانيين. وطالما أن القوات السلطانية سوف تقيم في المناطق التي يسيطر عليها، فسوف يبقى متحصنًا في عاصمته. والحال أن تخريب فلسطين وانكفاء الجزار إنما يرمزان إلى انتهاء سنوات ازدهار المنطقة. وسوف تتمثل النتيجة الرئيسية لأحداث عام ١٧٩٩ على المستوى المحلي في اختفاء الحاجز البدوي: فمن النقب كما من شرقي الأردن، تهاجر جماعات بدوية عديدة إلى فلسطين. وسوف يتحقق استقرارها بالطبع في مناطق البلد الأقل تمتعًا بالحماية: السهل الساحلي ومناطق الداخل المنخفضة؛ وفي وقت قصير يتم القضاء على مجمل مجهود إعادة الاستيطان(٨). ومرة أخرى، سوف يعاود الفلاحون التجمع في المرتفعات، تاركين المستنقعات والملاريا تعاود الاستقرار في المناطق التي تم هجرها بينما يستولي الرحل من النقب ومن شرقي الأردن على هذه الأراضي الزراعية القديمة لتحويلها إلى مراعٍ.

وبالرغم من بقاء سلطة عكا لمدة ثلاثة عقود أخرى، إلاّ أن مكتسبات القرن الثامن عشر قد جرى محوها. وانهيار النظام العام لا يمكن إرجاعه إلى الرحل فقط: إن عمليات قطع طريق دائمة ذات منشأ فلاحي إنما تضاف في مناطق المرتفعات إلى الأضرار التي يرتكبها السكان الحضريون. وتتشكل فلسطين على نحو ماوصفها الرحالة الغربيون في القرن التاسع عشر: بلد مهمل في الحضيض استقر فيه البدو، انعدام دائم للأمن، انطباع بأراض خربة تكاد تكون خالية من البشر. وبالرغم من الوجود البارز لتجمعات سكانية قوية ولقرى كبيرة إلاّ أن صورة فلسطين من حيث كونها صحراء إنما تستقر بشكل متصل في الرؤية الغربية.

ودرس أحداث عام ١٧٩٩ إنما يتواجد أيضًا في مكان آخر. فمنذ الربع الأخير للقرن الثامن عشر، ظهرت الدولة العثمانية على أن مصيرها الهلاك دون أمل في الشفاء. ومع بونابرت، كف الرهان عن أن يكون بلقانيًا وقوقازيًا فقط: إذ أصبح شرق البحر المتوسط موضوع تنافسات بين الدول العظمى. وقد

أدى هذا التعارض إلى نتيجة مفارقة تتمثل في تحييد البعض من جانب البعض الآخر، إلاّ أنه كان واضحًا أن الملفَ الفلسطيني ليس غير جزء من مجمل أوسع، هو المسألة الشرقية، حيث تحدث المواجهة فيما بين الدول الغربية.

وهذه المسألة الشرقية، في جانبها الفلسطيني، لا تتألف من المصالح الاقتصادية والترابية وحدها. فالأرض المقدسة، بحكم قداستها نفسها، إنما تحيل إلى أسس الثقافة الغربية نفسها: مرساها التوراتي. والحال أن جنود بونابرت، الذين لا دين لهم من حيث المبدأ، كانوا قد استعادوا بالفعل ذكريات إيمانهم في طفولتهم وهم يجوبون هذه الأماكن التي تحمل أسماء قادمة من العهد القديم والجديد. وبروتستانتية البريطانيين التوراتية تجعلهم يرتأون بالفعل، حتى على أساس ألفي، أفق عودة لليهود إلى أراضيهم الأصلية، بينما يرى آخرون أن من شأن دولة يهودية أن تصبح أداة ممتازة لتأسيس سيطرة غربية في هذا الجزء من العالم. والحاصل أن الميسانية اليهودية، بالرغم من أنها كانت في تراجع، قد حاولت الاستفادة من هذا الظرف، في حين أن آخرين، غير يهود، قد تحدثوا عن إعادة تكوين أمة يهودية على هذه الأرض.

وسوف ترمز ووترلو إلى العودة إلى استقرارمعين في العلاقات الدولية. وفي حين أن ما كان ما يزال مفارقًا للتاريخ في عام ١٧٩٩ سوف يصبح ذا حاليّة، فإن العالم الذي أسسته معاهدة فيينا سوف يبقى قائمًا في سماته الكبرى على مدارقرن: فالحرب العالمية القادمة سوف تبدأ في عام ١٩١٤ وسوف يبدأ معها قلب جديد لنظم الدول القائمة.

والحاصل أنه خلال هذه السنوات التسع والتسعين الممتدة بين عامي ١٨١٥ و١٩١٤ سوف تتحدد القوى الرئيسية المتنازعة في ما سوف يأخذ اسم مسألة فلسطين.

الكتاب الأول

أوروبا تصوغ العالم
وشرقٌ آخذٌ بالتحول
١٧٩٨ ــ ١٩١٤

الفصل الأول

تحرير يهود أوروبا

"الحق أن إصلاح اليهود ليس عمل اللحظة، فمن المعروف أن مسيرة العقل عمومًا، شأنها شأن مسيرة البحر، لا يمكن الإحساس بها إلاّ عبر قرون؛ إلاّ أنه مع أن الثورات المعنوية عادة ما تكون جد بطيئة، فإن هذه الثورة سوف تكون أسرع [...] والحال أن بعض الرذائل الأكثر تمكنًا، إمّا بحكم طبيعتها، أو لأن العادة قد عززتها، كاشتهاء الربح، قد لا تختفي تمامًا إلاّ في غضون قرن من الزمان؛ لكننا، فيما عدا ذلك، نود أن نصدق أن جيلين سوف يكفيان لتحقيق هذا الإصلاح، لأن كل شيء إنما يساعد على القيام به.

"وسوف نجد أنفسنا أولاً بإزاء يهود من نوعين، حيث البعض محكوم عليهم دومًا بالبقاء في الجهل، متعفنين في حمأة الأوهام، بينما يسمو البعض الآخر إلى مستوى عصرهم، وإذ يرصد هؤلاء الأخطاء فسوف يسارعون إلى الانضمام إلينا في المهمة إمّا بدافع من الحب للإنسانية، سعيًا إلى أن يشملوا إخوتهم بمزايا القانون، أو بدافع من تأكيد الذات لإبراز العقبات التي قاموا بتذليلها ولكي يعظّموا في نظرنا الهوة التي تفصلهم عن قطيع منحط.

"والحاصل أن اليهودي إنما يولد ولديه ما لدينا من استعدادات، والمطلوب هو أن نقيد جشعه الربوي وأن نوجهه بشكل يكاد يكون ضروريًا إلى استهداف أهداف أخرى، وأن نسمو بروحه ونرتقي بفؤاده ونحارب أوهامه وأن نزوده بأقوى البواعث لإلزامه بالاستنارة؛ وأمامنا عون تعليمنا وتشريعاتنا واكتشافاتنا التي سوف يتقاسمها. ومن شأن اجتماع كل هذه الإمكانات إطلاق ونشر حركة عالمية وتحريك الأمة اليهودية كلها بل وجر المتزمتين إلى التزحزح عن تزمتهم، لأنه عندما يتعين الكفاح كفاحًا متصلاً ضد المعرفة والبرهان والحجة والمسرّة والضحك والضرورة، سعيًا إلى صون آراء سخيفة وعادات يعوزها التجانس، فمن المستحيل ألاّ يسترد العقل حقوقه وألاّ تتأثر الشخصية والطابع ببصمات جديدة وألاّ تأخذ العادات والشمائل شكلاً أفضل."

الأب جريجوار

الثورة الفرنسية واليهود

"يجب حرمان اليهود من كل شيء من حيث كونهم أمة؛ ويجب منحهم كل شيء من حيث كونهم أفرادًا؛ إذ يجب أن يكونوا مواطنين". تلك هي الصيغة الشهيرة التي استخدمها كليرمون – تونير خلال المناقشة الأولى أمام الجمعية الوطنية التأسيسية، في ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٧٨٩، حول مسألة تحرير اليهود. فهو يرى أن المقصود بالدرجة الأولى هو مجرد التطبيق المنطقي لإعلان حقوق الإنسان الذي أعلن أن "أحدًا لا يجوز تكديره بسبب آرائه حتى ولو كانت دينية". وخلال المناقشة، يطرح خصمه، الأب موري، الأطروحة المضادة: "كلمة **يهودي** ليست اسم طائفة، بل اسم أمة لها قوانينها التي التزمت بها دومًا وما تزال تريد الالتزام بها". ولكي يصبح اليهود مواطنين، لابد لهم أولاً أن يتفرنسوا. وهو يستعيد الاتهامات التقليدية ضد جشعهم وربسويتهم وعزوفهم عن العمل. وبسبب ما يحوزونه من رهون على الممتلكات، فإنهم بسبيلهم إلى الاستيلاء على كل الألزاس(١).

والحال أن مناقشة كهذه كان من الممكن أن تكون مستحيلة قبل ذلك بعدة عقود. فخصوم التحرير أنفسهم، بالرغم من استئناف الهجمات القديمة ضد اليهود، في إثارتهم لمسألة المواطنة، إنما يتبنون هذه الإشكالية الجديدة. وفي إطار النظام القديم، كانت لليهود مكانتهم المعترف بها، حتى وإن كانوا قد وضعوا على مستوى واحد مع الجماعات المجردة من الشرف، كالممثلين والجلادين، الذين دُرست حالتهم هم أيضًا في هذه المناقشة. وإذا ما كان المرء يستخدم فيما يتصل بهم مصطلح *nation* – **الأمة**، فما ذلك إلاّ بصيغة الجمع، بمعنى الطائفة أو الجماعة. وهكذا توجد أمم يهودية في فرنسا بعدد الطوائف اليهودية المحلية التي تتمتع بوضعية حقوقية معترف بها تشمل الشخصية القانونية (المحاكم الحاخامية تفصل في المنازعات فيما بين اليهود) وتضامنًا إلزاميًّا حيال الضرائب.

واعتبارًا من منتصف القرن الثامن عشر، نجد أن النظام التقليدي لمجتمع الفئات يتعرض للرفض بشكل مطرد مع تجذر أفكار التنوير التي تؤسس الاستحقاقات على المواهب الفردية. والتمايزات القديمة التي تحدد علاقات

الشرف والحقارة تبدأ في الكف عن الفوز بالاعتراف بها. ويدرس العقل النقدي صلاحية كل المؤسسات والتصرفات البشرية سعيًا إلى تجديدها في اتجاه السعادة الفردية والجماعية(٢). والحاصل أن هذا التحول للقيم، قبل أن يتخذ منعطفًا ثوريًا، إنما يجد ترجمة له في فعل إصلاحي للدولة التي تدشن حركة إلغاء لبعض جوانب مجتمع الفئات، تعتبر الآن صادمة. وهكذا يتم الاعتراف للپروتستانت الفرنسيين بوضعية مدنية وبوجود شرعي.

وفيما يتعلق بوضع اليهود، تعد المشكلة أكثر تعقيدًا، وذلك بالنظر إلى تعددية المجتمع القديم نفسها. إذ كانت توجد في مملكة فرنسا طوائف سيفاردية، مارّانية سابقًا، أي يهود من إسبانيا أو من البرتغال أرغموا على التحول رسميًا إلى اعتناق المسيحية بيد أنهم لم يكفوا عن ممارسة ديانتهم سرًا. وهؤلاء "المسيحيون الجدد" الذين بدأ استقبالهم منذ القرن السابع عشر كانوا كلهم في الجنوب ــ الغربي، بالنظر إلى نشاطهم في مجال تجارة الجملة الذي أسهم في نمو وتطور الموانئ الفرنسية. وفي القرن الثامن عشر، تعترف السلطات رسميًا بأنهم يهود بالفعل وليسوا مسيحيين. ولا تقتصر هذه الظاهرة على فرنسا، ويتواجد "يهود الأطلسي" هؤلاء أيضًا في بريطانيا العظمى وهولنده وفي المستعمرات الأميركية.

والحال أن وضعيتهم الاجتماعية ورفاهيتهم المادية وعلى الأرجح أيضًا تجربة المارّانية، التي لابد أنها دفعت بعضهم إلى ابتعاد نسبي عن الأشكال الخارجية والإجبارية للدين، قد قادتهم إلى تبني أسلوب حياة مشابه لأسلوب حياة بورچوازيات الموانئ الأخرى. ومنذ القرن السابع عشر، تشكل في موانئ الأطلسي مجتمع شبه محايد، كان بوسع اليهود والمسيحيين فيه أن يقيموا حياة اجتماعية مشتركة، تتجاوز حدود العلاقات المهنية العادية(٣). وفي القرن التالي، تتميز هذه الحياة الاجتماعية المشتركة بالتبني المشترك لقيم جديدة.

وكان هؤلاء اليهود السيفارديم يكنون احتقارًا عميقًا لإخوتهم في الدين "الألمان"، أي الأشكيناز، الموجودين في شرقي فرنسا. ورهان هذا الاعتراض لم يكن الفخر بكون المرء يهوديًا ــ حيث كان "البرتغاليون" يزعمون أن لهم نسبًا يهوديًا شبه أرستقراطي ــ، بل العلاقة بالمجتمع المسيحي. وهذا ما يشرحه

بقوة، في عام ١٧٦٢، بنتو من بوردو، في رد على فولتير الذي كان، كعادتـه، قد هاجم اليهود:

إن يهوديًا من لندن لا يجمعه بيهودي من القسطنطينية إلاّ ما قد يجمع هذا الأخير ببيروقراطي من الصين. ويهودي برتغالي من بوردو ويهودي ألماني من ميتز إنما يبدوان ككائنين مختلفين بصورة مطلقة. [...] ومن غير الوارد أن يجهل السيد فولتير حرص اليهود البرتغاليين والإسبان الدقيق على عدم الاختلاط البتة، عن طريق الزواج أو الشراكة أو عن أي طريق آخر، بيهود الأمم الأخرى. وهو كان في هولنده، ويعرف أن معابدهم منفصلة، وأنه بالرغم من وحدتهم في الديانة ووحدتهم في مبادئ الإيمان، إلاّ أن طقوسهم غالبًا مالاتتشابه. وعادات اليهود البرتغاليين مختلفة تمامًا عن عادات اليهود الآخرين. فالأوائل لا يطلقون لحاهم البتة ولايُبدون أي شذوذ في ملابسهم؛ والميسورون، بينهم، يتوسعون في الانتقاء والأناقة والشياكة في هذا الباب كل التوسع شأن الأمم الأوروبية الأخرى التي لا يختلفون عنها إلاّ في الديانة. وانفصالهم عن إخوتهم الآخرين هو من الحدة بحيث إنه لو أقدم يهودي برتغالي، في هولنده وفي انجلترا، على الزواج من يهودية ألمانية، لفقد ماله من صلاحيات في التو والحال: فسوف يتوقف الاعتراف به كعضو في معبدهم؛ وسيجري حرمانه من التمتع بجميع المزايا الدينية والمدنية؛ وسيتم عزله بالكامل عن قوام الأمة. بل إنه لن يتسنى دفنه إلى جوار البرتغاليين إخوته. والفكرة التي تذهب إلى أنهم ينحدرون عمومًا من بيت يهودا والتي يستنتجون منها أن العائلات الرئيسية قد أُرسلت إلى إسبانيا في زمن الأسر البابلي، ليس من شأنها سوى أن تدفعهم إلى هذه التمايزات وأن تسهم في هذا السمو للمشاعر والذي نلحظه عندهم ويبدو أن إخوتهم أنفسهم من الأمم الأخرى يعترفون به. [...]

ومن يعرفون اليهود البرتغاليين في فرنسا وهولنده وانجلترا يعرفون أنهم بعيدًا عن أن يكونوا مسكونين، كما يزعم السيد فولتير، بكراهية لاتُقهر لجميع الشعوب التي لا تنبذهم، فإنهم يعتقدون، على العكس من ذلك، أنهم متماهون مع هذه الشعوب نفسها إلى درجة أنهم يعتبرون أنفسهم جزءًا منها(٤).

وهذا التعريف للهوية اليهودية قياسًا إلى الديانة، دون أن يكف المرء علاوة على ذلك عن الافتخار بأصوله، إنما تعترف به سلطات المملكة:

فـ"البرتغاليون"، شأنهم شأن سواهم من الفرنسيين، سوف يصبحون ناخبين لنواب الفئات العامة في عام ١٧٨٩.

وبالمقابل، يحيا "الألمان" في وضع جد مزر. فهم يخضعون لتكديرات عديدة ولضرائب تعسفية لم يجر إعفاؤهم منها إلاّ في الأعوام الأخيرة للملكية المطلقة. وتنتمي نشاطاتهم الاقتصادية الرئيسية إلى مجال التجارة المحدودة: البيع بالتجول، تجارة الجملة من الباطن، القروض الربوية (محدودة المبالغ عمومًا). وتسيطر أوليجاركية ضيقة من الناس الأغنى على التنظيم الداخلي للأمم وعلى تمثيلها الخارجي. وهي ليست عديمة الحساسية حيال التنوير — خاصة في صورته الألمانية، حيث أوضح الفيلسوف موسى مندلسون أن بوسع اليهود المشاركة في الحركة العامة للأفكار مع البدء بتبني الثقافة الأوروبية والتحدث والكتابة باللغات المسيحية. والحال أن هؤلاء الوجهاء بالتحديد هم الذين يطلقون في ثمانينيات القرن الثامن عشر، حملة الرأي من أجل التوصل إلى إنهاء التكديرات التي تطال طائفتهم. كما أنهم يلوذون بالمتحدث بلسان التنوير لكي يدافع عن قضيتهم.

وأشهر المتدخلين في المناقشة التي جرى تدشينها بهذا الشكل هو الأب جريجوار. فدفعة واحدة، يضع مصير اليهود في الإطار الأعم لتكوين إنسان جديد ضمن منظور السعادة الجماعية، أي ضمن ما سوف يصبح الشعار العام للثورة: الإحياء. بل إن عنوان عمله الصادر في عام ١٧٨٨ إنما يرمز جيدًا إلى إرادوية الموقف: **بحث حول الإحياء المادي والمعنوي والسياسي لليهود**(٥). وهو يعترف بأن لهم مثالب جماعية تخصهم، بيد أنه يُرجع المسئولية عن هذه المثالب إلى تكدير المجتمع المسيحي لهم. ولا يمكن التسامح معهم على نحو ما هم عليه بسبب تجارتهم وممارستهم الربا، بيد أن بالإمكان إصلاحهم، وهذا الإصلاح يمكن أن يتوافق مع شرائعهم الدينية وعاداتهم وأوهامهم. وسوف يتحقق ذلك بالقضاء على جميع صور الخصوصية لدى اليهود وعلى جميع تدابير التفرقة التي يمارسها غير اليهود ضدهم:

اليهودي المنتشر في كل مكان، وغير المستقر في أي مكان، قلما يملك سوى ذهنية الفئة وهي ليست الذهنية القومية؛ وهذا هو السبب في أننا عادة لانراه في لندن انجليزيًا ولا

في لاهاي هولنديًا ولا في ميتز فرنسيًا، فهو دومًا دولة في داخل الدولة، لأنه لايُعَامَلُ البتة كابن للوطن. وفي الجمهوريات نفسها، حيث لا ينصاع الشعب الفاعل في التشـــريع إلاّ لنفسه هو، نجد اليهودي سلبيًا دومًا، ولايحسب له حساب دومًا؛ فهو لا يملك أي ملكية زراعية، والتجارة التي تجعله كوزموبوليتيًا عادة إنما تعود عليه بثروات يسهل نقلها تعزيـــه عزاءً هينًا عن الهوان وعن وطأة القوانين الجائرة. وأنتم تطالبونه بأن يحب وطنًا، أعطوه إذًا وطنًا(٦).

والحال أن استخدام تعبير "دولة في داخل الدولة" إنما يوضح إلى أي مدى يندرج جريجوار في الإشكالية الجديدة، حيث تحل الأمة الواحدة محل تعددية أمم وفئات المجتمع التقليدي. وإذا كان يتحدث عن وجود شعب يهودي في التـــاريخ وإذا كان يعترف بوجود أمل ميسياني، فإنّه يؤكد أن فكرة عودة إلى فلســـطين ليست غير حلم يقظة يحرّمُ التلمودُ التمهيد لتحقيقه بوسائل مادية:

غالبًا جدًا ما تؤدي مزايا الحياة الحاضرة إلى نسيان المزايا التي يعد بهـــا المســـتقبل؛ واليهودي له عقل مثلنا، وآماله لن تكون حافزًا إلى التخلي عن المسرات الحاضرة، عندما يتسنى له الحصول عليها. وما أن يصبح عضوًا في الأمة، مرتبطًا بالدولـــة عـــبر أواصـــر المسرات والأمن والحرية واليسر، فسوف نشهد نقصانًا في روح الفئة لديه؛ ولن يجد دافعًا إلى نقل ثرواته إلى بلد آخر؛ وسوف يعترف بأمّه، أي بوطنه الذي سوف يمتزج صـــالحه بمصلحته هو(٧).

غير أن الجمعية التأسيسية سوف تجد بعض المصاعب في تطبيق التحرير بسبب اعتراض النواب الألزاسيين، خاصة. ويجري اتخاذ القرار النهائي فـــي ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٧٩١:

إن الجمعية الوطنية، إذ ترى أن الدستور يحدد الشروط الضرورية لاعتبار المرء مواطنًا فرنسيًا، وأن كل إنسان، تجتمع فيه الشروط المشار إليها، يؤدي اليمين المـــدني ويتعهـــد بالوفاء بجميع الواجبات التي يفرضها الدستور، له الحق في جميع المزايا التي يكفلها؛ إنمـــا تقرر إلغاء جميع الإرجاءات والتحفظات والاستثناءات الواردة في المراسيم السابقة والخاصة بالأفراد اليهود، الذين سيؤدون اليمين المدني، والذي سوف يعتبر تخليًا عن كـــل امتيـــاز

وإعفاء سبق أن جرى إقراره لصالحهم(٨).

ويعيد التشريع الفرنسي إدخال اليهود في الحق العام ومن ثم يلغي "الأمم" اليهودية القديمة في فرنسا. وواقع أن اختفاء هذه المؤسسات القديمة يحدث دون أي مقاومة من جانب المشاركين فيها إنما يوضح هو نفسه أن الاندماج في الأمة يتماشى مع مطلب واقعي وأن الواقع الطائفي اليهودي من حيث كونه بنية حياة اجتماعية منفصلة قد ذوى بموجب رغبة المشاركين فيه أنفسهم. ومنذ أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر، وبما يشكل رمزًا للواقع الجديد، يظهر مصطلح "الإسرائيلي". وهذه الكلمة، التي كانت تستخدم في السابق بالفعل، إنما تحل في الاستعمال الرسمي محل مصطلح "اليهودي"، الذي يحتفظ بعدد معين من الدلالات السلبية.

ومع ذلك فقد بقي عدد معين من المشكلات والمعارضات لليهودية. فنابوليون، وقد أصبح إمبراطورًا، إنما يأخذ على عاتقه مهمة إعطاء اليهودية، على غرار الديانات الأخرى الممارَسة في فرنسا، تنظيمًا دينيًا جديدًا. وآخذًا بعين الاعتبار بعض الشكايات ضد يهود شرقي فرنسا، يجمع مجلسًا للوجهاء ثم سانهدرينًا موسعًا مهمتهما إزالة كل ما يتعارض في الديانة اليهودية مع العالم الحديث عبر تأكيد التفوق المطلق للقانون المدني على كل قانون يستلهم الدين. ويصدُرُ تشريع مؤقت لتوجيه الإسرائيليين إلى نشاطات اقتصادية جديدة. والحال أن نابوليون، في عمله الذي يأخذ طابعًا تمييزيًا بشكل واضح، وإذ يتصرف كمستبد مستنير، إنما يضع نفسه في المنظور الأكثر إرادوية الذي كان منظور جريجوار.

وبرنامج الثورة الفرنسية هو إلغاء هذه الأمم في داخل الأمة، هذه الدولة في داخل الدولة: فمنذ اللحظة التي تتحول فيها الأمة إلى مصدر وحيد للشرعية، لابد لتعددية الفئات العزيزة على قلب النظام القديم أن تختفي. وبحسب عبارة آني كريجل، في حالة تحرير اليهود، فإننا بإزاء نتاج مميز للانتقال من المنطق إلى التاريخ، والذي يوضح إلى أي حد يمكن لتغير في نسق التصور الاجتماعي أن يقود إلى تغيير جذري للمجتمع(٩).

وفي حالة اليهود، لابد لدمجهم، باعتراف الجميع، أن يمر عبر إحياءٍ، لكن هذا أمر لاغرابة فيه البتة لأن الثورة إنما تعتبر نفسها إحياءً، ليس فقط للفرنسيين، وإنما لمجمل الجنس البشري. وحتى بقدر ما أنه لاتوجد غير حضارة حديثة واحدة وأن ما سواها ليس سوى دياجير تنتمي إلى الماضي، فإن إشكالية رفض للحداثة وللتمدن إنما تعد غائبة تماماً، بالرغم من بعض المقاومات من جانب المتشبثين بأرثوذكسية دينية صارمة. ومثل هذا المسلك سوف تجري مماهاته بـ"التعصب" وسوف يدان بالدرجة نفسها التي تدان بها تجليات التعصب عند المسيحيين أو المسلمين. وهجر الثقافة التقليدية يتم من تلقاء نفسه، وكل المسألة التي تطرحها العقود الأولى للقرن التاسع عشر هي مسألة التحرير، أي نيل المساواة في الحقوق المدنية والسياسية على غرار الكاثوليك في البلدان البروتستانتية والبروتستانت في البلدان الكاثوليكية. وهذا يحدث عبر بعض التمزقات، كما يترجم ذلك وجودُ حركة تحولات إلى اعتناق المسيحية السائدة، بيد أن هذه التحولات إنما تعبر عن رغبة جذرية في الذوبان، خاصة بين الطبقات الأعلى، وإيقاع هذه التحولات يتباطئ ما أن تتشكل، في منتصف القرن، ثقافة استيعاب خاصة. ويوضح هذا الوضع إلى أي حد كان الاستيعاب، بإحالته الهوية إلى الحياة الخاصة، قد سمح لها بالبقاء، بل وبالتعزز. ثم إن فريقًا كبيرًا من اليهود الفرنسيين المتحولين إلى اعتناق المسيحية إنما ينتقل إلى نزعة لا أدرية منفصلة عن الديانة اليهودية بأكثر من انتقاله إلى كاثوليكية متبناة على أثر عاطفة دينية حقيقية.

الخصائص العامة للتحرير

مسألة التحرير تحتم بحد ذاتها تأملاً تاريخيًا. ومن المناسب أن نأخذ بعين الاعتبار في آن واحدٍ وجهة نظر التاريخ العام ووجهة نظر تاريخ يهودي خاص ممثل لدراسة الأقلياتِ التي يهمل التاريخ العام خصوصياتها. وبما أن الأحداث تندرج في ذاكرة مختلفة، فإنها لم يجر الشعور بها شعورًا واحدًا متماثلاً وسط الأقليات ووسط الأغلبيات. وهكذا، ففي مناقشة جرت في عام ١٩٧٦، أكد ألبير سوبول أنه لاوجود هناك لتاريخ جزئي، فالموجود فقط هو تاريخ عام تندرج فيه

التواريخ الجزئية: "إن المبالغة في الإعلاء من شأن التاريخ الجزئي إنما تغامر ليس فقط بإفساد هذا التاريخ الجزئي وإنما أيضًا بإفساد التاريخ العام". وهكذا، فالإرهاب قد أغلق المعابد اليهودية في باريس، لكنه أغلق أيضًا المعابد البروتستانتية والكنائس الكاثوليكية[١٠]. وقد رد عليه فرانسوا ديلبيش بأن واقع إغلاق الكنائس لا يعزيه وأنه، إذا كانت التجاوزات ترجع إلى بعض المتطرفين، إلاّ أن ما يهمه من ذلك خاصة هو أن معاداة الإكليريكية وولع اليعاقبة بالتسوية قد ترتبت عليهما فيما بعد عواقب وخيمة: "لقد كان اليسار ليبراليًا دومًا حيال اليهود مأخوذين بشكل فردي بيد أنه غالبًا جدًا ما افتقر إلى الفهم حيال الخصوصية اليهودية"[١١].

والحال أن التشديد على خصوصية في إطار تاريخ التحرير إنما يعد بحد ذاته ظاهرة بالية، ترتبط بالكتابة التاريخية القومية اليهودية على النحو الذي تطورت به اعتبارًا من أواخر القرن التاسع عشر. ومعاصرو أوائل القرن لم ينظروا إلى أنفسهم بموجب هذه المقولات. والانتقادات التالية للاستيعاب لا تتردد في الحديث عن "نزع اليهودية"، وعن تبديد بنية الحياة اليهودية، وعن العلمنة التي تؤدي إلى تمزيق لوحدة الكائن اليهودي وإلى تجزئة للحياة اليهودية. وإذا ما اعترفنا بضرورة مسايرة حركة التاريخ ومن ثم بضرورة الوصول إلى حداثة، فلن تتحقق هذه الحداثة تحققًا ناجزًا إلاَ عندما يُسمح للنزعة القومية اليهودية باستعادة حياة جماعية.

والحاصل أن الكتابة التاريخية الأحدث إنما تعد أكثر اعتدالاً بشكل واضح في مقارباتها. ففي إطار إعادة فحص للعلاقات فيما بين الدياسبورا وأرض إسرائيل، تؤكد هذه الكتابة أن الكتابة التاريخية القومية لم تراع بما يكفي، في حكمها القيمي، خصوصيات الحياة اليهودية في القرن التاسع عشر نفسها. فالاستيعاب لا يقود إلى اختفاء تام، اللهم إلاّ في حالة أولئك الذين تحولوا إلى اعتناق المسيحية أو اختفوا بفعل الزيجات المختلطة، وإنما [الاستيعاب] يقود إلى قيام "ثقافة فرعية"، هوية خاصة، حيث يعد معيار الاستيعاب بالفعل العنصر المميز للانتماء. والهوية اليهودية، بعيدًا عن أن تختفي، إنما تعيد صياغة نفسها في رفض للعرقية وللمطلب القومي بتعبيرها عن نفسها تحديدًا باللغة الجديدة

التي جاءت بها الحداثة. وتعريف اليهودية من حيث كونها ديانة حياة خاصة ليس اقتصارًا على مجرد ممارسة عبادية عادية، بل هو إقامة لشبكات جمعياتية وجماعية إلى جانب البنية الكنيسية المستعارة عمومًا من نموذج البروتستانتية: ولم يجرؤ أحد على الزعم بأنه قد حدث انحلال وتفكك لهوية ولدور الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية في المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر أو أنه يجب الاقتصار ببساطة في حالات هذه الجماعات على وجود الطقوس الدينية. فالكاثوليكي "السوسيولوچي" موجود تمامًا كالإسرائيلي "السوسيولوچي" .

وكانت الطوائف الدينية في زمن النظام القديم حقائق واقعية مؤسسية معترفًا بها من جانب الدولة على مستوى واحد مع الفئات الأخرى التي تشكل المجتمع. وكانت هذه الطوائف الدينية تحتفظ بشكل ما بجزء من السلطة العامة، مع صلاحيات إكراه، بشكل خاص. والتحرير يجعل من الانتماء الطائفي الديني فعلاً اختياريًا. والحياة الخاصة لا تقتصر على الإطار العائلي، فهي تشكل، بفضل الجمعيات، حقل فعل لامكان للدولة فيه. وفي هذا الكيان الجديد ينبثق نوعان من الشخصيات: الوجيه الكبير المحب للإنسان وراعي العلوم والآداب والفنون المنتمي عمومًا إلى الأرستقراطية المالية، ثم الموظف الطائفي، الديني أو غير الديني، والذي يشق طريقه في الحياة عبر هذه الشبكة المؤسسية. والاثنان مرتبطان فيما بينهما ارتباطًا وثيقًا، ووجهاء مثل آل روتشايلد يمارسون سلطة قيادة حقيقية. ويجهل القرن التاسع عشر المناضل السياسي الذي لا يتصل عمله إلا بالجمهور الطائفي والذي يميل إلى اللعب بورقة التجذر الهوياتي وبورقة معارضة السلطات. وبعيدًا عن نزاهة المعتقدات الدينية، توجد ثقافية يهودية خاصة، بالدرجة نفسها التي توجد بها ثقافة خاصة بالنسبة للكاثوليك وأخرى بالنسبة للبروتستانت.

والتجربة الفرنسية هي الأسبق من زاوية التحرير التام، في حين أن النمسا أو بروسيا قد اختارتا بالأحرى الطريق الأكثر تدرجًا في إقامة مجتمع شبه محايد. وفي الشطر الثاني من القرن الثامن عشر بالفعل، كان المستبدون المستنيرون في أوروبا الشرقية، خاصة الإمبراطور جوزيف الثاني، قد تصرفوا ضمن منظور دمج نسبي للسكان اليهود في المجتمع المسيحي، لكن نهجهم

السلطوي صيغ ليس البتة بوصفه تحريرًا لليهود من اضطهاد تاريخي، وإنما بوصفه عملاً نفعيًا لا يفيد سوى الدولة التحديثية، خاصة في المجالات الاقتصادية والضريبية. وعلى الأثر، عاش المعنيون التدخلات الأولى للدولة بوصفها شكلاً جديدًا من أشكال الاضطهاد.

وعلى مدار القرن التاسع عشر، تتماهى قضية التحرير تماهيًا حميمًا مع الحركة الليبرالية التي تسعى إلى تخليص الفرد ـ المواطن من القيود التي يفرضها نظام اجتماعي يستلهم الدين ويستند إلى أساس يتميز بانعدام المساواة. وكان الإصلاحيون الإرادويون في مستهل القرن التاسع عشر يرون أن الإحياء، الذي هو نتاج للحرية، إنما يعني هجر المهن التي مارسها اليهود تاريخيًا لصالح انتشار في مجمل الحقل الاقتصادي. بيد أن الواقع أكثر تعقيدًا بشكل واضح: فحتى بقدر ما أن السكان الزراعيين الأوروبيين يبلغون أقصى نمو ديموغرافي لهم وحيث تبدأ الحركة الكبرى للخروج من الريف، من المستبعد عمليًا أن اليهود، الأقل استعدادًا لهذه النشاطات، سوف ينخرطون في النشاط الزراعي. وقد بذلت جهود لتوجيه الناس إلى الحرف، بيد أنه هنا أيضًا لايعد هذا المجال الاقتصادي جذابًا بشكل خاص، وذلك بسبب الثورة الصناعية الجارية. وبشكل أعم، نجد أن الأوساط المهنية الموجودة بالفعل في القرن السابق، والتي لا تعرف نموًا عدديًا ملحوظًا، لا يمكنها الانفتاح على هؤلاء القادمين الجدد، في حين أن حالة البروليتاريا الصناعية الآخذة بالتشكل تبدو كرادع.

وبسبب ماضي يهود أوروبا الغربية الحضري والأهمية التقليدية المولاة لتعليم الأطفال، فإن المنفذ الاجتماعي الطبيعي لهؤلاء اليهود إنما يتوجه أساسًا نحو الطبقات المتوسطة الحضرية، خاصة النشاطات التي تتطور بسرعة مع الثورة الصناعية. وتظل المهن اليهودية هي تجارة الجملة والدكاكين وإنما أيضًا، وبشكل متزايد باطراد، المهن الحرة: محامون، أطباء، مدرسون. وتستند الظاهرة قبل كل شيء إلى تبرجز مجمل السكان الذين يميلون إلى التركز في تجمعات سكنية كبرى. وخلال العقود الأولى للقرن، يبقى أيضًا فريق (جد ملحوظ من الناحية العددية) جد فقير، بل وبائس، من الطوائف اليهودية، بيد أن زخم الأعمال الخيرية الطائفية إنما يسعى تحديدًا إلى إلغائه عن طريق الإعانات

المباشرة وعن طريق عمل تعليمي وتكويني أطول أمدًا. وتؤدي السيرورة نفسها إلى القضاء على ثقافة شعبية يمتزج فيها الدين بالسحر، وذلك لصالح ديانة أكثر روحانية وأقل انطواءً على الخرافات.

وفي الوقت نفسه الذي يحدث فيه هذا التبرجز، تظهر أرستقراطية مالية يهودية حقيقية. وفي العقود الأول للقرن، يعد النشاط المصرفي بحكم طبيعته نشاط فريق قائم على تكوين شبكات فيما بين مختلف المواقع المالية. ورسوخ هذه الجماعات إنما يستند إلى أواصر عائلية أو أواصر صداقة، والانتماء إلى أقلية من شأنه تيسير تكوين كيان جماعي كهذا. وهذه في فرنسا حالة رأس المال المصرفي البروتستانتي الكبير، وبالنسبة لمجمل أوروبا هي حالة رأس المال المصرفي اليهودي الكبير، ومهده التاريخي ألمانيا، مع انبثاق عائلات مالية دولية كبرى، كآل أوبنهايم وآل بامبرجر وآل هاينه وآل واربورج وآل روتشايلد وآل شتيرن وآل ايرلانجر...[١٢]. ومن الواضح أن العائلة الأشهر هي عائلة روتشايلد، الموجودة منذ الجيل الثاني في باريس ولندن وفيينا وفرانكفورت. وإذا كانت بعض العائلات كآل فولد قد تحولت إلى اعتناق المسيحية، فإن الغالبية بين العائلات قد ظلت على العكس من ذلك مخلصة لليهودية واستعادت دور الوجهاء، زعماء الطائفة، بفضل نشاط إنساني خيري ملحوظ يمتد إلى ما وراء إخوتهم في الديانة. وهذا دور اجتماعي حقيقي متوقع منهم، وهم يؤدونه عن وعي وإدراك بوصفه واجبًا لا يمكن التنصل منه.

والحاصل أن الهوية اليهودية، المتمثلة في الحياة الخاصة، إنما تظل قوية قوة خاصة في صفوف هذه النخب. ويجري استيعاب المجتمع الحديث بالدرجة نفسها التي يجري بها الذوبان فيه. والمشكلة الرئيسية هي مشكلة الممارسة الدينية والمراعاة الصارمة إلى هذا الحد أو ذاك لمبادئ الشريعة. ومشكلة الإيمان هذه لا تقتصر على اليهود، فهي تخص مجمل البورجوازيات المسيحية في القرن التاسع عشر. والشيء المهم هنا هو أن أفول الممارسة الدينية لا يعني اختفاء شعور الانتماء المشترك.

وعلامة بقاء هوية خاصة هي التطور الذي حدث خلال القرن لـ"علم اليهودية"، تكوين مجموعة من المعارف التاريخية والبحثية حول تطور اليهودية

عبر العصور، أكان ذلك بالنسبة للفترة قبل المسيحية أم بالنسبة للفترة اللاحقة. والوجهاء يدعمون عن طيب خاطر هذا النوع من النشاط، المتميز عن أعمالهم الخيرية أو الدينية.

والحال أن الانتقال من الممارسة الدينية إلى موضوع البحوث إنما يعدّل بشكل ملحوظ من التصور الذي قد يكون لدى المرء عن التاريخ اليهودي، ومن ثم عن الهوية الجماعية. وهذا المسار ليس خاصًا باليهود الأوروبيين وحدهم، فهو ينتمي إلى الحقل الأوسع الخاص بتشكل علوم الدين، أحد الرهانات الأكثر أساسية في ثقافة القرن التاسع عشر، مع منح دورٍ محرّكٍ للفيلولوچيا. وهكذا، فمسألة القراءات العلمية للتوراة تخص اليهود والمسيحيين على حد سواء. ومناهج النقد التاريخي للنصوص، وهي مناهج تبين تعددية التحريرات المتعاقبة للكتاب المقدس بامتياز، والنهج المقارن، الذي أظهر التشابه بين عدد كبير من عناصر المركب التوراتي والاكتشافات الجديدة حول حضارات الشرق القديم، وهي اكتشافات ترجع إلى الآركيولوچيا والفيلولوچيا، إنما تعزز أشكالاً جديدة للوعي بالذات. كما يؤدي وضع تاريخ العبرانيين في سياقه الزماني إلى فرز الأصل العتيق لعدد معين من الممارسات الدينية المرتبطة بمراعاة الشريعة، وإن كان يؤدي أيضًا إلى فرز الأصالة العميقة للرسالة الروحية التي قدمها العبرانيون للإنسانية مع إيلاء انتباه خاص إلى زمن الأنبياء.

ويؤدي علم اليهودية إلى تأكيد أن رسالة إسرائيل هي قبل كل شيء ذات طبيعة روحانية وأن تبني الليبرالية الحديثة إنما يندرج في استمرارية نهج يرجع إلى آلاف السنين. ولايعود الاستيعاب قطيعة بل إنجازًا يعطي معنى لمجمل التاريخ السابق. وهكذا يرى المستشرق مونك، الأستاذ بالكوليج دو فرانس في منتصف القرن التاسع عشر، أن رسالة الشعب اليهودي الذي أعطى العالم كتاب الكتب الذي أنار الشعوب، ليست من هذا العالم(١٣). وخلافًا للتأكيد في الشطر الثاني من القرن العشرين لتراث يهودي ـ مسيحي، نجد أن المنظور الذي يقدمه علم اليهودية إنما يتتبع آصرة نسب بين رسالة الشعب اليهودي الأخلاقية عبر العصور والليبرالية الظافرة التي تطردِ المسيحية إلى مجال الحياة الخاصة. وهذا التطور التاريخي في اتجاه روحانية سامية إنما يمر عبر نزع للطابع

القومي للواقع اليهودي يتوافق، عند الكتّاب المسيحيين أو العلمانيين، مع مجيء المسيحية، ويتوافق، عند الكتّاب اليهود، مع اختفاء الدول اليهودية التي عرفها العصر القديم. وهكذا، فلم يتسن لرسالة إسرائيل أن تتخذ طابعًا ملموسًا إلاّ عبر هجر أشكال التعبير السياسي لليهودية القديمة. على أن علم اليهودية إنما يقود حتمًا إلى إضفاء طابع تاريخاني على مفهوم الشعب اليهودي: فهو ينتقل من دوره كفاعل على المسرح الديني إلى دور شخصية عمرها ثلاث آلاف سنة من التقلبات الزمانية. وهذا الإضفاء للطابع التاريخاني على الرسالة التوراتية إنما يعد مرحلة ضرورية للتكوين التالي لنزعة قومية خاصة.

والحال أن وجود بورجوازية يهودية متعددة المواهب، ووجود أرستقراطية مالية مهمة والصلة التاريخية بين الليبرالية ويهود أوروبا الغربية، إنما تقود من يريدون النيل من سمعة العالم الجديد الناتج عن الثورة الصناعية إلى الربط بين السكان اليهود والرأسمالية الظافرة. وفي الأعوام الممتدة من ١٨٣٠ إلى ١٨٥٠، أصبح اليهودي من ثم رمزًا لسيطرة المال، وهذا الاتهام إنما يوجهه خاصة الاشتراكيون الأوائل: فورييه، توسنيل، برودون، ماركس...[١٤] وهذه المماهاة تميز اليسار الاشتراكي. وبالنسبة لليمين الرجعي، يرمز صعود اليهود بالأحرى إلى تفكك المجتمع التقليدي والهيراركيات. وفي مجمل أوروبا، يطرح تحرير اليهود مسألة ما إذا كان ما يزال بالإمكان تعريف المجتمع الحديث على أنه مجتمع مسيحي.

أمّا فيما يتعلق بالكنيسة الكاثوليكية فهي تواصل "تعاليمـ"ـها الداعية إلى "احتقار" اليهود والقائمة على معاداة لاهوتية لليهودية: فالشعب المختار كان عظيمًا، بيد أنه فقد اعتباره برفضه الاعتراف بالمسيا وبمعارضته للكنيسة الوليدة؛ وتشتت ومكايدات الشعب التائه هي علامات على غضب الرب؛ ولابد من السعي إلى تحويل هذا الشعب إلى اعتناق المسيحية[١٥].

والاتهامات الموجهة إلى الشعب قاتل الرب نادرة في تلك العقود الأولى للقرن والاتهامات الخاصة بالجرائم الشعائرية إنما توجهها بالأحرى الكنائس الشرقية الأرثوذكسية أو الكنائس الشرقية المتحدة مع باباوية روما. ولا تعود هذه المعاداة لليهود أداة كفاح ضد الحضارة الحديثة، حتى وإن كان تحرير

اليهود يظهر بالنسبة لكثيرين من الكاثوليك على أنه أحد أقوى التعبيرات عن هذه الحداثة. ووجود كاثوليكية ليبرالية، مناوئة لمزاعم الكاثوليكية التقليدية وساعية إلى التوافق مع الحقائق الواقعية التي دشنتها البورجوازية الظافرة إنما يسمح بفهم أفضل لغياب هذه القيمة التعبوية. وينطبق الشيء نفسه على البروتستانتية الليبرالية التي تشهد آنذاك أعظم لحظاتها.

والحال أن معاداة اليهودية، عندما تكون موجودة، إنما تظل اتجاه أقلية ضعيفة وتظهر، حتى في حقل الرأي العام، بوصفها جد هامشية. وقد يشعر بعض الأفراد بمشاعر عداوة شخصية جد قوية حيال اليهود، بيد أنهم لايخامرهم الانطباع، وسوف يدوم هذا إلى أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر، بأنهم ينتمون إلى حركة جماعية. ومن الواضح أن ما يهيمن على العصر بعد النابوليوني هو انتصار التقدم والليبرالية، والذي يعد تحرير اليهود أحد نتائجه.

تحرير يهود أوروبا الغربية:

الحالتان الإيطالية والألمانية:

النموذج الفرنسي لتحرير اليهود، بالنظر إلى طابعه الثوري نفسه، هو الانتقال الأسرع والأكثر مباشرة من الواقع الطائفي القديم المؤلف من فئات لها قوامها إلى العالم الحديث المعرَّف بأفراد لايعد انتماؤهم الديني غير حقيقة من حقائق الحياة الخاصة. وفي بقية أوروبا الغربية، يعد الانتقال أكثر تدرجًا وهو يصاحب التحول الأعم لمجتمعات النظام القديم إلى أمم حديثة. وتجربة سنوات ١٧٩٥-١٨١٥ حدث رئيسي: فبقدر ما أن السيطرة الجمهورية ثم النابوليونية قد اعتبرت نفسها، ولو بشكل مخفف، تطبيقًا لأفكار الثورة، نجد أنها قد حررت اليهود من عدد كبير من الترتيبات التمييزية ووفرت لهم بوجه عام مجمل الحقوق المدنية والدينية. وكان هذا المشروع أسبق وأكثر تقدمًا في إيطاليا مما في ألمانيا.

ففي البلد الأول، حيث يصل عدد السكان اليهود إلى نحو ثلاثين ألف نسمة، يؤدي انتهاء الإمبراطورية إلى عودة إلى الوراء، خاصة في المناطق التي كانت العودة الكاثوليكية فيها أقوى. أمَّا لومبارديا ـ فينيزيا تحت السيطرة النمساوية

وتوسكانيا فهي تحتفظ بنظام أكثر ليبرالية يتماشى مع تراث عمل جوزيف الثاني، في حين أن إعادة تكوين الدول البابوية يترافق مع إعادة تكوين جيتّو روما. وبحكم هذا الوضع، يشارك اليهود الإيطاليون بنشاط في الحركة القومية التي تجسدها الكاربونارية، حركة إيطاليا الفتاة الي يقودها مازّيني. وهكذا ترتبط قضية التحرير ارتباطًا وثيقًا بقضية الوحدة الإيطالية. ويجري منح الحقوق السياسية من جانب بيمونت ــ سردينيا في عام ١٨٤٨ خلال النضال ضد النمسا. ويمد كافور هذه الحقوق إلى مجمل إيطاليا في مستهل ستينيات القرن التاسع عشر. والمرحلة النهائية هي ضم روما في عام ١٨٧٠، والذي يضع نهاية للجيتّو الأخير(١٦). والحال أن المماهاة بين الليبرالية والمشروع التوحيدي وكذلك النضال ضد سلطة البابوات الزمنية قد سمحا بإنجاز عمل الثورة والإمبراطورية ضمن إطار تصور قومي منفتح، مشابه لتصور فرنسا.

أمّا في ألمانيا، فنجد أن تحرير الطوائف اليهودية إنما يجد تفسيره في العمل الإصلاحي الذي قامت به الولايات البروسية كم في العمل الإصلاحي الذي قامت به الإمبراطورية النابوليونية. ثم نرصد رد الفعل المضاد الذي مثله عام ١٨١٥، وعندئذ يجري التحرير بشكل أبطأ، ضمن الإطار المتنوع لتعددية الدول الألمانية. ولايصل إلى غايته ألاّ مع تكوين الرايخ الثاني، في مستهل سبعينيات القرن التاسع عشر. والسيرورة في نهاية الأمر جد مختلفة عن سيرورة إيطاليا، الأمر الذي سوف تترتب عليه آثار درامية بالنسبة للمستقبل. فمن جهة، وردًا على الفكر الفرنسي، تعرّف النزعة القومية الألمانية نفسها بشكل مبكر جدًا على أنها التعبير عن عبقرية شعبية وعرقية خاصة، وهي تأخذ، بقدر تقدمنا في العصر، اتجاهًا عنصريًا بشكل متزايد باطراد. ومن الجهة الأخرى، كانت الليبرالية قد فشلت في عام ١٨٤٨ في محاولتها الرامية إلى الاستيلاء على الدولة وتحقيق الوحدة الألمانية، ويتم المشروع البسماركي باسم قيم نظام قديم تمكّنَ من التكيف مع عالم حديث بأكثر مما باسم أفكار ثورية. ومنذ ذلك الحين، نجد أن النموذج الأرستقراطي، بالرغم من تطور الأفكار الاشتراكية، سوف يظل قوة جذب قوية، بما في ذلك، بل خاصة، لدى البورجوازية، وهي قوة تعمم تيمات كتيمة شرف مرتبط ارتباطًا وثيقًا بنقاء الدم

أو بتيمة رفض تراث التنوير.

وما ينشده اليهود الألمان لأنفسهم هو أن يتماشوا مع ثقافة الطبقة المتوسطة الألمانية عبر تطور اجتماعي يقودهم في غالبيتهم إلى الانتماء إلى بورچوازية الثورة الصناعية الألمانية. وفي عام ١٨٧١، يصبح بالإمكان تعريف ٨٠% من اليهود الألمان على أنهم بورچوازيون يحوزون ثقافة علمانية منبثقة من تنوير القرن الثامن عشر (***Aufkarung***) على أثر فعل تحويل للذات (***bildung***) سعيًا إلى إحياء أنفسهم وإلى أن يصبحوا مواطنين متعلمين، قادرين على الديموقراطية والوطنية[١٧].

وهذا التحول يمر بالطبع عبر رفض للثقافة التقليدية اليهودية. ويجري هجر اللغة اليهودية ــ الألمانية لصالح استخدام معمَّم للُغة الألمانية، بينما تدعو شريحة مهمة من الطائفة اليهودية إلى إصلاح ديني لليهودية سعيًا إلى جعلها متوافقة مع العالم الحديث[١٨]. ورهانات الإصلاح تمر عبر استخدام اللغة الألمانية في أداء الشعائر، وعبر استخدام الموسيقى (خاصة الأرغن) في العبادة، وإن كان أيضًا عبر تهديد مكانة اليهودية التلمودية في الديانة ووجود بعض الصلوات ذات الطابع المسياني المسرف بشكل واضح. والحال أن البحث الحقيقي عن روحانية متأثرة بروحانية البروتستانتية الليبرالية وبعلم اليهودية إنما يقود إلى العودة إلى التوراة وإلى اختزال نسبي لقيمة دور الشريعة وتفسيراتها. والتحليل التاريخي للتوراة، أحد الرهانات الرئيسية لثقافة القرن التاسع عشر بالنسبة لليهود وللمسيحيين على حد سواء، إنما يسمح بقراءة تاريخانية أفضل لتشكل الدين كما يسمح باختزال وزن الشعائر، المعرَّفة على أنها تركات سوسيولوچية خلَّفها العصر القديم، وذلك لصالح مايجري تأكيده على أنه رؤية دينية أكثر سموًا. وبشكل لا مفر منه، يصطدم مطلب الإصلاح هذا بالمقاومة التي يبديها المتشبثون بالأرثوذكسية، والذين يدافعون عن رؤية للدين أكثر تقليدية، حتى وإن كانوا من جهتهم، متأثرين هم أيضًا بالثقافة المعاصرة[١٩].

تشكل اليهودية الأميركية

اليهود الأوائل الذين استقروا فيما سوف يصبح الولايات المتحدة من

الواضح أنهم منبثقون من جماعة من يهود الأطلسي ذوي الأصل السيفاردي. والحال أنهم كانوا قليلين نسبيًا في أواخر القرن الثامن عشر، وقد استفادوا من مناخ التسامح الديني المميز للثقافة الأميركية الوليدة. وقيام عالم جديد عبر الهجرة التي تجتاز المحيط الأطلسي إنما يسمح بتجنب الانقلابات السياسية الأوروبية التي ترافق إزالة النظم القديمة، ويتم تحرير اليهود بالطبع ضمن السيرورة الأعم لتكوين مجتمع جديد بعيدًا عن كل إرادوية سياسية.

واعتبارًا من عام ١٨٢٥ تبدأ الهجرة الجماعية الكبرى الأولى ليهود أوروبيين متجهين إلى الولايات المتحدة. وهم من حيث الجوهر يهود ألمان ونمساويون يقتفون أثر الحركة الأعم للهجرة الجرمانية المتجهة إلى العالم الجديد. وإذا كنا نجد بين صفوفهم العناصر الأكثر فقرًا للطوائف اليهودية المتكلمة بالألمانية (الأمر الذي يسمح بتسريع سيرورة تبرجز العناصر الأخرى)، فإنَّ فريقًا من النخب يرافقهم في اجتياز المحيط الأطلسي. ونجد بينهم فرانكيين سابقين يعودون إلى ديانة أسلافهم ويبذلون كل جهد من أجل محو أي أثر لانتماءاتهم السابقة.

وبما أن الأرثوذكسية الدينية أقل انغراسًا في هذه الأراضي الجديدة، فإن الولايات المتحدة إنما تصبح أرض ميعاد اليهودية التي دخل عليها الإصلاح، والتي تكتسب أهمية تفوق بكثير أهميتها في أرض نشأتها الأصلية. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت اليهودية السيفاردية الأسبق قد غمرتها تمامًا موجات القادمين الجدد، الذين كانوا ما يزالون مشربين بالثقافة الألمانية (إلى أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، تظل الألمانية اللغة الأوسع استخدامًا في مؤسسات الطائفة)[٢٠].

وبرنامج (*Platform*) بيتسبرج في عام ١٨٨٥ يقدم التوجهات الرئيسية لليهودية الأميركية التي دخل عليها الإصلاح: لقد دافع الدين اليهودي عن فكرة الله من حيث كونها حقيقة دينية جوهرية بالنسبة للبشرية؛ والتوراة هي الشاهد على أهلية الشعب اليهودي لأن يكون كاهن الإله الواحد الأحد؛ والاكتشافات العلمية الحديثة في مجال الطبيعة كما في مجال التاريخ لا تتعارض مع اليهودية، لأن التوراة تعكس أيضًا الأفكار البدائية لزمانها؛ والتشريع الموسوي

كان ضروريًا لرسالة الشعب اليهودي خلال زمن حياته القومية في فلسطين، أمَّا اليوم فإن القوانين الأخلاقية هي وحدها التي يمكن تطبيقها، وكل ما لا يتكيف مع وجهات نظر وعادات الحضارة الحديثة إنما يتوجب نبذه؛ والمحرمات الغذائية وفروض الطهارة غريبة عن الحالة العقلية والروحية الحالية وتشكل بالأحرى عقبات في طريق سمو أخلاقي أفضل؛ وآمال إسرائيل الميسيانية هي إقامة مملكة الحقيقة والعدل والسلم فيما بين جميع البشر؛ "إننا لم نعد نعتبر أنفسنا أمة، وإنما طائفة دينية، وهذا هو السبب في أننا لا نترقب لا عودة إلى فلسطين ولا عبادة تضحوية تحت قيادة أبناء هارون، ولا عودة شريعة من أي نوع تخص الدولة اليهودية". والحال أن الصداقة والتعاون مع المسيحية والإسلام، الديانتين الابنتين لليهودية، وخلود الروح ولكن إنكار بعث الأجساد وإنكار الجنة كثواب والجحيم كعقاب، وحل المشكلات الاجتماعية على أساس العدل والاستقامة، هي السمات الجوهرية لهذه اليهودية التي دخل عليها الإصلاح والتي تعيد صياغة الدين كيما يتماشى مع متطلبات العالم الحديث في إطار روحانية تميل إلى الاقتراب من دين طبيعي أساسه العقل لا الوحي ولا يسلم إلاّ بوجود الله، وهو دين مشابه لدين البروتستانتية الليبرالية[٢١].

وموقف جذري إلى هذا الحد إنما يستتبع انشقاق فريق من الذين دخل عليهم الإصلاح، يشكلون منذ ذلك الحين اليهودية "المحافظة" التي تتخذ موقفًا وسطيًا بين الجذريين والأرثوذكس.

اليهودية البريطانية

تتشكل نواة اليهودية البريطانية من يهود من الأطلسي سُمح لهم بالاستقرار في بريطانيا العظمى خلال حكم كرومويل في القرن السابع عشر خاصة وأن البيوريتانيين كانوا يكنون لشعب التوراة تعاطفًا كبيرًا. وتتعزز أعدادهم في القرن الثامن عشر من خلال الهجرة البطيئة لأشكيناز هولنديين وألمان. وهم نحو ٣٠٠٠٠ نسمة في مستهل عهد الملكة فيكتوريا. ويتزايد عددهم في عقود منتصف القرن التاسع عشر مع هجرة بورچوازية قادمة من ألمانيا. والحال أن توراتية وإنجيلية الثقافة البروتستانتية وتسامح التنوير الأنجلو ـ ساكسوني قد

سمحت بتحرير تدريجي، بيد أن المساواة الكاملة في الحقوق لا يتم الفوز بها إلاّ في عام ١٨٥٨ مع توافر إمكانية دخول البرلمان بالرغم من شروط أداء يمين مسيحية(٢٢). وقد جاءت المقاومات للتحرير أساسًا من جانب المدافعين عن نظام اجتماعي تقليدي والمعادين لليبرالية الطبقات المتوسطة والذين يراودهم الحنين إلى العصر السعيد للسيطرة الأرستقراطية في القرن الثامن عشر. وهذا بشكل ما جانب من جوانب مناقشة أعم نجدها مرة أخرى في مسألة القوانين الخاصة باستيراد الحبوب الزراعية. وهكذا، فإن كان مجلس العموم قد قبل بسرعة مبدأ التحرير، فإن العقبة إنما تجيء من مجلس اللوردات، الذي رفض هذا المبدأ في عدة مناسبات قبل أن يتراجع أمام خطر نشوب نزاع على الاختصاصات كان من شأنه أن يقود مجلس العموم إلى الحد من سلطات مجلس اللوردات (وهو ما حدث في نهاية المطاف في عام ١٩١١)(٢٣). وهكذا نجد أن رهان المعركة السياسية قد تخطى بسرعة مجرد الجانب الخاص باليهود البريطانيين ليصبح رهان التجديد السياسي لبريطانيا العظمى في منتصف القرن. والحال أن شخصية دزرائيلي الساطعة، وهو متحول إلى اعتناق المسيحية من أصل يهودي، قد سمحت بتصور أفضل لليهود، لأن هذا المسيحي قد أعلن على مدار حياته فخره بالانتماء إلى الجنس اليهودي المفهوم على أنه يشكل أرستقراطية، مستعيدًا بذلك تيمة تقليدية في الوسط السيفاردي الذي ينحدر منه. وبالمقابل، نجد أن قوة الألفية البروتستانتية التي تذكرُ من حين إلى آخر بأن تحقق النبوءات يفترض عودة اليهود إلى الأرض المقدسة قد خدمت بالأحرى خصوم التحرير، الذين أكدوا أن هذا دليل على أن اليهود أجانب في بريطانيا العظمى ليس لهم الحق في المشاركة في الحياة السياسية.

وقبل عام ١٨٨٠، تشمل الطائفة اليهودية أساسًا ممثلين للطبقة المتوسطة ونخبة ضيقة من كبار الماليين الذين توحدهم أواصر المصاهرة: آل روتشايلد وآل مونتفيوري وآل مونتيجو الذين يمارسون سيطرتهم على مؤسسات الطائفة بفضل عمل إنساني خيري نشيط بشكل خاص(٢٤). وهؤلاء الأعضاء المنتمون إلى بورجوازية لندن المالية إنما يشكلون جزءًا من الطبقة الحاكمة البريطانية ويمارسون نفوذًا عظيمًا على السياسة الحكومية. وإذا كان صعودهم إلى وظائف

وزارية كان أكثر تأخرًا مما في فرنسا، إلاّ أن اندماجهم في الأرستقراطية إنما ترمز إليه ترقية عدد من آل روتشايلد ثم من آل مونتاجو وأبناء خؤولتهم من آل صمويل إلى مرتبة لوردات وراثيين.

والحاصل أن تعددية الثقافة البريطانية في القرن التاسع عشر، والتي تعترف دون مشكلة بوجود "أمم" أو "أجناس" عديدة على تراب بريطانيا العظمى من اللحظة التي لايُتَرْجَمُ فيها ذلك إلى مطلب سياسي وحيث يتقاسم الجميع الولاء للملكية، وكذلك عين طبيعة البروتستانتية البريطانية المقسَّمة في كنائس قائمة وطوائف منشقة إنما يترتب عليها أن وجود طائفة هي في آن واحد يهودية وبريطانية لا يمثّل مشكلة خاصة في لحظة يتخلل فيها الكتاب المقدس، وخاصة العهد القديم، كل الضمائر. وبما أن التعارضات بين الكنائس القائمة والطوائف المنشقة آخذة بالتلاشي، في حين أن الكاثوليك مقبولون على مستوى واحد مع المسيحيين الآخرين، فبالإمكان أن يتم تحت التسمية المسيحية نفسها استيعاب أولئك الذين يتقاسمون التراث التوراتي، وهو ما يشكل استشرافًا إذًا لما سوف يعلنه، بعد قرن من ذلك، المتمسكون بالفكرة اليهودية ـ المسيحية.

يهودية أوروبا الشرقية(٢٥)

يقود ضمُّ أرض بولندية من جانب بروسيا بالطبع فريق اليهودية المعني إلى اقتفاء أثر تطور الوضع الحقوقي والاجتماعي لليهود الألمان. والوضع أكثر تعقيدًا فيما يخص الولايات النمساوية.

فالجماهير البشرية المعنية أضخم حجمًا والمقاومة التي يبديها النظام القديم أقوى في الأراضي الشرقية لإمبراطورية آل هابسبورج(٢٦). وهناك تعايش مبكر جدًا بين يهودية تقليدية منبثقة من العالم البولندي في مناطق كغاليسيا ـ حيث يعد تواجد السكان اليهود أكثر تماسكًا وكثافة، مع وجود مكوِّن حاسيدي قوي جدًا ـ ويهودية بسبيلها إلى التحرر في النمسا وفي المجر وفي بوهيميا ـ مورافيا. واليهودي الذي يتكلم باليدِّية ويحتفظ بملبسه التقليدي يجاور الإسرائيلي الذي فاز بالتحرر. والتشريعات التمييزية، المطبَّقة على شكل حقارات بيروقراطية، إنما تُلغى بعد إلغائها في أوروبا الغربية بوقت طويل. وهكذا،

فاليهود لم يكونوا سوى موضع تسامح في فيينا، أكانوا رعايا للإمبراطور أم أجانب. وفي هذه الحالة الأخيرة، فإن اليهود العثمانيين وحدهم، وذلك بفضل المعاهدات المعقودة مع الباب العالي، هم الذين يتمتعون بحق الإقامة في العاصمة، وتدافع القسطنطينية بقوة عن مصالح رعاياها. ومن ثم فإن يهودًا نمساويين أيضًا إنما يحصلون على الجنسية العثمانية لكي يتسنى لهم العيش في فيينا(٢٧).

ويتحقق نيل المساواة في الحقوق في الوقت نفسه كما في المانيا خلال زمن الليبرالية الظافرة في ستينيات القرن التاسع عشر. وفي زخم التسوية النمساوية ــ المجرية لعام ١٨٦٧ والتي أسست الملكية الثنائية، يجري منح المساواة في الحقوق. إلاّ أنه إذا كان التحرير يترافق مع الاستيعاب، فإنه يبقى معرفة في أي أمة من أمم الإمبراطورية سيتم الذوبان: الألمانية أم المجرية أم النمساوية أم التشيكية... وكل تأكيد قومي لعناصر سكان الإمبراطورية إنما يعيد طرح مشكلة الهوية الخاصة لليهود بينما تعرف الملكية الثنائية، بحكم موقعها الجغرافي، حركة داخلية لهجرة يهود شرقي الإمبراطورية إلى غربيها، وهي حركة مصحوبة بالتحول الاجتماعي الذي يمثله الاستيعاب ــ التحرير.

وفي الإمبراطورية الروسية(٢٨)، تعد الليبرالية الأوروبية غائبة من الناحية العملية، والسكان اليهود ــ الأضخم عدديًا بين يهود العالم ــ إنما يجدون أنفسهم أمام دولة مركزية الأداء تتردد في تحديد النهج الذي يجب اتباعه. ولها رغبات تحريرية ضعيفة ويبدو أنها تريد السير في اتجاه الدمج عبر سيرورة ترويس، بما يتماشى مع تراث الاستبداد المستنير في القرن الثامن عشر. ولهذا تلغي مؤسسات الطائفة، والتي تشكل أسس الاستقلال اليهودي التقليدي وتؤيد التحاق أبناء البورچوازية اليهودية بمدارس الدولة. بيد أنها، في الوقت نفسه لاتلغي إلاّ ببطء المؤسسات المرتبطة بالنظام الإقطاعي وبحلسية الفلاحين. وباسم حماية الفلاحين، تسعى هذه الدولة إلى تركيز اليهود في الأوساط الحضرية، مجبرة إياهم على هجر دورهم كوسيط بين الإقطاعيين وأحلاس الأرض. ولعجزها عن تصور سيرورة ترويس لا تكون في الوقت نفسه تحولاً إلى اعتناق المسيحية الأرثوذكسية، فإنها تفرض نظام تجنيد بالغ الوحشية هدفه إرغام الجنود اليهود

على تغيير ديانتهم بمنعهم من الوفاء بفروض ديانتهم. وهكذا فلا مفر لأسر من أن ترى فريقًا من أبنائها، غالبًا ما يكونون ما يزالون في ميعة الصبا، وهم يُنتزعون منها بالقوة، وعلى أثر ذلك، يتعرض كثيرون منهم لمعاملات سيئة تحل بهم.

والأهم أن النظام القيصري يبقي على عزل السكان اليهود في منطقة (أو أرض) الإقامة الممتدة من البلطيق إلى البحر الأسود والتي تتألف من أراض تم انتزاعها من بولنده والدولة العثمانية. ويكمن السبب الرئيسي على الأرجح في عدواة لليهودية أكثر تجذرًا في المسيحية الأرثوذكسية، مما في المسيحية الغربية وترجع إلى تواتر الهرطقات ذات الطابع المتهوِّد في تاريخ الأرثوذكسية، بما في ذلك في القرن التاسع عشر. والنتيجة أن اليهود يجدون أنفسهم مرتبطين ارتباطًا وثيقًا بالتوترات المميزة للجزء الغربي من الإمبراطورية، مع المواجهات المتعاظمة بين الحركة القومية البولندية والسيطرة الروسية والتعارض بين الكاثوليكيات اللاتينية والمتحدة مع باباوية روما من جهة والأرثوذكسية من الجهة الأخرى والانبثاق التدريجي لهويات بلطيقية وأُكرانية في مواجهة عمليات الترويس التي تضطلع بها السلطة المركزية. وهذه المناطق، الموجودة جهة الغرب أكثر، هي الأكثر تعرضًا للتحولات الكبرى المترتبة على الثورة الصناعية التي بدأت هنا بشكل أسبق مما في بقية أرجاء الإمبراطورية، خاصة في تطور طرق المواصلات والاندماج في السوق العالمية.

وبما أن النمو الديموغرافي لليهود جد قوي، بما يتماشى مع التطور العام لسكان الإمبراطورية الروسية، بحيث يجري حظر الاستقرار في شرقي الإمبراطورية وبحيث لا يجري تفكير بعد في الرحيل عن الإمبراطورية الروسية، فإن هجرة داخلية مهمة تحدث من شمالي منطقة الإقامة إلى الجنوب الأقل اكتظاظًا بالسكان بشكل واضح. والتطورات الاجتماعية متباينة. فجانب من السكان اليهود يلعب دورًا نشيطًا في التقدم الاقتصادي للإمبراطورية الروسية، الأمر الذي يسمح بظهور بورچوازية مالية وصناعية تمنحها الحكومة القيصرية امتيازات خاصة. أمَّا جمهرة السكان الغفيرة فهي تميل بالأحرى إلى التزايد فقرًا وذلك بالنظر إلى تركزها المتعاظم في مناطق حضرية حيث لا منفذ

أمامها سوى نشاطات الحرف والتجارة الصغيرة. وقد جرى تشجيع محـــاولات عرضية لتكوين جمهرة فلاحية يهودية ثم جرت مكافحة هذه المحـــاولات مـــن جانب السلطات التي تبدو، في هذا المجال كما في المجالات الأخرى، عـــاجزة عن اتباع خط سياسي واضح ومتماسك.

وإذا كانت المؤسسات التقليدية للطوائف تتفكك، خلال مجمل القرن، لصالح وجود، أقوى دومًا، لجهاز الدولة الذي يقوم، ضمن منطق تأكيد نفسه، بإلغـــاء الفئات التي تلعب دور الوسيط، فإن جماعات اجتماعية جديـــدة إنمـــا تظهـــر، بالرغم من الإفقار المحسوس لجانب عظيم من السكان. والعنصر الأكثر أهمية هو عنصر "الحداثيين"، أي أولئك المنفتحين على التنوير الغربي والذين يعرفون لغة أو عدة لغات غير يهودية. والصراع بين الحداثيين والتقليديين مهم في فهم تطور الجماهير الشعبية اليهودية الرئيسية. والأوائل يكـــافحون كـــل علامـــات التمسك بالقديم ويكافحون العادات الشعبية وارتداء الملابس المميزة لليهود. وهم يريدون ما نسميه اليوم بالتثاقف مع الحضارة الأوروبية. ثم إنهم حلفاء الدولـــة بقدر ما يبدو أنها تتبنى منطق استيعابٍ ــ تحرير. بيد أنهم لا ينبذون التـــراث اليهودي. على العكس، ففي قلب هذا الوسط يبدأ استخدام اللغة العبرية لأغراض دنيوية، الأمر الذي يثير عظيم احتجاج اليهود الأرثوذكس الذين يرون في ذلك تدنيسًا للغة الشعائر.

والحداثيون، شأن المستوْعَبين في أوروبا الغربية، لا ينكرون وجود هويـــة يهودية خاصة. على العكس، فاعتبارًا من منتصف القرن، يـــزودون الســـكان اليهود بمؤسسات جديدة وبأسلوب جديد للتنظـــيم يميـــل إلـــى الحلـــول محـــل المؤسسات القديمة الآخذة بالزوال. وفي الفترة الممتـــدة مـــن ســـتينيات إلـــى ثمانينيات القرن التاسع عشرن يســـهمون، عـــن طريـــق الصـــحافة والنشـــر والجمعيات الفكرية أو المنظمات السياسية الأولى، في تكوين رأي عام يهـــودي خاص منفتح على النقاشات الإيديولوچية في ذلك العصر. ويتكون نـــوع مـــن مجتمع مدني يهودي بشكل خاص بينما يشكل المجال الطائفي في بقية أوروبـــا بالأحرى ثقافة فرعية ضمن كيان أوسع. وموقفهم استيعابي دومًا. لكنهم، بما أن مجتمع الاستقبال يبدو أقل إصغاءً بكثير لمطالبهم من مجتمعات أوروبا الغربية،

إنما يمهدون بعملهم الساحة الضرورية للتطور التالي للنزعة القومية اليهودية. ومن ثم فإن قوة الأشياء تجعل منهم فاعلي تحرير ـ تحديث دون اندماج ـ ذوبان، بالرغم من أننا نجد في جميع أفكارهم صدى المناقشات الإيديولوچية الكبرى في أوروبا الشرقية.

وتحدث مرونة معينة للتشريع الروسي ولمسلك السلطات خلال عهد ألكسندر الثاني، القيصر المحرِّر للفلاحين. ويصبح بوسع المعاصرين أن يتخيلوا أن الإمبراطورية الروسية سوف تتبع التطور نفسه نحو الليبرالية الظافرة شأن أوروبا الغربية والوسطى. وليس قبل انتهاء العهد يدرك الحداثيون أن الدولة الروسية تمتنع عن اتخاذ قرار التحرير الرئيسي.

لمحة ديموغرافية موجزة

خلال الثلثين الأولين للقرن التاسع عشر إذًا، ليس من شأن التباين إلاّ أن يتزايد بين يهود أوروبا الغربية الآخذين بالتبرجز ويهود أوروبا الشرقية الذين، بسبب إفقارهم نفسه، يحتفظون، بالرغم من جهود الحداثيين، بهوية خاصة قوية منفصلة عن هويات الجماعات السكانية الأخرى. ولا يتصل التباين بالمستويات المعيشية وحدها، فهو يكتسب بشكل متزايد باطراد طابعًا ثقافيًا مع صون أرثوذكسية دينية صارمة ترفض علامات الحداثة ومع التمسك باليدِّية ـ التي يسميها يهود الغرب، الذين كفوا عن استخدامها، بـ"الرطانة"، احتقارًا منهم لها. وهذا التعارض في الأوضاع نجده أيضًا في النظم الديموغرافية. فحتى إذا كان اتجاه التاريخ اليهودي قد تعدل في القرن السابع عشر مع انتهاء الهجرات اليهودية نحو الشرق ومع انقلاب نحو الغرب يجد ترجمة له في ظهور الأشكيناز على ضفاف المحيط الأطلسي، إلاّ أن الصهاريج الديموغرافية الكبرى قد بقيت في الشرق الأوروبي. وفي حين أن الطوائف اليهودية المستوعَبة تعرف النمو العددي المعتدل المميز للبورچوازيات الأوروبية، فإن طوائف الشرق الأوروبي إنما تنتمي تمامًا إلى المرحلة الأولى للانتقال الديموغرافي الأوروبي، والتي تتميز بانخفاض محسوس للوفيات مع استمرار معدل قوي للمواليد. ومن ثم فإن إيقاع التقدم الديموغرافي مرتفع، إذ يصل على الأرجح

إلى نحو ٢% سنويًا، بل وأكثر، وهو ما يعتبر أعلى مما تعرفه في الزمن نفسه الجماعات السكانية البولندية والروسية. وفي الأمد الطويل، تتخذ هذه الظاهرة مقاييس مدهشة: فنحو عام ١٦٥٠، كانت طوائف أوروبا الشرقية تمثل أقل من ٣٥٠٠٠٠ نسمة، بينما تصل نحو عام ١٨٨٠ إلى ٥٧٢٠٠٠٠ نسمة. وبالمقابل، لم يعرف سيفارديو الدولة العثمانية غير نمو ديموغرافي معتدل، قد يكون أعلى من نمو المسلمين إلاّ أنه أدنى بالتأكيد من نمو المسيحيين.

وهكذا، فإذا كان توزيع اليهود في العصر الوسيط بين أراضي الإسلام وأراضي المسيحية قد تم بأعداد متساوية تقريبًا، فسوف نجد في عام ١٨٨٠ أن بؤرة أوروبا الشرقية وحدها تمثل نسبة ٧٥% من إجمالي اليهود (٥٢% في عام ١٧٠٠)، في حين أن يهود أفريقيا وآسيا، الذين ارتفعت نسبتهم إلى ٣٥% من الإجمالي في عام ١٧٠٠، لا يشكلون سوى نسبة ٨% في عام ١٨٨٠. ومن ثم يكون الإجمالي العالمي لليهود قد انتقل من ١١٠٠٠٠٠ نسمة في عام ١٧٠٠ إلى ٧٦٦٣٠٠٠ في عام ١٨٨٠. وحتى مع أن التشتت يتزايد مع الاستقرار في القارة الأميركية، إلاّ أن الوجود اليهودي في فلسطين إنما يتضاءل نسبةً إلى إجمالي السكان اليهود.

وهذا الانقسام إلى ثلاث مجموعات تمثل ثلاثة عوالم ثقافية متباينة، بما لها من خصائص ديموغرافية تخصها، إنما يترجم الأسلوب الذي يتصدى به العالم اليهودي لزمن التحولات التي دشنتها أوروبا الغربية منذ مستهل القرن الثامن عشر. فالانقلابات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية لا تعفي أي ساحة في عالم آخذ بالتوحد على أيدي إمبرياليات البورچوازيين الظافرين. وهكذا فإن فلسطين الصغيرة، بعيدًا عن أن تكون معزولة أو راكدة، إنما تندرج من جهتها في منطق التحولات السريعة هذا.

الفصل الثاني

فلسطين والتحولات العثمانية(1)

"ما كاد الباشا يختفي حتى بدأ شر آخر، مترتب على ما مارسه من اضطهاد. فالقرى الخربة تنتفض؛ ويهاجم بعضها البعض الآخر لممارسة الثارات الوراثية. ويجري قطع كل سبل المواصلات: فتهلك الزراعة؛ وخلال الليل، يخرج الفلاح لكي يتلف كرمة عدوه ويقطع شجرة زيتونه. ويرجع الباشا في العام التالي فيطالب بالإتاوة نفسها في بلد تضاءل سكانه. ولابد له من مضاعفة ما يمارسه من اضطهاد، وأن يقضي على جماعات سكانية بأكملها. وشيئًا فشيئًا تتسع الصحراء؛ ولا نعود نرى من حين لآخر غير أكواخ حقيرة خربة، وعلى مداخل هذه الأكواخ جبانات متزايدة دومًا: فكل عام يشهد هلاك كوخ وأسرة؛ وسرعان مالايبقى سوى الجبانة التي تصبح شاهدًا على المكان الذي كانت توجد فيه القرية."

"عندما نسافر في جبال اليهودية، يستولي على القلب ضجر عظيم في البداية؛ إلاّ أنه عندما يمتد المكان أمامك بلا حدود، وأنت تنتقل من وحدة إلى وحدة، يتلاشى الضجر شيئًا فشيئًا، ونستشعر رهبة دفينة، من شأنها، بدلاً من أن تثبط الروح، أن تمنحنا الشجاعة، وتسمو بذكائنا. إذ تتكشف جوانب غير عادية من شتى جهات أرض صاغتها المعجزات: الشمس الحارقة، النسر المندفع، شجرة التين العقيم، كل الشعر، كل لوحات الكتاب المقدس موجودة هناك. وكل اسم ينطوي على لغز؛ فكل كهف يعلن المستقبل؛ وكل قمة تردد صدى نبرات نبي. والله نفسه تكلم نفسه على هذه الضفاف؛ ومخرّات السيول التي جفت والصخور المفلوقة والقبور المفتوحة قليلاً إنما تشهد على المعجزة؛ والصحراء تظهر ما تزال خرساء من الرهبة، ويمكن القول إنها لم تجرؤ على قطع صمتها منذ أن سمعت صوت الحي القيوم."

شاتوبريان، رحلة من باريس إلى أورشليم

فلسطين في مستهل القرن التاسع عشر

عندما يموت الجزار، في عام ١٨٠٤، تجد فلسطين صعوبة في الشفاء من تخريبات الأعوام السابقة ومن استئناف التغلغلات البدوية. على أن سلطة عكا تظل واقعًا قويًا في عهدي خليفتيه، وهما مملوكان من بيته، سليمان باشا (١٨٠٤ــ١٨١٨) وعبد الله باشا (١٨١٨ــ١٨٣١). ويحاول الواليان صون سلطتهما الإقليمية. ففي الشمال، يحتفظ سليمان بعلاقات طيبة مع أمير الجبل اللبناني، شهاب الثاني، الذي يعزز سلطته الشخصية ويتحرر تدريجيًا من وصاية عكا[٢]. وبالمقابل، يظل باشاليك دمشق تحت نفوذ سليمان الذي يتولى، علاوة على ذلك، صلاحيات قيادية مختلفة في السهل الساحلي[٣]. وأهمية الصلاحيات القيادية الممنوحة له من جانب الباب العالي إنما تجد مبررها في النضال ضد الوهابيين الذين احتلوا المدينتين المقدستين في شبه الجزيرة. ويتعين عليه القتال في شرقي الأردن إلى أن يتم القضاء على التهديد مع الدخول في النزاع من جانب ابن باشا مصر محمد علي، إبراهيم باشا، الذي يقوم، على رأس وحدات مصرية، بالقضاء على الدولة السعودية الأولى (١٨١١ــ١٨١٨).

والمنطقة الأكثر عصيانًا هي منطقة جبال وسط فلسطين، ذات الكثافة السكانية العالية نسبيًا. ويحتفظ بالسلطة على نحو خاص زعماء محليون، قادرون على أن يعبئوا لحسابهم ميليشيات فلاحية مسلحة. وكما في مجمل منطقة الشرق الأدنى، يتوزع هؤلاء الزعماء على ائتلافين يرجع وجودهما إلى قرون خلت، وهما ائتلاف القيسيين وائتلاف اليمنيين[٤]، اللذين يتحاربان فيما بينهما. وتلك هي الحال مثلاً في نابلس، حيث تقود الفريق القيسي أربع عائلات، هي عائلات نمر والجيوسي وقاسم الأحمد وعبد الهادي، بينما تقود فريق اليمنيين عائلتا طوقان وجرّار. وهذه المنازعات المحلية تؤدي إلى فوضى مقيمة، والجماعات العائلية، بحسب مصالحها المباشرة، لا تتردد في الانتقال من معسكر إلى الآخر. كما أن هذه المنازعات قد تأخذ شكل قطع دائم للطرق. والوضع شبيه جدًا بالوضع الذي نجده أيضًا في المناطق الجبلية الأخرى في الشرق الأدنى. وهذه الحروب المحلية تخرّب البلد، كما يوضح ذلك الوصف الذي قدمه شاتوبريان، بيد أن لعبة الفصائل لها قيمة إدماجية: فالمسيحيون

ينتمون إلى القيسيين واليمنيين على حد سواء، وهذا التباين له غالبًا أهمية تفوق أهمية التباين الطائفي الديني. وبالرغم من هذا الوضع قليل المؤاتاة، تعد العلاقات فيما بين المدن والأرياف كثيفة وذلك بفضل اقتصاد صار اقتصادًا نقديًا جدًا بالفعل، مع وجود شبكات تجارية مركبة تستخدم الأسواق المحلية والتجار المنتقلين من بلد إلى آخر. وفي بنى تبادل المنتجات هذه، نجد من جديد قوة الجماعات العائلية ووجود أواصر منسوجة بين جماعات حضرية وريفية على فترات تمتد إلى عدة عقود(٥). بل إن البدو أنفسهم يندمجون في الدوائر الاقتصادية. وتقل أعمال النهب التي يقومون بها. وتصبح نشاطات الرعي التي يقومون بها مكملة لنشاطات الفلاحين ويدخلون في سيرورة استقرار طويلة الأمد. وفي زمن تمثل فيه قوافل الإبل وسيلة المواصلات الرئيسية، يلعبون دورًا رئيسيًا في تداول المنتجات.

وفي منطقة القدس، يهيمن التعارض القيسي – اليمني نفسه، حتى وإن كانت سلطة الدولة هناك أكثر كفاءة. والقدس، وهي مدينة يتراوح عدد سكانها بين ١٠٠٠٠ نسمة و٢٠٠٠٠ نسمة، بحسب التقديرات، لا تحيا كثيرًا من استغلال الأرياف. وخصوصيتها كمدينة حج تجعل منها مدينة مأهولة بسكان غير مسلمين بنسبة ٥٠ % من إجمالي سكانها. والأرستقراطية الدينية هي القوة الاجتماعية الرئيسية: وهي تتكون من جماعة من الأفندية الذين يحتكرون الصلاحيات الدينية ويتوزعون وفق التوزيع نفسه الموجود في بقية البلد: فآل الحسيني يقودون الفريق اليمني وآل الخالدي يقودون الفريق القيسي. على أن نزاع الفرق لا يخص سوى البيئة الريفية المحيطة بالمدينة المقدسة، فسكان القدس يحتفظون بمسافة معينة تبعدهم عن هذا النزاع.

وصعود عبد الله إلى السلطة في عام ١٨١٨ يجر إلى سلسلة من المنازعات. فعبد الله، وهو شاب في الحادية والثلاثين، ويصبو إلى استعادة سلطة عكا، إنما يدخل في نزاع مع بشير الثاني ووالي دمشق. ويساند البابُ العالي خصميه فيجد نفسه في ورطة. لكن التمرد اليوناني في عام ١٨٢١ يرغم القسطنطينية على تركيز جهودها على البلقان. وعندئذ يسارع محمد علي، باشا مصر الطموح، إلى فرض نفسه كوسيط، ويحصل للباشا المتمرد على عفو عنه

مع جعله بشير الثاني حليفًا إقليميًا له [أي لمحمد علي]. وهذا التمرد اليوناني نفسه يثير توترات طائفية قوية، خاصة في القدس. وتهديدات الباب العالي بالتدخل هي وحدها التي تضع حدًا للاضطرابات وللتكديرات التي كان المسيحيون الأرثوذكس ضحية لها. وإذا كان توتر طائفي معين يظهر في فلسطين، فإنَّ أحداث منتصف عشرينيات القرن التاسع عشر يبدو أنها تشير إلى بقاء العلاقات القديمة.

وفي عام ١٨٢٤، يسعى مصطفى باشا، والي دمشق، إلى فرض ضرائب باهظة على مناطق فلسطينية تتبع ولايته، هي مناطق نابلس والقدس. وهو يستخدم القوة لفرض احترام سلطته. وفي عام ١٨٢٥، يتمرد سكان القدس ويطردون ممثل والي دمشق. وتستوعب الحركةُ المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء. وبحسب التقليد العثماني، فإن هذا التمرد ضد المظالم المتعارضة مع الشريعة الإسلامية إنما يفضي إلى محاولة التوصل إلى حل وسط: فيطلب المتمردون من الباب العالي إعادة النظام الضريبي السابق والعفو عن أعمال التمرد. ويتصل هذا المطلب بضمان الأشخاص والممتلكات. وتعزل القسطنطينية مصطفى باشا بيد أنها ترسل عبد الله باشا ضد المدينة. ويتفاوض هذا الأخير على استعادة سلطة الدولة العثمانية في مقابل قبول مطالب المدينة؛ ويكتفي الباشا بنفي زعماء التمرد إلى مدن فلسطينية مجاورة(٦).

وفي عشرينيات القرن التاسع عشر هذه، تتضح في المشرق العربي العلامات الأولى للتحولات العثمانية. ففي مصر، يتجه محمد علي إلى تكوين إمبراطورية. وهو قد فتح شبه الجزيرة العربية وأخذها من الوهابيين ومد ملكه إلى السودان. وهو ينشئ جيشًا من نمط جديد قائم على التجنيد. وبعد مذبحة الأنكشارية، في عام ١٨٢٦، يفعل السلطان محمود الثاني الشيء نفسه في القسطنطينية. وهو يسعى إلى فرض هذا النظام الجديد كما يسعى إلى فرض نظام ضريبي أحدث في سوريا وفي فلسطين. ويصوِّرُ عبد الله نفسه على أنه مشجع لهذه الإصلاحات، الأمر الذي يسمح له بأن يفرض بشكل أسهل سلطته على المناطق الفلسطينية، مع استثارته لسخط عام. وشأن بشير الثاني في الجبل اللبناني، يريد عبد

الله هدم سلطة الزعماء المحليين باللعب على التنافسات فيما بين الفصائل.

وخلال هذه الفترة برمتها، تعد فلسطين أقل انفتاحًا على الأوروبيين. وإذا كانت عكا "أسكلا" [ثغرًا] توجد فيه منذ زمن طويل ممثليات قنصلية وتجار أوروبيون، فإنَّ الجزء الداخلي من الأراضي قلما يمكنهم الوصول إليه. ومن المؤكد أن بالقدس وجودًا كاثوليكيًا يعززه الفرنسيسكان في إطار إدارة أماكن مقدسة، بيد أن الدول العظمى ليس مسموحًا لها بإنشاء قنصليات لها في المدينة. والرحالة الأوروبيون يعتادون، لاعتبارات أمنية، ارتداء ملابس الأهالي، الأمر الذي يداعب من جهة أخرى رومانسية ذلك العصر. ونحن آنذاك ما نزال في عصر الرحلات البطولي، حيث يضاف إلى شاغل التنقيب عن الآثار سعيٌ إلى المغامرة(٧).

الاحتلال المصري(٨)

منذ وقت طويل ومحمد علي يستهدف مجمل البلاد السورية. وهو يتمسك بخطابات متباينة بحسب سامعيه: فهو يوضح لممثلي الباب العالي أنه أقدر من أي أحد آخر على تنمية هذه المناطق ومن ثم على تعزيز الدولة العثمانية في مواجهة التهديدات الأوروبية؛ وهو يقدم نفسه إلى الأعيان والسكان على أنه المدافع عن النظام الإسلامي التقليدي الذي أساءت إليه إصلاحات محمود الثاني؛ وهو يؤكد للأوروبيين أنه الوحيد الذي سيكون بوسعه إنجاز تحرير مسيحيي المشرق. والحال أن نزاعًا إضافيًا إنما يضعه في مواجهة والي عكا: فمصر، شأن بقية الشرق الأدنى، تشكو آنذاك من انخفاض عدد سكانها، ثم إن الإصلاحات الضريبية التي قام بها والي مصر قد أدت إلى مفاقمة غير عادية للأعباء التي تثقل كاهل السكان المصريين، خاصة الفلاحين، ومن هنا ظهور تيار هجرة إلى فلسطين المجاورة. ويطالب محمد علي بأن يعاد إليه هؤلاء المهاجرون، الأمر الذي يرفضه عبد الله باشا. ومن ثم تتوفر الذريعة لشن الحرب.

والحاصل أن الجيوش المصرية، التي يقودها إبراهيم باشا، ابن محمد علي،

إنما تدخل فلسطين في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٣١. وقد ترتب على هذا الغزو الجديد في البداية تحريرُ القوى المحلية من سلطة عبد الله الذي، شأن الجزار، يتحصن في عكا خلال حصار طويل. وليس قبل أواخر عام ١٨٣٢، بعد سقوط عكا والهزائم العثمانية التي يترتب عليها تسليم سوريا كلها، تصبح سلطة إبراهيم باشا سلطة فعلية. وإلى ذلك الحين، كان قد حكم بالاعتماد أساسًا على الزعماء المحليين الذين كانوا خصومًا لعبد الله باشا، الأمر الذي جعل منهم لبعض الوقت السادة الحقيقيين لفلسطين. والمنطقة كلها إنما تجري مركزتها حول دمشق. واعتبارًا من عام ١٨٣٣، تفرض السلطة الجديدة برنامجًا للإصلاحات ولاستعادة النظام. فيجري وضع غير المسلمين على قدم المساواة مع المسلمين. وتتم السيطرة المحكمة على طبقة الأعيان السائدة وخاصة الزعماء الريفيين. ويجري تطبيق نظام سلطوي وكفؤ على حساب تعدد الحريات المحلية، ومن هنا الزوال السريع لشعبية الحكم المصري. وهذا السخط تؤججه دعاية الباب العالي، والتي تشدِّد على الطابع غير الشرعي للاحتلال المصري. وبحسب الممارسة الموجودة في مصر، يجري إنشاء مجالس شورى في كل ناحية مهمة. والجدة المهمة هي أن غير المسلمين، مسيحيين ويهودًا، يشاركون فيها لأول مرة: ومهمتها مساندة الإدارة المصرية بتزويدها بالمعلومات وبتأييد قراراتها(٩).

وفي مايو/ أيار ١٨٣٤، نجد أن جميع الزعماء المحليين، القيسيين واليمنيين على حد سواء، رفضًا منهم لقبول التجنيد، يتمردون بدعم من رجال الدين والبدو(١٠). ويضطر إبراهيم إلى استخدام كل قواته لقمع الانتفاضة ولفرض نزع سلاح السكان، وذلك بوحشية قصوى. ويجري إعدام الزعماء الرئيسيين للتمرد. أمَّا العلماء والأعيان من الدرجة الأدنى، والذين اتخذوا موقفًا مؤيدًا إلى هذا الحد أو ذاك لحركة التمرد، فيجري نفيهم. وخلال هذه الأحداث، نجد أن سكان صفد اليهود، الذين هاجمهم المتمردون، قد كابدوا عدة خسائر بشرية وتعرضوا لأعمال نهب وسلب. وتتعهد السلطات بتقديم تعويضات سوف يتم دفعها بشكل جزئي. وفي عام ١٨٣٨، يثور دروز حوران ولبنان بدورهم وينهبون من جديد سكان صفد اليهود (وكانت صفد قد تعرضت في العام السابق لزلزال خطير).

ويجري رصد الأحداث نفسها في طبرية وإن كان اتساعها أقل. وخلال كل هذه الاضطرابات، أمكن استهداف اليهود بشكل خاص وذلك بسبب السياسة المصرية الخاصة بالتحرير الفعلي لغير المسلمين.

ويشمل العمل الإداري الذي اضطلع به إبراهيم باشا سياسة لا تعرف هوادة حيال البدو الذين جرى قمع غاراتهم وتغلغلاتهم قمعًا قاسيًا. ويجري تشجيع زراعة السهل الساحلي تشجيعًا نشيطًا. ولأول مرة، تصبح مناطق البلد الداخلية مفتوحة فعليًا أمام الأوروبيين، الذين يحصلون على تصريح بافتتاح قنصليات في القدس. ثم إن مواقع آثار، وجد الرحالة الأوائل صعوبة في رصدها في ظروف تنطوي على المجازفة بشكل خاص، إنما يجري الآن زيارتها وتبويبها بشكل أفضل. ويبدأ البحث العلمي. وهو يرتبط بالمغامرة الكبرى المتمثلة في الدراسات الخاصة بالكتاب المقدس في القرن التاسع عشر: ففي مواجهة الشجب الذي يقدمه تقدم الجيولوچيا لسيررورة الزمان التوراتية ــ الإنجيلية وفي مواجهة تقدم البحوث الفيلولوچية التي تثبت تعدد تحريرات الكتاب المقدس، يؤكد التعرف الأركيولوچي على الأرض المقدسة صدق النص المقدس.

وهكذا تعلن الإدارة المصرية تدشين مجتمع جديد، قائم على تطبيق نظام جديد وبيروقراطي. وهي مرتبطة بانفتاح فلسطين على أوروبا التي لم تكن، إلى ذلك الحين، تحوز غير إمكانية هشة للوصول إلى الأماكن المقدسة. وتصبح الأرض المقدسة من جديد واقعًا بالنسبة للدول العظمى المسيحية التي كانت غير مهتمة بها، منذ انتهاء زمن الحملات الصليبية.

وهذا العمل كله إنما يتوقف على وجود قوات عسكرية قوية مستعدة لمواجهة عودة هجومية من جانب العثمانيين. وتكلفة الإصلاحات والاحتلال العسكري تنيخ بكلكلها على كاهل السكان في لحظة تشغل فيها مغامرة محمد علي وإبراهيم باشا أوروبا التي تقرر التدخل مباشرةً في شئون الشرق الأدنى.

التدخل الأوروبي

طموحات والي مصر تهدد بزعزعة مجمل نظام التوازن الأوروبي الحساس. ومصير الدولة العثمانية إنما يتم اللعب به بين الدولتين البحريتين

العظميين وهما فرنسا وبريطانيا العظمى والإمبراطورية القارية المتمثلة في روسيا. وبدرجة أقل، تشعر الدولتان الجرمانيتان أنهما معنيتان بالأمر: بروسيا، بسبب دورها في التوازن بين الدول العظمى، والنمسا المعنية على نحو مباشر بمصير البلقان ولكن الحريصة خاصة، مع مترنيخ، على الصيانة الصارمة للنظام العالمي المنبثق عن مؤتمر فيينا. ومنذ الأعوام الأخيرة لعهد عودة الملكية، تنخرط فرنسا في سياسة متوسطية طموحة وأحيانًا غير مدروسة. وهذه السياسة تتجسد في الاستيلاء على الجزائر العاصمة في عام ١٨٣٠. وفي إقامة علاقات وثيقة مع محمد علي (وهو مالايحول دون تدخل عسكري في صالح اليونانيين في عامي ١٨٢٨ و١٨٢٩). وتشعر بريطانيا العظمى بالقلق على الطريق القاري إلى الهند وتسعى إلى السيطرة عليه بإقامة سلطات صديقة: ومن غير الوارد الاستيلاء على هذا الطريق، بيد أن من المستبعد السماح لفرنسا أو لروسيا، مباشرة، أو عن طريق وكلاء تتواريان خلفهما، بالتواجد على هذا الشريان الحيوي بالنسبة للإمبراطورية البريطانية الآخذة بالتشكل. وهذا موقف جماعي للدول العظمى التي أوقفت، في عام ١٨٣٣، زحف إبراهيم باشا الظافر على العاصمة العثمانية. فقد اضطر هذا الأخير إلى الجلاء عن الأناضول وجرى فرض هدنة هشة بين السلطة المركزية ووالٍ على مصر يتحكم في الجزء الأعظم من الشرق الأدنى. والحال أن لندن، الحريصة في آن واحد على الحيلولة دون قيام حماية روسية على الباب العالي وعلى الحيلولة دون تكوين إمبراطورية فرنسية — مصرية، إنما تبذل كل ما في وسعها لكي تقوض سلطة والي مصر. واللورد بالمرستون هو الذي يؤمِّنُ دون مرونة، بفضل سيطرة ناجزة على الأجهزة الدبلوماسية، انتصار السياسة البريطانية.

ومن زاوية القانون الأوروبي، لا يمكن منازعة الدفاع عن مواقع اكتسبتها دولة من الدول إلاّ عبر طريق الشرعية الجديدة التي أتاحها مبدأ القوميات. وهكذا نجد أن التمرد اليوناني، والذي يشكل زعزعة كبرى للنظام المفروض في عام ١٨١٥، أمكن له أن يجد مبررًا كهذا. ويدرك محمد علي وإبراهيم باشا ضرورة تطوير حجاج كهذا، وقد أكدا، ولكن أمام الدبلوماسيين الأوروبيين وحدهم، أنهما بسبيلهما إلى إقامة إمبراطورية عربية متميزة عن إمبراطورية

الأتراك. وإذا كان سياسيون وكتّاب أوروبيون قد ساندوا هذا المشروع الخاص بتكوين جماعة قومية عربية، فإن المسئولين عن السياسات الخارجية لا يؤمنون به ولا يرون في هذه المقترحات غير عمل دعائي. وإذا كانوا لم يخطئوا فيما يتعلق بمفارقة الموقف التاريخية، إلاّ أنهم لم يفهموا أن السيرورة الجارية هي بالفعل سيرورة تدمير النظام التقليدي ذي الطابع الهيراركي والمميز للمجتمع العثماني القديم.

وفي عام ١٨٣٩، وبتشجيع من البريطانيين، يستأنف العثمانيون الاشتباكات ويهزمهم إبراهيم باشا مرة أخرى، لكن البريطانيين يقدمون دعمًا نشيطًا لتمرد عام للولايات السورية ينهي الإمبراطورية المصرية. والحال أن الزعماء الريفيين الفلسطينيين إنما يشاركون بنشاط في هذه الانتفاضة. وفي هذه المواجهة بين الدول العظمى، تجد الحكومة الفرنسية نفسها، تحت قيادة تيير، منحازة إلى مصر، وتهدد بالمضي إلى حد خوض حرب تعم أوروبا كلها. وهذه السياسة المتهورة تؤدي إلى عزل فرنسا، التي تشهد عودة لتشكل الائتلاف المعادي لنابوليون ضدها. وفي ١٥ يوليو/ تموز ١٨٤٠، تقترح الدول العظمى المتحالفة على محمد علي أن يكتفي بحكم وراثي لمصر وبباشاليك عكا مدى حياته، والحال أن التحديد الجغرافي لهذا الباشاليك إنما يعلن عن المربع الفلسطيني اللاحق الذي سوف يتشكل في عهد الانتداب(١١). وبما أن محمد علي يرفض الانصياع، فسوف يدعونه إلى الاكتفاء بمصر وحدها. وتنتهي الأزمة بإذعان والي مصر وبوصول جيزو إلى السلطة في باريس، وهو رجل عازم على صياغة سياسة فرنسا حيال المشرق وفق أسس أخرى.

عودة النزعة الألفية البروتستانتية إلى الظهور

تؤدي المواجهة فيما بين الدول العظمى بشأن مصير الشرق الأدنى إلى عودة ظهور الظاهرة نفسها التي ظهرت خلال عام ١٧٩٩: التكون الحادث حول الموضوع الفلسطيني للعبةٍ مركّبة من الحسابات المباشرة وأحلام اليقظة المنبثقة من أعمق أعماق المخيال الغربي. وتدشن انجلترا هذه الحركة: فمرة أخرى، يرى الألفيون البروتستانت في الأحداث الجارية إمكانية إنجاز تحقق

النبوءات. وهم ممثَّلون تمثيلاً جليًا في المحيطين ببالمرستون. وفي أغسطس/ آب ١٨٤٠، يؤكد هذا الأخير لسفيره في القسطنطينية أنه يوجد بالفعل الآن لدى اليهود المشتتين في أوروبا شعور قوي بأن الوقت أصبح قريبًا لتمكن أمتهم من العودة إلى فلسطين، وهو يطلب إليه تشجيع السلطان على قبول استقرار اليهود في فلسطين والذي من شأنه، بالثروات التي سوف يحملونها معهم، أن يعزز موارد الدولة العثمانية ويشكل حاجزًا أمام أطماع والي مصر الخبيثة[١٢]. والمقصود هنا هو إيجاد ترجمة مفيدة للقوة الإمبراطورية البريطانية لطموحات الألفيين البروتستانت. والشخصية الأهم بينهم هي شخصية أنتوني أشلي كوبر، الذي أصبح فيما بعد اللورد شافتسبري السابع. وهذا الأخير يعتبر نفسه أداة الرب في تحقيق المجيء الثاني [للمسيح]. والجميعة اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود، والتي تأسست في عام ١٨٠٨ والتي يعتبر واحدًا من أكثر موجهيها حماسة، هي واحدة من أهم الجمعيات التبشيرية بالرغم من ضعف نتائجها (٦ أو ٧ حالات تحول إلى اعتناق المسيحية في العام الواحد). وفي عام ١٨٣٩، زار أشلي محمد علي واقترح عليه تكوين شركة مهمتها شراء الأراضي في فلسطين وتوطين اليهود فيها. والحال أن الوالي، وبحسب عادته، قد رد عليه بكلام طيب.

وطبيعي أن أزمة المشرق قد ظهرت للألفيين على أنها "علامة من علامات الساعة"، وهم ينخرطون في حملة صحافية داعية إلى عودة اليهود. ويوجه أشلي إلى بالمرستون مذكرة تؤيد الاستيطان اليهودي في فلسطين: فهذه المناطق الشاسعة تعتبر خالية تمامًا من السكان، وذلك بالرغم من الثروات التي تضمها في طياتها، والسبب في ذلك هو الإدارة العثمانية السيئة. والحال أن اليهود، إذا ما كفلت لهم الدول العظمى التمتع بتشريع متمدن، سوف يكون بوسعهم تنمية هذه المناطق[١٣]. وسعيًا إلى إرضاء هذا الفصيل من الرأي العام، يغتنم بالمرستون فرصة عودة السلطة العثمانية لكي يطلب إلى القنصل الانجليزي مد الحماية البريطانية إلى يهود فلسطين المضطهَدين (ديسمبر/ كانون الأول ١٨٤٠). والحق أن مجريات اللحظة إنما تقود إلى الاهتمام بمصير يهود سوريا.

قضيـــة دمشـــق

قضية يهود دمشق أحد تلك الأحداث التي ترمز إلى تعقد العلاقـات بـين أوروبا الثورة الصناعية والعالم العثماني. فمنذ القرن السابع عشر، تعتبر فرنسا نفسها حامية لكاثوليك الدولة العثمانية، لكنها، لحرصها قبل كل شيء على كسب التحالف العثماني معها، لم تشجع مساعي المبشرين الكاثوليك الـذين أرسـلتهم روما بهدف دفع كنائس المشرق إلى الاعتراف بالسلطة البابوية. ومنذ الحملـة الفرنسية على مصر، ثم مع التمرد اليوناني، واحـتلال الجزائـر العاصـمة، والمساعدة الممنوحة لمحمد علي، تبتعد فرنسا عن الباب العالي وتميل بالأحرى إلى دعم المنشقين العثمانيين. والآن يجري تشجيع المبشرين بقدر ما أن ملكيـة يوليو تسعى إلى إيجاد متعاطين مسيحيين معها ضمن النظام السياسي الذي أقامه محمد علي: وهذا ممكن ما دام بشير الثاني حليفاً لوالي مصر. وهكـذا، ففـي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، يستعر النزاع فيما بين الروم الكاثوليك والـروم الأرثوذكس، حيث تدعم روسيا هؤلاء الأخيرين.

وتترافق التنافسات على الوصاية الدينية مع تطور سريع للحمايات القنصلية الممنوحة بشكل ليبرلي إلى هذا الحد أو ذاك والتي يترتب عليها تخليص عـدد متزايد من غير المسلمين مـن السـلطة المصـرية أو العثمانيـة. والسـكان المسيحيون، بالرغم من التحرير الفعلي الذي حققه إبراهيم باشا لهم، إنما يعادون النظام الجديد الذي قوض الحريات التقليدية ويستاءون، شأن المسـلمين، مـن التجريد من السلاح ومن التجنيد ومن الضرائب الجديدة بوصـفها تعـديات لا يمكن احتمالها. وبالرغم من العمل المضاد الذي يقوم به القنصل الفرنسي فـي بيروت، يتحالف الجبليون المسيحيون ضد بشير الثاني، ثم ينضمون إلى التمرد العام على السلطة المصرية. وينضم يهود ودروز لبنان إليهم[١٤]. والحـال أن بوريه، قنصل فرنسا في بيروت، إنما يميل إلى تأييدهم، وهو ما يعـود عليـه بسحب تيير له من منصبه، في حين أن كوشليه، قنصل فرنسـا فـي مصـر، والكونت راتي ـــ منتون، قنصل فرنسا في دمشق، يتخذان موقف الدفاع عـن محمد علي وبشير الثاني.

وفي هذا السياق المضطرب، يجري، في فبراير/ شباط ١٨٤٠، في دمشق،

قتل مبشر كبُوشي، هو الأب توما. ويجري راتّي ــ منتون تحقيقًا في الأمـــر، بمساندة من السلطات المصرية. والحال أن حلاقًا يهوديًا تحول إلـــى اعتنـــاق الإسلام إنما يتهم يهود دمشق بأنهم اقترفوا جريمة شـــعائرية للاســـتعداد لعيـــد الفصح اليهودي:

كما سبق وأن قلت: فإنني لا أزور الأغنياء ولم أشارك قط في حفلات الأعياد التي يقيمها بيت هراري، وهو أحد أغنى البيوت في المدينة. واليهود بحاجة إلى الدم لمزجه بخبز الفطير الذي يخبزونه في تلك الفترة من العام. وكانوا قد تم القبض علـــيهم وتســـليمهم للعدالة مرارًا بسبب جرائم القتل. ولديهم كتاب اسمه سدر حيدوورون يتضمن عقيـــدتهم بشأن الدم(١٥).

واستجابة لطلب من قنصل فرنسا، تجري السلطات تحقيقًا تحت التعذيب مع عدد من أعيان الطائفة اليهودية: فينهار البعض ويرتد البعض الآخر، بينما يلجأ بعض ثالث إلى الإدلاء باعترافات. وبين الأشخاص الذين أسيئت معاملتهم، نجد اثنين يتمتعان بالحماية النمساوية. والحال أن القناصل الحماة في مصـــر وفـــي سوريا إنما يتولون الدفاع عنهما وتصبح القضية قضية دولية في لحظـــة تبـــدو فيها الحرب وشيكة في أوروبا. ويساند آل روتشايلد إخوتهم في الدين ويتدخلون لدى تيير. وهذا الأخير يغطي قنصله أمام مجلس النواب في ٢ يونيو/ حزيران ١٨٤٠:

أنتم تتحدثون بالأصالة عن يهود، أمَّا أنا فإنني أتحدث بالاصالة عـــن فرنســـي. ثم اسمحوا لي أن أقول بصراحة: إن شيئًا مشرِّفًا إلى أبعد حد بالنسبة للإسرائيليين يحـــدث. فعندما وصلت المعلومات عن الأحداث التي جرت، تحركت مشاعرهم في أوروبا بأسرها، وأبدوا في هذه القضية حماسة وحمية يشرِّفانهم في نظري عميق التشريف. واسمحوا لي أن أقول بصراحة: إنهم في هذا العالم أقوى مما يزعمون، وفي هذه اللحظة، يتدخلون لـــدى جميع القنصليات الأجنبية، وهم يُبدون في ذلك حماسة غير عادية وحمية لا يمكن تخيلـــها. ويتطلب الأمر شجاعة من وزير لكي يحمي قنصله الذي تعرض للهجوم بهذا الشكل. وأنا أعتقد أنني أبديت شيئًا من الحزم في هذه القضية وكان لابد لي من إبدائه...(١٦).

وفي هذا المناخ المحموم، على عتبة حرب معمَّمة، لا ريب أن التشكيك في وجود جرائم شعائرية إنما يصبح من الناحية العملية جريمة خيانة، ومن ثم فإن الجانب الأكبر من الصحافة يساند تيير. ويتخذ الكاثوليك موقفًا هجوميًا بشكل خاص في هذه المسألة[١٧]. ويشن الإسرائيلي الفرنسي أدولف كريميو وأخوه الانجليزي في الدين مونتفيوري حملة دعائية ذودًا عن يهود دمشق. وهما يزوران مصر ويتوصلان إلى الفوز بقبول محمد علي لإنهاء الملاحقات وأعمال الاضطهاد. والحال أن فرمانًا صادرًا بتاريخ ٢٩ أغسطس/ آب ١٨٤٠ إنما يأمر بالإفراج عن المحبوسين وإعادة الأمن ليهود دمشق[١٨]، وذلك قبل وقت قصير من انتهاء السيطرة المصرية في تلك المنطقة.

وبانتهاء الأزمة الشرقية، تهدأ المشاعر في أوروبا وتظهر القضية بوصفها ذكرى سيئة. وفيما يتعلق بالديبلوماسية الفرنسية، يبدو أن راتّي ـ منتون لم يسبق له إبداء عداوة خاصة ضد اليهود وأنه كان يؤمن إيمانًا نزيهًا بصحة الاتهامات الموجَّهة. وقد رأى القناصل بشكل خاص في القضية مواجهة بين مختلف قوى النفوذ الأجنبية، ومن هنا شراستهم الوطنية في الدفاع عن مواقفهم. والحال أن ميلواز، قنصل فرنسا في بيروت، إنما يلخص على النحو التالي نتائج الأحداث في رسالة إلى جيزو بتاريخ ١٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٨٤٠:

> إن الحماية التي قدمها القناصل النمساويون في الإسكندرية ودمشق لليهود بمناسبة محاكمة قتلة الأب توما، قد عادت عليهم بالكثير من الضرر في نظر السكان. ولسوء الحظ، فإن العفو الذي أصدره محمد علي والذي يعتبر في البلد غفرانًا للنفوذ النمساوي ممنوحًا ضدنا، لم يكن بالنسبة لنا أقل مؤاتاة بكثير. فالرأي العام الذي يستهجن مسلك أولئك الذين نجحوا في ترتيب الإفلات من العقاب لقتلة أب، يتمتع بالحماية الفرنسية، لايلومنا فقط على التساهل: فهو يرى في قضية دمشق هزيمة لحقت بالنفوذ الفرنسي ويمكن القول إذًا إنه بقدر ما أن مسلك قنصلية فرنسا في هذا الظرف قد شرَّفنا من الناحية الأدبية، إلاّ أن العفو الذي منحه محمد علي قد ألحق بنا الضرر بالقدر نفسه، بل وبقدر أكبر، من ناحية نفوذنا السياسي[١٩].

وهذه حالة نموذجية للعمى الإداري على الطريقة الفرنسية، والقائم على

رفض العدول عن الموقف المتخذ وعلى إيمان مطلق باعتبارات مصلحة الدولة دون مراعاة لأبسط الواجبات الإنسانية.

وهذا الصراع على النفوذ إنما يعد أكثر قوة، خلال هذه الشهور من عام ١٨٤٠، بحيث إن ممثلي فرنسا يخامرهم الانطباع بأنهم يواجهون هجومًا معمَّمًا من جانب خصومهم: حيث يكثر الروس والنمساويون والسردينياويون من تقرباتهم من الروم الكاثوليك بينما يبدو أن البريطانيين ينجحون في دفع الموارنة إلى الالتحاق بمعسكرهم ويبدون مستعدين لإغراق فلسطين بملايين من الإسرائيليين[٢٠].

ولا يجب أن نتصور أن المتعاطين مع الدول العظمى الأوروبية يظلون سلبيين حيال تنافساتها. فهم يجيدون اللعب عليها بما يعود عليهم بإنماء مصالحهم الخاصة. ومن أكثر الأمور رجحانًا أن تكون قضية يهود دمشق محصلة صراع قديم عمره قرن بين الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس، من جهة، والطائفة اليهودية، من الجهة الأخرى. وقد سمح الاحتلال المصري بأن تكون اليد العليا للمسيحيين، وهؤلاء الأخيرون، مستفيدين من الدعم الفرنسي، قد اغتنموا فرصة ما كان في البداية حادثةً لكي يقوموا بتصفية خصومهم إلى الأبد. والحال أن الاتهام باقتراف جريمة شعائرية إنما يعد هو نفسه وبحدّ ذاته علامة موجِّهة: ففي القرن التاسع عشر، كان هذا الاتهام غائبًا من الناحية العملية في البلدان الكاثوليكية، في حين أن حالات توجيهه كانت عديدة في جميع بلدان الديانة المسيحية الأرثوذكسية، أكان ذلك في أوروبا القارية أم في البلدان المطلة على البحر المتوسط. وهكذا تسنى له أن يكسب إلى صفه مؤقتًا فرنسا ليبرالية في معمعان حماسة حربية ووطنية. وتنبع جدة قضية ١٨٤٠ من تصدير هذه التيمة إلى أوروبا، والتي ترجع إلى التنافس الشرس فيما بين الدول العظمى في تكوين متعاطين معها في المشرق.

رهان القدس

مسألة وضعية غير المسلمين تصبح، بقوة الأشياء، المشكلة الرئيسية في العلاقات بين الدول العظمى والباب العالي. وكانت النخبة الحاكمة العثمانية قد

أدركت ضرورة تبني برنامج إصلاحات للدولة العثمانية، هو برنامج **التنظيمات** الهادفة إلى تأمين بقائها. وعلاوة على ضرورة وجود إدارة أكثر كفاءة وضرورة إنماء أفضل للموارد، تنطوي **التنظيمات** على فلسفة مستلهَمَة جزئيًا من الليبرالية الأوروبية: ضمان أمن الأفراد والممتلكات، وهو فكرة تتماشى مع المصلحة الكبرى لقولات السلطان السابقين في ألاّ يكونوا بعد رهن مشيئة السلطان المطلقة. وهذا البرنامج يجري تأكيده في الميثاق ــ البرنامج الذي يشكله مرسوم خط جولخانه الشريف الصادر في ٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٣٩. وقد جرى تناول مصير غير المسلمين في هذا المرسوم بشكل يكاد يكون عرضيًا:

> بما أن هذه الامتيازات السلطانية تمتد لتشمل جميع رعايانا، أيًا كانت دياناتهم أو ملّتهم، فإنهم سوف يتمتعون بها كلهم دون استثناء. ومن ثم فإننا نمنح الأمن التام لرعايا الدولة في أرواحهم وعِرضهم ومالِهم، كما يستلزم ذلك نص شريعتنا المقدس(٢١).

وقضية يهود دمشق تقود الباب العالي، بناءً على طلب من كريميو ومونتفيوري، إلى إعادة تأكيد مواد المرسوم لليهود في نص خاص وإلى رفض أي اتهام بارتكاب جريمة شعائرية باعتباره اتهامًا باطلاً(٢٢). وهكذا يتباهى مونتفيوري بأنه قد حصل على "الميثاق العظيم ليهود الممتلكات العثمانية" وبأنه قد قدَّمه إلى لوي ــ فيليب الذي صدمه ذلك(٢٣).

أمّا فيما يتعلق بمطلب بالمرستون الخاص بحرية تامة لهجرة يهود أوروبا إلى فلسطين يكفلها تصريح صادر من الحكومة العثمانية يعبر عن تعاطفها وعن تعهدها بتأمين حرية الحركة للقادمين الجدد وكذلك تأمين الأمن الكامل للأفراد والممتلكات، وهو المطلب الذي جرى نقله إلى الباب العالي في أواخر عام ١٨٤٠، فقد حولته السفارة البريطانية في القسطنطينية إلى اقتراح بإضفاء طابع رسمي على حماية انجليزية ليهود الدولة العثمانية، الذين سيكون بوسعهم من ثم تقديم شكاياتهم إلى الباب العالي من خلال دبلوماسيين بريطانيين. وينحط المشروع الألفي إلى مجرد حدث إضافي من أحداث التنافس الأوروبي من زاوية الحمايات القنصلية. وبشكل منطقي تمامًا، يرد المصلح العثماني رشيد

باشا بأن مثل هذا الطلب غير مقبول لأنه يشكل ضربة موجَّهَة إلى اســتقلالية الحكومة التركية سوف تترتب عليها مزايدة فرنسية، بالنسبة للمتعاطين الكاثوليك مع فرنسا، ومزايدة روسية بالنسبة للمتعاطين الأرثوذكس مع روسيا(٢٤).

بيد أن جيزو كان قد شن بالفعل هجومًا فرنسـيًا مضـادًا باسـم مصـالح الحضارة المسيحية. فمنذ ١٣ يناير/ كانون الثاني ١٨٤١، يطلب إلـى سـفير فرنسا في بريطانيا أن يطرح مع الحكومة البريطانية:

> [...] بعض الترتيبات المتماشية مع مصالح القدس. وقد جرى طرح هذه الفكـرة وهي تبدأ في إثارة اهتمام قوي جدًا لدى الأذهان المسيحية وأنا لا أعرف مـا الشـيء الممكن، ولا بأي أشكال وضمن أي حدود يمكن أن يكون بوسع التدخل الأوروبي تحقيق قدر من الأمن والكرامة للقدس؛ لكن الحكومات، التي تشكو محقة من الضـعف الـذي أصاب معتقدات الشعوب، سوف يتوجب عليها بالفعل، عندما تسنح الفرصة لذلك، أن تعطي هي نفسها لهذه المعتقدات علامة ساطعة ما على الولاء لها والاهتمام بها. والحال أنه يتوجب على أوروبا استعادة الشكل المسيحي؛ وليس بوسع أحد أن يحسب اليوم كل ما يمكن أن يجنيه النظام والسلطة من ذلك(٢٥).

نحن إذًا بإزاء بالونة اختبار لمشروع حقيقي لتدويل القـدس(٢٦). ويـرى بالمرستون في ذلك محاولة جديدة لإضعاف الدولة العثمانية، وهو يؤكد مبـدأه: يجب أن تكون هذه الولايات كلها تركية وألاّ تتحول إلى إمارات مماثلة لصربيا ومولداڤيا وڤالاكيا [الأفلاق]. ومنذ ذلك الحين، يتوقف موقفه حيال يهود فلسطين عن اتخاذ طابع سياسي: لقد أرضى جماعة الضغط البروتستانتية المهمة بينمـا ينخرط في معركة جديدة في ساحة يعد موقفه فيها أقل قوة، حمايـة مسـيحيي الشرق ضد صون وحدة أراضي الدولة العثمانية. وهكذا، فعندما يـرد البـاب العالي على المطالب الخاصة بتوطين يهود فلسطين بضرورة أن يصبحوا أولاً رعايا عثمانيين، نجد أن بالمرستون لا يدفع الملف إلى مسافة أبعد. وفي الأعوام التالية، يتبدل النزاع الفرنسي ــ البريطاني في لبنان، فيساند الفرنسيون الموارنة ويساند الانجليز الدروز.

وفيما يتعلق بمسألة مسيحيي سوريا، يرسل الباب العـالي، فـي يونيـو/

حزيران ١٨٤١، سلسلة بأكملها من التعميمات إلى السلطات المحلية يطلب فيها السهر بشكل خاص على حماية المسيحيين ومنشآتهم الدينية:

عندما يمثل الرعايا أمام القضاة أو السلطات الأخرى طلبًا للإنصاف والعدل أو بأي دافع آخر، يجب تطبيق القانون تطبيقًا عادلاً ودون تحيز. وإذا لزم الأمر، فإن بوسع مُقَدَّمي مللهم، أو، إذا كانت الدعاوي تخص دولة صديقة، قناصلهم، حضور المحاكمة(٢٧).

وتكف مسألة القدس عن أن تكون مُدرجة في جدول الأعمال في لعبة الدول العظمى. وبعض أعضاء حزب الملكية الشرعية الفرنسيين وحدهم هم الذين يقترحون إنشاء مملكة مسيحية في القدس يُمنح تاجها لدوق بوردو. ومن الواضح أن لاأحد يصغي إليهم. أمَّا فيما يتعلق بالألفيين البروتستانت فإنهم يواصلون التحرك والفعل. وهم يحصلون على دعم من الحكومة البروسية، ثم من الحكومة البريطانية، لمشروع أسقفية بروتستانتية أنجلو ـ بروسية في القدس. ويبدي الباب العالي شيئًا من المقاومة لهذا المشروع، ثم يرضخ في مستهل عام ١٨٤٢. ويهدف الأسقف الجديد خاصة إلى السعي إلى تحويل اليهود المحليين إلى اعتناق البروتستانتية، لكن هؤلاء يبدون عازفين عن ذلك. ومنذ الشطر الثاني لأربعينيات القرن التاسع عشر، نجد أن الأسقفية، بالرغم من احتجاج البروتستانت اللندنيين، تهجر محاولات تحويل اليهود عن ديانتهم لتتجه إلى المسيحيين وبشكل مستتر أكثر إلى المسلمين، وهو ما تفعله الإرساليات البروتستانتية الأخرى في المنطقة(٢٨).

والحال أن إنشاء الأسقفية الأنجلو ـ بروتستانتية إنما يثير قلق الدول المسيحية الأخرى. فروسيا تدعم استعادة بطريركية القدس الأرثوذكسية، التي لم يكن مقرها شاغرًا البتة وإن كان شاغله يقيم في القسطنطينية. واعتبارًا من عام ١٨٤٥، يوزع وقته بين القدس وعاصمة الدولة العثمانية، ثم يستقر هناك بصفة أكثر دوامًا. وعندئذ تنخرط البطريركية الأرثوذكسية في سياسة مهمة قوامها الاستحواذ على الأراضي في منطقة القدس. وترد الكنيسة الكاثوليكية بدورها وفي عام ١٨٤٧ تقوم بإحياء بطريركية القدس اللاتينية، والتي كانت قد توقفت عن الوجود منذ انتهاء الحملات الصليبية.

ويواصل القناصل البريطانيون في القدس الاهتمام باليهود. وتلك بشكل خاص حالة القنصل الثاني، جيمس فن (١٨٤٧ـ١٨٦٢)، عضو الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود. ونشاطه يؤدي إلى تحسين لا جدال فيه لأحوال يهود المنطقة، الذين يحتفظون مع ذلك بهواجس قوية حيال مخاطر تحويلهم عن ديانتهم. وهكذا، فخلافًا لعام ١٧٩٩، لم تؤد أعمال الألفيين البروتستانت الأكثر تميزًا مع ذلك إلى استثارة استجابات مؤاتية في العالم اليهودي، حتى وإن كانت أحداث عام ١٨٤٠ قد أمكن لها إحياء بعض الآمال الميسيانية عند بعض يهود الإمبراطورية الروسية. والأسباب الرئيسية تكمن في أن يهود أوروبا، في منتصف القرن هذا، كانوا مهتمين خاصة بإشكالية التحرير وأن يهود الشرق كانوا يعتبرون السعي إلى تنصيرهم عدوانًا حقيقيًا عليهم.

وأعمال فن تعتبر أكثر فائدة وذلك بقدر ما أن الطوائف اليهودية في فلسطين (الييشوف الأول) تظل فقيرة إلى أقصى حد. ومورد رزقها الرئيسي، ومصدره الباعث الديني، إنما يجيء من الصدقات التي يرسلها يهود العالم بأسره لصالح علماء الدين اليهودي في الأرض المقدسة. ورحالة أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر يشهدون على الحالة الصحية المتردية لهؤلاء السكان الذين تحيا أغلبيتهم في وضع بائس. كما أن فرنسا تمارس، في تلك الفترة، عملاً معينًا حيال اليهود، خاصة سيفارديي الجزائر (ومن ثم فهم رعايا فرنسيون) الذين جاءوا للاستقرار في الأرض المقدسة لاعتبارات دينية. وكان عمل القناصل مؤثرًا بشكل خاص عندما وجه المسيحيون الأرثوذكس في عام ١٨٤٧ إلى يهود القدس تهمة ارتكاب جريمة شعائرية. وبفضل تدخل هؤلاء القناصل، أمكن في آخر لحظة تجنب إراقة الدماء(٢٩).

وكان قد أمكن صون المقاومة للتحول عن الديانة اليهودية عبر فعل يهود أوروبا الغربية الذين فازوا بالتحرر. وبدفع من موسى مونتفيوري، الذي اعتبر نفسه حامي يهود الأرض المقدسة وزارهم في عدة مناسبات، نجد أن أعمالاً إنسانية خيرية تأخذ بالتطور، وهي مختلفة عن الصدقات التقليدية التي يرسلها يهود الدياسبورا إلى يهود الأرض المقدسة المتدينين. وتتمثل هذه الأعمال في تقديم مساعدة تمضي في اتجاه تحسين الظروف المادية (افتتاح مصحة يهودية

في القدس في عام ١٨٥٤) سعيًا إلى الحد من جاذبية مؤسسات الإرساليات التبشيرية المسيحية. ويجري بصورة منتظمة طرح الفكرة التي تذهب إلى ضرورة تشجيع يهود فلسطين على الاتجاه إلى النشاطات المنتجة، الحرف والزراعة. بيد أن الطموح المعلن إلى أوربة اليهود العثمانيين إنما يصطدم بالمقاومة من جانب رجال الدين والمتدينين، خاصة بين صفوف **الحاسيديم** الأشكيناز المرتبطين بالعالم الصوفي لأوروبا الشرقية.

مسألة الأماكن المقدسة(٣٠)

بشكل متزايد باطراد، نحو منتصف القرن التاسع عشر، تظهر أوروبا بملمح مسيحي في بلدان الشرق الأدنى. فمفهوم "الحضارة المسيحية"، العزيز على قلب جيزو، إنما يصبح التيمة التي تطرحها الدول العظمى بشكل ثابت لتبرير مطالبها الداعية إلى إصلاحات لصالح مسيحيي الشرق. والرهان بالغ الأهمية لاسيما أن تقدم المسيحيين العددي يعبر عن نفسه بشكل أوضح فأوضح، خاصة في المناطق الساحلية، وأن بعض الأذهان قد تحلم بإعادة تكوين شرق مسيحي على أنقاض العالم الإسلامي.

ثم إن فعل الدول العظمى يمر أيضًا عبر تعلق، يجري تأكيده أكثر فأكثر باستمرار، بالرموز، وبين هذه الرموز فإن أكثرها وضوحًا هو الأماكن المقدسة في فلسطين. وبينما كانت أوروبا غارقة في مكابدات "ربيع الشعوب" عام ١٨٤٨، نجد أن المواجهة تتأكد في الأرض المقدسة حول حقوق كل دولة وكل ديانة. والحال أن الجمهورية الثانية الفرنسية هي التي تحرك السيرورة المؤدية إلى حرب القرم. وفي البداية، تبدو الذريعة تافهة: ذلك أن نجمة من الفضة، في قبو كنيسة المهد ببيت لحم، قد اختفت؛ وبما أنها تحمل نقشًا لاتينيًا يقرر حقوق الكاثوليك في هذا المزار، فإن هؤلاء الأخيرين إنما يتهمون الأرثوذكس بأنهم هم الذين سرقوها(٣١). وبسرعة، يدافع ممثلو فرنسا الديبلوماسيين عن الأطروحة التي تذهب إلى أن الأرثوذكس، ومنذ نصف قرن، قد تعدوا على حقوق الكاثوليك وأن مصير الحماية الكاثوليكية الفرنسية نفسه معرض للخطر. وهم يطالبون بإجراء مفاوضات عامة من شأنها وضع حد للاغتصابات التي يقوم بها

الأرثوذكس. ومنذ خريف عام ١٨٤٨، تدشن الحكومة الفرنسية عملاً ديبلوماسيًا لدى الباب العالي، بينما يماطل العثمانيون في هذه المسألة الحساسة بشكل خاص. وفي عام ١٨٤٩، يمتد النزاع إلى مجمل الأماكن المقدسة في فلسطين.

وفي الأعوام التالية، تتصدى روسيا بقوة للمطالب الفرنسية. وعلاوة على مسألة الأماكن المقدسة، تطالب بحماية على جميع أرثوذكس الدولة العثمانية، وهو ما يعني أن تصبح البلقان العثمانية مجالاً تهيمن عليه روسيا وحدها كما يعني الإنهاء العملي للاستقلال العثماني. وفيما يتعلق بالأماكن المقدسة، يكثر الباب العالي من الإجراءات التي ترضي البعض مع السعي إلى مراعاة شعور البعض الآخر (فتجري إعادة نجمة بيت لحم، ويصبح بوسع اللاتين الاحتفاظ بمفاتيح لبيت لحم بينما يحتفظ الأرثوذكس بحقوقهم في كنيسة القيامة).

وينزعج البريطانيون من هذا الوضع ويسعون إلى فرض أنفسهم كوسطاء، وهو ما يمر عبر الدفاع عن وحدة أراضي الدولة العثمانية (١٨٥٣). ويرى نابوليون الثالث في هذا النزاع إمكانية لإنهاء الائتلاف الذي ولد في عام ١٨١٥ وأعيد تكوينه في عام ١٨٤٠. وهو يدعو إلى الحزم ويناور بمهارة سعيًا إلى وضع روسيا في موضع المعتدي وإلى كسب بريطانيا العظمى إلى صفه. وفي خريف عام ١٨٥٣، تختار روسيا اتباع سياسة القوة و، في فبراير/ شباط ١٨٥٤، تتحالف فرنسا وبريطانيا العظمى مع الدولة العثمانية. ويهاجم القيصر الدول المسيحية التي تتحالف مع أعداء المسيحية ضد روسيا المكافحة من أجل الديانة الأرثوذكسية، بينما يتحدث كبير أساقفة باريس عن "قضية يحبها الرب، ضرورة دفع خطيئة فوتيوس وكبحها ومحوها"(٣٢).

ومن ثم يتخذ تنافس الدول العظمى طابع تعارض بين كتل دينية مسيحية كبرى. وهكذا يؤدي الانفتاح التدريجي لفلسطين على أوروبا إلى إعادة إحياء منازعات حول الأماكن المقدسة يبدو أن السيطرة الإسلامية والعثمانية كانت قد حكمت عليها بالبقاء طي النسيان. ومن المؤكد أن المجال الجغرافي بين البحر المتوسط ونهر الأردن لم يكن قد أهمل، منذ انتهاء الحملات الصليبية، بوصفه مكانًا للحج، لكن مجتمع

القرن التاسع عشر الصناعي هو الذي أعاد له بالفعل، للأفضل وربما للأسوأ أيضًا، وضعية الأرض المقدسة. فمنذ منتصف القرن، يتأكد التفاعل بين السياسة والمخيلات الجماعية ذات الأسس الدينية في هذا "الاختراع للأرض المقدسة"، جد القريب في نهاية الأمر من "اختراع" شعوب وأراضٍ من جانب النزعات القومية، الهويات الجماعية الخيالية أو بالأحرى المتخيَّلة.

تحرير غير المسلمين

بينما تنتقل العمليات العسكرية في القرم حول سيباستوبول، نجد أن الفرنسيين والبريطانيين، سعيًا منهم إلى تأمين بقاء الدولة العثمانية، يلعبون بورقة دمجها في الاتفاق الأوروبي، وهو ما يفترض بادئ ذي بدء قدرًا من التحرير العام للمسيحيين العثمانيين. وحرصًا من الباب العالي على إثبات أنه إنما يتصرف بمبادرته الخاصة، فإنه يلغي في مايو/ أيار ١٨٥٥ الجزية المفروضة على غير المسلمين ويؤكد من حيث المبدأ حق المسيحيين في الخدمة في الجيش. وفي ١٣ مايو/ أيار ١٨٥٥، في مذكرة موجَّهة إلى الدول الأوروبية، يؤرخ الباب العالي للموقف العثماني. فهو يذكرُ بأن الفاتحين المسلمين قد منحوا المسيحيين امتيازات من تلقاء أنفسهم وبحرية:

> إذا كانت أعمال اضطهاد قد حدثت في داخل الدولة العثمانية، كما في أي مكان آخر، فإن سبب هذه الأعمال إنما يرجع إلى الجهل الذي كان سائدًا زمن ارتكابها وإلى تباين الأعراق وإلى القرب، الذي كان ما يزال كبيرًا، من زمن الحروب والفتوحات. ومع مراعاة كل الاختلافات، فإن الدولة العثمانية قد اجتازت المراحل نفسها التي اجتازتها البلدان الأخرى، بل ويمكن القول بجرأة، ودون خوف من تكذيبنا، إنه في عصور الجهالة وانعدام التسامح الممتدة إلى هذا الحد أو ذاك والتي ناخت بكلكلها على أوروبا بأسرها، لم تكن الأقليات المغلوبة في الدولة العثمانية هي الأكثر أسفًا على حالتها(٣٣).

ولم يسع العثمانيون البتة إلى إكراه رعاياهم غير المسلمين على اعتناق الإسلام. على العكس، فالباب العالي هو الذي سمح بحرية بأن

تحوز البطريركيات، التي تشكلت في أزمنة لم تكن فيها روسيا قد وُجِدت بعد، بمجموعة كبيرة من الحقوق المدنية والدينية بحيث يمكن القول بالفعل أنه، فيما عدا السلطة السياسية التي تمارسها الحكومة المسلمة وحدها، يُدار المسيحيون ويحاكمون ويقادون من جانب سلطة مسيحية لا سلطة إسلامية.

والإصلاحات التي قررها الباب العالي بحرية لابد أن تطبق تدريجيًا بحيث تستوعب جميع الرعايا دون تمييز في العرق أو في الدين.

وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٥٥، ولإبراز هذه الرغبة، يتخلى السلطان في بروتوكوله عن استخدام لقب "سلطان المسلمين" ليتخذ لقب "صاحب الجلالة السلطانية، سلطان العثمانيين"(٣٤).

وبناءً على طلب من المبشرين، يدعو البريطانيون الباب العالي إلى الاعتراف بحق المسلمين في التحول إلى اعتناق ديانة أخرى. وهذا الأخير يرفض، فهذا الطلب غير مقبول في نظر من يظل بالرغم من كل شيء خليفةً. ومع استبعاد هذه المسألة (حيث قبل الباب العالي نوعًا من العفو عن جميع المرتدين المسلمين)، يصبح بوسع العثمانيين تحرير نص نهائي يتعلق بغير المسلمين وذلك بالتشاور مع فرنسا وبريطانيا العظمى. والحال أن خط ١٨ فبراير/ شباط ١٨٥٦ الشريف هو بالفعل النص التحريري العظيم لغير المسلمين. وهو يقدم نفسه على أنه تأكيد للامتيازات والحصانات الممنوحة عبر العصور للطوائف المسيحية وللملل الأخرى غير المسلمة. ومع اعترافه بوجوب الغياب الكامل للتفرقة في شغل الوظائف العمومية، فإنه إنما يعزز التنظيم الطائفي لغير المسلمين بتأمينه إدارة مشتركة لشئونهم الزمنية عن طريق مجلس يتألف من أعضاء من الكهنة ومن العلمانيين(٣٥). وفي حالة اليهودية العثمانية، يعد التحول أقوى بكثير لاسيما أنها تميل إلى استنساخ التنظيم الطائفي من تنظيم الطوائف المسيحية، مع "دستور" أصدره السلطان في عام ١٨٦٥ يحدد العلاقات بين رجال الدين والعلمانيين في مؤسسات الملة اليهودية(٣٦).

وفي معاهدة باريس (٣٠ مارس/ آذار ١٨٥٦)، تسجل الدول العظمى علمها بحرص السلطان على السكان المسيحيين في دولته وتؤكد رغبتها في عدم

التدخل، أكان بشكل جماعي أم بشكل منفرد، في العلاقات بين السلطان ورعاياه. ويجري الإبقاء على الامتيازات ولا تجد مسألة الأماكن المقدسة حلاً لها: إذ يجري التقيد بالوضع القائم والذي أوجَدته المراسيم الرسمية العثمانية في عامي ١٨٥٢ و١٨٥٣. ومما له دلالته أن الدول العظمى لا تأخذ في الحسبان تحرير اليهود العثمانيين: والحال أن الحقوق التي يقدمها لهم العثمانيون إنما تعد أعلى بكثير من الحقوق التي يتمتعون بها في عدد معين من الدول الأوروبية.

ووقت حرب القرم، استأنف الألفيون البروتستانت حملتهم المؤيدة لعودة اليهود إلى الأرض المقدسة. وفي عام ١٨٥٣، يخاطب شافتسبري الحكومة البريطانية مخترعًا صيغة سوف يعاد اكتشافها في القرن العشرين لتصبح أحد العناصر الرئيسية للملف الفلسطيني. ففي حديثه عن فلسطين، يعلن أنها أرض بلا أمة وهي تحتاج إلى أمة بلا أرض، وأن هذه الأمة موجودة: أصحاب الأرض الحقيقيون والقدماء، اليهود(٣٧). وهذا المشروع لا يمكنه إقناع السلطات البريطانية في ذلك الزمان، وذلك لكونها متمسكة بالحفاظ على الدولة العثمانية ولدرايتها العليمة بعداوة يهود ذلك الزمان لمشروع كهذا. وفي خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر، يستعيد كُتّاب بروتستانت وكاثوليك أفكارًا مماثلة. وبوجه عام، لا يعدو هذا المشروع أن يكون عنصرًا واحدًا في خطة أضخم تهدف إلى قلب حال الشرق الأدنى عن طريق تكوين شبكة طموحة من الطرق والقنوات (مشروع بديل لقناة السويس التي كان يجري شقها آنذاك يربط البحر الميت بالبحر المتوسط وبالبحر الأحمر من العقبة)، وخطوط السكة الحديدية، يقدم اليهود فيها اليد العاملة التقانية والرساميل. وشافتسبري خاصةً يقدم مشاريع من هذا النوع في عام ١٨٥٧(٣٨). أمّا السويسري هنري دينان، الذي دخل التاريخ بوصفه مؤسس الصليب الأحمر، فهو يبلور في ستينيات القرن التاسع عشر مشروعه الضخم: تكوين شركة عالمية لتنمية الزراعة والصناعة والتجارة والأشغال العمومية في الشرق وخاصة في فلسطين، وذلك بفضل امتيازات تمنحها الدولة العثمانية؛ وهكذا سيكون بالإمكان توطين اليهود هناك وسوف يبقون هذه المنطقة في حياد تام، الأمر الذي من شأنه أن يسمح في المستقبل بتجنب تجديد صدام باتساع حرب القرم بسبب الأماكن المقدسة(٣٩). وفي فرنسا،

نجد أن الكاتب الشهير الكسندر ديما الابن يطرح، في عمل ناجح، هــو امــرأة **كلود**، مشروع إعادة تكوين الشعب اليهودي ليصبح أمة تتمتع بــوطن "ثابــت وترابي" في فلسطين(٤٠). وهذه المشاريع القادمة من القارة الأوروبية تشــجع الألفيين الانجليز في دعايتهم التي تمتزج فيها مصالح الإمبراطورية البريطانية وتحقق النبوءات التوراتية ــ الإنجيلية امتزاجًا عجيبًا في محيط عامر بالمشاريع السان ــ سيمونية الكبرى.

والفارق الرئيسي بين تحرير غير المسلمين في الدولة العثمانية وتحريــر غير المسيحيين في أوروبا هو أن التحرير الثاني إنما يتم على أســاس فــردي بشكل صارم، دون اعتراف بحقوق جماعية خاصة، في حين أن التحرير الأول هو بالدرجة الأولى فعل جماعي تكرسه سلطة السلطان العثماني: ومن يجــري تحريره هو الطائفة بأكثر من أن يكون الفرد. وإذا كان الواقع الطائفي يمكن أن يجد أساسًا في ميثاق الحماية الأصلي الذي قدّمه الفاتحون المسلمون لــــ"أهــل الكتاب" (اليهود والمسيحيين)، فإن الواقع التنظيمي لا يتخذ شكله المعاصــر إلاّ اعتبارًا من القرن السابع عشر، وذلك لأسباب ضريبية على الأرجح (فالطوائف متضامنة في دفع الضريبة). واعتبارًا من هذا الإضفاء لطابع مؤسسي، علــى أساس محلي في البداية، تتطور الطائفة من حيث كونها كيانًا حقوقيًا ومرســوم التحرير يكرس هذا الوضع. ومن ثَمَّ، فإن الكيان الطائفي، وقد أصبح حقيقة من حقائق الحياة العامة لا الحياة الخاصة كما في الغرب، سوف يجد نفسه مــزوَّدًا بدينامية خاصة في حين أن حقله سوف يتسع باستمرار، أكان في صلاحياته أم في عدد المدعوين إلى أن يصبحوا طوائف. وهكذا ينشأ واقع لا يمكن اختزاله، مختلف عن الواقع القومي ومزاحم له، مع احتفاظه بــبعض صــفات الواقــع القومي. ويمكننا أن ندرك مصاعب الاستيعاب التي تطرحها ظاهرة كهذه، أكان استيعابها من جانب السياسيين أم من جانب المشتغلين بالعلوم الاجتماعية.

والحال أن هذا الإضفاء للطابع المؤسسي وهذا التكريس إنما يتمان تحــت ضغط من جانب الدول الغربية، حتى وإن كان من حق الباب العالي القول بأنه ليس غريبًا عن تكوين الطوائف. وفي حين أن شعار الإصلاحات التي يفرضها الغرب على العثمانيين هو التمدن ــ التغريب، فإن عملهم الفعلي إنمــا يتجــه

صوب تعزيز الخصوصية الشرقية. والنتيجة أن المفارقة، التي نجدها أيضًا في كثير من المجالات الأخرى، هي أن الحكومة العثمانية سوف تبدو أكثر إخلاصًا من الدول الغربية لبرنامج تغريب المجتمع الإسلامي. والحال أن المصلحين العثمانيين في الفترات التالية ثم القوميين الذين سوف يخلفونهم سوف يكونون أكثر إخلاصًا للمشروع الأوروبي عندما يعبرون عن رغبتهم في اختفاء الامتيازات والحمايات الدينية والامتيازات الطائفية وذلك ضمن منطق تعزيز الدولة وتكوين مجتمع أفراد على غرار مجتمع الغرب. وبالمقابل، فإن الغربيين، حتى في أواخر قرننا العشرين، لكونهم أسرى منطقهم الخاص بالنفوذ وبالسيطرة، سوف يبدون في مظهر المدافعين، باسم الأفكار الأوروبية، عن هذا النظام الاجتماعي الخاص. وبما يشكل انقلابًا نهائيًا للوضع، اليوم، مع الطائفية والتعددية الثقافية، يظهر نوع من "الغواية العثمانية" في داخل المجتمعات الغربية.

وفي اللحظة المباشرة، تجيء الأخطار بالأحرى من المقاومة التي يبديها إسلام تقليدي يعتبر نفسه مهدَّدًا من جانب التحولات الجارية: ففي الولايات السورية، يؤدي انقلاب النظام التقليدي والذي كرسه خط عام ١٨٥٦ الشريف إلى توتر متعاظم بين المسيحيين والمسلمين الذين ينزعجون من صعود الأوائل الذي يبدو ظافرًا. وفي سياقين مختلفين، الجبل اللبناني ودمشق، يؤدي الخوف من مؤامرة من شأنها أن تقود إلى اختفاء المسلمين إلى ارتكاب مذابح تطال المسيحيين في عام ١٨٦٠. وتتدخل فرنسا عسكريًا باسم أوروبا والإنسانية. ويؤدي مبدأ التوازن الأوروبي إلى تحكيم من جانب الدول. ويصبح جبل لبنان ولاية ذات حكم ذاتي، أغلبيتها مسيحية وتشرف عليها الدول، بينما يستفيد الباب العالي من الأزمة لكي يعزز سلطته على الولايات السورية الأخرى عبر إضعاف قوة الأعيان.

وفي هذه القضية، جرى ترك يهود الدولة العثمانية لشأنهم. وكانوا بالأحرى ضحايا التأكيد الاجتماعي والاقتصادي لمسيحيي الشرق، الذين انتزعوا منهم النشاطات الأكثر ربحية. وهم يجدون أنفسهم من جديد على طريق الإفقار ولا يبدون كمصدر تهديد للمسلمين. إلاّ أنهم، اعتبارًا من مستهل ستينيات القرن

التاسع عشر تحديدًا، يدخلون بدورهم في علاقة مميزة مع الغرب، وذلك بفضل التحالف الإسرائيلي العالمي.

التحالف الإسرائيلي العالمي[٤١]

في مستهل الشطر الثاني من القرن التاسع عشر، تتخذ الحماسة التبشيرية المسيحية الأوروبية بعدًا كان إلى ذلك الحين غير معروف: فالبروتستانتيتان الانجليزية والجرمانية (وبدرجة أقل البروتستانتية الفرنسية) تنخرطان في منافسة شرسة مع الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية، والعمل في الخارج يصبح رمزًا لنجاح جماعي للكنائس المسيحية الرئيسية، المنزعجة أيضًا من تقدم الفلسفات الناقدة للدين في المتروبولات. وإذا كان التبشير هو أساس عملها في البلدان المستعمَرَة أو التي بسبيلها إلى أن تستعمَر، فلا يمكن للأمر أن يكون كذلك في أراضي الإسلام حيث يتعين على العمل التبشيري، بالنظر إلى علاقة القوى، أن ينصب بشكل حصري على الطوائف المسيحية القديمة (مع تبشير فيما يتعلق بالطوائف اليهودية). والمطمح هو المساعدة على إنهاض مسيحيي الشرق بتعزيز تغريبهم. ويعتبر المشروع التبشيري نفسه تجاوزًا للأطر القومية، بيد أنه يبقى عميق الارتباط بالسياسات الخارجية للدول الأوروبية العظمى. ويرى ديبلوماسيو هذه الدول أن عمل الإرساليات التبشيرية إنما يترتب عليه إنماء وجود متعاطين غير مسلمين مع دولها، وهو يشكل أداة متميزة لإيجاد نفوذ سياسي.

وإنشاء التحالف الإسرائيلي العالمي في عام ١٨٦٠ يمكن اعتباره المرحلة النهائية لتحرير الإسرائيليين الفرنسيين. وفي لحظة يصعد فيها أخيرًا سكان أوروبا الغربية من اليهود إلى المساواة الكاملة في الحقوق مع بقية السكان بفضل إنجاز برنامج الليبرالية الاجتماعي، تنطرح مسألة مصير بقية العالم اليهودي. والحال أن مشروع إنشاء منظمة مهمتها الدفاع عن حقوق اليهود، في البلدان التي ما يزالون فيها في وضع اضطهاد، كان قد بدأ طرحه في أربعينيات القرن التاسع عشر من جانب كتّاب إسرائيليين فرنسيين على أثر قضية دمشق. ثم إن بعض القضايا من هذا النوع نفسه في الولايات الباباوية وفي بلدان أوروبا

الشرقية قد خلقت الإحساس بضرورة تنظيم ما سوف يكون بالإمكـان تسـميته بجماعة ضغط دولية، في اللحظة التي تظهر فيها المنظمات الإنسانية الأولـى (مؤسسة الصليب الأحمر). والنموذج المتّبع هـو نمـوذج منظمـة تبشـيرية بروتستانتية أنشئت في عام ١٨٥٥ في لندن، هي منظمة التحـالف الإنجيلـي العالمي، والتي تمثل هدفها في توحيد المسيحيين حول القيم الإنجيليـة. وفـي يونيو/ حزيران ١٨٦٠، يجري طرح لائحة العمل الجديد:

تهدف جمعية التحالف الإسرائيلي العالمي إلى:

١. العمل في كل مكان على تحرير الإسرائيليين وعلى رقيهم الأدبي؛
٢. تقديم دعم فعَّال لمن يعانون بسبب كونهم إسرائيليين؛
٣. تشجيع كل المطبوعات التي من شأنها أن تؤدي إلى هذه النتيجة.

وفي الأصل، نجد أن أدولف كريميو، المدافع السابق عـن يهـود دمشـق والوزير بالحكومة المؤقتة للجمهورية الثانية، قد حرص علـى الابتعـاد عـن الحركة. وبمبادرة خاصة منه، في شهر يونيو/ حزيران ١٨٦٠ نفسـه، يوجـه نداءً إلى إسرائيليي فرنسا لكي يقدموا العون لإخوتهم مسـيحيي لبنـان الـذين يذبحهم الدروز. فالموارنة، "كانوا يعتبرون أنفسهم، منذ زمن سحيق، مشمولين بحمايتنا"، والأمر يتعلق بـ"فرنسا هذه التي حررتنا بمعجزة، التي تبنتنا، التـي تعتبرنا أبنائها، وهي فرنسا المسيحية". ولذا:

لايجب أن نضيِّع يومًا، ولا ساعة. ولتنطلق من قلب اجتماع يهـودي، ينعقـد في عاصمة التمدن هذه، بادرة عون ضخم...

بيد أن فكرًا أعظم بكثير يجب أن ينبثق من هذا الزخم الأول. ومن يدري؟ لعل الله الذي يوجه مسار الأمور كلها قد سمح بهذه الكوارث المفجعة لكي يتيح لجميع الديانات فرصة مهيبة لأن تتعاون فيما بينها(٤٢).

ويدعوه مؤسسو التحالف إلى الانضمام إلى حركتهم، التي تتخذ هنا موقعًـا وسطًا بين المؤسسات التبشيرية المسيحية والمنظمات الإنسانية الأولى. وهدف المنظمة هو أن تنشر في العالم النموذج الفرنسي للتحرير، والذي يمر عبر إلغاء

التمييزات كما عبر تكوين إنسان جديد، عامل أصبح الدين بالنسبة له شأنًا من شئون الحياة الخاصة. والأمر يتعلق أيضًا في هذه الحالة المحدَّدة بتطبيق عالمي لبرنامج الثورة الفرنسية.

ويصبح كريميو رئيسًا للتحالف في عام ١٨٦٣. وسوف يمارس فيه نشاطًا لا يفتر. وبدفع منه، ينمو التحالف بسرعة في كل أوروبا الغربية، إلاّ أنه، بالرغم من اتجاهه العالمي، إنما يبقى فرنسي الفكر والتنظيم بدرجة عميقة، حتى وإن كان الفرنسيون لا يشكلون غالبية المنتمين إليه. وفي عام ١٨٨٠، يضم التحالف ٣٤٩ لجنة محلية، بينها ٥٦ لجنة في فرنسا (بما في ذلك الألزاس واللورين). وفي عام ١٨٨٥، يصل عدد أعضائه إلى أكثر من ٣٠٠٠٠ عضو، بينهم فرنسيون تقل نسبتهم عن ٤٠ % بقليل(٤٣). وهو يتحول إلى نموذج لتكوين منظمات إنسانية يهودية كبرى في البلدان الجرمانية والأنجلو ـ ساكسونية. وهكذا نجد أن الهزيمة الفرنسية في حرب ١٨٧٠ـ ١٨٧١ سوف تسمح بتأكيد وجود الجمعية الأنجلو ـ يهودية، شريكة التحالف ومنافسته. والعلاقات في البداية جد قوية فيما بين هذه المؤسسات المختلفة، بيد أن العلاقات تتراخى، خاصة بين الفرنسيين والألمان، في أواخر القرن التاسع عشر. على أن المنظمة الألمانية المنافسة، منظمة الهلفسفيراين [جمعية مساعدة يهود ألمانيا]، لن تتأسس إلاّ في عام ١٩٠١، وهدفها هو مكافحة الهيمنة الثقافية الفرنسية في صفوف الطوائف اليهودية التي تحصل على العون(٤٤).

والنشاط الأول للتحالف هو لفت انتباه الحكومات الأوروبية إلى حالة السكان اليهود، خاصة في أوروبا الشرقية وفي البلقان. ويُكثر كريميو في هذا الاتجاه من التدخلات والتحركات. وبدفع من نرسيس ليفين، لا يجري تعريف التحرير على أنه مجرد نيل المساواة في الحقوق؛ فهو يمر عبر التحرر من أشكال البؤس الراجعة إلى الجهل، ومن ثم يصبح الفعل المدرسي جوهريًا. وهذه رسالة "إحياء" حقيقية ليهود الشرق يتوجب الاضطلاع بها. وفي غضون بضع سنوات، يتزود التحالف بشكبة غير عادية من المدارس الممتدة إلى مجمل حوض البحر المتوسط وإلى البلقان، والهدف من ذلك هو إصلاح يهود الشرق عن طريق التعليم. وسوف تصبح فلسطين موقع فعل متميز.

وينبع نجاح التحالف من عاملين رئيسيين: من جهة، الدعم الذي تقدمه العائلات اليهودية الأوروبية الكبرى، آل روتشايلد وخاصة البارون هيرش. فهذا الأخير، المولود في عام ١٨٣١، قد كَوَّنَ لنفسه واحدة من أعظم الثروات في عصره، وهي ترجع، ضمن أمور أخرى، إلى امتياز خط السكك الحديدية بين أوروبا الغربية والقسطنطينية عبر البلقان، وهو امتياز حصل عليه في عام ١٨٦٩. وبفضل هذا العمل الإنساني الخيري النشيط الذي قام به كبار الوجهاء، سوف يتمتع التحالف بإمكانات مالية مهمة. وفي عام ١٩١٤، نجد أنه يرعى ١٨٨ مدرسة موجَّهَة لـ ٤٨٠٠٠ تلميذ. ومن جهة أخرى، يلبي التحالف احتياجًا لدى العائلات اليهودية السيفاردية التي تريد منح أبنائها تعليمًا حديثًا دون الالتحاق بالمدارس التبشيرية المسيحية.

وتسمح قراءة نشرات التحالف بتكوين فكرة متباينة الظلال عن العالم اليهودي الأوروبي والشرقي في ذلك الزمان. فنحن نشعر بأن الجماهير الغفيرة من سكان الشرق الأوروبي بسبيلها إلى أن تصبح فقيرة وبأنها تخضع لتشريعات تمييزية، ثم نشعر بالحالة الأسعد بالأحرى والتي يتمتع بها يهود الدولة العثمانية الذين، بالرغم من كونهم يحيون في وضع فقر نسبي، يستفيدون من الحماية المزدوجة التي توفرها السلطات العثمانية والقناصل الأوروبيون المسارعون إلى التحرك لتولي الدفاع عنهم. ولم تكن الهجمات ضد اليهود في مدن شرق البحر المتوسط نادرة: فمرتكبوها لم يكونوا مسلمين، وإنما كانوا من الأروام الذين يستعيدون من حين إلى آخر توجيه الاتهامات الخاصة بارتكاب جرائم شعائرية. وينحط وضع اليهود في بلاد الإسلام حيثما وجدت السلطة العثمانية صعوبة في فرض احترامها، في بلاد الرافدين (بيد أن واليًا مصلحًا كمدحت باشا يتمكن على نحو فعال من تولي الدفاع عنهم في سبعينيات القرن التاسع عشر) أو في اليمن. والوضع أكثر مدعاة للأسف بكثير في المغرب (تونس والمغرب الأقصى) وخاصة في فارس. ومما لا جدال فيه أن الدولة العثمانية في زمن التنظيمات تقدم صنيعًا مهمًا لمجمل السكان اليهود الخاضعين لسلطتها، بحيث إن وضعهم يعتبر في كثير من النواحي أرقى من وضع السكان اليهود في الإمبراطورية الروسية أو في البلقان، وبحيث إن التباين إنما يتزايد على مر

الزمن بدلاً من أن يتضاءل.

وتهنئ الديبلوماسية الفرنسية نفسها على عمل التحالف، الذي يفرنس يهود أراضي الإسلام، موسعًا بذلك من جمهور المتعاطين مع فرنسا في شرق البحر المتوسط. ومن الناحية الفعلية، وغالبًا من الناحية القانونية، يصبح يهود الدولة العثمانية محميين فرنسيين.

تحولات فلسطين

تترافق استعادة سلطة الباب العالي بعد عام ١٨٤٠ مع بدء تطبيق الإصلاحات العثمانية، **التنظيمات**. والحال أن البرنامج الطموح، القائم على تدشين ليبرالية اقتصادية وعلى إقامة نظام إداري يستلهم النموذج الفرنسي، هو برنامج لا يمكن تطبيقه إلاّ تدريجيًا. ورهان الأرض المقدسة في صراعات الدول العظمى إنما يدفع الحكومة المركزية إلى أن تراقب بشكل خاص شئون هذه المنطقة: فسنجق القدس، مع ارتباطه من الناحية النظرية بإيالة صيدا، يتبع العاصمة مباشرة[٤٥] (الشمال الفلسطيني، خارج السنجق، يشكل جزءًا من هذه الإيالة). وبعد أزمة عام ١٨٦٠، أنشأ الباب العالي ولاية سوريا الكبرى. وفي عام ١٨٧٢، جرى فصل السناجق الفلسطينية الثلاث (نابلس، عكا، القدس) عنها لكي تشكل ولاية القدس قصيرة العمر التي لم تدم غير شهرين. وعندئذ يجري من جديد ربط عكا ونابلس بدمشق بينما يصبح سنجق القدس ذا حكم ذاتي (الواقع أنه يجري "فصله"، أي جعله تابعًا للقسطنطينية مباشرةً). وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٨٨٧، سوف يجري تقسيم سوريا إلى ولايتين، بيروت ودمشق، وسوف يجري ربط سنقجي نابلس وعكا ببيروت[٤٦].

وكما في الولايات العثمانية الأخرى، نجد أن الوالي لا يشغل منصبه إلاّ لبضعة أشهر، والهدف من ذلك هو تجنب عودة ظهور سلطات إقليمية على غرار السلطة التي أقامها الجزار باشا. ويفقد الوالي السيطرة على الشئون المالية ولا يعود يمارس سلطة على الجيش. ويتوجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار مجلس الولاية الذي يضم الأعيان. وهؤلاء الأخيرون لهم نفوذ معين وذلك بالنظر إلى علاقاتهم الشخصية مع الأوساط الحاكمة للدولة العثمانية.

ويجري الإبقاء على الإجراء الذي استحدثه المصريون والذي يتمثل في ضم ممثلين مسيحيين ويهود إلى المجلس[٤٧]. وهم ليسوا شخصيات منتخبة بل أشخاص وقع عليهم الاختيار بحكم ما يتمتعون به من نفوذ محلي وبحكم خبرتهم ودرايتهم بمشكلات المنطقة. ولكي يتسنى للنظام أن يعمل، خاصة في مجال الضرائب والتجنيد، يجب لصفتهم التمثيلية أن تكون حقيقية.

والأولوية المعطاة للشئون البلقانية يترتب عليها أن العثمانيين لا يتمتعون إلاّ بالقليل جدًا من الإمكانات المالية والإدارية والعسكرية اللازمة لحفظ النظام في المناطق السورية غداة التمرد على الإدارة الحديثة والسلطوية التي فرضها إبراهيم باشا. ومن ثم فليس غريبًا أن البدو والجبليون يظلون في أربعينيات القرن التاسع عشر في حالة عصيان نسبي، وأن سيطرة العثمانيين على السكان تصبح أضعف تمامًا من سيطرة المصريين عليهم، خلال العقدين الأولين لاستعادة سلطة العثمانيين. وتتواصل الحروب المحلية وأعمال قطع الطرق. على أن قوة الفصائل المحلية تشرع بالأفول وتصبح الفوضى الظاهرة أقل أثرًا. وبفضل تكثيف العلاقات التجارية الداخلية والخارجية، يبدأ تقدم اقتصادي في الاتضاح بجلاء تام[٤٨].

ولا يحوز العثمانيون الإمكانات الكافية لاستعادة النظام إلاّ غداة حرب القرم. وكانت أعمال الشغب المضادة للأوروبيين في نابلس في عام ١٨٥٦ قد أوضحت الضرورة الملحة لاستعادة زمام الموقف: فإعلان **الخط الشريف** المحرِّر قد استثار غضب المسلمين، وقد تفجرت أعمال الشغب عندما أقام كبير الأساقفة البروتستانت في القدس جرسًا في الكنيسة المحلية الصغيرة، بينما قام الموظفون القنصليون الأوروبيون برفع أعلام بلدانهم على منشآتهم. فهجم الجمهور على المسيحيين والأجانب (ولكن ليس على اليهود والسامريين)، وأمكن تفادي المذبحة في آخر لحظة وذلك بفضل التحرك النشيط الذي قام به العامل على المدينة. وتجري هذه الأحداث على أساس تزايد للتوترات الطائفية في مجمل سوريا سوف يفضي إلى مذابح عام ١٨٦٠ في لبنان وفي دمشق. وخلال تلك السنة الحاسمة، سيصبح المسيحيون والمسلمون على شفا المواجهة في فلسطين، لكن سياسة الباب العالي النشيطة في دمشق سوف تسمح بتجنب

تدهور الوضع في الأرض المقدسة[٤٩].

والحال أن غياب أعمال العنف الطائفية الكبرى في فلسطين في القرن التاسع عشر إنما يجد تفسيره في سيطرة أفضل على هذه المنطقة، التي اعتبرتها السلطات العثمانية منطقة ذات أهمية حيوية وذلك بالنظر إلى ضخامة الوجود الأجنبي فيها، كما يجد تفسيره أيضًا في التواصل الأكثر تأخرًا بكثير في هذا الجزء من المجال السوري لنظام الفصائل، الذي تمثلت مأثرته في تحييد التناحرات الدينية. وحتى إذا كان المسيحيون الفلسطينيون يدخلون، في اللحظة المباشرة، في لعبة الحمايات القنصلية، فإن عدم وجود ذكرى للمعاناة سوف يسمح في القرن العشرين بانبثاق شعور قومي مجاوزٍ للطائفية، في حين أن ذكرى أحداث القرن التاسع عشر في لبنان وسوريا (بعد عام ١٩٢٠) سوف تنيخ بكلكلها على الهويات السياسية الآخذة بالتشكل.

وفي ١٨٥٨ ــ ١٨٥٩، تجري استعادة النظام بشكل حاسم في منطقة نابلس على أثر سلسلة من الحملات العسكرية الحقيقية. وتشهد ناحيتا الخليل والقدس المصير نفسه في عام ١٨٥٩. وفيما يتعلق بالبدو، تشن السلطات العثمانية حملات عسكرية متقطعة غير مجدية خلال فترة حرب القرم. وبشكل أكثر فعالية، تستخدم هذه السلطات بعض القبائل لمحاربة قبائل أخرى. وخلال نحو خمس وعشرين سنة، نجد من ثم أن زعيمًا بدويًا من الجليل، هو عقيل أغا، يتمتع إلى هذا الحد أو ذاك بمهمة احتواء البدو. وهو يشكل قوة محلية حقيقية وله علاقات مضطربة مع السلطات العثمانية. وغالبًا ما يكون الدواء أسوأ من الداء، فالزعيم البدوي يفرض إتاوات باهظة على السكان المستقرين. والأبهة التي يحيط بها نفسه تلفت انتباه الرحالة الغربيين، مثال ذلك انتباه إدوارد، أمير ويلز، الذي يزور الأرض المقدسة في عام ١٨٦٢. وهو يسعى بدهاءٍ إلى الفوز بالحماية الفرنسية متذرعًا بأصل جزائري وبإظهار نفسه في مظهر الحامي لمسيحيي الجليل خلال أحداث عام ١٨٦٠[٥٠]. وهو يبدو كخليفة لضاهر العمر الزيداني، ويسود اشتباه بأنه يريد إنشاء كونفيدرالية للقبائل العربية تحت حماية فرنسا[٥١]. بيد أن فرنسا لا يمكنها منع العثمانيين من استعادة نظامهم في ١٨٦٣ ــ ١٨٦٤: ويضطر الزعيم البدوي في البداية إلى الهرب إلى شرقي الأردن ثم

إلى مصر. وبفضل وساطة قام بها الأمير عبد القادر، يجري السماح له بالعودة إلى الجليل ويموت بلا حول ولا طول في عام ١٨٧٠.

واعتبارًا من عام ١٨٦٠، يجري تشجيع استقرار البدو. وتقوم السلطات العثمانية في شرقي الأردن بتوطين شراكسة، وهم مسلمون قوقازيون فارون من التقدم الذي تحرزه السيطرة الروسية، وتستخدم ميليشيات كردية لمحاربة البدو. فتتضاءل أعمال النهب التي يقومون بها. وفي الوديان والسهول الساحلية، يصبحون تدريجيًا شبه مستقرين، بينما تظل أراضي شرقي الأردن مجالهم المفضّل. وسوف تقع آخر غارة بدوية كبرى خلال الحرب التركية ــ الروسية في ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨، عندما يضطر العثمانيون إلى خفض وجودهم العسكري في فلسطين.

وهكذا نجد أن الأمر لا يقتصر على استعادة السكينة في فلسطين، إذ تبدأ مناطق شرقي الأردن دخول عصر الاستقرار. فمنذ بداية القرن التاسع عشر، نجد أن حدود البداوة ــ وهي في واقع الأمر منطقة اتصال بين المناطق المزروعة ومجال الترحل الخالص ــ إنما تميل إلى التزحزح باتجاه الداخل الآسيوي. وبمجرد تحقق شيء من الأمن، يستقر فلاحون قادمون من المناطق المجاورة ويفلحون الأراضي التي تنازلت عنها لهم السلطات العثمانية. ويستفيد الزعماء البدو من هذا الوضع فيتحولون إلى كبار ملاك عقاريين، محولين أفراد قبائلهم إلى فلاحين، مؤقتين في البداية ثم دائمين بعد ذلك. والحال أن مراكز فلسطين الحضرية، كنابلس، إنما تعزز نفوذًا اقتصاديًا واجتماعيًا كان ماثلاً بالفعل في العصر السابق.

ويشجع العثمانيون بقوةٍ هذه الآلية المزدوجة، الهجرة من الخارج وتحول البدو التدريجي إلى مزارعين عبر تآكل الترحل. وكلما زاد عدد من لهم مصلحة في حفظ النظام العام، كلما تسنى فوز الباب العالي باحترام أكثر. وبعد عام ١٨٧٠، لم تعد حدود البداوة على خط نهر الأردن، بل في منطقة مدن العصر القديم السابقة التي يجري السكن فيها من جديد: جرش، عمان، مأدبه، الكرك. وفي هذه المواقع الأخيرة، يشارك المسيحيون بنشاط في إعادة استيطان الداخل. وبما أن بعضهم كاثوليك يتبعون بطريركية القدس اللاتينية، فإنهم

يخضعون للتوجيه من جانب مبشرين قادمين من أوروبا(٥٢). وفي هذه المراكز الحضرية الجديدة، تبدأ جماعات عائلية، مسلمة أو مسيحية، صعودًا اجتماعيًا سوف يدفعها في القرن العشرين إلى مناصب مسئولية في دولة شرقي الأردن الجديدة ثم في دولة الأردن.

وفي الفترة التي تعقب حرب القرم، تتشكل أسس فلسطين الحديثة في إطار **التنظيمات**(٥٣). ويكمن عاملان رئيسيان في أساس التحولات الجارية: فاستعادة النظام العام إنما تعد الآن واقعًا ملموسًا يجد ترجمة له في مد الزراعات إلى المناطق الجبلية (لم تعد أشجار الزيتون ضحية لأعمال التخريب والتدمير الناتجة عن المعارك فيما بين الفصائل المتنافسة) وفي المناطق السفلى (الساحل والوديان)؛ وتقدم الاتصالات مع أوروبا يدمج فلسطين دمجًا أكثر بكثير في السوق العالمية. وبسبب الضعف النسبي لسكان هذه المنطقة، فإنها إنما تتمتع بفوائض زراعية يجري تصديرها إلى الأجزاء الأخرى في الدولة العثمانية أو إلى أوروبا. وإذا كان الصابون يظل منتجًا اقتصاديًا رئيسيًا، مع فورة حقيقية للإنتاج الصناعي في نابلس، ويسمح بتنمية مزارع أشجار الزيتون، إلاّ أن نقص القطن بسبب حرب الانفصال إنما يجر إلى نمو سريع لزراعة هذا المحصول في ستينيات القرن التاسع عشر، ثم تتراجع هذه الزراعة في العقد التالي مع عودة الحقول الأميركية إلى إنتاج القطن. والشيء الأكثر أهمية بكثير بالنسبة للمستقبل هو توسيع زراعة الحمضيات في المناطق الساحلية. فبرتقال يافا الشهير يتجه أولاً إلى السوق العثمانية، بيد أنه، اعتبارًا من منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر، يأخذ طريقه إلى أوروبا وبكميات ملحوظة مع تقدم تقانات التعبئة. ومنذ ذلك الحين، نجد أن الاستثمار في زراعة الأشجار في السهول الساحلية يصبح مربحًا بشكل خاص. ومصانع صابون نابلس والحمضيات هي الشاهد على وجود حركة قوية للنمو الاقتصادي الداخلي، الموجود في العصر السابق، تسمح لها تحولات عصر الإصلاحات العثمانية باتخاذ مقاييس غير متوقعة، وذلك بالرغم من غياب تقدم تكنولوجي رئيسي. ويجري تكثيف الإنتاج بادئ ذي بدء على أساس أساليب تقليدية.

وحتى في المناطق الداخلية، تصبح الزراعة مربحة. فالقانون العقاري

العثماني لعام ١٨٥٨، وهوأحدث التدابير التي استحدثتها **التنظيمات**، إنما يطمح إلى الإنماء الزراعي للدولة العثمانية. ذلك أن هذا القانون، إذ يراجع المعايير التقليدية للتشريع العثماني، الذي أعطى الدولة نوعًا من الملكية الأعلى لغالبية الأراضي (ما يسمى بأراضي **الميري**)، إنما ييسر تسجيل صكوك ملكية سعيًا إلى تعزيز الشعور بالملكية الفردية وإلى مكافحة أشكال الاستثمار الجماعي: فالمزارع، وقد اطمأن إلى أنه يعمل لحسابه ولحساب ذريته، سوف يهتم بمحاصيله اهتمامًا أكبر، الأمر الذي سوف يكون مفيدًا بالنسبة لموارد الدولة. ثم إن تحقيق الاستقرار للملكية عن طريق إصدار الصكوك من شأنه أن يسمح باندماج أفضل في الاقتصاد النقدي لأن الأرض ستصبح من ثم قابلة للرهن. والواقع أن جانبًا عظيمًا من الأراضي لن يحصل عليه الفلاحون، بدرجة أقل في الأراضي الزراعية القديمة ــ حيث تعتبر الاستثمارات العائلية تقليدية ــ مما في مناطق الاستصلاح لأجل الزراعة. وخوفًا من الاضطهاد الذي تمارسه الدولة والمتجسد في مطالبات أقوى في مجال الضرائب والتجنيد، يسعى فلاحو أراضي **الميري** إلى كسب الحماية من جانب الأعيان الذين بفضل نفوذهم التقليدي على إدارة الريف (هم غالبًا ملتزمون سابقون) يخففون جزئيًا من حجم الضرائب الجديدة في مقابل تسجيل الأراضي باسمهم. وفي أغلب الأحوال، نجد أن تكوين الملكية العقارية ليس غير تشريع لوضع فعلي كان قائمًا بالفعل في الفترة السابقة.

وهكذا تتشكل ملكيات عقارية كبيرة لصالح عائلات الأعيان، المقيمين عمومًا في المدن. ويضاف إلى امتلاك الأرض تعزيز علاقات التبعية عبر العلاقة الناشئة بين الأسر الفلاحية (**الحمولة**) والأعيان. ويضعف الدور الاجتماعي لبعض العائلات الكبيرة، بل ويتلاشى، إلاّ أنها تحل محلها عائلات أخرى منبثقة عمومًا من الأوساط الحضرية التجارية أو من الفئة العليا من الفلاحين. وهذه العائلات، وانطلاقًا من رأس مال صغير، إنما تنخرط في صعود اجتماعي سوف يجعل منها أحد المصادر الرئيسية للبورجوازية الفلسطينية في القرن العشرين، بما في ذلك في شتاتها بعد عام ١٩٤٨.

كما أن الإنماء يجد له ترجمة أيضًا في سياسة بيع لأراضي الدولة، وهي

سياسة تتماشى مع ضرورة إنقاذ خزائن إدارةٍ يعوزها المال بشكل متزايدٍ باطراد كما مع حرص على تشجيع زراعة محاصيل جديدة. وفي شمالي فلسطين، التابع لبيروت ولدمشق، يجري إعطاء دور رئيسي لكبرى العائلات من الروم الأرثوذكس البيروتيين والتي تستأثر بملكيات زراعية كبيرة. فعائلة سرسق وحدها تحوز ملكيات شاسعة تصل إلى أكثر من ٢٣٠٠٠٠ دونم خلال ستينيات القرن التاسع عشر (الدونم = عُشر هكتار). ويلعب الملاك الجدد، في قراهم، دور الملاك وجباة الضرائب ومقرضي المال والحُماة. وباستثمارهم في الزراعة، يقدمون للفلاحين أدوات عمل أحدث ويجتذبون عمالاً زراعيين معدمين من مناطق أخرى في فلسطين[٥٤]. وسياستهم قوامها أن يضعفوا إلى أكبر حد ممكن الحقوق التي يمنحها الانتفاع للحائزين الذين استغلوا الأراضي نفسها لعدد معين من السنين، بينما يجنون دخولاً ملحوظة من ممتلكاتهم.

وهذا النهوض الاقتصادي إنما يبدو أنه يتحقق عبر توسيع المساحات المنزرعة بأكثر مما عبر تقدم لأساليب الزراعة. وتبدأ في الانطراح بالفعل مسألة الأراضي الرطبة الخطرة بالنسبة للصحة. وكما في مجمل البلدان المطلة على البحر المتوسط (بما في ذلك البلدان المطلة عليه من ضفافه الشمالية)، نجد أن وجود المرتفعات الجيرية المجتمعة مع منخفضات طينية عميقة ويصعب نزحها قد أدى، غالبًا على أثر رحيل للسكان راجع إلى انعدام دائم للأمن، إلى تكوين مناطق مستنقعات وأحواض لبعوض الملاريا وبؤر لحمى المستنقعات[٥٥]. وفي فلسطين، نجد أن تلك هي الحالة بشكل خاص في ممر إيسدرلون، بين مرتفعات منطقة نابلس ــ القدس، والجليل والسهل الساحلي إلى الجنوب من جبل الكرمل. واستعادة زراعة المحاصيل في هذه المناطق تتطلب في آن واحد استثمارات ضخمة ــ حيث يتحقق التطهير والتجفيف عبر زرع أشجار كأشجار الأوكاليبتوس، كما فعل ذلك الفرنسيون في الجزائر وعبر تكوين شبكة صرف مناسبة ــ ومراعاة المخاطر الصحية خلال الأعمال الأولى. ويتطلب هذا كله مشروع استيطان حقيقيًا ليس بمقدور الفلاحين الفلسطينيين تنفيذه. ولايجري الحرص على أعمال كهذه إلاّ في قطاع بيّارات الحمضيات الساحلية وفي العمليات المنسجمة كعمليات آل سرسق.

والحال أن التحولات الجارية إنما تحفز تغيرات ديموغرافية مهمة[٥٦]. والعدد الدقيق لسكان فلسطين في القرن التاسع عشر (أو بشكل أدق في الإطار الجغرافي لفلسطين زمن الانتداب التالية) ما يزال موضع خلاف بين المؤرخين الديموغرافيين وذلك بالنظر إلى عدم دقة البيانات، المتأتية في آن واحد من المعلومات الضريبية والمالية كما من ملاحظات الرحالة. والشيء المؤكد هو أن الركود الديموغرافي المميز للعقود الأولى من القرن قد أخلى المكان لحركة نمو قوية، وذلك بالرغم من الأحداث المضادة لذلك كوباء الكوليرا في ١٨٦٥ ـ ١٨٦٦ والذي من الوارد أنه قد أدى إلى موت عدة آلاف، والحرب الروسية ـ العثمانية في ١٨٧٦ ـ ١٨٧٨ والتي من الوارد أن أكثر من ١٠٠٠٠ مجند فلسطيني قد لقوا حتفهم فيها. وهكذا يمكن القول إنه قد حدث انتقال من عدد سكان مستقر يتراوح بين ٣٥٠٠٠٠ و٣٦٠٠٠٠ إلى عدد يتراوح بين ٤٦٠٠٠٠ و٤٧٠٠٠٠ نسمة نحو عام ١٨٨٢. ويتمثل دليل آخر على وجود هذا الانطلاق الديموغرافي بعد عام ١٨٦٠ في بدء عودة الاستيطان الريفي لشرقي الأردن، والذي يشارك فيه الفلسطينيون.

وتصبح معدلات النمو أعلى بالفعل من معدلات النمو في أوروبا الصناعية. والمراقبون الغربيون لا يلحظون ذلك: على العكس، فالإمكانيات الزراعية لهذه المنطقة إنما تصدمهم، والتباين الظاهر بين الكثافة السكانية المتدنية وجسامة أطلال العصور المختلفة تجعلهم يؤمنون بأن السكان في العهد القديم كانوا أوفر عددًا بكثير. والأرقام النادرة، والتي لا قيمة علمية لها، والتي تركها مؤرخو العصر القديم واستعيدت دون روح نقدية إلى أيامنا، إنما تتحدث عن كثافات أقوى بعدة مرات من كثافات أواخر القرن التاسع عشر. ومن المؤكد أن بإمكاننا أن نُقَدِّرَ أنه في فلسطين القرون الأولى من العصر المسيحي، وفي سوريا بشكل أعم، كانت توجد كثافات ريفية قوية جدًا جعلتها التحولات المناخية أو البيئية بعد ذلك مستحيلة، إلاّ أن من المرجح أن الحدود القصوى القديمة قد جرى اللحاق بها منذ بداية التحول الديموغرافي في المجال العثماني (ربما ليس في العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر، وإنما على الأرجح في العقود الثلاث الأولى للقرن العشرين، مع تباينات إقليمية قوية).

والبيانات الأجدر بالثقة، والصادرة عن الإدارة العثمانية، تسجل السكان الذين يتمتعون بوضعية مواطنين عثمانيين. وبحسب هذه البيانات، نجد أن التوزيع الطائفي يتغير قليلاً جدًا خلال هذه السنوات في المجال الذي سوف يصبح مجال فلسطين زمن الانتداب. ففي عام ١٢٧٦ للهجرة (١٨٥٠ ــ ١٨٥١)، كان هناك ٣٠٠٠٠٠ مسلم و٢٧٠٠٠ مسيحي و١٣٠٠٠ يهودي (الإجمالي: ٣٤٠٠٠٠)؛ وفي عام ١٢٧٧ (١٨٦٠ ــ ١٨٦١)، كان هناك ٣٢٥٠٠٠ مسلم و٣١٠٠٠ مسيحي و١٣٠٠٠ يهودي (الإجمالي: ٣٦٩٠٠٠)؛ وفي عام ١٢٩٩ (١٨٨١ ــ ١٨٨٢)، كان هناك ٤٠٣٧٩٥ مسلم و٤٣٦٥٩ مسيحي و١٥٠١١ يهودي (الإجمالي: ٤٦٢٦٤٥)[٥٧]. وهذه الأرقام لا تأخذ بعين الاعتبار الأجانب اليهود، الذين يعتبر عددهم الفعلي محل جدال.

وإذا كانت المدن تجمع عادة نسبة مهمة من السكان (بأكثر مما في أوروبا زمن النظام القديم)، فإن التغيرات الجارية إنما تجد ترجمة لها في نمو قوي للمدن الساحلية، خاصة يافا، ميناء العلاقات مع أوروبا، ولكن أيضًا القدس، بؤرة تلاقي المصالح السياسية ــ الدينية للدول الأوروبية. وإذا كان بناء خطوط السكك الحديدية لايزال مجرد مشروع، فإننا نجد، بالمقابل، كما في بقية الشرق الأدنى، إنشاء الطرق الممهدة الأولى والصالحة لمرور العربات، وهو ما يعني تضاؤل استخدام الجمل كدابة حمل لصالح العربة التي تسحبها الخيول، بما يشكل المرحلة الأولى لثورة المواصلات في هذه المنطقة من العالم. وفي عام ١٨٦٨ يتم افتتاح طريق يافا ــ القدس مع إنشاء خط منتظم للنقل. وتتشكل الشبكة الأولى للطرق في سبعينيات ــ ثمانينيات القرن التاسع عشر مع الاتصال بين المدن الساحلية ومدن الداخل، ثم بين المدن نفسها، بما يؤدي إلى الارتباط بالمناطق المجاورة[٥٨].

ويرجع الاستيطان الجديد للمناطق الساحلية في جانب منه إلى هجرة قادمة من مناطق أخرى في الشرق الأدنى العثماني، مصر وسوريا الشمالية، إلاّ أنه، بالنظر إلى الحالة الراهنة لمعارفنا، ليس بالإمكان تحديد نسبة النمو الطبيعي ونسبة الهجرة. وبالمثل، نجد في الجليل تجمعات مستقرة للمهاجرين القادمين من مناطق نائية: مسلمين من القوقاز أو من البلقان وتركز قوي لجزائريين مرافقين

للأمير عبد القادر الجزائري الموجود في منفاه في دمشق. وفي اللحظة نفسها، في منطقة حيفا، على أثر نفي مؤسس ديانة البهائية إلى عكا (١٨٦٨ ـ ١٨٧٧)، نجد أن بضع مئات من الإيرانيين البهائيين يتمكنون من التمركز في الزراعة والنشاطات الحضرية بالرغم من عداوة المسلمين لهم.

الأوروبيون في فلسطين[٥٩]

تتضح التحولات الجارية أيضًا في نمو الوجود الأوروبي، المرتبط بتقدم المواصلات: فالخطوط البحرية المنتظمة والتي تعتمد على السفن البخارية إنما تجعل فلسطين أقرب بكثير في حين أن التلغراف يصل إلى فلسطين في عام ١٨٦٤[٦٠]، بما يسمح باتصال فوري بالمراكز الغربية الرئيسية. إنه العالم الذي وصفه چول ڤيرن.

وفرنسا، بفضل حمايتها الدينية، تحتل الصدارة. وكلما أكثرت الطوائف الدينية الكاثوليكية من المنشآت الدينية والكنائس والمدارس والمستشفيات والفنادق للحجاج، كلما تزايدت أهمية بصمات فرنسا، خاصة بعلمها الذي يرفرف على هذه المنشآت كلها. وتحتل إنجلترا المرتبة الثانية من خلال نشاطات الأسقفية البروتستانتية الكبرى في القدس: وبما أنه قد تم التخلي عن الطموح إلى كسب اليهود إلى البروتستانتية، فإن التبشير إنما يتجه الآن إلى المسيحيين المحليين؛ وكما بالنسبة للفرنسيين، يمر هذا التبشير عبر أعمال إنسانية ومدرسية.

والروس لهم مكانة على حدة: فالحجيج الأهم يأتي من بلدهم، ومن هنا ضرورة رعاية بنايات ضخمة لاستقبال الحجاج، في حين أن منشآتهم المدرسية أدنى عددًا وجودةً من منشآت الفرنسيين والبريطانيين المدرسية. والمتعاطون الطبيعيون معهم هم الروم الأرثوذكس. لكن روسيا، في الشطر الثاني للقرن التاسع عشر، تشهد انحدار نفوذها على الكنيسة الأرثوذكسية العثمانية، والتي يعتبر كبار رجال الدين فيها من اليونانيين عرقًا. ويرد الروس على ذلك في الولايات العربية بالتوجه إلى المسيحيين المحليين العرب الذين يسعون إلى نزع وصاية كبار رجال الدين عليهم. وفي حين أن هؤلاء الأخيرين يهملون الأعمال

المدرسية، ينخرط ممثلو القيصر في عمل في هذا المجال لمواجهة خطر التحويل عن الملة والمتمثل في المساعدات المقدمة إلى المدارس الكاثوليكية والبروتستانتية. ويتخذ الصراع طابعًا سياسيًا سافرًا في سبعينيات القرن التاسع عشر للسيطرة على البطريركية الأرثوذكسية: فإذا كان المسيحيون العرب المتوحدون مع كنيسة روما يميلون إلى تهنئة أنفسهم على التقدم الذي يحرزه العرب الأرثوذكس، فإن هذا إنما يزعج بالأحرى قنصل فرنسا الذي يؤثر "نجاح العرب المروَّسين، والذين يشكلون أداة طيعة بيد سياسة الغزو التي تتبعها روسيا"[٦١].

وألمانيا قادم جديد إلى فلسطين[٦٢]. فهي في البداية تمثلها شيعة متدينة سوابية، جماعة الهيكل، التي تنظم هجرة فلاحية إلى فلسطين لكي تتواجد في الأرض المقدسة ولكي تستنهض سكان الشرق المنحطين عن طريق ضرب مثل حياة مسيحية صادقة. ويجري إنشاء مستعمرة أولى في عام ١٨٦٩ قرب يافا، ثم ثانية على جبل الكرمل قرب حيفا في عام ١٨٧٤، وإذا كانت البدايات صعبة (في عام ١٨٦٧ يجيز التشريع العثماني امتلاك الأرض من جانب أشخاص حقيقيين أجانب)، إلاّ أن نجاحهم سريع، وهو يرجع أساسًا إلى إدخال عدد معين من التكنولوجيات الحديثة، خاصة في مجال النقل (العربات، الطرق) وفي مجال السياحة (هم أصحاب الفضل في إنشاء الفنادق الحقيقية الأولى) وفي مجال الزراعة. والحال أن الألمان، وهم فلاحون ممتازون في بلدهم الأصلي، إنما يدخلون الابتكارات الزراعية الأوروبية: فهناك نظام حديث لمناوبة المحاصيل، واستخدام للأسمدة وللمخصبات، واستخدام لمحاصيل جديدة خاصة المحاصيل العلفية، وتربية للماشية وبستنة وزراعة للخضروات وتربية للماشية المدرّة للألبان. وكانت كل هذه السمات غائبة آنذاك عند الفلاحين العرب. ويستخدم الألمان الآلات الزراعية الأولى، ومن هنا وجود الحرف في مستعمراتهم. وهم ينخرطون في زراعة الأعناب[٦٣].

وإذا كان عددهم يظل متواضعًا نسبيًا (٢٢٠٠ مستوطن في عام ١٩١٤)، فإنّهم قد أثبتوا أن الاستيطان الأوروبي، تحت السيادة العثمانية والحماية الأوروبية، كان قابلاً للحياة بالرغم من سوء العلاقات مع الفلاحين العرب

المجاورين. وسوف يستلهم الصهيونيون الأوائل هذه التجربة استلهامًا مباشـرًا. وعلاوة على عمل جماعة الهيكل، والذي استثار في البداية ريبة السلطات الألمانية، نجد أن الوجود الألماني، مع قيام الرايخ الثاني في عام ١٨٧١، إنما يصبح مهمًا وفق النموذج الإنساني والديني نفسه الذي تتخذه الدول الأوروبية الأخرى. وسعيًا إلى التحرك بشكل مستقل، ينسحب الألمان في عام ١٨٨٧ من الأسقفية الأنجلو ـ پروسية الكبرى، والتي تصبح أنجليكانية بصورة خالصة. ومجهود الألمان المتزايد هذا يزعج الدول العظمى الأخرى، المسارعة إلى الاشتباه بوجود نوايا خبيثة لدى شركائها.

والنمسا وإيطاليا وإسبانيا لها وجود أقل، بيد أنها اعتبارًا من سبعينيات القرن التاسع عشر تنازع الاحتكار الفرنسي للحماية الكاثوليكية منازعة ناجحة.

وهذا العمل متعدد الأشكال والذي تقوم به الدول الأوروبية له نتائج مهمة. فبما أن نشاطات هذه الدول تتخذ من القدس مركزًا لها، نجد أن النمو الاقتصادي والاجتماعي والديموغرافي لهذه المدينة إنما يرتبط ارتباطًا مباشـرًا بالوجود الأوروبي، بما يخلق توازنًا قياسًا إلى الساحل، الذي يشهد بدوره نمـوًا سافرًا بالنظر إلى تحولات في التجارة والزراعة. وتميل كل دولة من الدول العظمى إلى تنمية المتعاطين المحليين معها وإلى منح الحمايات القنصلية بحرية، أولاً للمسيحيين ثم بعد ذلك لليهود، في حين أن الثقافة الأوروبية يتم نشرها عبر مدارس هذه الدول العظمى. واعتبارًا من سبعينيات القرن التاسع عشر، تميل فلسطين في كثير من النواحي إلى أن تصبح مجتمعًا متميزًا بسمات شرق البحر المتوسط.

كما أن الدراية بها تتحسن أكثر فأكثر. ومنذ أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، تدمج وكالة كوك السياحية الشهيرة فلسطين في رحلاتها الشرقية، بالتعاون من جهة أخرى مع جماعة الهيكل، وتنجح في اجتذاب ٤٢٠٠ سائح إلى زيارة فلسطين بين عامي ١٨٦٨ و١٨٨٢[٦٤]، بينما تنخرط الرهبانيات الكاثوليكية الفرنسية في تنظيم رحلات حج جماعية. وتوزع الشبكة التبشيرية على مموليها في أوروبا وأميركا صورًا لنشاطها في الأرض المقدسة، بما يجعل مشاهد المناطق التي عاش فيها المسيح معروفة ومألوفة.

وتتقدم المعارف العلمية. وقد انتهى زمن البحوث الفردية. وفي عام ١٨٦٥، نجد أن عددًا معينًا من الشخصيات البريطانية، وبعضها مرتبط بالأوساط الدينية والألفية البريطانية، كشافتسبري، يقرر تنظيم استكشاف منهجي وعلمي للبلاد التوراتية ـ الإنجيلية يتضمن، علاوة على البحوث الأركيولوچية، دراسة التاريخ الطبيعي وأعراف وعادات سكان الأرض المقدسة. وهكذا يتم إنشاء صندوق استكشاف فلسطين. وفي البداية، يتم تأمين التمويل عن طريق تبرعات عدد من المؤسسين. وبما أن هذا يبدو غير كاف، فإنه يجري التوجه إلى الجمهور الأوسع: إن المكتتبين سوف يحصلون على مجلة منتظمة، **الكوارترلي ستيتمنت**، في مقابل اكتتاباتهم. ويجري تجنيد موظفي صندوق استكشاف فلسطين من صفوف ضباط محترفين بريطانيين يجري توفيرهم لهذه الخدمة بصورة مؤقتة. وأشهرهم سوف يكون الرجل الذي سيصبح في المستقبل اللورد كتشنر. وفي البداية، سوف تكون العلاقات جد متوسطة القيمة مع الأركيولوچيين المحترفين الذين يعملون لحساب المنظمة لآماد محدودة. وإذا كان البحث عن معلومات ذات أهمية عسكرية ليس من مهامهم، فإنَّ الخرائط التي قاموا بإعدادها للمناطق الفلسطينية سوف تحرص على الحصول عليها السلطات العسكرية البريطانية بعد احتلال مصر في عام ١٨٨٢. وهكذا سيسمح عمل صندوق استكشاف فلسطين بالتوصل تدريجيًا إلى وصف حقيقي لفلسطين. وعديدون هم أعضاء صندوق استكشاف فلسطين الذين أعربوا عن تعاطفاتهم مع أطروحات الصهيونيين المسيحيين وبدوا مؤيدين لفكرة استيطان يهودي لفلسطين، الأمر الذي يؤجج انزعاج المسئولين الفرنسيين: فهم يعتبرون مشاريع الاستيطان الأنجلو ـ يهودي تهديدًا رئيسيًا.

والاستكشاف التوراتي ـ الإنجيلي ليس من صنع البروتستانت وحدهم. فبعض الأوساط الكاثوليكية تنزعج من النتائج الكارثية، بالنسبة للدين، للنقد التاريخي والأركيولوچي للكتاب المقدس. وبما أن هذه الأوساط لا تريد التمسك بتفسير إيماني وحرفي، فإنها تقرر العمل في الأرض المقدسة سعيًا إلى مناغمة الدين مع العلوم الحديثة. وهذا هو عمل الأب الدومينيكي لا جرانج، الذي ينشئ في عام ١٨٩٠ مدرسة الكتاب المقدس في القدس، بعدد قليل من الطلاب.

وسرعان ما سوف يكتسب عملهم العلمي أهمية بالرغم من الريبة من جانب روما خلال الأزمة "الحداثية"(٦٥). وفي القدس، تصبح مدرسة الكتاب المقدس المؤسسة العلمية الأولى في المدينة وتمارس تأثيرًا يتجاوز الأوساط الكاثوليكية. وكما عند پروتستانت صندوق استكشاف فلسطين، يضاف إلى البحث الأركيولوچي التوراتي ـ الإنجيلي بحث في أعراف وعادات سكان المنطقة: إذ يجب لهذا النهج الأنثروپولوچي أن يسمح بفهم أفضل لمجتمع الأزمنة التوراتية ـ الإنجيلية. وهكذا، ففي بداية القرن العشرين، نجد أن الأب جوسّان ينجز أول بحث أنثروپولوچي لسكان شرقي الأردن.

شارل نيتّر ومدرسة يافا الزراعية

في فترة ١٨٦٠ – ١٨٨٠ نفسها، يبدأ قوام الوجود اليهودي في التغير. ذلك أن فريقًا من سكان الجليل يغادر مواقعه القديمة لكي يستقر في القدس بينما ترتسم معالم هجرة جديدة قادمة من روسيا. وإذا كانت الاعتبارات الدينية قائمة دائمًا لتبرير السفر، فإنّ الشبان يهربون أيضًا من الواجبات القاهرة التي تنطوي عليها الخدمة العسكرية في الإمبراطورية الروسية. وهذه الحركات السكانية ترتبط بنمو القدس، حيث نحو نصف السكان يهود. وفي كل مكان إلى حد ما، ولكن خاصة عند القادمين الجدد، يسعى اليهود إلى الحصول على الحماية القنصلية ويحصلون عليها بالفعل.

وهذا الواقع يعبر عن نفسه أيضًا في عمل التحالف الإسرائيلي العالمي. فأحد مؤسسيه، وهو شارل نيتّر، كان قد كُلِّفَ بدراسة الحالة الأدبية والمادية لإسرائيليي فلسطين. وفي تقريره المقدَّم في عام ١٨٦٩، يشير إلى أن نسبة ١٥ % بالكاد من هؤلاء تمارس مهنة يدوية (الحرف) أو ترتبط بتجارة السلع الشائعة في الاستهلاك المحلي. وينكب الباقون على دراسة وتدريس التلمود. ولا يوجد من الناحية العملية مزارعون يهود (لقد وجد منهم اثنين، وقد أكد الناس له أنه لا يوجد آخرون بين المزارعين في المناطق التي لم يزرها). ومورد الرزق الوحيد هو الصدقات القادمة من الخارج، من بولنده أساسًا. وهذه الصدقات يحتكرها في معظمها "الكبار"، الذين لا يدعون لـ"الصغار" سوى حصة تافهة

من الأموال المرسَلة. ويحيا "الصغار" في البؤس وهكذا يمكن للمبشرين الإنجليز غوايتهم وتحويلهم عن ديانتهم. والمؤسسات التي أسسها فاعلو الخير الأوروبيون لا توجد إلاّ في القدس وهي موضع شبهات في نظر المتمسكين بأرثوذكسية دينية صارمة. إلاّ أن هناك رغبة قوية لدى جزء معقول من السكان في معالجة مصيبة التسول، وذلك عن طريق العمل.

ومن ثم يتوجب توفير نشاطات منتجة لهم. والصناعة لا يمكنها أن يكون لها مكان في فلسطين بسبب غياب الحماية الجمركية التي تحظر دخول منتجات مصنوعة في الخارج. ويتعين الاتجاه إلى زراعة الأرض: وكان مونتفيوري قد حاول ذلك وقد أدرك أن البستنة في المناطق الساحلية هي الطريق الذي يجب السير فيه، وهو ما يثبته نجاح أهل البلد في هذا المجال.

لكن ما لم يدركه السير موسى هو أنه إذا كان الإنسان الجائع مستعدًّا لعمل أي شيء كيما يحصل على الخبز، فإن طبيعته تكون لها اليد العليا ما أن يتم إشباعه، بحيث إنه لابد له من ثم أن يكون من مستوطنيها.

وأن من لم يفلح الأرض قط لا يعرف أن كل شقة محراث يجب أن تُروى بعرقه، ويجهل بأي ثمن من الكدح تكشف الأرض عن كنوزها.

وأخيرًا أن المزارع لا يرتجل؛ وأنه لابد من حثه ومتابعته وتوجيهه وأنه حتى عندما يكون قد أصبح رجلاً راشدًا، لابد أيضًا من الاهتمام به ومساعدته في بداياته، ومساندته في أزماته.

ويتطلب مشروع نيتّر عودة إلى الأرض يتم الإعداد لها بشكل يتميز بالعناية، وذلك من خلال تعليم الشبيبة تعليمًا ملتزمًا، الأمر الذي من شأنه إنهاء الصدقات المؤدية إلى التفسخ والسماح بتهيئة "ملاذ لسكان لابد لهم، ربما غدًا، من الهرب بشكل جماعي من تعصب الرومي المنتصر على الهلال". ومن ثم سيجري إنشاء مدرسة زراعية وشراء أراض يُعْهَدُ بها بعد ذلك إلى طلاب متخرجين من المدرسة[٦٦]. والحال أن مقترحات نيتّر إنما يتم اعتمادها بحماسة من جانب التحالف الإسرائيلي العالمي الذي يَعْهَدُ إليه بتنفيذها.

وينكبُّ نيتّر فورًا على العمل و، بفضل مساعدة من الحكومة العثمانية، التي

تنظر خاصةً إلى الجانب الإنساني لتنمية فلسطين من الناحية الاقتصادية، يشتري أرضًا شاسعة مساحتها ٢٤٠ هكتارًا قرب يافا، ويطلق عليها اسم ميكفيه إسرائيل ("أمل إسرائيل"). وفي البداية، كانت المصاعب جسيمة، حيث تكابد أوروبا من نزيف الدم الذي سببته الحرب الفرنسية ـ البروسية في ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ والتي تؤدي إلى توقف الاتصالات بين باريس وفلسطين لعدة أشهر. ويصطدم نيتر بلجنة استيطان لفلسطين يوجهها متدينون أرثوذكسيون يريدون فرض وصايتهم على المدرسة الجديدة مع استخدامهم لمنشآتها. ونجد أنفسنا بإزاء مواجهة بين منطقتين مختلفتين:

يريد التحالف مدرسة زراعية لتمكين الجيل الجديد في الشرق من كسب عيشه بكرامة؛ أمّا لجنة الاستيطان فهي تريد تكوين مستوطنات للإسرائيليين من جميع الأعمار ومن جميع البلدان. ولئن كان هذان الهدفان غير متعارضين، إلاّ أن من المؤكد أنهما جد مختلفين، كما يلاحظ ذلك جيدًا الدكتور لحمان نفسه.

فهل سوف يجري تكليف اللجنة الدينية المقيمة في يافا بحل هذه المعضلة؟

تعرفون رأيي في هذه المستوطنات: لا يمكن أن توجد مستوطنات زراعية دون مزارعين؛ ولا يمكن أن يوجد مزارعون دون تدريب مسبق؛ ولا يمكن أن يوجد تدريب مسبق لإناس جاوزوا سن الشباب. وقد شاطر التحالف هذه الآراء ـ فهل سيتخلى عنها لكي يتبنى أفكار لجنة الاستيطان؟ أم أن هذه اللجنة ستتخلى عن أفكارها لكي تتبنى أفكارنا؟ يجب أن نتأكد من ذلك قبل أي شيء آخر.

وإذا ما اتفقنا على الهدف، فستأتي المسألة الدينية. هؤلاء السادة أرثوذكسيون. وعَبَدَةُ العجل الذهبي كانوا يؤمنون بأنهم كذلك. سفينة تغادر الميناء، ورافدتها تسطع بالنحاس الجديد. ثم ترجع بعد رحلة طويلة وقد غطى الزبد رافدتها. البعض يرغبون في رد السطوع الأول إلى النحاس. والبعض الآخر يرفضون أن يمد أحد يده إليه. فمن هم المحافظون؟ لقد تمكن التحالف إلى اليوم من أن يَظَلَّ هذه الساحة المحايدة التي اجتمع الإسرائيليون من جميع الميول الدينية على مؤازرتها. فهل سيطيب للتحالف أن يكف عن أن يكون هذه الساحة؟

وبشكل ملموس، فمن غير الوارد أن يتم السماح لرجال الدين بالسيطر

على المؤسسة الجديدة. فهذا مشروع يتنامى مع مبدأ وحدة القيـادة. ثـم إنهـم يريدون أن يفرضوا على الطلاب ساعات طويلة من الصلوات اليومية، وهو ما يحول دون أي تعليم كفء. وإذا كان من الواجب الاهتمام باحترام الفـروض الدينية الرئيسية، كالسبت، وإذا كان من المرغوب فيه أن يتواجد حاخام مقيم في المدرسة، فمن غير الوارد احترام التعاليم التلمودية الخاصة بالزراعة في أرض إسرائيل: وبفضل الفتوى، يمكن التحايل على مسـألة العُشـر الواجـب دفعـه للاّويين، بيد أن مسألة السنة السبتية حيث لا يجب للمرء فلاحة الأرض إنما تعد مشكلة أكثر حدة بكثير. ويشعر نيتّر بالغيظ خصوصًا من رياء رجال الـدين، الذين يشددون على الاحترام المطلق للمبـادئ مـع تـوفيرهم سـبل التحايـل عليها(٦٨). وهو يكرّس الجانب الرئيسي من وقته لمدرسته، ثم يرجع إلى فرنسا لكي يواصل مهامه في صفوف التحالف مع زيارته لفلسطين بصورة منتظمـة سعيًا إلى متابعة تطور عمله، والذي عُهد به إلى مسئول متفرّغ.

وبوجه عام، نجد أن هذا التوتر بين ممثلي التحـالف وممثلـي اليهوديـة الأرثوذكسية إنما يخص العناصر الدينية القادمة من أوروبا الشرقية بأكثر ممـا يخص العناصر الدينية المنتمية إلى اليهودية السيفاردية. ففي مجمل عالم البحر المتوسط، نجد أن المنتمين إلى الملة السيفاردية، حتى وإن بدوا أحيانًا محافظين، إنما يتجنبون النزاع بين المتمسكين بيهودية ليبراليـة والأرثوكسـية المميـزة لليهودية الأشكينازية. ويمكننا أن نفهم هذا الموقف بإحالته إلى تبعية حيال الشكل الفرنسي لليهودية والذي يجسده التحالف كما إلى تسامح ومرونـة براجماتيـة، موروثين من تراث عظيم للعصر الوسيط وقبول ضـرورة عـدم معارضـة التحولات الجارية والتي سماها المشـتغلون بـالعلوم الاجتماعيـة فيمـا بعـد بـ"التحديث".

وفي بداية سبعينيات القرن التاسع عشر هذه، يأسف نيتّـر لعـدم حيازتـه الإمكانات التي تسمح له بالاستحواذ على قـرى بأكملهـا طرحتهـا الحكومـة العثمانية للبيع في الجليل، بيد أن الأولوية يجب أن تكون مـن نصـيب بنـاء المدرسة(٦٩). وهو يضطر بسرعة إلى الحد من طموحاتـه: فالمشـروع يبـدأ بثلاثين طالبًا، يصبحون أربعين في نهاية العقد. وربحية المشروع ليست مؤكّدة

وتطوره يتوقف على تبرعات التحالف والجمعية الأنجلو ــ يهودية والأفــراد، ومن بينهم البارون هيرش. وكما يذكر بذلك نيتّر في عام ١٨٧٥، فــإن هــذا الوضع لا يمكن أن يدوم: "يجب أن ننتج وإلاّ فسوف نهلك"(٧٠). والنفقات فــي عام ١٨٧٤ ترتفع إلى أكثر من ٥٠٠٠٠ فرنك وذلك في مقابل دخل يصل إلى ١٠٠٠٠ فرنك فقط(٧١). كما أن جانبًا كبيرًا من نشاطات المزرعة إنما يُعْهَدُ به إلى عمال عرب قادمين من قرى مجاورة. والمشروع هو مواصلة الاســتغلال باستخدام الطلاب السابقين الذين يحصل الواحد مــنهم علــى فــرنكين يوميًّــا وباستخدام العمال العرب الذين يحصل الواحد منهم على فرنك واحد يوميًا(٧٢). وسبب علاقة التفاوت في الأجر هو كفاءة الطلاب الأعلى وضــرورة تــوفير مستوى معيشي أفضل لهم مما للفلاحين العرب وإلاّ فإن هــدف المؤسســة ــ القضاء التدريجي على التسول الذي تشكو منه الطائفة اليهودية في فلســطين ــ لن يتسنى الوفاء به. والمحاصيل المنزرعة متنوعة: الشعير والقمح في الجانب الأكبر من المزرعة، بداية بستنة، خاصة الحمضيات، بما يشكل اقتفــاءً لأثــر الدرب الذي شقه سكان يافا. كما يجري الانخراط في زراعة الكروم وفي زرع الأشجار، خاصة الأيوكاليبتوس، على غرار ما فعله المستوطنون الفرنسيون في الجزائر(٧٣).

يهود فلسطين

يظل الييشوف متدينًا من حيث الجوهر، لكن المؤثرات الجديدة تبــدأ فــي إحداث فعلها، وذلك بفضل الأعمال الإنسانية الخيرية من جانب يهود أوروبــا الغربية الذين يتصرفون في اتجاه "إحياء" إخوتهم الشرقيين في الــدين. وفــي الشطر الثاني لسبعينيات القرن التاسع عشر، من الواضح تمامًا أن طابع الهجرة اليهودية قد تغير. وهو ما يؤكده لباريس كذلك باتريمونيو، قنصل فرنســا فــي القدس، في ١٨ يناير/ كانون الثاني ١٨٧٧:

منذ بعض الوقت وعدد كبير من اليهود، المنحدرين في غالبيتــهم مــن الولايــات البولندية التابعة لروسيا يجيئون لكي يستقروا في المدن، خاصة القدس. ويعتقد كثيرون من الناس هنا أن هذه الهجرة مدفوعة بما لا أدري أي أمل وهمي في إحياء مملكــة إســرائيل

القديمة، في مستقبل بعيد إلى هذا الحد أو ذاك. وأيًّا كان الأمر، فإن هذه الحركة الغربية إنما تستحق التفات الجميع، خاصة التفات الدعاية(٧٤). ومن الأهمية بمكان ألاّ نسمح بأن يصاب العنصر اللاتيني بالضعف: فكل ما يمكن أن يكون مفيدًا وعمليًا في هذا الاتجاه إنما يستحق تعاطفاتنا ومساندتنا، ولكن شريطة ألاّ تكون الروح الحاكمة في هذا الأمر معادية لوضعنا في فلسطين(٧٥).

وهذه التغيرات الذهنية تتواجد أيضًا في المحاولة الأولى للعودة إلى الأرض. ففي عام ١٨٧٨، تشتري مجموعة من سكان القدس اليهود أرضًا على بعد ١٢ كيلومترًا من يافا وتنشئ أول مستوطنة زراعية يهودية في فلسطين. وبعد نجاح أولي، يحدث الفشل، والراجع إلى قصور الإعداد التقاني وإلى غياب الإمكانات المادية وإلى تعارض الموقع المختار مع متطلبات الحفاظ على الصحة، وهو تعارض كان بالإمكان توقعه. وإذا كانت هذه الأرض التي تتألف من بضع آلاف من الدونمات (الدونم الواحد = عُشر هكتار) متاحة، فإنها كانت، شأن غالبية أراضي الوديان، غير منزرعة، وذلك بسبب الملاريا. وفي عام ١٨٨٢، بحجة سنة سبتية تحرم، بحسب الشريعة الدينية، أي عمل زراعي، نجد أن الرواد الأوائل يهجرون مستوطنتهم.

وفي عام ١٨٧٨، كان التحالف الإسرائيلي العالمي قد نظَّم لجنة دولية للعمل في فلسطين سعيًا إلى مواصلة المهمة التعليمية وإلى القضاء تدريجيًّا على الصدقات، وذلك بفضل نشر تعليم مهني أو زراعي أو تجاري. وفي عام ١٨٧٩، يرد رجال الدين في القدس باستئناف هجومهم على غياب المحتوى الديني عن التعليم الذي تقدمه مدارس التحالف. ويهتم هذا الأخير باحترام أوامر الشريعة احترامًا صارمًا في منشآته(٧٦). وكانت القضية قد نشأت عن حادث وقع في ميكفيه إسرائيل: فالمزارعون العرب الذين يتولون مهمة جني المحصول كانوا قد وصلوا متأخرين ولم يكن هناك مفر من تركهم يعملون في أحد أيام السبت تحت إشراف مسئول المدرسة. فاستفاد حاخامات القدس من ذلك لكي يسجِّلوا محضرًا أبلغوه للصحافة اليهودية في أوروبا(٧٧).

وفي عام ١٨٨٠، لدى موت كريميو، يشكل التحالف مؤسسة تحمل اسم

رئيسه وتهدف إلى تأمين نهوض إسرائيليي فلسطين عبر التعليم(٧٨). والحال أن نتائج الاكتتابات أقل بكثير من التوقعات: ٦٠٠٠٠ فرنك بدلاً من ٥٠٠٠٠٠(٧٩). وفي ذلك الوقت، يرتفع عدد سكان فلسطين اليهود إلى نحو ٢٤٠٠٠ نسمة من إجمالي قدره ٤٧٠٠٠٠ نسمة (دون أن نحسب البدو).

فلسطين في مستهل العصر الحميدي

تشير الأزمة الشرقية في ١٨٧٦ ــ ١٨٧٨ إلى رسوخ التقدم الذي تحقق منذ بداية **التنظيمات**. فالقلاقل التي ولدت في البلقان، ثم خلع السلطان عبد العزيز، إنما تقود في يونيو/ حزيران ١٨٧٦ إلى توتر طائفي قوي؛ فمسيحيو القدس يخشون من وقوع مذبحة بيد أن تدخلاً سريعًا من جانب قنصل فرنسا ومن جانب السلطات العثمانية يؤدي إلى طمأنتهم(٨٠). على أن التوتر يظل قائمًا في الشهور التالية، وذلك بسبب رد الفعل، المتوقع في نهاية المطاف، من جانب الفلاحين المسلمين الفقراء الذين قامت الحكومة العثمانية بتجنيدهم بشكل جماعي لإرسالهم كجنود إلى أوروبا. وسحب الرصيد البشري ينيخ بكلكله على السكان المسلمين. ففي يناير/ كانون الثاني ١٨٧٧،

> قلّما بقى في البلد رجال قادرون على حمل السلاح؛ وفي تلك القرى التي تتألف الواحدة منها من ثلاثمائة نفس، هناك ما يزيد عن خمسين رجلاً في الجيش. على أن من الإنصاف القول إن السكان المسلمين يتحملون أعباءهم الساحقة بروح تستوجب الإعجاب قوامها نكران الذات والإخلاص(٨١).

وسوف يدفع مسلمو مجمل المناطق السورية ضريبة بشرية جد فادحة في الحرب مع روسيا. وتتميز القوات العربية تميزًا خاصًا في حصار بليفنا الشهير، في بلغاريا. كما أن الأحداث في داخل الدولة العثمانية لها آثارها، مع محاولة إقامة نظام دستوري برلماني في مستهل عهد عبد الحميد، في عام ١٨٧٦، ثم تعليق الدستور من جانب السلطان. وعندما تلحق الهزيمة بالعثمانيين، يضطرون إلى التنازل أمام مطالب الروس. وهذه الأحداث تؤدي إلى تدخل دول عظمى أخرى تهدد روسيا بحرب عامة. وعندئذ يعقد بسمارك في عام ١٨٧٨ مؤتمر

برلين المكلَّف بتسوية جميع مشكلات المسألة الشرقية.

وفيما يتعلق بالأماكن المقدسة، تضطر فرنسا إلى مواجهة ضغط قوي من جانب الدول العظمى الأخرى هدفه التنازل فيما يتعلق بمسألة حمايتها الدينية. وهي تصمد بشكل جيد وتحصل على التسجيل الرسمي لحقوقها في المادة ٦٢ من معاهدة برلين الموقَّعة في ١٣ يوليو/ تموز ١٨٧٨:

رجال الدين والحجاج والرهبان من جميع القوميات والمسافرون إلى تركيا الأوروبية أو إلى تركيا الآسيوية سوف يتمتعون بحقوق ومزايا وامتيازات متساوية. وحق الحماية الرسمية معترف به للمثلين الديبلوماسيين والقنصليين للدول في تركيا، أكان فيما يتعلق بالأشخاص السالف ذكرهم أم فيما يتعلق بمنشآتهم الدينية ومنشآت الأعمال الخيرية والمنشآت الأخرى في الأماكن المقدسة وخارجها. والحقوق التي تتمتع بها فرنسا مصونة بشكل لا لبس فيه، ومن المفهوم تمامًا أنه لا يمكن النيل بأي شكل من الوضع القائم في الأماكن المقدسة.

والحاصل أن انجلترا، وعلى رأسها دزرائيلي، إنما تطرح نفسها بوصفها حامية الدولة العثمانية، لكنها تحصل على ثمن خدماتها بتنازل هذه الدولة عن جزيرة قبرص، وذلك بدعوى أن هذه الأخيرة سوف تسمح لها بالتدخل على نحو أسرع لإنقاذ الدولة العثمانية في حالة نشوب حرب جديدة مع روسيا. وفي الشهور التالية، تبدو في أعين كثيرين من المراقبين على أنها لا تود الاكتفاء بهذه الجزيرة وحدها في شرقي البحر المتوسط.

وكان مدحت باشا، زعيم الليبراليين العثمانيين، قد جرى تعيينه واليًا على ولاية دمشق. ويبدو أنه ينتهج سياسة شخصية، في حين أن مجمل مناطق الشرق الأدنى تواصل ما تكابده من اضطراب بسبب آثار الحرب. وفي عام ١٨٧٩، ينزعج المسئولون الفرنسيون مما يعتبرونه سياسة بريطانية جسورة، تهدف إلى الاستيلاء على فلسطين وسوريا بمساعدة من جانب مدحت باشا. ويجري تفسير نشاطات صندوق استكشاف فلسطين على أنها دراسة تمهيدية لتدخل عسكري بريطاني.

والسخط عام ضد السلطة المركزية. وتتمثل الجدة في أن العداوة للباب

العالي إنما تتخذ، لأول مرة، شكل خطاب سياسي، ما يزال مشوَّشًا بالتأكيد في تعبيراته، لكنه يتحدد على شكل تعارض بين العرب والأتراك. وإذا كان يبدو أن مدحت باشا، بحكم طموحه الشخصي، يدعم هذه الحركة من طرف خفي في سوريا، فإنَّ هذه الحركة، في فلسطين، هي من فعل عائلات أعيان القدس الكبيرة والتي دخلت في حرب ضد الوالي العثماني.

ففي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٧٩، يلاحظ قنصل فرنسا في القدس بانزعاج أنه

منذ أعوام طويلة، كسبت العائلات العربية في القدس، آل الحسيني وآل الخالدي، بفضل ثروالها ونسبها الشريف، نفوذًا جد ملحوظ في فلسطين بحيث إن جميع الولاة القادمين من القسطنطينية لم يتصوروا البتة أنهم أقوياء بما يكفي للصمود في وجه هذه الأرستقراطية المحلية والدخول في مواجهة مباشرة معها.

فآل الحسيني وآل الخالدي الداخلون في تعامل متصل مع علية القوم في القسطنطينية قد تمكنوا إلى الآن من الفوز بجميع المواقع ومن أن يجمعوا من ثم في أيديهم كل إمكانات الفعل التي يسيئون استخدامها بحيث تتماشى إلى أبعد حدٍّ مع مصالحهم الخاصة، جارين الولاة إلى درب الاختلاس ومسيئين إليهم بهذا الشكل في نظر الباب العالي كما في نظر القناصل، وذلك على نحو يتيح لهم الفوز بأوسع حصانة ممكنة [...]

وفي هذه اللحظة، يجهزون للهجوم الذي سوف يوجهونه، دون مزيد من الإبطاء، ضد الوالي بإثارة السكان وبدفعهم إلى الاعتقاد بأن العنصر العربي يجب أن يعتبر نفسه من الآن فصاعدًا ضحية جرى التضحية بها بالكامل لصالح العنصر التركي وبأن الوالي العثماني يستعد، عبر إزاحتهم، وهم العرب أحفاد محمد، لتغطية البلد كله بموظفين أتراك سوف يضغطون عليهم ويضطهدونهم ويستكملون إلحاق الخراب بهم والذي بلغ ذروته تقريبًا على أثر حرب عام ١٨٧٧ الكارثية التي دفعوا فيها ضريبة دم ومال جد فادحة. كما أن العرائض المؤيدة لهم مغطاة بالتوقيعات! لكن الباب العالي يجب أن يحذر من المظاهر الخادعة من جميع جوانبها ويجب ألاّ يدين واليه الذي أدى واجبه ولا شيء آخر غير واجبه دون أن ينحاز لشيء سوى الإخلاص الذي يبديه تجاه المصالح الحقيقية لبلاده(٨٢).

وبما يشكل علامة على الدخول في الفترة المشرقية لتاريخ الشرق الأدنى،

يرى القنصل أن على سفارة فرنسا في القسطنطينية تقديم دعمها للوالي ضد دسائس الأعيان، موضحًا بذلك أن اللعبة السياسية المحلية قد أصبحت ثلاثية الأطراف: الوالي ــ القناصل ــ الأعيان، أو، بتعبير أدق، أن الأعيان قد كفّوا عن أن يكونوا حَمَلَةً للنفوذ الأجنبي، بينما أصبح الوالي المحاور الرئيسي للقناصل(٨٣).

ومن الواضح أن هذا الخيار الخاص بدعم السلطة المركزية إنما تمليه فكرة أن المطلب الاستقلالي العربي إنما تشجعه انجلترا الخبيثة. والحال أن مخاوف الفرنسيين تتأكد مرة أخرى عندما تظهر، في عام ١٨٨٠، الملصقات الأولى الداعية، في المدن السورية، إلى انفصال العرب عن الأتراك. ويرد عبد الحميد على ذلك بسحب مدحت (الذي سيقوم بإعدامه فيما بعد) وباستخدام صيغة الجامعة الإسلامية سعيًا إلى تعزيز تلاحم دولته وتهديد الأوروبيين بدوره في ممتلكاتهم الإسلامية. وهنا أيضًا، يجد الخطاب الجديد أصداء في فلسطين، لاسيما أن الانتخابات البريطانية قد أدت إلى سقوط دزرائيلي وإلى عودة جلادستون الشهير بمواقفه المعادية للعثمانيين، بينما يصل التحريض المضاد للأجانب إلى مصر الخديوية:

> لاريب أن الشعور الموجود، بين صفوف المسلمين، بأن أوروبا معادية لهم وتضمر السوء لديانتهم هو شعور آخذ بالانتشار بشكل متزايد باطراد. وبعض التعبيرات التي أفلتت لسوء الحظ في حرارة الارتجال من الخطيب القوي الذي يؤدي الآن في انجلترا مهام رئيس الوزراء قد شقت طريقها إلى العالم الإسلامي. ومن جرّاء تكرارها وتسميمها بالتعصب، لم يكن إسهامها قليلاً في تكوين الاعتقاد بأن الساعة التي سوف يضطر فيها المسلمون إلى القتال دفاعًا عن ديانتهم قد باتت قريبة. ولا أحد يجهل من بين من يعرفون الشرق بأي سرعة تنتشر الشائعات والشعارات في بلد مسلم.
>
> وفي مثل هذه الأوضاع، ليس من الحكمة أن نترك لحاله بلدًا على هذه الدرجة من الانقسام ومن السقوط في أسر الدسائس(٨٤).

ويظل التوتر قويًا خلال العامين التاليين، المتميزين بفرض الحماية الفرنسية على تونس وبالاحتلال البريطاني لمصر، والذي يجازف بالامتداد إلى فلسطين.

وتسود المخاوف في مناسبات مختلفة من احتمال قيام المسلمين بالهجوم على المسيحيين. إلاّ أن شيئًا من ذلك لا يحدث. وقد أثبتت أعوام ١٨٧٦ ــ ١٨٨٣ كفاءة استعادة العثمانيين لزمام الموقف: فبالرغم من انخفاض الوجود العسكري، وبالرغم من الأزمة المالية التي تجد ترجمة لها في عدم دفع مرتبات الموظفين لمدد طويلة، وبالرغم من الضريبة البشرية المدفوعة في الحرب، ظلت فلسطين هادئة ومنضبطة بينما أمكن احتواء البدو في النقب وفي شرقي الأردن.

ومن المؤكد أن أحد الأسباب الرئيسية لذلك لابد أنه يتمثل في التقدم الاقتصادي الذي أمكن إحرازه في الأعوام السابقة للأزمة: فقليلون هم الأشخاص الذين لهم مصلحة في عودة أزمنة القلاقل التي شهدتها العقود الأولى للقرن. والأعيان لهم الآن تضامن مصالح مع الباب العالي، وقد أدرك عبد الحميد هذا الوضع تمامًا: فهو بدعايته التي تستخدم خطاب الجامعة الإسلامية إنما يقدم محتوى إيديولوجيًا لهذه العلاقة مع تخفيفه لما قد يكون أكثر إثارة للصدمة في الاستعارات التي استمدتها **التنظيمات** من أوروبا. وفي الوقت نفسه، يفتح مناصب الموظفين في كل أرجاء الدولة العثمانية أمام أفراد عائلات أعيان الولايات السورية. وغالبًا ما تكون الفروع الأصغر هي الأكثر اهتمامًا بهذا الأمر. فالأكبر سنًا يؤثرون البقاء حيث هم ممارسين سلطات دينية أو بلدية، أو حائزين لوظائف إدارية على المستوى المحلي.

وجاذبية المناصب الإدارية هذه إنما تساعد على سرعة تغلغل اللغة الفرنسية في صفوف الأوساط المسلمة: فالفرنسية هي اللغة الثانية في الدولة العثمانية، ومعرفتها ضرورية لممارسة الوظائف ذات السلطة. وهذا التطور يفاجئ قنصل فرنسا، الذي يرصد فجأة، في يناير/ كانون الثاني ١٨٨١، تدفقًا للمسلمين على المدارس الفرنسية في فلسطين:

> جميع قاطني المراكز السكانية الرئيسية لا يطلبون سوى الالتحاق بمدارسنا. وفي القدس نفسها، قامت المدارس البروتستانتية والمدرسة الإكليركية الأرمنية الجريجورية والمدرسة الإنجليزية بإدخال تدريس اللغة الفرنسية في مقرراتها. وعلاوة على ذلك (وهذا واقع له أهميته ودلالته)، يذهب نحو مائة فتاة مسلمة إلى مدرسة دام دو زيون الخارجية. وعدد معين من الموظفين المسلمين في السراي يحذون حذو رئيس محكمة القدس الابتدائية

الذي طلب إلى مبشري سانت آن أن يعطوه دروسًا في الفرنسية. ثم إن مدرسة للبالغين لن يقبل فيها غير المسلمين بسبيلها إلى أن تقام في أملاك سانت آن التي تخصنا. ولم يعد رجال الدين ينتظرون سوى الحصول على موافقة رئيسهم الأعلى المونسنيور أسقف الجزائر العاصمة(٨٥)، كي يتسنى لهم استقبال جميع شبان العائلات المسلمة الرئيسية في المدينة المقدسة والذين يبدون رغبتهم في الالتحاق والدراسة.

وحيال هذه الرغبة العامة في تعلم لغتنا، سوف يكون من الخطأ أن يكون رد فعلنا هو اللامبالاة. فمثل هذه الفرص التي من شأنها زيادة نفوذنا لا تتاح إلاّ نادرًا. ويجب أن نغتنم هذه الفرصة دون مزيد من الإبطاء(٨٦).

وفي مواجهة نفوذ البريطانيين والروس والألمان المتزايد، تعزز فرنسا موقفها. فهي تتمسك بصون حمايتها على الكاثوليك، والتي تم الاعتراف بها في معاهدة برلين، بالرغم من المنافسة التي تبديها دول كاثوليكية أخرى، وتتمسك بزيادة استثماراتها الاقتصادية في المنطقة، وتتمسك خاصة بتنمية الشبكة المدرسية الفرانكوفونية التي يديرها المبشرون، والذين يحصلون على معونات مهمة. ويستند تقدم الفرنسية في آن واحد على عرض أكثر أهمية دومًا وعلى طلب في تزايد لا ينقطع، مع مشاركة متزايدة من جانب المسلمين، حتى وإن كان المسيحيون يظلون المستخدمين الأوائل للفرنسية. وفيما يتعلق باليهود، فإن مدارس التحالف الإسرائيلي العالمي، إذا كانت لا تتلقى دعمًا، تستفيد مع ذلك من الحماية القنصلية. والحال أن التقدم المثير للنفوذ الثقافي الفرنسي اعتبارًا من ثمانينيات القرن التاسع عشر في مجمل المناطق الساحلية السورية (بما في ذلك فلسطين) إنما يسمح للمسئولين الفرنسيين بأن يرصدوا بزهو قيام "فرنسا مشرقية" يبدو أنها تملك مفاتيح المستقبل.

والحاصل أن الاستقرار الحميدي، الذي تم التوصل إليه اعتبارًا من عام ١٨٨٣، ورسوخ المشرق إنما يؤديان إلى الاختفاء المؤقت للشرق الأدنى من الأجندة السياسية للدول العظمى. وعندئذ تصبح المسألة الشرقية من حيث الجوهر بلقانية، مع قضايا مقدونيا، وأناضولية، مع بدايات المسألة الأرمنية. بيد أننا لا يجب أن نظن، لأن الوثائق الدبلوماسية لم تعد تتحدث عن الأمر، أن

التأكيدات الإيديولوچية التي عرفتها فتـرة ١٨٧٦ ـ ١٨٨٣ كانـت ممارسـة عابرة. فنزعة الجامعة الإسلامية قد أصبحت اللحمة الإيديولوچية التـي تـربط الولايات العربية بدولة شهدت، بعد معاهد برلين، تضاؤلاً ملحوظًا لحصتها من السكان المسيحيين. ومن المؤكد أن نمو المسيحيين الديموغرافي، في المشرق، يظل حقيقة واقعية باستمرار، إلاَّ أن ما يخفف منه هو الأهمية المتزايدة للهجرة المسيحية إلى أوروبا والقارتين الأميركيتين وأفريقيا، بينما يـدخل المسـلمون بدورهم في الدورة التاريخية الكبرى للتحول الديموغرافي.

وقد سمحت أزمة ١٨٧٦ ــ ١٨٨٣ بظهور شعور قومي عربـي أولـي. ونزعة الجامعة الإسلامية، بقدر تشديدها على التضامن الدائم بين مجمل مسلمي الدولة العثمانية إنما تعتبر اعترافًا ضمنيًّا بها بأسلوب النفي. والحـال أن تقـدم المؤسسات الجديدة للمعرفة كالمدارس والطباعة والصحافة إنما يكفل الآن حياة ثقافية من نمط حديث. ومن المؤكد أن فلسطين متأخرة إلى حدٍّ ما قياسًـا إلـى المركزين الكبيرين للإنتاج الثقافي في الشرق الأدنـى: بيـروت مـن جهـة، بجامعتيها (الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأميركية)، ومصر من الجهـة الأخرى (الإسكندرية والقاهرة أساسًا). وحياتها الثقافية أقرب إلى الحياة الثقافية لسوريا الداخلية، بيد أن النهضة الأدبية العربية محسوسة هناك أيضًا: فالنخـب تقرأ الصحف والمجلات والكتب العربية والفرنسية، فـي حـين أن الأوسـاط الإسلامية الأكثر محافظة تنخرط الآن في مناقشة نزعة الإصـلاح الإسـلامي وهي مناقشة كبرى.

حصاد عصـر

يمكن اعتبار فلسطين القرن التاسع عشر مثالاً ناجزًا لمجمل التحولات التي عرفها الشرق الأدنى العثماني في تلك الفترة. فمع تفاوتات زمنية معيَّنة، نجـد أنفسنا بإزاء النقاشات نفسها حول الإصلاحات الضرورية لضمان بقاء العـالم الإسلامي، خاصة في زمن الحرب بين محمد علي والباب العالي، وبإزاء النهاية نفسها لنظام تقليدي قائم على تعدد السلطات المحلية المجرورة إلـى نزاعـات تلعب دور الحَكَم فيها أو تؤججهـا السـلطةُ المركزيـةُ، وبـإزاء التحـولات

الاقتصادية والاجتماعية نفسها مع استعادة النظام العام واستئناف الزراعة والانطلاق الديموغرافي وثورة المواصلات. وهذه التغيرات تجد ترجمة لها في ظهور توترات قوية، خاصة على أثر تحرير غير المسلمين، بيد أن الحل نفسه إنما يتم تحقيقه عبر الاستقرار الحميدي، وذلك، في آن واحد، مع إعادة تأكيد ثقل الإسلام والتي تتجسد في استعادة خلافة قوية وتعايش قائم على توسيع الحريات الطائفية الممنوحة لغير المسلمين. ولا يمكن فهم التجربة المشرقية التي تبدأ نحو عام ١٨٨٠ إلاّ بفضل ذلك التوازن الحساس بين الحمايات القنصلية الأجنبية والسلطات المتزايدة للولاة العثمانيين، رجال النظام والتقدم، والتلبية الممنوحة للمطالب الرئيسية لمختلف الجماعات التي تشكل المجتمع المحلي. وكما في أماكن أخرى من الشرق الأدنى، يكف الأعيان عن تجسيد روح استقلال محلي ميالة إلى الفوضى ويندمجون في نظام سياسي عثماني يجدون فيه إشباعات عديدة لسعيهم إلى الفوز بالمكانة السامية وبالسلطة(٨٧).

وفي الوقت نفسه، تظهر خصوصية فلسطينية. وهي في البداية خارجية: ففلسطين، وقد أصبحت من جديد الأرض المقدسة التي يتصورها الغربيون، إنما تكتسب، في فعل الدول العظمى، قيمة مختلفة عن قيمة الأماكن السورية الأخرى. وهذا التطور يجسده تكوين سنجق القدس "ذي الحكم الذاتي". وهذه الخصوصية داخلية بعد ذلك: ففشل الدولة الجنينية المتمحورة حول عكا إنما يعني إعادة محورة المكان حول محور يافا ــ القدس. وهذا الابتعاد عن قلب المجال السوري (خط بيروت ــ دمشق) وصعود القدس إلى مكانة الحاضرة الإقليمية إنما يسمحان بانبثاق هوية خاصة. واسم فلسطين، الذي لم يكن منسيًا بالكامل البتة، على الأقل لدى المتعلمين، إنما يصبح مرة أخرى، في الشطر الثاني للقرن التاسع عشر، اسمًا شائع الاستخدام لدى السكان العرب، وإن كنّا لا نعرف حقًا ما إذا كان هذا المصطلح يشمل سنجق القدس وحده ــ ذا الحدود المتغيرة من جهة أخرى ــ أو ما إذا يجب مده ليشمل الجهات التابعة لولاية بيروت.

والحال أنه في ساحة تشهد تحولاً ديموغرافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا سافرًا، بعيدة تمامًا عن أن تكون شرق الرحالة الذي لا يتغير، إنما تبدأ أول هجرة يهودية منظمة بفضل الثورات الجديدة التي قامت بها أوروبا تصوغ العالم.

الفصل الثالث

التضامن اليهودي ومعاداة السامية والصهيونية

"هذه الحركة المعادية للسامية لن تحدث إلاّ عندما ندرك أن لاشيء يجمع بينها وبين حرب صليبية. لا أقصد أن زمن الحروب الدينية قد انقضى. وإنني لأرجو، لأجل كرامة البشر، أن نواصل الحرب في سبيل أفكار ومعتقدات. إلاّ أنه لكي تصبح أوروبا من جديد أو لكي تكون إيجابية، فإنه يتعين عليها بالضرورة أن تنقلب إلى نظام العصر الوسيط: فتُخضع الإسرائيليين لمعاملة خاصة عندما تدرك بوضوح أن الإسرائيليين ليسوا بالمرة أفرادًا كالآخرين، وإنما هم، مواطنين أم عائلات، دولة داخل الدولة تحلم بالسيطرة على الآخر"

شارل مورّا، ١٨٨٩[١].

"منذ مائة عام وفرنسا مفكّكة. فالقانون المدني، بترتيباته الخاصة بالتوزيع المتساوي للتركات، قد قوّضَ روح العائلة. أمّا اللامركزة الإدارية فقد زعزعت أساس الحياة الجماعية للمدينة. وكان من شأن تقسيم المحافظات هدم الكيانات الإقليمية الكبرى. ومنذ تورجو إلى قانون عام ١٨٨٤ الأقرب إلينا تمامًا من الناحية الزمانية لم يكن العمال الفرنسيون غير وحدات غير متماسكة معزولة، يعوزها الدعم المتبادل. وفي اليوم ذاته الذي فرضت فيه الأمة على نفسها ألاّ تكون غير لعبة قوى متباينة، أي مجرد عَفرٍ من أفراد، حرّرنا إسرائيل! وفي هذا الحشد الممزّق، حيث تموت حياة العائلة والتضامن المدني وروح الجماعة، نجد أن إسرائيل المدعومة بشعورها بالضعف والمخلصة لتقاليدها والمفعمة ما تزال بكلام التوراة، تندس كإسفين من الخشب المتين".

شارل مورّا، ١٨٩٢[٢].

مؤتمر برلين[٣]

أدى الخط الشريف الصادر في عام ١٨٥٦ إلى تحرير غير المسلمين في

الدولة العثمانية، لكن الدول الأوروبية لم تكن مهتمة إلاّ بالطوائف المسيحية، وذلك أساسًا لأن الحقوق الممنوحة لليهود العثمانيين كانت، من الناحية النظرية على الأقل، أهم من الحقوق التي يتمتع بها فريق كبير من يهود أوروبا الغربية. والحال أن معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ إنما تمنح الحكم الذاتي لعدة بلدان بلقانية تحصل، بالرغم من بقائها تحت السيادة العثمانية من الناحية الإسمية، على أوضاع تكاد تكون أوضاع استقلال. وتستفيد صربيا ورومانيا من ذلك لكي تبقيا سكانهما اليهود تحت نظام قوانين الطوارئ التي تقيد حقوقهم بدرجة ملحوظة. وهكذا نجد أن تحرير البلدان البلقانية إنما يتم على حساب اليهود الذين يخسرون فوائد التسامح العثماني. ويتدخل التحالف الإسرائيلي العالمي، منذ تأسيسه، تدخلاً نشيطًا في الدفاع عن اليهود البلقانيين ويجعل من هذا الدفاع قضية دولية.

والأزمة الشرقية لعام ١٨٧٦ والحرب الروسية ــ العثمانية التي تلتها إنما تطرحان مسألة بلغاريا منفصلة عن الدولة العثمانية. وخلال الحرب البلقانية، أسرفت القوات البلغارية والروسية في التعديات التي طالت السكان اليهود والمسلمين الذين عوملوا معاملة واحدة: فأعمال السلب والنهب واغتصاب النساء والمذابح قد رافقت زحف الجيوش الأرثوذكسية واضطر يهود بلغاريا إلى أن يلوذوا بالمناطق التي ظلت تحت السيطرة العثمانية(٤).

ولتسوية مجمل النزاع، تنظم الدول العظمى مؤتمرًا عامًّا في برلين. وبما يشكل تقدمًا أخيرًا لليبرالية الأوروبية، نجد أن رجال الدولة الغربيين، بدفع من التحالف الإسرائيلي العالمي ومن اللجنة الخارجية المشتركة لليهود البريطانيين (وهي منظمة أنشئت لأجل المناسبة سعيًا إلى توحيد العمل السياسي للجميعة الأنجلو ــ يهودية ولمجلس نواب الطائفة اليهودية البريطانية(٥)، يطالبون بإنجاز تحرير اليهود البلقانيين، بالرغم من معارضة روسيا لذلك. وترضخ صربيا وبلغاريا دون إسراف في إثارة المصاعب وتمنحان المساواة التامة في الحقوق لجميع الأقليات، أي للمسيحيين غير الأرثوذكس ولليهود. وفي عام ١٨٧٩، يرجع اللاجئون اليهود البلغار إلى أحضان عائلاتهم بمساعدة من حكومة صوفيا. ويهتم البارون هيرش شخصيًّا بهذا الأمر.

والوضع مختلف في رومانيا. فاليهود فيها أكثر عددًا بكثير والتشريع

يرفض الاعتراف بهم كرومانيين. فيجري تعريفهم على أنهم مجـرد مقيمـين أجانب محرومين من جميع الحقوق. وتمارس الدول العظمى ضـغوطًا قويـة وتهدد بالامتناع عن الاعتراف باستقلال رومانيا وبحقها فـي المشـاركة فـي الاتفاق الأوروبي. والمادة ٤٤ من معاهدة برلين الموقعة في ١٣ يوليو/ تمـوز ١٨٧٨ تكفل حرية الممارسة الدينية وعدم التمييز لأسباب دينية بالنسبة لجميـع سكان الدولة الرومانية[٦]. ويراوغ الرومانيون، فيقبلون مبدأ عدم التمييز لأسباب دينية بالنسبة للرعايـا الرومـانيين ومـن ثـم يحصـلون علـى الاعتـراف باستقلالهم(١٨٧٩). ومن الناحية العملية، لا يتغير شيء، لأن السـكان اليهـود يستمر تعريفهم على أنهم أجانب: والإمكانية الوحيدة المتاحة لهم هي الحصـول بشكل فردي على الجنسية الرومانية، وهو حصول يتم توفيره بتقتير شديد: فمن عام ١٨٧٩ إلى عام ١٩٠٠، لا يحصل على الجنسية غير سبعة وثمانين فردًا؛ ومن عام ١٩٠١ إلى عام ١٩٠٩، لا يحصل عليها غير واحد وتسعين فـردًا. وبالمقابل يتواصل اضطهاد اليهود، عبر قوانين تمييزية وأعمال طرد جمـاعي وأعمال عنف عديدة.

وترمز القضية الرومانية إلى انتهاء حركة التحرير الكبرى التي بدأت فـي عصر التنوير. فلأول مرة، تتخلى الدول الغربية عن العمل بشكل فعال من أجل التحرير، فتقضي بذلك على إحدى الآليات الأساسية لتحرير اليهـود. ويشـكل مؤتمر برلين، بشكل ما، الركود بعد مد الليبرالية الصاعد، وينذر بالمد الهـابط نحو فظائع القرن العشرين، والذي يبدأ مع الأزمة المعادية للسامية في مسـتهل ثمانينات القرن التاسع عشر.

الأزمة المعادية للسامية
في ثمانينات القرن التاسع عشر: أوروبا الغربية

في أوروبا الغربية، تعد معاداة السامية تحولاً جد مفاجئ لمشـاعر فرديـة أسبق وجودًا تصبح فجأة، في مستهل ثمانينات القرن التاسـع عشـر، شـعورًا جماعيًا. ورهاب اليهود هذا يستمد أصله من الرفض المسيحي لـ"الشعب قاتل الرب"، ومن حاصل اتهامات: انعدام الشجاعة الفردية، التمـاهي مـع المـال.

وسرعان ما يتخذ هذا الرهاب طابعًا جديدًا: ففي حين أن المتنصر، في نظر المسيحية، يكف عن أن يكون يهوديًا، ومن ثم قد يكون الانتماء اليهودي حالة انتقالية، نجد، في المنظور الجديد، أن اليهود يشكلون جنسًا على حدة، واقعًا بيولوجيًا مستقلاً لا يمكن أن يذوب في السكان الأوروبيين إلاّ عن طريق سلسلة تالية من الزيجات المختلطة.

ومصطلح "معاداة السامية" يصف هذا الواقع الجديد. فمصطلح "السامي" منبثق من أعمال المستشرقين في إطار علم الديانات، وهو علم كبير الأهمية في القرن التاسع عشر. وبالنسبة لهؤلاء العلماء، وأشهرهم هو إرنست رينان، ليست اللغة مجرد أداة للتواصل، بل هي استيعاب مباشر وكلي للعالم الخارجي. وفي استعادتهم عن وعي أو دون وعي مسلسل الزمان التوراتي، يعتبرون الجماعات اللغوية المعروفة في زمنهم منبثقة من نوع من الحدس المباشر وذي الأولوية في مستهل التاريخ البشري. وهكذا فإن مستقبل الشعوب والحضارات مستمد من هذا الأصل الجوهري. كما يسمح التعرف على اللغات وتمييزها بتحديد إثنوغرافيا لغوية أعلى من الإثنوغرافيا الفيسيولوجية لأن الأولى تسمح بتمييز الأجناس حيثما كانت معطيات الأنثروبولوجيا الطبيعية غير كافية(٧). وهكذا يمكن التحدث عن وجود جنس سامي موازٍ للجنس الآري وهو جنس ندين له بتشكل الديانات التوحيدية الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام. وتنتشر هذه الأفكار في صفوف الجمهور الواسع، وذلك بفضل بعض المؤلفات، أهمها هو كتاب **حياة يسوع** لرينان، وهو واحد من الكتب الأوسع فوزًا بالقراءة في فرنسا في الشطر الثاني للقرن التاسع عشر. وفي مجمل أوروبا، نجد أن الفيلولوجيا، وهي علم أصول حقيقي، تصبح الفرع الأكثر أهمية بين علوم الإنسان.

وفي ستينيات القرن التاسع عشر، يبدأ اسم وصفة "السامي" في الاستعمال العام من جانب الأدباء للإشارة إلى "اليهود"(٨). ففي ألمانيا، غالبًا ما يجري استخدام اسم وصفة "السامي" لتجنب الملاحقات القضائية. ويبدو أن أول من استخدم تعبير "معاداة السامية" جماعة من البروتستانت الألمان الذين أنشأوا الرابطة المعادية للسامية خلال خريف عام ١٨٧٩. بيد أن معاداة السامية هذه كانت ما تزال شكلاً مألوفًا من أشكال رهاب اليهود المسيحي. وعلى الفور

يجري أخذ الكلمة بمعنى جديد من جانب فيلهم مار، وهو كاتب حياته موارة بالحركة، كان قد طوَّر منذ عدد من السنين رهاب يهود إلحاديًا[9]. أمّا يوجين دوهرنج، وهو اشتراكي ـ ديموقراطي في قطيعة مع الإجماع، فهو يكثر اعتبارًا من ثمانينيات القرن التاسع عشر من كتاباته المعادية للسامية ذات الإدعاء العلمي. وفي فرنسا، نجد أن كتاب دريمون، **فرنسا اليهودية** (١٨٨٦)، يحقق نجاحًا فوريًا في التوزيع، حيث تصدر منه مائتا طبعة، بينها مائة وأربع عشرة طبعة في عام واحد[10]. وإلى ذلك الحين، وبالرغم من عدد معين من الكتابات الرديئة خاملة الذكر، كانت معاداة السامية مرفوضة بالأحرى بوصفها بدعة ألمانية. والحال أن تعميم مصطلح "معاداة السامية" في مجمل أوروبا إنما يعبر عن الانتقال من خليط من المشاعر الفردية إلى حركة جماعية قوية قوامها الكراهية الممتزجة بالخوف[11].

ولا ينفصل رواج هذا الشكل الجديد لرهاب اليهود عن الانتقال من القوميات إلى النزعة القومية في الربع الأخير للقرن التاسع عشر. ففي حين أن الحركة القومية في العقود الأولى للقرن لا يصحبها رفض للآخر، نجد أن النزعة القومية إنما تتكون في عداوة ناجزة للأجانب، الأعداء من الخارج وبالأخص من الداخل. فيصبح اليهودي رمز الأجنبي بامتياز، وهو أجنبي أخطر وذلك بقدر ما أنه يذوب ظاهريًا في بقية السكان. وأساس النزعة القومية نفسه إنما ينبع من تعريف الأعداء من الداخل، ومما له دلالته المميِّزة أن المعاداة الأوروبية الغربية للسامية إنما تظهر من قبل وليس بعد بداية هجرة يهود أوروبا الشرقية الكبرى إلى أراضي الغرب.

وتتمثل خصوصية النزعة القومية اللاحقة لعام ١٨٨٠ في اللعب على مفهومين أساسيين، هما مفهوم الأصالة ومفهوم الهوية، وفي رفض الحداثة، القائمة على فكرة التقدم، بوصفها انحطاطًا. وهكذا يجري رفض قرن كامل من التاريخ باسم تاريخ أطول يجري تعريفه على أنه تاريخ التضامنات الطبيعية للجماعات البشرية. كما يجري اعتبار ظهور الأفراد انحلالاً للهياكل الأولية للمجتمع، وهو انحلال، ويا للمفارقة، نجت منه الأقليات. ومن هنا تعريف الكاثوليك في ألمانيا البسماركية والبروتستانت في النزعة القومية الفرنسية على

أنهم "أجانب". وفي هذه التأكيدات الفجة، نجد من جديد تيمة أساسية من تيمات الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر، ألا وهي تيمة التعادل بين الجماعات العرقية والجماعات الدينية والثقافية الكبرى: فالبروتستانتية خلقتها الجرمانية والكاثوليكية خلقتها اللاتينية والأرثوذكسية خلقتها السلافية (وهكذا نجد أن سلافًا كاثوليك كالبولنديين أو الكروات إنما ينظر إليهم بالأحرى نظرة استنكار).

والمعادون الأوائل للسامية يرون أن السامي هو الشرقي أو الآسيوي في الثقافة والمجتمع الغربيين، وهو طرف في نزاع قاتل في نهاية الأمر مع الأوروبي. فهو الطرف الذي حافظ على أصالته، ومن ثم على قوته، وذلك بفضل التضامن الطبيعي لجماعته، في حين أن الآخرين بسبيلهم إلى فقد تضامنهم الطبيعي في مجتمع الجماهير المؤلف من أفراد منفصلين. واليهودي هو في آن واحد أصيل قياسًا إلى نفسه وغير أصيل في المجتمع الأوروبي.

والفكرة المركزية هي فكرة صراع بين الأجناس نجد فيه أن الساميين، بفضل التحرير، قد أصبحوا بسبيلهم إلى الفوز فيه. فبالنسبة لمار، مثلاً، نحن بإزاء صراع بين اليهودية والجرمانية؛ وسرعان ما سوف يستخدم آخرون مقابلة أعم بين الآرية والسامية. والمثل الأعلى هو إعادة تجميع اليهود في فلسطين، أرضهم الأصلية، إلاّ أن من غير المعقول أن يتخلى اليهود بملء إرادتهم عن المواقع المميزة التي فازوا بها في أوروبا(١٢). والإجراء العملي الوحيد الذي يجب اتخاذه هو إدارة الظهر للتحرير وفرض انفصال صارم بين اليهود وغير اليهود، في العلاقات الاقتصادية وفي العلاقات الإنسانية على حد سواء(١٣).

واليهودي، علاوة على تعريفه على أنه أجنبي بحكم طبيعته، إنما يرمز في نظر المعادي للسامية إلى هيمنة المال والليبرالية السياسية لـ"الحضارة الحديثة" القائمة على الفردية والفكر الحر. وهو الفاعل في نزع المسيحية والمسئول عن تفكك الدولة والمجتمع المسيحي(١٤). وهكذا نجد أن معاداة السامية، عند الكاثوليك، إنما تنضاف إلى الإدانة التقليدية للشعب قاتل الرب. وفي حين أن تحرير اليهود هو نتيجة لحركة التنوير، إلاّ أن اليهودية تبدو بوصفها المسئولة الرئيسية عن هذه الحركة. واستيعاب الكاثوليكية هذا لتيمة معاداة السامية الجديدة

لا ينفصل عن فشل الكاثوليكية الليبرالية، التي تتراجع اعتبارًا من مجمع الفاتيكان الأول (١٨٧٠) أمام كاثوليكية محافظة ترفض العالم الحديث وتحاربه بأسلحتها الخاصة.

وفي بلد كفرنسا، تعاود الحركة القومية تطويق ساحة التاريخ وتحدِّدُ هوية فرنسية بوصفها كاثوليكية بصورة خالصة وتجعل من اليهود الفاعلين الرئيسيين في هدم المجتمع المتناغم الذي كان قائمًا في ظل النظام القديم. فهم الذين ابتدعوا الثورة الفرنسية ومن ثم فهم مذنبون بالمسئولية عن جميع مصائب الحاضر(١٥). وتظهر بالفعل تيمة مؤامرة يهودية عالمية لن يكون مركزها سوى التحالف الإسرائيلي العالمي. وفي هذه العلِّية الشيطانية، يحتل اليهود المكان الذي كان يحتله إلى ذلك الحين تاريخيًّا اليسوعيون، وتصبح معاداة السامية إلى حد ما نظيرة معاداة الإكليريكية، من حيث كونها حركة للرأي العام وللجماهير: فمع شعار المفكرين الأحرار: "الإكليريكية هي العدو"، يتجاوب شعار "اليهود هو العدو"، وهو شعار كاثوليكية متشنجة حيال تطورات العالم الحديث(١٦).

وفي حالة النزعة القومية الفرنسية، لم يكن اليهود وحدهم هم العناصر الأجنبية، "الدولة داخل الدولة"، وإنما أيضًا القوى الأخرى المعادية للكاثوليكية، كالپروتستانت والماسونيين الأحرار. وهذا التأكيد لهوية فرنسية تحتكرها هوية كاثوليكية إنما يقود بعض الكُتَّاب إلى التساؤل عن أطروحة جيلنر التي تجعل من النزعة القومية نتاجًا أفرزته الدولة، معتبرينها بالعكس ردة فعل ضد الدولة(١٧). ومن المؤكد أنه يتعين صقل الفكرة من زاوية تحليل تاريخي لا يكون بعدُ مجرد تحليل للخطاب، وتمييزُ فكرة الجماعة القومية التوحيدية عن فكرة النزعة القومية الانفصالية(١٨). ومن جهة أخرى، تتبنى النزعة القومية بالإحالة إلى مجموعة من المكوِّنات الهوياتية: اللغة والجنس والماضي والأرض والدولة والدين. والحال أن الإحالة إلى الدين كعنصر هوياتي غالبًا ما كانت قليلة الصلة بإيمان حقيقي وبممارسة دينية حقيقية. ومن المؤكد أن السهولة التي تستوعب بها النزعة القومية الرجعية المكون الديني إنما ترتبط بالرفض المنتشر لبعض عناصر الحداثة، كاستخدام العقل النقدي أو نظريات التطور. وإذا كان التأكيد الكاثوليكي ـــ القومي، في فرنسا، يهاجم "الأفكار اليهودية"، في العالم الأنجلو ـــ

ساكسوني، خاصة في الولايات المتحدة، فإن الحركات البروتستانتية المتدينة هي التي تقوم، باسم هوية أميركية، بتوجيه الاتهامات العنيفة ضد اليهود والسود والكاثوليك كما ضد الأفكار الداروينية على حد سواء. وغالبًا جدًّا ما يكون المعادون الحقيقيون للسامية في قطيعة مع الديانة السائدة. فالمورّاوية، مثلاً، لا تعتبر نفسها كاثوليكية إلاّ باسم رؤية ذرائعية وسوسيولوچية للدين الذي يشكل في نظرها عنصر نظام في المجتمع. وهي تُقَدِّرُ في الكاثوليكية إضعافًا للمحتوى الشرقي والسامي للكتاب المقدس عن طريق الوساطة التي تفرضها الكنيسة بين الكتاب المقدس والمؤمن[١٩]. وفي ألمانيا، حيث تصبح معاداة السامية قوة اجتماعية مهمة، نجد أنها إنما ترتبط ارتباطًا مباشرًا بنزع مسيحية العالم البروتستانتي، وهو نزع يبدأ تحديدًا نحو عام ١٨٨٠[٢٠]. وهي تتخذ هناك عندئذ أشكالاً خبيثة بشكل خاص تقود في القرن العشرين إلى ديانة وثنية جديدة وإلى تعريف للأجناس بحسب معايير الأنثروبولوچيا الطبيعية بأكثر مما بحسب البحث الثقافي ــ اللغوي (وهكذا يصبح ألمان الجنوب الكاثوليك و"الألبيين" مشبوهين بصورة مضاعفة في نظر الشماليين)[٢١].

وحتى إذا كانت الحركة القومية تجند أنصارها، في بداياتها على الأقل، من صفوف الجماعات الاجتماعية الأرستقراطية والدينية التي قد تتفاخر بآصرة مباشرة مع عالم النظام القديم، فإنها، قبل كل شيء، بالرغم من إدعاءاتها الرجعية وتأكيداتها الرافضة للتطورات المعاصرة، حركة حديثة، تستخدم وسائط الاتصال الجماهيرية الأولى وتخاطب الفئات الاجتماعية الجديدة التي أنجبتها الثورة الصناعية. ومفهومها للماضي، بالرغم من إضفائه لطابع مثالي على المجتمعات التقليدية، ليس هناك ما يجمعه بالحقائق الواقعية لعالم اختفى. وإذا كان يشار إلى أزمنة أسطورية لم يكن المجتمع فيها منقسمًا إلى جماعات متناحرة، فإن الهدف المنشود هو طرح فكرة عن الأمة، نظرية عن التضامن العضوي للجماعة، ردًّا على أفكار العقد الاجتماعي الذي يربط الأفراد المشتركين فيه بعضهم بالبعض الآخر. وهذه "النزعة القومية القبلية" تعتبر نفسها كلية، "كاملة"، وتزعم أنها تحكم، باسم أخلاق ديانة الأمة، وهي كائن حقيقي يشبه الكائن الحي، جميع التصرفات البشرية. وهي معاداة للعقلانية تقوم، باسم

أولوية الغرائز، اللاواعية أحياناً، برفض مكتسبات العقل النقدي وتلوذ بالقوة البدائية وبالهمة وبالحيوية المنبثقة من الشعب الذي لم تلوثه النزعة الفردية(٢٢).

وهذا الخطاب ينتمي برمته إلى العالم المعاصر: فهو، كالاشتراكية، يزعم الاستناد إلى مجموعة من الخطابات العلمية، تبدأ من تفسير التاريخ والمجتمع وتنتهي إلى نتائج الأنثروبولوچيا الطبيعية. وهو يقدم تفسيرًا عامًّا للمستقبل البشري يزعم الانتساب إلى علوم الإنسان، بالرغم من الرفض النظري للعقلانية. ومن ثم يحدث الانزلاق بسهولة إلى مفهوم عنصري للتاريخ كما إلى فعل عنيف، بل ثوري، سوف تنبثق منه الفاشية والنازية.

وتعدد تيمات معاداة السامية ينبع من هذا التلاقي بين المعاداة التقليدية لليهود ـ اعتبارًا من عقد ثمانينيات القرن التاسع عشر تعاود الظهور تهمة الجريمة الشعائرية في العالم الكاثوليكي وتكف عن أن تكون حكرًا على الأرثوذكس(٢٣) ـ، وقلق المسيحيين حيال تأكيد المجتمع العلماني وانبثاق النزعات القومية وتعميم التفسير العنصري للتاريخ. ومصدر قوة مثل هذه التشكيلة من التيمات هو أنها تعطي معنىً للتغيرات المستديمة للحداثة وتسمح بتقديم تفسيرات، وإن كانت جد خيالية، للأحداث الجارية. ومنذ ذلك الحين، عندما تهتز المجتمعات الأوروبية من جراء عذابات الحرب العالمية الأولى واستحالة العودة إلى عالم مستقر في العقدين التاليين لها، سوف ينطلق عنان مذاهب الكراهية وسيكون بوسعها أن تنتقل، بحسب الظروف السياسية للاستيلاءات على السلطة، من مجرد الرطانة اللفظية إلى الممارسات المرعبة. وإذا كان من المشروع اعتبار الحرب العظمى الرحم الذي انبثقت منه أعمال العنف في القرن، إلاّ أنه تجب العودة إلى عام ١٨٨٠ كيما نتمكن من تمييز صياغة وبداية نشر مذاهب الشمولية. فالحرب العالمية الأولى كانت العنصر الذي حرّك هذه التيارات الإيديولوچية الكبرى إلاّ أنها ليست هي التي خلقتها من العدم. و"ثورية اليمين" كانت مزودة بالفعل بعدد معين من صفاتها قبل كارثة ١٩١٤، وهذه الأخيرة من شأنها أن تكون في حد ذاتها غير مفهومة إذا لم نعترف بوجود طاقات عنف مخيفة في قلب الحضارة الظافرة نفسه.

وإذا كان بوسع المؤرخ أن يقرأ في هذه التجليات المعادية للسامية علامات

تنذر بالكوارث التالية، فإنّه يجب عليه مع ذلك أن يعتبر أن بلدان الغرب الأوروبي تظل ضمن إطار دول القانون. ومعاداة السامية هي قبل كل شيء ظاهرة رأي، لكنه الآن رأي مسموح به، لايبدو في حد ذاته فاضحًا، وتشاطره شريحة مهمة من السكان. وقبل ١٩٣٣ بكثير، في البلدان الناطقة بالألمانية، يصبح مصطلح "الآري" شائع الاستعمال (عند اليهود كما عند غير اليهود) للإشارة إلى غير اليهود (يكفي إلقاء نظرة على مراسلات فرويد لكي ندرك ذلك). وهذه المعاداة "المتحضرة" للسامية لاتجد ترجمة لها في المطالبة بإيجاد تشريع تمييزي. وكل ما تقود إليه هو ممارسة اجتماعية يجري فيها تحديد حصص غير مُعْلنة لمشاركة اليهود في المؤسسات الاجتماعية الرئيسية، بالرجوع غير المعلن إلى الوزن المفترض لليهود في إجمالي السكان. وهذه المعاداة "المتحضرة" للسامية أنشط بكثير في مجال الهجرة تحديدًا، حيث توجد مطالبة باتخاذ تدابير نشيطة لكبح أو لوقف قدوم تدفقات بشرية من أوروبا الشرقية، خاصة في العقد السابق للحرب العالمية الأولى. وبشكل ما، نجد قبولاً لليهود الموجودين هناك بالفعل، إلاّ أنه يجري رفض دخول قادمين جدد. وهنا أيضًا، تشاطر هذا الموقف شريحة مهمة من الطوائف اليهودية المتحررة والمستوعبة.

أمّا الحركات العمالية الأوروبية الغربية فهي تبقى، في غالبيتها العظمى، على هامش معاداة السامية، وإن كان أيضًا على هامش نقيضها، "حب السامية". ويرى المسئولون الاشتراكيون ذوو الأصل البروليتاري أن معاداة السامية ليست غير نزاع في داخل الطبقة الحاكمة البورجوازية، وهو نزاع لا يعني البروليتاريا في شيء. ونرى في ذلك في آن واحد حضور تراث للاشتراكيين الأوائل الذين ساووا بين "اليهودي" و"البورچوازي"، وغياب مكون يهودي في الطبقة العاملة. وتتغير الأمور في فرنسا مع قضية دريفوس: ذلك أن شخصيات تستلهم المبادئ الجمهورية بأكثر من استلهامها المبادئ الاشتراكية هي التي سوف تقود منظمات أقصى اليسار إلى تبني الدفاع عن النقيب العسكري البورچوازي، ليس دون بعض التحفظات. والحال أن التقارب فيما بين "المثقفين"، وجزء منهم يهودي الأصل، والكوادر البروليتارية، سوف يجعل

آنذاك من النضال ضد معاداة السامية ركنًا من أركان عقيدة اليسار الاشتراكي (انظر، في فرنسا، رابطة حقوق الإنسان). لكن الاشتراكية ذات التوجه الأممي إنما تتميز بجوهر استيعابي: فهي تجد صعوبة في قبول الإبقاء على هوية يهودية بشكل خاص، قومية أو دينية. والحاصل أن الاشتراكية المتمركسة، بتأكيدها أن معاداة السامية هي "اشتراكية الأغبياء" وباختزالها في عودة مؤقتة لظهور ماضٍ ينتمي إلى العصر الوسيط الذي جرى القضاء عليه أو باختزالها في مجرد تناقضات اقتصادية في صفوف البورجوازيات الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، إنما تكشف مرة أخرى عن عدم قدرتها على استيعاب النزعة القومية كظاهرة حديثة. وهذا الضعف سوف يقود إلى تصرفات كارثية عندما تتخذ النزعة القومية تحولاً ثوريًا مع الفاشية والنازية.

وبالنسبة للطبقة العاملة الأوروبية الغربية، تظل مسألة الهجرة اليهودية مسألة مهمة، ويؤدي ظهور بروليتاريا من صفوف المهاجرين اليهود في مستهل القرن إلى ردود فعل متباينة: تضامن عمالي، وإن كان أيضًا خوف من منافسة في سوق العمل يترتب عليها انخفاض الأجور.

ومعاداة السامية، بعملها نفسه، إنما تترك بصماتها على الشخصية اليهودية. ومن المؤكد أن جانبًا كبيرًا من الطوائف التي تحررت لا يرى، أولا يريد أن يرى، في الظاهرة غير انبعاث لاتجاه قادم من العصر الوسيط، وقوة رجعية سوف تتمكن الليبرالية تمامًا، في مستقبل قريب، من التوصل إلى ملاشاتها. ومعاداة السامية تعزز قناعاتهم بأن الأفكار الليبرالية، وبالنسبة للبعض الأفكار الاشتراكية، لا تنفصل عن مصيرهم. بل إنهم سوف يصل بهم الأمر إلى حد التمادي في تبني تيمات الخصم و، باندراجهم في استمرارية رسالة روحية لإسرائيل، إلى حد تأكيد أن أفكار الحرية والديموقراطية هي الأفكار اليهودية عن العدالة وقد اكتسبت الآن طابعًا علمانيًا.

إلاّ أننا نجد، بالنسبة لعدد من المثقفين اليهود الشبان الذين تتزامن سنوات تكوينهم مع سنوات انبثاق معاداة السامية، أن تيمات بأكملها من تيمات هذه العنصرية تعد مقبولة، ومن هنا تهمة "كراهية الذات" التي تترجم التمزقات والعذابات التي يستشعرها هؤلاء الشبان حيال وقع الإهانات والهجمات التي

يتعرضون لها على المستوى الشخصي. ففي فرنسا، مثلاً، نجد أن واحدًا كبرنار لازار يقبل في مستهل تسعينيات القرن التاسع عشر فكرة يهودية جديرة بالاحتقار تتماهى مع بلوتوقراطية جشعة وعديمة الأخلاق، متمايزة عن العامل الإسرائيلي الشريف، ثم يقوم، بعد وقت قصير من ذلك، بمماهاة الروح اليهودية مع روح رافضة وثورية مثالية تتميز بالتعطش إلى العدالة عبر التاريخ(٢٤). وفي مجمل العالم الغربي تتطور سلسلة بأكملها من الصور النمطية والصيغ الجاهزة عن اليهود ــ غالبًا ما يقبلها اليهود أنفسهم ــ تستعيد الأفكار المعادية للسامية عن اليهودية المعتبرة تجسيدًا لقوة المال الرأسمالية وتعبيرًا مطلقًا عن تمرد الاشتراكية الثوري على حد سواء. بيد أن هذا القبول لوجود "مسألة يهودية" غالبًا ما يكون مرحلة أولى نحو إعادة تأكيد لهوية يهودية خاصة لن تتأخر عن التعبير عن نفسها تعبيرًا سياسيًّا. وهكذا نجد أن معاداة السامية تقود البعض إلى إعادة اكتشاف للذات، وهي سيرورة لا واعية، أحيانًا ما تكون أليمة، من شأنها، عبر تعريف اليهودي على أنه أجنبي، أن تدفع إلى تأكيد قومي. وأسوأ ما تقوم به معاداة السامية هو المساس بكرامة الأفراد الشخصية، حيث يجري التعامل معهم دومًا على أنهم ضعفاء وجبناء وخبثاء.

على أن الحقائق السوسيولوچية تبين أن سيرورة الاندماج تتواصل، بشكل موازٍ لتأكيد معاداة السامية. فاعتبارًا من ثمانينيات القرن التاسع عشر، تصبح الزيجات المختلطة مهمة بشكلٍ متزايد باطراد في الطوائف الناطقة بالألمانية. وفي عام ١٩٠١، يصل معدل زواج اليهود الألمان من خارج طائفتهم إلى ٩,١٦ بالفعل؛ وسوف يصل إلى ٥٩ % في عام ١٩٢٩(٢٥). ونجد نسبة أقل أهمية لدى اليهود النمساويين، إلاّ أنها تظل ذات وزن معقول، مع تباينات إقليمية مهمة: أقل من ١٠% في فيينا في عام ١٩١٤، لكنها تصل من الناحية العملية إلى نسبة الثلثين في جراتس(٢٦). وهذه الأرقام مصحوبة بتحولات عن الديانة لدى الشركاء وخاصة لدى الأطفال، وذلك في الاتجاهين، مع اتجاه غالب نحو المسيحية (اليهودية الليبرالية تسهل التحولات عن الديانة نحو اليهودية، وهو ما لاينطبق على اليهودية الأرثوذكسية). وهذه المعطيات تبين أنه، بالنسبة للفترة السابقة على عام ١٩٣٣، لايجب التهويل من أثر معاداة السامية ذات المعاني

العنصرية: إن قراءة تبسيطية للتعقيدات الثقافية إنما تلتزم الصمت حيال واقع بقاء زواج يهودي قوي غير مختلط في فرنسا استيعابية وحيال زواج مختلط إلى حد بعيد في عالم جرماني "تمييزي". وقراءة الصحافة اليهودية توضح ذلك بجلاء: فإذا كانت هذه الصحافة تنزعج من مختلف تجليات معاداة السامية، فإنها تنزعج أيضًا من الخطر الذي يمثله بالنسبة للطوائف القديمة هذا الصعودُ في عدد الزيجات المختلطة. وفي أوروبا الغربية، خاصة في ألمانيا، سوف ينزعج صهيونيو ما قبل عام ١٩١٤ بدرجة واحدة تقريبًا من الزيجات المختلطة والاستيعاب الكامل ومن خصم هذا الاستيعاب، معاداة السامية[٢٧].

ووجود سياسيين من أصل يهودي ــ يمارسون ديانتهم غالبًا ــ في إطار النظم السياسية الديموقراطية والبرلمانية من شأنه أن يذكِّرنا بأنه، بالرغم من ذرى الدناءة التي بلغتها الصحافة المعادية للسامية، لم ير الناخبون من مختلف المناطق كما من مختلف طبقات المجتمع غضاضة في أن يمثلهم هؤلاء اليهود الذين يجري مع ذلك ذمهم بكل هذه القوة. وفي بلد كفرنسا، نجد أن عنف الصحافة المعادية للسامية في عهد الجمهورية الثالثة، وهو عنف يصدم إلى اليوم أيضًا من يقع بصرهم على هذه الصحافة عَرَضًا، ليس في الغالب غير مثال لحدةٍ في التعبير الصحافي والحزبي يجد المرء صعوبة في تصورها في زماننا الحاضر. والإهانة الشخصية تظل ضمن معيار ممارسات ذلك العصر. وبما أن هذه الشخصية أو تلك يهودية، فإنه يجري إضافة الهجوم المعادي للسامية إلى أسلحة التشهير. وسوف يتمثل الشيء الأكثر خطورة في نهاية الأمر في اللامبالاة حيال هذه المشكلات، وهي لامبالاات مميزة لجهاز الدولة الذي سوف يسمح بتطبيق سياسة نظام ڤيشي: فبيتان وڤيجان ودارلان وشخصيات أخرى من هذا الوزن لم يكونوا معروفين كأعداء للسامية قبل عام ١٩٤٠، ومع ذلك فسوف ينشئون في فرنسا ڤيشي وضعية لليهود تدشن نظامًا تمييزيًّا بشكل كامل. ومن المؤكد أن بيتان كان يؤمن بمشروعية هذا الإجراء، ولم يــر فيه ڤيجان ودارلان غير مسألة ثانوية، من غير المرجح أن تستثير استنكارًا أخلاقيًّا كبيرًا من جانبهما.

الأزمة المعادية للسامية
في ثمانينيات القرن التاسع عشر: أوروبا الشرقية

في مجمل العالم المسيحي الأرثوذكسي، احتفظت المعاداة التقليدية لليهود بأشكال عنيفة. وفي المناطق ذات السكان اليونانيين، كانت تهم الجرائم الشعائرية متكررة خلال فترة عيد الفصح اليهودي، وقد رافقتها أعمال شغب مناوئة لليهود، بما في ذلك في المدن التجارية في الدولة العثمانية. ومن المرجح أن عدوى هذه الممارسات قد طالت روسيا. فقد وقعت مذبحة أولى لليهود (pogrom) في عام ١٨٢١ في أوديسا، حيث قام اليونانيون المترددون على هذا الميناء المطل على البحر الأسود باتهام اليهود بأنهم مسئولون عن إعدام العثمانيين لبطريرك القسطنطينية الأرثوذكسي إثر نشوب التمرد اليوناني. وفي حين أن أعمالاً أخرى من النوع نفسه كانت غير معروفة في الإمبراطورية الروسية، إلاّ أن المذابح التي تستهدف اليهود تتكرر في أوديسا، المدينة الثالثة في الإمبراطورية من حيث عدد سكانها، في أعوام ١٨٤٩ و١٨٥٩ و١٨٧١، في فترة عيد الفصح اليهودي عمومًا(٢٨).

وفي الأول من مارس/ آذار ١٨٨١، اغتيل القيصر ألكسندر الثاني على أيدي ثوريين اعتمدوا سبيل الإرهاب. ويندد جانب من الصحافة الروسية باليهود زاعمًا اشتراكهم في المؤامرة ضد "القيصر المحرِّر". وفي الأسابيع التالية، تقع سلسلة من المذابح التي تستهدف اليهود من المناطق الساحلية المطلة على البحر الأسود إلى بولنده الروسية. والظاهرة حضرية أساسًا، حتى وإن كان فلاحون قادمون من الأرياف يشاركون فيها، ويبدو أنها ترجع إلى سياق تحولات اجتماعية حادة ترتبت على انتهاء النظام التقليدي وعلى بدء تحديث وتحويل المقاطعات الغربية للإمبراطورية الروسية. وقد بوغتت السلطات ولم تكن تحوز غير القليل من إمكانات القمع. وهي تعتقد في البداية أن الثوريين الشعبيين الروس يتحملون المسئولية عن القلاقل. فجهاز الدولة ليس هو الذي حث على المذابح، بالرغم من إدعاء عدد من مرتكبيها بأنهم تلقوا ضوءًا أخضر من الحكومة بالهجوم على اليهود(٢٩).

وإذا كان يهود الإمبراطورية يتهمون السلطة بأنها المحرض على المذابح،

فإنّ السلطات تقوم من جانبها بتشخيص ذي طبيعة اقتصادية: فكراهية السكان لليهود إنما تنبع من الاستغلال الاقتصادي الذي يكابدونه على أيديهم. ومن ثم يجب إنهاء ذلك بحمايتهم. فتقوم قوانين مايو/ أيار ١٨٨٢ بتشديد الأحكام التمييزية: إذ يجري اختزال ساحة منطقة الإقامة وحرمان اليهود من الإقامة بحرية في الأرياف. وفي عام ١٨٨٧، يجري فرض قيود التحاق حادة في المؤسسات المدرسية. ويتم تعزيز هذه الترتيبات في الأعوام الأولى للقرن العشرين(٣٠). وربما بدرجة أكبر مما هي الحال مع جميع التدابير الأخرى، جرى تحسس هذه القيود على الدراسة تحسسًا مؤلمًا من جانب جماعة سكانية يشكل فيها عشق الدراسات، الدينية ــ التقليدية أو الحديثة، عبادة عائلية حقيقية.

والحاصل أن تعزيز التشريع المعادي للسامية، في اللحظة التي تختفي فيها جميع التمييزات الحقوقية الأخرى المنبثقة من النظام القديم، إنما يجعل من المستحيل حدوث تحرير ــ اندماج وفق النموذج الأوروبي الغربي. وعندئذ فإن أحد الحلول الأولى المتاحة أمام السكان المعنيين هو الهجرة، لاسيما أن التدابير المتخذة من جانب السلطات القيصرية تؤدي إلى احتداد المشكلات الاجتماعية بتقييدها إلى حد كبير من إمكانيات الصعود الاجتماعي وبتسريعها بالأحرى لسيرورة تبلتر يهود الشرق الأوروبي.

الهجرة الكبرى

انطلاق الهجرة الكبرى ليهود أوروبا الشرقية باتجاه بلدان الغرب لاحقٌ للأزمة المعادية للسامية المزدوجة في شرقي وغربي أوروبا. وإذا كانت الأزمة الأولى، بمذابحها وبتشريعاتها التمييزية هي السبب الواضح تمامًا لحركة الهجرة، فإن قدوم يهود أوروبا الشرقية إلي بلدان أوروبا الأطلسية وأميركا الشمالية ليس سبب انفلات معاداة السامية في هذه البلدان. فالنزعة القومية العنصرية ــ التاريخية لا تتأثر إلاّ على نحو ثانوي بتزايد عدد اليهود، حتى وإن كان ظهور جماعات غير مستوعَبة بدرجة كبيرة يعزز الحجة التي تتحدث عن طابع الإسرائيليين الأجنبي جذريًا. والمأخذ الرئيسي الذي يأخذه المعادون للسامية على اليهود هو، على العكس من ذلك، اقترابهم الكبير جدًا من بقية

السكان، في حين أن القادمين الجدد يحملون معهم كل علامات أصلهم الشرقي: اللغة الأجنبية (اليديّة) أو اللهجة الأجنبية في أفضل الأحوال، الملبس اليهودي الأوروبي الشرقي التقليدي، المراعاة الصارمة لليهودية التلمودية.

وهذا كله ليس من شأنه سوى إثبات المطواعية غير العادية للخطاب المعادي للسامية الذي سوف يجد دائمًا ما يؤكد رفضه، أيًّا كان مسلك ومظهر اليهود أو عددهم. وهكذا، فإذا كان إسرائيليو أوروبا الغربية تجري مماهاتهم من الناحية السياسية بالليبرالية على الأخص. و، في فرنسا، بالنزعة الجمهورية، فإن فريقًا من اليهودية الأوروبية الشرقية، في قطيعة كاملة مع اليهودية التقليدية، قد مال، بفعل الاضطهادات والتبلتر، إلى صف الثوريين الاشتراكيين الداعين إلى تحويل جذري للمجتمع عبر النداء الألفي إلى "المساء العظيم". ومنذ ذلك الحين، يهاجم المعادون للسامية في آن واحد كلاً من البلوتوقراطية الرأسمالية اليهودية وفعل الثوريين اليهود التقويضي. وسمة الاتحاد المفترض بين هذين الاتهامين المتناقضين هي النزعة الأممية التي يتقاسمها الرأسماليون والاشتراكيون الثوريون. وهذا التأكيد إنما تثبته بشكل غير مقصود الاتهامات التي يجري تبادلها في داخل الطوائف اليهودية. فكثيرون من البورچوازيين اليهود معادون للقادمين الجدد ــ فهم أجانب يحفزون معاداة السامية بين أمور أخرى بما لديهم من ميول ثورية ــ، في حين أن هؤلاء الأخيرين يحمّلون البلوتوقراطية اليهودية، أداة الرأسمالية، المسئولية عن معاداة السامية.

والهجرة الكبرى لا ترتبط فقط بالاضطهادات الروسية أو الرومانية، فهي أيضًا نتاج لتقدم سبل المواصلات: وهي غير ممكنة في الواقع إلاّ اعتبارًا من اليوم الذي تتجح فيه شبكة متماسكة من خطوط السكك الحديدية في ربط المراكز الحضرية الرئيسية لأوروبا الشرقية بموانئ المحيط الأطلسي وبشكل إضافي بموانئ البحر المتوسط والبحر الأسود (وإلاّ لكانت الصهيونية نفسها من حيث كونها إيديولوچية تعبوية للفعل مجرد حلم يقظة لا واقعًا سياسيًّا). وهكذا نجد أن موجة رحيل أولى كانت قد حدثت بالفعل في ١٨٦٨ ــ ١٨٦٩ على أثر أوبئة الكوليرا والمجاعات التي أصابت الجزء الغربي من الإمبراطورية الروسية، بيد أن هذه الموجة لم تكن غير فورة قصيرة مست

البلدان الألمانية خاصة. ويمكن تقدير العدد الإجمالي للراحلين في سبعينيات القرن التاسع عشر بنحو ٤٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ نسمة، في حين أنه اعتبارًا من مستهل ثمانينيات القرن التاسع عشر، يعد الحجم نفسه أدنى من المتوسط السنوي: فبالنسبة للفترة من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩١٤، سيكون حجم الهجرة إلى بلدان الغرب ٢,٥ مليون على الأقل راحلين من الإمبراطورية الروسية وحدها، ويجب أن نضيف إليهم ٤٠٠٠٠٠ من البلدان المكوِّنة للإمبراطورية النمساوية – المجرية ورومانيا[٣١]. على أن هذا الانتقال الملحوظ إنما يخص جماعة سكانية يهودية تمر آنذاك بمرحلة نمو ديموغرافي سريع إلى أقصى حد، وهو ما يعني أن السكان اليهود في أوروبا الشرقية، من حيث الأرقام المطلقة، يحافظون على عددهم، بل يواصلون النمو ببطء. والتباين سافر مع الطوائف المتبرجزة في الغرب، والتي وصلت بالفعل إلى مرحلة الاستقرار الديموغرافي، بل، على ما يبدو في بعض الحالات، تمر بمرحلة تراجع من حيث الأرقام المطلقة. والواقع أن يهود الغرب إنما ينتمون إلى النظام الديموغرافي للبلدان الأوروبية التي يحيون فيها، وهم، علاوة على ذلك، لكونهم حضريين ومتبرجزين، يتميزون بمعدل مواليد أضعف من معدل مواليد إجمالي سكان بلدانهم. ومن ثم فليس التباين بين يهود أوروبا الشرقية (آنذاك كانوا يسمون بـ"الشرقيين") ويهود الغرب مجرد تباين ثقافي وديني: فهو يترجم حقائق اجتماعية وأنثروبولوچية قوية تعبر عن نفسها في لغة استخفاف بتفاوت المشاركة في الحضارة الحديثة.

والبلد الأول المعرَّض للهجرة هو، بحكم موقعه الجغرافي، ألمانيا الإمبراطورية. وهي تكسب من الهجرة فوائد اقتصادية كبرى، لأن جانبًا كبيرًا من هذه الهجرة المتجهة إلى أميركا الشمالية يستخدم الموانئ (هامبورج وبريمين) وخطوط الملاحة الألمانية: وبحسب بعض التقديرات، شكل اليهود وحدهم نحو نصف الركاب على وسائط النقل البحري للرايخ الثاني خلال هذه الفترة برمتها[٣٢]. وتنشئ السلطات الإمبراطورية منظومة رقابة صارمة سعيًا إلى عزل المهاجرين إلى أكبر حد ممكن عن بقية السكان خلال إقامتهم في ألمانيا: مخيمات للترانزيت على الحدود وفي الموانئ، عربات مختومة

بالرصاص في القطارات. وهي لا تتمكن من تفادي استقرار شريحة جد ضئيلة من المهاجرين في ألمانيا، لاسيما أن معاهدات التجارة مع النمسا ــ المجر وروسيا تبيح قدرًا من حرية الحركة. إلاّ أنه، حيال هذه الجماعة التي تعتبرها البيروقراطية مؤلَّفةً من صانعي متاعب ومن متسولين غير منتجين غير مرغوب فيهم، نجد أن الفعل الإداري جائر وتعسفي: التقتير الشديد في منح الجنسية(٣٣)، الطرد الدوري لآلاف الأجانب حتى ولو كانوا مقيمين منذ عدة عقود. وهذه السياسة تتعلق رسميًا بجميع الأجانب، إلاّ أن من الواضح أن هدفها الرئيسي هو التقييد الحاد لعدد المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا الشرقية (فالقادمون من البلدان نفسها من غير اليهود إنما يعاملون بمزيد من الليبرالية).

وبما أن التشريع الروسي قد فرض في عام ١٨٨٧ قيودًا جد قاسية على الطلاب اليهود في مؤسسات التعليم في الإمبراطورية الروسية، فإن الجامعات الألمانية تشهد تدفقًا قويًا للطلاب اليهود، إذ ارتفع عددهم من ٦٠ في عام ١٨٨٨ إلى ٦٠٠ نحو عام ١٩٠٠ وإلى أكثر من ٢٥٠٠ عشية حرب ١٩١٤. وهؤلاء الطلاب الذين تجنبوا الفروع الإدارية أو فروع التدريس، حيث لا إمكانية أمامهم في الحصول على عمل بعد التخرج، إنما يتجهون إلى الدراسات الطبية والعلمية والتقانية. وهنا أيضًا، تنشئ السلطات الألمانية حيلاً إدارية سعيًا إلى تقييد هذا الالتحاق من جانب أشخاص غير مرغوب فيهم، وهو ما يؤدي إلى أن تشهد أوروبا الغربية كلها انتشار دياسبورا جديدة من الطلاب اليهود الذين يتضورون جوعًا في الغالب.

ومواقف الطائفة اليهودية الألمانية أكثر التباسًا. فمن جهة، هناك قدر من العداوة يرجع إلى رفض اليهود الذين دخل عليهم الإصلاح لليهودية الأرثوذكسية التي يتبناها القادمون الجدد ورفض اليهود المستوعَبين للتيارات الاشتراكية والقومية الجديدة. ومن الجهة الأخرى، تقوم نزعة إنسانية نشيطة لاشك فيها بتحسين ظروف معيشة اليهود العابرين أو المهاجرين الجدد(٣٤). والحالة نفسها تتكرر في الحالتين الفرنسية والبريطانية: فنحن نرصد في آن واحد نفورًا من المهاجرين القادمين الذين يعيدون إنتاج صورة ماض مرفوض،

بيد أن واجب التضامن إنما يفرض نفسه في الوقت ذاته. ويجري منح عون مادي لمن يستقرون، بيد أنه يجري تسهيل مواصلة الرحلة إلى الساحات الأكثر انفتاحًا في القارة الأميركية.

وهذا العمل يجد أجمل تجسيد له في نشاط موريس دو هيرش. فالمالي الكبير، الذي مارس بالفعل نشاطه الإنساني الفاعل لصالح التحالف الإسرائيلي العالمي، يقوم في عام ١٨٩١ بتأسيس جمعية الاستيطان اليهودي (ستجري العادة على تسميتها ICA التي يزودها برأس مال كبير قدره ٥٠ مليون فرنكًا ذهبيًا. وتعمل المنظمة في تعاون وثيق مع التحالف. ولا تقتصر مهمتها على دفع نفقات الانتقال، فالهدف بالدرجة الأولى هو تأمين القدرة الاقتصادية للمهاجرين بتوفير تعليم مهني مناسب في بلدان الأصل وبتوفير ظروف استقرار كريمة في بلدان الوصول، كالأرجنتين. وسوف تنجح الحركة الصهيونية في استلهام هذه التجربة الأولى.

والمنفذ الرئيسي للهجرة هو أميركا الشمالية: فحيوية اقتصادها تسمح لها بأن تستوعب دون مشاكل كثيرة هذه الكتلة من البشر، والتي تعد مكونًا من مكونات حركة أوسع تندرج في صفوفها الآن جماعات أوروبية شرقية ومتوسطية (بينها مكوّنٌ من العرب المسيحيين، قادم جزئيًا من فلسطين) عوضًا عن بلدان أوروبا الشمالية. وإذا كان عدد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة لابد أنه كان، من ١٨٨١ إلى ١٩٢٠، نحو مليوني نسمة، فإن إجمالي السكان قد ارتفع في الفترة نفسها من ٥٠ مليون إلى ١٠٦ مليون نسمة.

وتتغير الطائفة اليهودية الأميركية تغيرًا عميقًا من حيث طبيعتها، لأنها، في الفترة نفسها، تنمو بنسبة ١٣٠٠%، إذ تنتقل من ٢٥٠٠٠٠ نسمة إلى ٣,٥ مليون نسمة[٣٥]. ويحتفظ اليهود الألمان ـ الأميركيون بالإطار العام للطائفة، بالرغم من أن التوترات تكون أحيانًا جد قوية بين القادمين الجدد وأولئك الذين استقروا بالفعل والذين لا يكنون سوى الاحتقار لثقافة الجيتّو وللرطانة اليديّة. وعلاوة على ذلك، فاعتبارًا من أواخر القرن التاسع عشر يتشرب فريق من المهاجرين أفكارًا اشتراكية. وفي أميركا الجنوبية، يعد المهاجرون أقل شأنًا، ما عدا في الأرجنتين، وهي بلد يمارس قوة جذب معينة على مجمل الهجرة

الأوروبية والمتوسطية. والمستوطنات الزراعية التي أقامها البارون هيرش، بنفقات باهظة، لم يحالفها سوى نصف نجاح: ٢٢٠٠ مستوطن مستقر في عام ١٨٩١ و٥٠٠٠ في عام ١٨٩٥ و٩١٠٠ في عام ١٩٠٤ و١٩٣٦١ في عام ١٩٠٩ و٢٦٦٤٠ في عام ١٩١٤. فالجانب الأعظم من الهجرة الجماعية لا يتجه إلى الأرياف وإنما إلى المدن. وفي المقام الأول بوينوس آيريس (٣٦٦ يهوديًا في عام ١٨٨٧، ١٦٥٠٠ في عام ١٩٠٩، نحو ٥٠٠٠٠ في عام ١٩١٤)[٣٦]. وأفريقيا الجنوبية التي تشهد نهوضًا اقتصاديًا شاملاً هي قطب جذب آخر للهجرة اليهودية، وتتكون جالية مهمة هناك ضمن الإطار الحرج للعلاقات بين الأجناس في هذا الجزء من العالم.

وتؤدي الهجرة الكبرى إلى قلب المعطيات الديموغرافية للطوائف اليهودية في أوروبا الغربية. فبالنسبة لبريطانيا العظمى وحدها، سيصل عدد المهاجرين بين عامي ١٨٨١ و١٩١٤ إلى ١٥٠٠٠٠ نسمة[٣٧]. والأرقام أقل بالنسبة لفرنسا، بيد أنها تنطوي على تحولات من النوع نفسه: فالتقديرات تذهب إلى أن عدد اليهود الذين يحيون في فرنسا في عام ١٩١٤ يصل إلى ١٢٠٠٠٠ نسمة، ثلثهم له وضعية الأجنبي[٣٨]. وتظهر أحياء يهودية جديدة ذات سكان بروليتاريين في الحواضر الرئيسية. وترى الطوائف المستقرة أن من واجبها دمج القادمين في ثقافة البلد المضيف. وهذا لا يحدث دون بعض التوترات وذلك بالنظر إلى أن القادمين من أوروبا الشرقية يحملون معهم وعيًا يهوديًا أكثر رسوخًا مع الاحتفاظ بيهودية أرثوذكسية معادية لبدع التيارات الإصلاحية، كما أنهم، في الوقت نفسه، حاملون لتيارات إيديولوچية جديدة تستلهم الاشتراكية أو النزعة القومية، وهي تيارات رافضة لنظام المستوعَبين البورچوازي.

والحالة النمساوية حالة فريدة وذلك بقدر ما أن الهجرة هجرة داخلية بشكل خاص، بين الطرفين الشرقي والغربي للإمبراطورية النمساوية ـ المجرية، وهو ما يثبته النمو غير العادي لسكان فيينا اليهود: ٤٠٠٠ في عام ١٨٤٦، ٦٢١٧ في عام ١٨٥٧، ٧٢٥٨٨ في عام ١٨٨٠، ١١٨٤٩٥ في عام ١٨٩٠، ١٤٦٩٢٦ في عام ١٩٠٠، ١٧٥٣١٨ في عام ١٩١٠ (٨,٦٣% من إجمالي السكان). وفي مرحلة أولى، نجد أنفسنا بإزاء يهود مستوعَبين ثقافتهم ألمانية

قادمين من مختلف مناطق الإمبراطورية، إلاّ أن نسبة يهود الشرق تنمو بشكل ملحوظ، اعتبارًا من عام ١٨٨٠. ويمكن رصد الظاهرة نفسها في بودابست، حيث يتفوق السكان اليهود على سكان فيينا اليهود في عام ١٩١٠ ليصل عددهم إلى ٢٠٣٠٠٠ نسمة، أي بنسبة ٢٣,١% من إجمالي السكان[٣٩]. وهذه المؤشرات القادمة من إمبراطورية آل هابسبورج إنما تعطي دلالة إضافية للهجرة الكبرى إلى الغرب. فهي لا ترجع فقط إلى مذابح ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ وإلى التشريعات التمييزية، بل هي ظاهرة نزوح ريفي من المناطق الريفية والبورجات والمدن الصغيرة في الشرق الأوروبي، حيث الديموغرافيا اليهودية قوية بشكل خاص وحيث المنافذ الحضرية ضعيفة، بحكم الواقع كما بحكم القانون.

والحال أن الطوائف القديمة، مع ممارستها لنشاط تضامني مثير، إنما تسعى إلى تخفيض هذه الهجرة التي تعتبرها عاملاً رئيسيًا في صعود رهاب الأجانب ومعاداة السامية. بيد أن هذه الطوائف لا يمكنها الحيلولة دون أن تصبح "المسألة اليهودية" أحد العناصر الرئيسية في النقاش السياسي الأوروبي.

تحولات اليهودية الروسية

تتمثل نتيجة قوانين مايو/ أيّار ١٨٨٢ في تعزيز الثقل الحضري ليهود روسيا. ففي منطقة الإقامة، يشكلون نحو نصف السكان الحضريين (إلى هذا الحد أو ذاك بحسب المناطق). وبسبب المعدل المرتفع لنموهم الديموغرافي، فإن النزيف البشري الذي تسببت فيه الهجرة الكبرى لا يحول دون بقاء أرقامهم المطلقة حول خمسة ملايين نسمة. بل لا يحول دون استمرار النمو الديموغرافي. والمستوى الثقافي لهؤلاء السكان، بالرغم من كونهم يمرون بمرحلة إفقار، إنما يظل مرتفعًا. فيهود أوروبا الشرقية، بينما يحيون في وضع دونية اجتماعية مقننة، يتمتعون بتفوق ثقافي واضح، الأمر الذي ليس من شأنه إلاّ أن يعزز مشاعر العزلة التي يتحسسونها ومشاعر الحسد التي يثيرونها. وفيما عدا بعض الأوساط الحضرية المميّزة، فإن الاختلاط الاجتماعي بين اليهود وغير اليهود لا وجود له. وإحدى التجارب السيكولوچية الأكثر غرابة

بالنسبة للمهاجرين الروس هي تجربة اللقاء الندّي مع غير اليهود.

واليهودية التقليدية جد نشيطة والمدارس الدينية غاصة بالطلاب. ويجري الدفاع عن المكانة المحورية التي يجب أن تحتلها الشريعة الدينية في الحياة اليومية، مع الاهتمام أيضًا بالمشكلات الأخلاقية والاجتماعية الناجمة عن تحديات الحداثة(٤٠). غير أن التطورات الأهم إنما تحدث في أوساط الحداثيين، الذين تخلوا عن مشروع تحرر تدريجي على شاكلة ما حدث في أوروبا الغربية.

وإذا كانت معرفة الثقافة والحضارة الروسيتين حقيقية في الأوساط المتعلمة، فإن الإرث التاريخي والوضع الحاضر إنما يدفعان إلى تأكيد هوياتي يهودي قوي بأشكال حيوية غير معروفة في الغرب. وهذه الصياغة الجديدة للهوية تهجر المجال الديني الأصيل لتطرح نفسها على شكل نزعة قومية وذلك عبر إعادة تفسير للتاريخ من زاوية علمانية ولأجل غايات علمانية في آن واحد. والحال أن عمل المؤرخ الكبير سيمون دوبنوف، عبر ما كتب من **رسائل حول اليهودية القديمة والجديدة**(٤١)، ثم عبر كتابه **التاريخ العام للشعب اليهودي**، هو الذي يوفر الإطار المفاهيمي لليهودية الوليدة. فالشعب اليهودي يشكل أمة. ومنذ ضياع أرضه الأصلية، تمكن من الحفاظ على وجوده الخاص بفضل تكوين هياكل مستقلة طائفية. وبما أنه محروم من الأرض، فقد عبر عن نفسه بالدرجة الأولى تعبيرًا ثقافيًا لأنه احتفظ بوعيه بذاته. والاستيعاب على نحو ما أعلنته الثورة الفرنسية إنما يشكل خطرًا قاتلاً. لذا يجب النضال من أجل صون وتوسيع الحقوق الطائفية، مع مشاركة تالية في سلطة الدولة على أساس طائفي.

وإذا كان الانتماء إلى الدين اليهودي يظل في أساس التعريف الجماعي (حيث يكف اليهودي المتحول عن ديانته عن أن يكون يهوديًا)، فإنّ النزعة القومية اليهودية تتجاوز الواقع الديني الوحيد وتتأسس على التأكيد اللغوي. ويتوجب على الاستقلالية اللغوية أن تأخذ بعين الاعتبار حالة التحدث بلغات ثلاث: لغة الدولة المضيفة، وهي هنا الروسية، والتي يتحدث بها فريق كبير من النخبة اليهودية؛ العبرية، وهي اللغة القومية التي تعبر عن خاصية الثقافة اليهودية؛ اليديّة، لغة الشعب، والتي هي بسبيلها إلى اكتساب وضعية لغة ثقافة.

وفكر دوبنوف واسع بما يكفي لإرضاء جميع المتمسكين بالاستقلالية اليهودية. وهو نفسه مؤيِّدٌ لنزعة قومية غير ترابية في داخل الإمبراطورية الروسية. وهو يطرح على نفسه مسألة الاشتراكية التي تكسب الساحة في صفوف الشبيبة اليهودية كما في صفوف شبيبة الإمبراطورية الروسية. فالأطر الذهنية للتطور الإيديولوجي لليهود هي عينها الأطر الذهنية للتطور الإيديولوجي لمجمل سكان إمبراطورية القياصرة، والنزعة القومية اليهودية تستمد إلهامها على نحو مباشر من النقاش حول النزعة القومية الروسية بين التغريبيين وأنصار النزعة السلافية، مثلما تستمد إلهامها من النقاش حول المناهج وأساليب العمل، وهو نقاش تحدث المواجهة فيه بين الماركسيين والشعبيين. والوقع أن من يختارون الطريق الثوري في داخل المنظمات الاشتراكية ـ الديموقراطية (مناشفة وبلاشفة) وفي داخل حزب الاشتراكيين ـ الثوريين الروس، إنما يعدون استيعابيين يرون أن الثورة هي السبيل الوحيد للتوصل إلى التحرير ـ الاستيعاب. ومن ثم فهم مدانون من وجهة نظر النزعة القومية اليهودية.

والأكثر تعقيدًا هو موقف من يتبنون النظرية الثورية مع تمسكهم بالاستقلالية اليهودية. وهو موقف حركة البوند[٤٢] التي أسسها الاشتراكيون اليهود في عام ١٨٩٧ من منظمات اشتراكية يهودية مختلفة: والواقع أن منطقة الإقامة إنما تعزل من الناحية الجغرافية البروليتاريا اليهودية عن التركزات الكبرى للعمال الروس، كما أن أسلوب الحياة، كمراعاة السبت، إنما ينطوي على ابتعاد للعمال اليهود عن العمال الآخرين (عندئذ لا يمكن لمشروع أن يسمح لنفسه بالتوقف عن العمل في يومي السبت والأحد). وهذه البروليتاريا اليهودية تتركز أساسًا في نشاطات المشروعات الصغيرة ذات النشاطات الحرفية بشكل واضح. ويعتبر البونديون أنفسهم طليعة الطبقة العاملة اليهودية المتاضمنة مع الطبقة العاملة الروسية وخصومًا للرأسماليين، أكانوا يهودًا أم غير يهود. وهم يماهون الأمة اليهودية بكل الناطقين باليديِّة. وبالرغم من الخلافات المذهبية وخلافات الأجهزة والأشخاص، يظل البونديون منتمين إلى المنظمات الاشتراكية الأخرى في الإمبراطورية الروسية (وهذا هو السبيل الوحيد أمام الاشتراكيين الديموقراطيين البلاشفة أو المناشفة للوصول إلى هذه

الجماعة السكانية العمالية الخاصة). وهكذا يجري تمثيل البوند في الشعبة الروسية للأممية الثانية، وهو يشارك بنشاط في مناقشات مؤتمرات الحركة العالمية، حيث يحصل على ما يريده من شجب لمعاداة السامية مع اصطدامه القوي ببعض الشعب العمالية الغربية فيما يتعلق بمسألة حرية الهجرة(٤٣).

والحال أن وجود اشتراكية يهودية ذات اتجاه قومي إنما يعود إلى شيء من إعادة النظر في المذهب الماركسي فيما يتعلق بمسألة الأمة. وإذا كانت شخصيات من أصل يهودي كروزا لوكسمبورج تعلن أنها لا تشعر بأنها أكثر اهتمامًا أو مهتمة بالمعاناة اليهودية قدر اهتمامها بمعاناة أهالي المستعمرات الخاضعين للاستغلال الرأسمالي المريع في المستعمرات أو للسخرة، فإن آخرين، على العكس من ذلك، في وسط أوروبا، إنما يستعيدون تيمات قريبة من تيمات دوبنوف. ويعترف بعض "الماركسيين – النمساويين" بوجود أقلية قومية يهودية بلا أرض ويرون إمكانية حكم ذاتي قومي قائم على الثقافة وليس على الأرض(٤٤).

والحال أنه ضمن هذا السياق بالتحديد يظهر الصهيونيون الأوائل. وشأن المتمسكين الآخرين بنزعة قومية يهودية، فهم منبثقون من أوساط الحداثيين الذين تحرروا من الأوهام بسبب استحالة التوصل إلى تحرير حقيقي ضمن إطار الإمبراطورية الروسية وأصبحوا، في الوقت نفسه، متزايدي الانتقاد بشكل مطرد حيال نتائج هذا التحرير الذي يرون تحققه لدى إخوتهم في الدين في أوروبا الغربية(٤٥).

بدايات الصهيونية

في ستينيات القرن التاسع عشر، كان بعض الأفراد المهمين اليهود من مختلف الأصول قد شرعوا في الحديث عن نزعة قومية يهودية قائمة على العودة إلى الأرض المقدسة. وهذا ينطبق في آن واحد على اشتراكي يهودي ألماني كموسى هيس بكتابه **روما وأورشليم، المسألة الأخيرة في مسائل القوميات**، الذي ظهر في عام ١٨٦٢، حيث تجري الدعوة إلى إقامة دولة اشتراكية يهودية في فلسطين، كما على حاخامين من وسط أوروبا، هما آلكالاي

وكاليشر، اللذين ارتأيا تنظيم إعادة استيطان اليهود لفلسطين: ومن المؤكد أنهما قد تأثرا بالإحياء اللغوي والثقافي والديني والسياسي لشعوب وسط أوروبا التي تلامس عصر ما قبل النزعة القومية. بيد أن هذه الكتابات وهذه البرامج السبّاقة كانت مجهولة بالكامل في زمانها، وكان أثرها معدومًا من الناحية العملية. ولن تتم إعادة اكتشافها إلاّ بعد عدة عقود من صدورها.

وتنبع بداية الحركة الصهيونية من رد فعل بعض الشخصيات، وأهمها موشيه ليب ليبينبلوم وليو بينسكر، حيال الاضطراب المترتب على أزمة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢. فهم يرفضون الطريق السهل المتمثل في الهرب إلى بلدان الغرب. ولا يريدون اعتبار معاداة السامية إحياءً مفارقًا للتاريخ وعابرًا لفظائع العصر الوسيط، ويعرّفونها على أنها "الجانب المظلم في حضارتنا الحديثة الجميلة"(٤٦). وبما أنه لابد من التخلي عن أي أمل في الحفاظ على هوية يهودية في أوروبا لا تكون مضطهَدَة بشكل تلقائي، فلم يعد هناك من سبيل سوى طريق البعث القومي. ويمر هذا الطريق عبر تأسيس دولة على أرض لا يمكن إلاّ أن تكون أرض الأسلاف، فلسطين. فالشعب اليهودي لن يتمكن من تحقيق تحرره الذاتي والتوصل أخيرًا إلى وجود سوي بين الأمم الأخرى إلاّ باستعادة موطنه التاريخي. و**التحرر الذاتي** هو العنوان الذي يعطيه بينسكر لبيانه ـ كراسه الشهير الصادر في عام ١٨٨٢: إذ يجب لليهود أن يمسكوا زمام مصيرهم بأيديهم وأن يكفوا عن ترقب تدخل إلهي أو بشري لصالحهم؛ ويتوجب عليهم أن يتحركوا بأنفسهم إلى انتزاع تحررهم القومي الخاص. وفي صفوف الطلاب الروس اليهود، تجتمع النزعة القومية اليهودية برؤية للذات منبثقة من التربية الدينية ومن علم اليهودية: يجب هجر أوروبا، حيث اليهود أجانب، والعودة إلى آسيا، أرض الأصل، حيث سيكون بالإمكان استعادة رؤيا أنبياء إسرائيل عن السلام والإخاء الشاملين. والتوراة هي البرهان على أن هذه الأرض تخص اليهود. ولا يمكن اعتبارهم فيها أجانب عالة على الآخرين: وبدلاً من ممارسة مهن الدياسبورا (التاجر، البائع المتجول، صاحب النُزُل)، سوف يزرعون هناك أرض أبائهم بأدواتهم شأن جميع الأمم الأخرى على الأرض(٤٧).

وبما أن تيّارًا صغيرًا داخل الهجرة الكبرى يتجه إلى فلسطين، فإن

الصهيونيين الأوائل يسعون إلى تنظيمه. وتتأسس دزينة من الجماعات الصهيونية على المستوى المحلي في ١٨٨٢ ـــ ١٨٨٣. وهي تجتمع في مؤتمر كاتوفيتز (كاتوفيس)، في بولنده البروسية، في عام ١٨٨٤، لكي تشكل منظمة أحباء صهيون تحت قيادة ليلينبلوم و بينسكر. وهم يريدون التوجه إلى الجماهير وينتقدون التحالف الإسرائيلي العالمي، المعبِّر عن البلوتوقراطية اليهودية(٤٨). وفي عام ١٨٨٥، تلم المنظمة الجديدة شمل خمس عشرة ألفًا من المناضلين الموزَّعين في مجمل منطقة الإقامة، بينما توجد جماعات أخرى أقل أهمية تتقاسم التوجه نفسه. والجدل قوي بين الاتجاه المتعلمن، الذي يمثله ليلينبلوم وبينسكر، والاتجاه الديني، الذي يرعاه الحاخام موخيليبير. والعنصر الأكثر أهمية هو لجنة أوديسا، التي تحصل على اعتراف قانوني في عام ١٨٩٠: إذ ترى السلطات الروسية فيها مشروعًا ذا طابع إنساني غير سياسي ولاخطر منه، بينما تبدأ في الانزعاج من انتشار الأفكار القومية، الصهيونية وغير الصهيونية، في صفوف السكان اليهود في الإمبراطورية.

واللقاء المهم الوحيد بين الصهيونية الجنينية غير اليهودية والعالم اليهودي في روسيا ورومانيا إنما يرجع إلى لورانس أوليفانت، وهو عين نموذج المغامر غريب الأطوار المنتمي إلى علية القوم في العصر الفيكتوري. وكان قد تابع حرب القرم كصحافي، وكان مرافقًا لغاريبالدي خلال النضال من أجل الوحدة الإيطالية، وهو عضو في البرلمان البريطاني. وهذا الرحالة في الشرق يقدم نفسه بوصفه مدافعًا عن الدولة العثمانية غداة مؤتمر برلين ويحبذ التوطين الجماعي لليهود في شرقي الأردن سعيًا إلى تقوية العثمانيين في مواجهة الأطماع الروسية: فنشاطات اليهود سوف تزيد من إيرادات الدولة العثمانية وسوف تعزز مواردها وتكفل للباب العالي جزيل شكر أوروبا؛ وخلافًا لآلاف اللاجئين المسلمين من البلقان والقوقاز، سيجلب اليهود معهم الرساميل والمعارف الضرورية للتنمية الاقتصادية للمنطقة، وذلك في إطار شركة ناشئة بمرسوم امتياز(٤٩). والحال أن أوليفانت، مدعومًا بتوصيات من الحكومة البريطانية، إنما يعرض مشروعه على السلطات العثمانية في عام ١٨٧٩(٥٠). وهذه الأخيرة تماطله: فالباب العالي يوضح له أن السلطان عبد الحميد غير

مؤيد لهذا المشروع، بينما يتذرع السلطان بأن الباب العالي هو الذي يعارض المشروع. والواقع أن السلطات الفرنسية ترى في مشروع أوليفانت عنصر مؤامرة بريطانية هدفها الاستيلاء على الشرق الأدنى، ومن ثم تعترض سبيله. فأوليفانت ومدحت باشا شريكان في مؤامرة واحدة هدفها استبعاد المسيحيين المحبين لفرنسا والاستعاضة عنهم بيهود استأجرتهم انجلترا الخبيثة. أمّا فيما يتعلق بعبد الحميد، فهو يدرك على الفور المخاطر التي يمكن أن يسببها للدولة العثمانية ظهور مسألة قومية جديدة. وقد انتهت اللجنة الوزارية المشتركة المكلّفة بدراسة المقترحات إلى أن يهود العالم بأسره يتطلعون إلى لم شملهم في فلسطين وأن الشركة المنشأة بمرسوم امتياز سوف تكون المرحلة الأولى في إنشاء دولة يهودية(٥١).

وغداة مذابح ١٨٨١، يدخل أوليفانت في اتصال مع الصهيونيين الأوائل وينادي بالهجرة إلى فلسطين. وهو يحظى، للحظة، بشعبية كبرى في منطقة الإقامة وفي رومانيا. وفيما بعد، يستقر في حيفا ويتابع باهتمام الأحوال اليهودية في فلسطين مع مواصلته الاهتمام باستكشاف الأرض المقدسة. ومذهبه قريب من مذهب المتمسكين الآخرين بتحقق النبوءات، لكننا نجد لديه أيضًا تيمات أكثر رسوخًا عن العمل الإنساني الخيري لصالح يهود الشرق والتنمية الاقتصادية للمشرق بفضل رساميل ونشاطات اليهود، والمصلحة السياسية لبريطانيا العظمى، إلى جانب تيمة الاحتقار للأهالي العرب. والحاصل أن نشاط أوليفانت إنما يلقى مناهضة من جانب المؤسسات الطائفية اليهودية الكبرى في الغرب والتي قررت، في مؤتمر لها في برلين في أبريل/ نيسان ١٨٨٢، توجيه الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة والبلدان الأخرى عبر الأطلسية، مع استبعاد البلدان الشرقية؛ ففقر الدولة العثمانية لا يسمح بتأمين الحيوية الاقتصادية للاستيطان فيها(٥٢).

وبالرغم من انغراسٍ فعلي للمناضلين ومن إرسال موجة أولى من المهاجرين، فإن الحركة عمومًا إنما تمنى بالأحرى بالفشل، من حيث المنجزات العملية. ويرجع ذلك أساسًا إلى قصور الإمكانات وعدم وجود دراسات حول التدابير التحضيرية الضرورية للهجرة كما حول حقائق الساحة على حد سواء.

وبشكل ملموس، يتجه عمل الصهيونيين الأوائل إلى النشاط الإنساني الخيري العادي، الذي يعرّفونه على أنه "حب فلسطين". وبالرغم من المعارضة المعلَنة تجاه البلوتوقراطية اليهودية في الغرب، فإنّ عمل أحباء صهيون لابد له من أن يمر بإمساكٍ بزمام الأمور في فلسطين بفضل النشاط الإنساني المنظم الذي يضطلع به كبار الأثرياء اليهود. فأحباء صهيون تابعون فعليًّا لإدمون دو روتشايلد الذي يقود مهمة استيطان فلسطين. على أن البرنامج الصهيوني، الآخذ بالتبلور كمنظومة مذهبية، إنما يصبح أحد التيمات المركزية للنقاش الإيديولوچي الذي يخوضه يهود أوروبا الشرقية، وتبدأ أفكاره في الانتشار في أوروبا الغربية، خاصة في انجلترا ـــ حيث توجد بعض شُعَبِ أحباء صهيون ـــ، وفي ألمانيا وفي النمسا ـــ المجر. وفي مرحلة أولى، كانت هذه التوسيعات للحركة من فعل مهاجرين يهود قادمين من أوروبا الشرقية. وتدريجيًّا، ينضم إليها عدد من ممثلي الطوائف اليهودية الغربية القديمة المنزعجة من صعود معاداة السامية. وبشكل متزايد باطراد، تفرض نفسها ضرورةُ الاضطلاع بعمل تنسيقي للنشاطات، لن يكون مركزه، بحكم قوة الأشياء، إلاّ في الغرب، وذلك سعيًا إلى تجنب القمع الروسي. وعلاوة على ذلك، يلعب أحباء صهيون دورًا رئيسيًّا في إحياء اللغة العبرية كلغة ثقافة في العالم الحديث.

وتلعب فيينا دورًا بالغ الأهمية في تطور الحركة. فهي الموقع الذي تلتقي فيه بشكل أكثر مباشرةً يهوديةُ أوروبا الغربية المستوعَبَة والتأكيد القومي ليهود الشرق الأوروبي. وفي ستينيات القرن التاسع عشر، يستقر في فيينا واحد من الآباء الروحيين للحركة، هو بيريز سمولينسكين (١٨٤٢ ـــ ١٨٨٥). ولا يكل هذا اليهودي الروسي الحداثي من الدعوة إلى تعبير يهودي باللغة العبرية، وهو ينتقد بقوة كلاً من أرثوذكسية الحاخامات واليهودية التي دخل عليها الإصلاح والتي تهجر استخدام العبرية. وتحت تأثيره، يقوم الشاب ناثان بيرنباوم، المنحدر من غاليسيا النمساوية، بتأسيس أول أخوية طلابية يهودية، في عام ١٨٨٢، وهي أخوية قاديماه، المزوَّدة ببرنامج قومي يهودي بشكل سافر. وهذا المصطلح الذي صاغة سمولينسكين يعني "قُدُمًا"، كما يعني في الوقت نفسه "شرقًا". وبدلاً من مصطلح "الإسرائيلي" ـــ العزيز على أفئدة المستوعَبين ـــ

تستخدم قاديماه باعتزاز تعبير "العبري" القومي. والحال أن الأخوية، التي ولدت من القرار الذي اتخذته الجمعيات الطلابية الألمانية في مستهل ثمانينيات القرن التاسع عشر بالتوقف عن قبول أعضاء يهود، إنما تصبح بسرعة بؤرة نشيطة للنزعة القومية اليهودية وتنشئ فروعًا لها في الجامعات الرئيسية في العالم الجرماني. وبوجه أعم، في مجمل أوروبا، وردًا على الاتهامات بالجبن وبالخسة، والتي يوجهها المعادون للسامية، تظهر جمعيات تستمد أسماءها من ذكرى المكابّيين التي ترمز أيضًا في العهد القديم إلى صورة أكثر كفاحيةً وأكثر نضاليةً وأكثر رجولةً. ويجري الاقتداء بهذا المثال في بلدان أخرى كانجلترا.

وتواصل قاديماه نشاطات أحباء صهيون. وهي، في البداية، لاتجند أعضاءها إلاّ من صفوف يهود الشرق الأوروبي، إلاّ أنه اعتبارًا من أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر ينضم إليها عدد كبير من الشبان المنحدرين من أسر مستوعَبة. والحال أن أعضاءها، رفضًا منهم للسلبية حيال معاداة السامية، إنما يدافعون عن الشرف اليهودي بالانخراط المنهجي في مبارزات مع طلاب الأخويات الجرمانية، الأمر الذي يحدث قدرًا من الإثارة في صفوف الرأي العام. وفي ١١ مارس/ آذار ١٨٩٦، تتهرب الأخويات القومية الألمانية المجتمعة في مؤتمر زاعمةً أن الطلاب اليهود لا شرف لهم وتعوزهم الشجاعة وأنه، ترتيبًا على ذلك، لا يمكن الدخول في مبارزات معهم. وهو ما يعني إنكار أي كرامة إنسانية للأشخاص الذين يجري التنديد بهم[٥٣]. ويؤدي هذا الموقف إلى فضيحة كبرى بحيث إنّ السلطات تقرر حل هذه الأخويات، وإن كانت لا تفعل شيئًا بعد ذلك لمواجهة إعادة تكوينها تحت أسماء أخرى[٥٤].

وواقع أن التأكيد القومي اليهودي يجري التعبير عنه في النمسا ــ المجر بشكل أكثر حزمًا مما في روسيا أو في رومانيا لا يرجع فقط إلى حرية التعبير الموجودة في بلدي الملكية المزدوجة. فطبيعي أن النزعة القومية اليهودية تجد مكانها في مجتمع متعدد القوميات حيث تنزع كل جماعة إلى تعريف نفسها على أنها جماعة قومية عن طريق مجهود عنيف تفرضه على ذاتها. وموشور التأويل الذي حدَّده برنار ميشيل ينطبق تمامًا على حالة الصهيونية، التي هي تعبيرٌ قصويٌ عن ذلك:

إن عنف النزعة القومية لا يتجه إلى الآخرين: فهو بالدرجة الأولى عنف داخلي، إذ يسعى إلى توحيد أفراد الأمة، إلى جعلهم فاعلين أكثر وعيًا، أكثر تضامنًا. والنزعة القومية الحقيقية بحث مشبوب العاطفة عن الهوية القومية التي لا يمكن التوصل إليها إلاّ عن طريق مجهود يجري فرضه على الذات. فمنذ مستهل القرن التاسع عشر، إنما يكمن في الذات العدوُّ الذي تجب مكافحته كيما يتسنى للمرء أن يصبح مواطنًا أفضل في أمته. ويجب على المرء أن يفرض على نفسه معرفة لغتها وثقافتها والمشاركة في الجمعيات القومية. وإذا كان مثل هذا المجهود ضروريًّا فذلك بلا ريب اعتراف بأن النزعة القومية ليست معطى طبيعيًّا. فالمرء لا يولد وطنيًّا مجريًّا أو بولنديًّا، وإنما يصبح كذلك. وإذا كان لابد للهوية من أن نبحث عنها، فما ذلك إلاّ لأنها غير مؤكَّدة، ولأنها قد تكون مهدَّدة باستمرار. ولجوء بعض القوميين إلى العنف، والتأكيد الدوجمائي لتفوقهم، إنما يترجمان دومًا تقريبًا ما يخامرهم من شكوك. وغالبًا ما تكون المطالبة المسرفة بنقاء عنصري أو عرقي ناجمةً عن أصول عائلية مختلطة، يجري تحسسها خطأ على أنها مشينة(٥٥).

وكما هي الحال بالنسبة للشعوب الأخرى للملكية المزدوجة (النمساوية ـــ المجرية)، فإن بوسع الشعب اليهودي الآخذ بالتشكل أن يزعم لنفسه تجربة دولة قديمة، تجربة دولة ضاعت ويتعين بعثها. وحتى مع أن الآليات واحدة، وحتى إذا كانت النزعة القومية، هنا أيضًا، تسبق الأمة، إلاّ أن الفارق الرئيسي إنما يستند إلى واقع أن دعوى تحرير التراب كلية. وبما أن الصهيونيين الأوائل لا يحوزون شيئًا، فإن بوسعهم أن يطالبوا بكل شيء.

وسوف يلعب ناثان بيرنباوم دورًا أساسيًّا كرائد. فهو، في كتاباته، يكافح بحزم "هوس الاستيعاب" الذي ندين له، في إمبراطورية آل هابسبورج المتعددة القوميات، بظهور ألمان ومجريين وسلاف "إيمانهم موسوي". وفي عام ١٨٨٥، يرأس تحرير صحيفة اسمها **التحرير الذاتي**، وهو أول من يستخدم مصطلح "الصهيونية"، الذي يصبح واسع الانتشار اعتبارًا من عام ١٨٩٢(٥٦). وفي عام ١٨٩٣، في كتاب لم يلحظ صدوره كثيرون، يدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين كحل للمسألة اليهودية. ويستند جوهر فكره على تأكيد شخصية وهوية يهوديتين بشكل محدَّد، تعدان قاعدة لنزعة قومية خاصة. وهو ما يفسر تطوره

الشخصي الذي سوف يبعده تدريجيًا عن الصهيونية(٥٧). وبما أنه ينحدر من وسط جد متواضع ولا يحوز أي ثروة عائلية ومضطر بحكم قوة الأشياء إلى تأمين الحياة المادية لأسرته، فلم يكن يملك لا الوقت ولا الإمكانات اللازمة لكي يصبح زعيم حركة جماهيرية.

والهجرة الكبرى تجر في تيارها مناضلين ينتمون إلى الاتجاهات الرئيسية التي لها تمثيلها في منطقة الإقامة: وهكذا، ففي أوروبا الغربية وفي ألمانيا، نجد في أوساط المهاجرين ممثلين للمدافعين عن يهودية تلمودية وللمتمسكين بمختلف التيارات الحداثية (القوميين والاستقلاليين والاشتراكيين والبونديين). ومع صعود عدد المهاجرين في صفوف الطوائف المستوعَبَة تظهر ظروف إمكانية تلقي الأفكار القادمة من طوائف الإمبراطورية الروسية، وغير المعروفة قبل ذلك الحين. والحال أن الجماعات السكانية اليهودية، بالرغم من أنها تشهد تبعثرًا متزايدًا على المستوى الجغرافي، إنما تعزز هوياتها الجماعية بحكم معاداة السامية وبحكم انفتاح الدياسبورا الجديدة القادمة من روسيا على العالم.

أحاد هاعام والصهيونية الروحية(٥٨)

إذا كانت الصهيونية الأولى تظل حركة سيئة التنظيم إلى حد بعيد وتعوزها الإمكانات، فإن لها مفكرها الكبير الأول، أبراهام جينسبرج (١٨٥٦ ــ ١٩٢٧) الذي يتخذ لنفسه اسمًا أدبيًا عبرانيًا هو أحاد هاعام، والذي يعني "واحدًا من الشعب"، بمعنى "الرجل العادي"، [أحد العوام]. والحال أن تأثيره سوف يكون من أكثر المؤثرات أهمية. فهذا الرجل الذي تشرَّب الثقافة اليهودية تشربًا عميقًا، وإن كان قد تشرب أيضًا الثقافة الغربية الحديثة، إنما يبدأ اعتبارًا من عام ١٨٨٩ نقدًا حادًا للنزعة القومية اليهودية لكي يضعها في اتجاه جديد. فهو يرى أن الخطر الحقيقي لا يكمن في رهاب اليهود وإنما في الاستيعاب الذي يقود إلى ضياع الهوية. فاليهودي المستوعَب والذي يرثي للملمات التي تصيب أوروبا الشرقية، بعيدًا عن أن يكون حرًا، إنما هو عبد لا يدري بذلك:

المحسنون إلينا [...] لا يعرفون رأينا فيهم، في العبودية الداخلية التي يتعفنون فيها، تلك العبودية في الحرية والتي يعرفها اليهود الفرنسيون أكثر من جميع الآخرين. وإذا ما

عرفوا رأينا، فسوف تكون لديهم فكرة عن كل عمق الاحتقار الذي نكنه، في نكراننا الأسود للجميل، لـ"شفقتـ"ـهم، ولمساعيهم الرامية لتحريرنا من العبودية الروحية. فيا أيها العبيد، ابدأوا بتحرير أنفسكم أنتم. أمَّا نحن، يهود أوروبا الشرقية البؤساء، فنحن الذين سوف نهب، مدفوعين بإيماننا، إلى تحريركم من العبودية الداخلية التي لا تلحظونها أنتم أنفسكم. انظروا: إنهم قادمون بالفعل، يهود أوروبا الشرقية البؤساء هؤلاء، وتأثيرهم يبدأ بالفعل في الوقوع عليكم، دون أن يخطر ذلك ببالكم إلى الآن. ووجهاء روما القديمة كانوا هم أيضًا مفعمين بالاحتقار للبؤساء القادمين من الشرق، إلاّ أنه جاء اليوم الذي تمكن فيه هؤلاء البؤساء من قلب الإمبراطورية الرومانية القوية رأسًا على عقب، بحيث أصبح من المستحيل التعرف عليها(٥٩).

وهذه "العبودية في الحرية" ليست بعيدة عن تهمة "كره الذات" والتي يوجهها القوميون اليهود إلى خصومهم في العالم اليهودي.

ولابد للعودة إلى صهيون أن تترافق مع عودة إلى اللغة الأصلية، العبرية، وأن تقود إلى إحياء الغرائز السياسية والمؤسسات القومية اليهودية التي قضى عليها الفتح الروماني. والدين ليس غير أحد جوانب الواقع اليهودي: ومع الحياة في المنفى، تضخم ليشمل كل جوانب الحياة اليهودية، وكان ذلك ضروريًّا لتأمين بقاء الشعب اليهودي. غير أنه ليس مع ذلك سوى فاصلة، لأن بالإمكان ومن الواجب اليوم العودة إلى المرحلة القومية التي كانت سابقة للمرحلة الدينية. وإلاّ فإن العلمنة سوف تقود إلى اختفاء الشعب اليهودي، لأن الحياة الدينية إنما تميل بشكل متزايد باطراد إلى أن تصبح حقيقة من حقائق الحياة الخاصة. وعبر الاعتماد على عمل علم الديانات وعلى الشعور المصون برسالة خاصة للشعب اليهودي، يمكن لليهود أن يستردوا روحهم الحقيقية، المتمثلة في النبوة. والحال أن فكرة "الأخلاق في التاريخ"، والتي أدخلها علم اليهودية، إنما تصبح العنصر المحوري في إعادة تعريف الهوية اليهودية من جانب مفكر الصهيونية الكبير الأول. وسوف تظل خاصية دائمة للخطاب الصهيوني في صياغة صورة جديدة للذات.

ولا تنبع أصالة هذا "الطفل المرعب" من مجرد قلب مجمل الإشكالية

التقليدية للتاريخ اليهودي، بل تنبع أيضًا من تحليله الصارم للواقع الفلسطيني. فمنذ عام ١٨٩١، على أثر رحلة إلى الأرض المقدسة، يطرح برهافة مشكلة العلاقات مع العرب مؤكِّدًا أن من الخطأ تصور أن فلسطين أرض مجدبة: على العكس، فلم تبق هناك من الناحية العملية أرض قابلة للزراعة متوافرة ولا يمكن الأمل في الحصول بأساليب فاسدة على جانب كبير من الأملاك الزراعية التي يحوزها السكان العرب. ومسلك المهاجرين اليهود الأوائل ينذر بأن يؤدي في القريب العاجل إلى نزاع شديد:

> إخوتنا محقون في قولهم إن العربي لا يحترم غير الناس الذين يبدون ما لديهم من قيمة وشجاعة. لكنه لا يفعل ذلك إلاّ عندما يشعر بأن الطرف الخصم صاحب قضية عادلة. والأمر مختلف تمامًا عندما يعتقد [العربي] أن موقف خصمه غير عادل وغير مشروع. ففي هذه الحالة، يمكن أن يكبت غضبه لأطول فترة ممكنة، بيد أن هذا الغضب يظل في صدره، وسوف ينتهي بإعلان ثأره وشوقه إلى إنزال العقاب بخصومه(٦٠).

وفي الأعوام الأولى للحركة الصهيونية، سوف يلعب أحاد هاعام دورًا رئيسيًّا. وبوصفه محرِّكًا لأخوية سرية اسمها "أبناء موسى"، فسوف يصبح واحدًا من الشخصيات الرئيسية في لجنة أوديسا. لكنه ليس صاحب عقلية سياسية: فهذا الرجل الذي اختير عدة مرات لتولي قيادة حركة جماهيرية، سوف يمتنع عن ذلك دائمًا، لأنه لا يشعر بأن لديه أي ميل إلى السياسة السياسوية اليومية(٦١). وذهنيته جد انتقادية بحيث لا يسعه ممارسة قيادة سوى القيادة الأدبية، وسوف يأخذ عليه خصومه عدم مقدرته على طرح شيء سوى الإدانات وليس الحلول الإيجابية لمشكلات الساعة. على أنه يُدخل في الحركة، لأول مرة، بنية فكرية حقيقية. وهو يرى أن الشاغل الرئيسي ليس مصير اليهود في العالم بقدر ما أنه بقاء اليهودية نفسها. ولابد من إيجاد أساس جديد سعيًا إلى صون الثقافة اليهودية التي يهددها الاستيعاب(٦٢).

وهو يحدد معالمَ صهيونيةٍ روحية: ففلسطين يمكن أن تصبح، ليس مركزًا سياسيًّا للشعب اليهودي، وإنما ملاذًا لليهودية، بؤرة ثقافية تهاجر إليها شريحة صغيرة من الدياسبورا، نخبة محبوة بالشجاعة وبنكران الذات، ومهمتها توحيد

الوعي الجماعي لمجمل يهود العالم. وعندئذ سوف تتشكل حياة يهودية جديدة تكون قدوة لمجمل الشعب. وهكذا، سيكون بالإمكان صون الواقع القومي في داخل المنفى. وبعيدًا عن أن يهتم أحاد هاعام بصهيونية سياسية أو عملية، فإنه قد وضع في الصدارة صهيونية ثقافية تعطي مكانها للدياسبورا. ورؤيته للنزعة القومية تنتمي إلى التراث العضواني المنبثق من الرومانسية الأوروبية، والذي يطرح التفوق المطلق للواقع الإثني أو الثقافي، الذي يجب لكل الباقي أن ينبثق منه: وهكذا، ففي رؤيته العضوانية، لا يشمل التعليم اليهودي مجرد تعليم بالعبرية يتصل بالمسائل العلمانية، بل يشمل أيضًا تعليمًا في روح عبرانية في جميع المجالات، وذلك سعيًا إلى تقديم رؤية يهودية لكل مجالات الحياة والمعرفة، مع غربلة حكيمة لكل الإسهامات الخارجية. وكما هي الحال غالبًا عند الإيديولوچيين، فقد تكون تأكيداته متناقضة: فالبؤرة الروحية يمكن فهمها على أنها تتألف من جماعة نخبوية صغيرة، بيد أنها قد تعني في لحظات أخرى توطين أغلبية يهودية في فلسطين.

ومع أن مواقف أحاد هاعام ليست جد بعيدة عن مواقف دوپنوف، الذي حافظ معه طيلة حياته على حوار ودي وأخوي، إلاّ أن المناضلين الصهيونيين الأوائل لن يحتفظوا بالأخص من منظوره سوى بتشديده على البعث القومي، خاصة مع فكرة العودة إلى العبرية والرغبة في تكوين نخبة من المستوطنين في فلسطين، إلى جانب رؤية "أخلاقية" لدورهم. والحال أن رجلاً كمناحيم أوسيشكين، وهو مناضل شاب في حركة أحباء صهيون وفي حركة أبناء موسى، إنما يعد أكثر تمثيلاً لقاعدة الحركة. وبما أنه هو نفسه كان قد زار فلسطين، فهو يرد على أحاد هاعام بأنه لا يجب الانخراط في التشاؤم، وبأنه إذا كانت البدايات صعبة، فإن بالإمكان مع ذلك التوصل إلى نتائج مرضية، كما تشهد على ذلك أهمية النشاطات التي تم الاضطلاع بها بالفعل(٦٣).

الفصل الرابع

فلسطين زمن العاليًا الأولى

"أنا لست مُحْسِنًا! لقد بدأت المشروع في فلسطين لأنني كنت أريد أن أعرف ما إذا كان بالإمكان توطين يهود في أرض فلسطين".

إدمون دو روتشايلد مخاطبًا ليفونتين في عام ١٨٨٤(١).

"الأوائل، الباريسيون، جد قليلين، وقد فعلوا أكثر مما فعله جميع الآخرين؛ والآخرون، جماعة ايرتيز إسرائيل، أكثر، وقد فعلوا أقل مما فعله الباريسيون. أمَّا الجماعة الثالثة، جماعة الدياسبورا، فهم أكثر عددًا من هؤلاء وأولئك، بيد أنهم فعلوا أقل مما فعله هذان".

ليليانبلوم(٢).

بدايات العاليًا الأولى وعمل الإسرائيليين الفرنسيين

المهاجرون الأوائل الذين شكلوا طليعة ما سوف يسمّى بالعاليًا [الصعود] الأولى إلى أرض إسرائيل كانوا يتألفون من عناصر متباينة. فالبعض كانوا شبَّانًا جرى تجنيدهم من بين صفوف الطلاب أعضاء حركة بيلو (الأحرف الأولى لفقرة من سفر أشعياء، الإصحاح الثاني، الآية٥: "يابيت يعقوب، هَلُمَّ فنسْلُك في نور الرب")، الذين كانوا مستعدين لهجر دروسهم لكي يفلحوا الأرض، على غرار الشعبيين الروس. والاستيطان في الأرض المقدسة لابد له من أن يمر بالنسبة لهم عبر اكتشاف شبه شهواني لمنتجات التربة وعبر هجر أسلوب الحياة الحضري الذي يميز الدياسبورا في الإمبراطورية الروسية. وهؤلاء المهاجرون ينضم إليهم رسل لأحباء صهيون مهمتهم شراء الأراضي ويهود من رومانيا هاربون من التشريعات التمييزية التي تطبقها حكومة

بوخارست. وفي التو والحال، يصطدمون بالإدارة العثمانية التي تقوم، بناءً على أمر صريح من عبد الحميد على أثر قضية أوليفانت، بحظر كل هجرة دائمة ليهود أجانب إلى سوريا وإلى فلسطين. ولابد من اللجوء إلى أساليب الفساد للتمكن من الهبوط في الموانئ الفلسطينية، وعقود امتلاك الأراضي يجري تحريرها بأسماء آخرين كاسم الوكيل القنصلي البريطاني في يافا، حاييم هامزالاّج، النصير النشيط للهجرة اليهودية والذي يأخذ باسمه الأراضي المقرر لها أن تصبح مستوطنة ريشون – ليزَيون الزراعية، قرب يافا، والتي أقيمت في ٣١ يوليو/ تموز ١٨٨٢. وتقام مستوطنة ثانية في الجليل، هي مستوطنة روش بيناه (حجر الأساس). وفي أواخر عام ١٨٨٢، يستقر اليهود القادمون من رومانيا في سمرين قرب حيفا. وهاتان المستوطنتان الأخيرتان تتبعان إداريًّا ولاية بيروت لا سنجق القدس. وأخيرًا فإن مجموعة صغيرة من **بيلو** إنما تتولى المسئولية عنها مدرسة ميكفيه إسرائيل الزراعية التي يشرف عليها شارل نيتّر.

وسرعان ما تنهار التجربة، بالرغم من حماسهم. فالاستيطان السكني يتطلب أموالاً ضخمة جدًّا لاسيما أن له أهدافًا زراعية. والتجربة الفرنسية في أفريقيا الشمالية تثبت ذلك: إذ كان لابد من مساعدة دائمة من جانب الدولة كيما يتسنى تكوين جماعة فلاحية زراعية انطلاقًا من قرى الاستيطان السكني. والموقف في فلسطين أصعب بكثير جدًّا: فانعدام الخبرة والتجربة في مجال الزراعة إنما يفاقم من هشاشة وضع مهزوز بالفعل بسبب غياب الإمكانات المادية. والمهاجرون اليهود أبعد من أن يكونوا مهيئين لمغامرة كهذه، وذلك بدرجة أسوأ مما كانت عليه الحال مع الفلاحين الألمان الذين أقاموا مستوطنات جماعة الهيكل. والمنقذ الأول ليس أحدًا غير شارل نيتّر. على أن المشرف على ميكفيه إسرائيل بدا في أول الأمر معاديًا لمشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين. ففي مارس/ آذار ١٨٨٢، بيّن مخاطر المشروع في مجلة **أرشيف إسرائيليت**، إحدى المجلتين الرئيسيتين المعبرتين عن الطائفة الإسرائيلية في فرنسا (ومجلة **لينيفير إسرائيليت** هي المجلة الأخرى)؛ وقد ذَكَّرَ في مقاله بإخفاقات المحاولات السابقة وعَدَّدَ أسباب هذه الإخفاقات: إذا كانت الاستحواذات على الأراضي تتم في المناطق الصحية، فإن الأراضي من نوعية أدنى؛ والأراضي الجيدة غير

متوفرة إلاّ في المناطق غير الصحية، فالعرب يحوزون بالفعل الأراضي الجيدة في المناطق الصحية. والقادمون من الشمال يجدون صعوبة في التكيف مع ظروف العمل في مناطق ذات مناخ حار كفلسطين. ومن المستحيل منافسة العرب الذين ــ إذ يعد مستوى معيشتهم أدنى بكثير من مستوى معيشة الأوروبيين ــ ينتجون بتكلفة أقل. والمحيط العربي معاد، خاصة البدو والفلاحين الذين اعتادوا على رعي ماشيتهم في المناطق التي يجري السعي إلى زراعتها؛ والعلاقات مع الإدارة العثمانية، خاصة في مجال جباية الضرائب، إنما تشكل عقبة إضافية: ففي حالة حدوث نزاع، لامفر من الرضوخ لقضاء فاسد. وإلى هذه المصاعب الخارجية تضاف المشكلات اليهودية الخاصة، كإعادة صياغة الوصايا الدينية فيما يتعلق بالعمل الزراعي ما أن يتصل الأمر بأرض إسرائيل، وغياب الخبرة الزراعية لدى القادمين الجدد؛ وافتقارهم إلى الإمكانات المالية، الأمر الذي يحول دون حصولهم على الأدوات الزراعية ودون القيام بالاستثمارات التقانية الضرورية في حين أن الحياة الجماعية اليهودية تتطلب أيضًا حيازة دار للعبادة ومدرسة وحمّام وصيدلية وكوادر لازمة لهذه المؤسسات. وإذا ما فشل المستوطنون، وهو أمر مرجَّح، فمن المؤكد أنهم سوف يزيدون عدد المشتركين في الصدقات المرسلة من جانب الدياسبورا، الأمر الذي سوف يزيد من بؤس الإسرائيليين في فلسطين. ومن ثم فسوف يكون من الأفضل أن تتجه الهجرة إلى الولايات المتحدة، حيث تتوافر بسهولة وظائف تتناسب مع مؤهلات المهاجرين. وأخيرًا:

بالنسبة لإسرائيليي أوروبا، فإن المحاولة المتهورة لاستيطان في فلسطين سوف تنطوي على خطر آخر، هو خطر حدوث تغير في الرأي العام فيما يتعلق بأصل الحركة ومنشأها. ذلك أن أعداءنا لن يتخلفوا عن ردها، ليس إلى الاضطرار المحزن إلى الهرب من وطنٍ قاسٍ، وإنما إلى انجذاب الساميين إلى الأرض المقدسة؛ وبدلاً من عرقلة الحركة، فسوف يشجعونها؛ وسرعان ما سنشهد كارثة لم يحدث قط أن جربت إسرائيل ما يشبهها منذ عشرين قرنًا(٣).

وفي هذا النص الرئيسي، حدّدَ نيتّر العقبات المادية الرئيسية التي سوف

تعترض لعدة عقود سبيل مشاريع الاستيطان الزراعي. ويمكن القول بأن الصيغ المؤسسية التي دُرست خلال تلك السنوات لن تكون غير محاولات هادفة إلى إزالة هذه العقبات القاتلة بالنسبة لتطلعات النزعة القومية اليهودية. بيد أنه يوضح، في اللحظة المباشرة، أن الأوساط الإسرائيلية الفرنسية لا يمكنها التزام اللامبالاة حيال ما هو بسبيله إلى أن يحدث في فلسطين.

ويرحل نيتّر نفسه في مهمة إلى روسيا سعيًا إلى دراسة محنة إخوته في الديانة وإلى تنظيم رحيلهم إلى أميركا. وبما أنه رجل براجماتي دائمًا، فإنه يهتم بمسألة الهجرة اليهودية: إذ يجب توجيه المهاجرين في اختيار وطن جديد ومساعدتهم على أن يصبحوا مواطنين نافعين؛ ففي غياب التوجيه، سوف يبددون مواردهم الهزيلة ويجدون أنفسهم من جديد في حالة بؤس مطلق[٤]. ومشروع أوليفانت، الذي اعتُبر "المسيا الذي سوف يبني إسرائيل في فلسطين"، إنما يزعجه بسبب الانعدام التام للإعداد له[٥]. على أنه يرسل بعض الأطفال إلى ميكفيه إسرائيل. وفيما بعد سوف يلحق بعضهم بذويهم في أميركا.

وبالنسبة للإسرائيليين الفرنسيين، فإن الفكرة الرئيسية هي فكرة التضامن اليهودي، والتي تأمرهم بمساعدة إخوتهم في الدين الذين يمرون بمحنة. ومن غير الوارد تأييد نزعة قومية يهودية، ناهيك عن الاضطلاع بعمل من أجل إقامة دولة يهودية في فلسطين، وهي عين نموذج المشروع الوهمي القادم من انجلترا لأنه "ما من فكرة سخيفة إلاّ وتولد في عقلٍ بريطانيٍ منشغل بالابتكار"[٦]. وهذا هو السبب في الفرح لأن التحالف الإسرائيلي العالمي يوجه هجرة يهود روسيا المضطهدين، ضحايا "التعصب التتري"، إلى الولايات المتحدة، "وهي بلد مهيئ بالكامل للعمل"، بدلاً مما إلى فلسطين، مثار الريبة "بسبب عادات التبطل المتأبدة هناك، والتي ما كانت لتكون قدوة مشجِّعة ليهود روسيا، الذين يعتبرون هم أنفسهم محدودي التكيف إلى حد بعيد مع فكرة العمل"[٧].

وبما أن التحالف الإسرائيلي العالمي هو أكبر منظمة إنسانية يهودية حاضرة في فلسطين، فمن الطبيعي تمامًا أنها تهتم بالوضع الناشئ عن موجة الهجرة الأولى. ويبدو أن نيتّر، قبل أن يزور فلسطين خلال صيف ١٨٨٢، كان

قد سعى بالفعل إلى إثارة اهتمام البارون إدمون دو روتشايلد بالمسألة. وهكذا فسوف يجري دفع هذا الحامي المعترف به للتحالف إلى لعب دور رئيسي في مسألة فلسطين. والحال أن آل روتشايلد، منذ استقرارهم في فرنسا، إنما يحتلون مكانة ممتازة في مؤسسات الطائفة اليهودية، أكان في الوظائف القيادية (المجمع) أم في الأعمال الخيرية (لجنة الأعمال الخيرية، التحالف) والثقافية (جمعية الدراسات اليهودية). وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، نجد أن مجموعة صغيرة من مسئولي الطائفة، متجمعة حول حاخام باريس زادوك كاهن (الذي سيصبح حاخام فرنسا الأكبر في عام ١٨٩٠)، تتعاون بنشاط مع آل روتشايلد في جميع المجالات التي يمكن ممارسة النشاط الإنساني الخيري فيها. وعلاوة على نيتّر، نجد في هذه المجموعة إيلي شيد، أمين لجنة الأعمال الخيرية، وميشيل إيرلانجر، نائب رئيس المجمع. وهم معادون في أول الأمر للهجرة إلى فلسطين، والتحالف مستعد لتقديم أموال لتأمين عودة القادمين الجدد إلى أوطانهم:

كثيرون من هؤلاء الأشخاص معوزون يجوبون الساحل، منذ أحداث روسيا، على نفقة مختلف لجان الإغاثة، وذلك بحجة البحث عن استقرار لا يمكنهم التوصل إليه على الإطلاق. وستقدم اللجان والطوائف لهؤلاء البؤساء خدمة كبرى لو منعتهم من التوجه إلى فلسطين، حيث سيكون مصيرهم الذي لا مفر منه هو البؤس ولن يتسنى لهم الحصول على أي غوث. وسوف تتعين إعادتهم مباشرة وبأقصر الطرق إلى بلدانهم(٨).

على أن من يريدون من القادمين الجدد الانكباب على الزراعة لهم الحق في أقوى مؤازرة: و"يجب فقط أن تكون هذه المساعي جادة ولها استعداداتها ومركَّبَة بحيث تتيح فرصًا للنجاح"(٩).

ظهور إدمون دو روتشايلد على خشبة المسرح

إدمون دو روتشايلد، المولود في عام ١٨٤٥، هو الابن الثالث والأخير لجيمس دو روتشايلد (١٧٩٢ ـ ١٨٦٨)، مؤسس الفرع الفرنسي للعائلة. وبما

أنه قد رُبِّي في روح المراعاة الصارمة للتراث الديني من جانب أستاذه ألبير كوهين، الذي زار فلسطين عدة مرات، فإنه يترك توجيه الشئون العائلية لأخويه ويهتم أساسًا بالفنون الجميلة وبالأعمال الإنسانية. وكان قد قَدَّمَ بالفعل مساعدة مادية للعمل الذي اضطلع به نيتّر في ميكفيه إسرائيل. وفي رسالة بتاريخ ٦ أبريل/ نيسان ١٨٨٣، يتحدث عن الدوافع التي قادته إلى التدخل في شئون العاليّا الأولى:

كنا قد تحدثنا هنا طويلاً مع المرحوم السيد نيتّر عن توطين إخوتنا في الديانة في فلسطين وكنا قد تابعنا، أنا وهو، بقدر من الأسف، الحركة التي يجري حفزها في روسيا لدفع الإسرائيليين إلى فلسطين.

وأعتقد أن هذه الحركة إنما ترجع إلى تحريض من جانب الإنجليز الذين كانوا يعرفون تمامًا أنه عندما يصل هؤلاء الناس إلى فلسطين، وقد نال منهم الجوع والبؤس كل منال، سوف يصبحون بسهولة فريسة للمبشرين(١٠).

ونرصد هنا من جديد الانزعاجات الفرنسية المترتبة على تحركات أوليفانت والمخاوف من التنصير والمرتبطة بعمل المبشرين الألفيين البروتستانت، حيث أن تحقق النبوءات لن يؤثر في نهاية الأمر على اليهود إلاّ بقدر استثارته لاستجابة قوية من جانبهم. وصحيح أن المبشرين البريطانيين في القدس قد حاولوا إيجاد مستوطنة زراعية مخصصة لليهود القادمين من روسيا. بيد أن هذه المحاولة قد منيت بالفشل: فالمهاجرون يهجرون المكان الذي خصص لهم، بمجرد تمكنهم من ذلك. وأمّا اليهود المتدينون فقد قاوموا بكل إيمانهم محاولات تحويلهم عن ديانتهم؛ في حين أن القادمين الجدد، إذا ما كانوا أكثر علمانية، كانت لديهم قناعات قومية كافية لمقاومة جهود الدعوة التي يقوم بها المبشرون(١١).

وهذه الرؤية التي هي في آن واحد طائفية وحريصة على المصالح الفرنسية سوف تتكرر بصورة مقيمة في التحركات التي يضطلع بها إدمون دو روتشايلد.

وخلال صيف عام ١٨٨٢، يزور نيتّر فلسطين ويبدو متأثرًا بحماسة

المهاجرين، مع طرحه لتساؤلات حول قدراتهم: فالطلاب العاملون في ميكفيه إسرائيل "هم، بوجه عام، غير ماهرين في التعامل مع الأدوات، بيد أن بعضهم قد أحرزوا تقدمًا مُرضيًا". على أن العمال العرب أكثر كفاءة وتكلفة عملهم أرخص. وهكذا، "فهناك، بوجه عام، إحباط كبير لدى العمال الروس، ومن ثم فإن كثيرين منهم قد عادوا منذ ذلك الحين إلى بلدهم؛ وسوف يقتفي أثرهم آخرون ومن ثم فسوف يتوقف تدفق ينذر بأن يمتد". وأولئك الذين استقروا في ريشون – ليزيون كانوا ضحايا لمجرمين باعوا لهم أرضًا رديئة النوعية: فعمليات حفر الآبار التي تم القيام بها لم تعثر على المياه إلاّ على عمق ٢١ مترًا[١٢]. والتضامن اليهودي وخطر التنصير أو اتساع البؤس هي الدوافع التي تدفعه إلى التدخل.

وهو يجد الوقت بالكاد لكي يحذر مراسليه الباريسيين قبل أن يموت من الملاريا في ٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٨٢. وفي تلك الأثناء، نجد أن زادوك كاهن، المهموم منذ وقت طويل بمكابدات يهود شرقي أوروبا، يتم الاتصال به من جانب ممثلٍ لأحباء صهيون، هو الحاخام صمويل موخيليفِر، الذي جاء للبحث عن عونٍ في فرنسا. وهو يقدمه إلى البارون في ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٨٨٢. ويتعهد البارون بأن يقدم مساعدة مادية للمهاجرين. وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، وبفضل زادوك كاهن كالعادة، يستقبل البارون مبعوثًا للمهاجرين ويؤكد وعوده: فهو سوف يقدم دعمه لمستوطنة ريشون – ليزيون. وفي الأعوام التالية، يكرس زادوك كاهن جانبًا كبيرًا من وقته لأعمال الاستيطان الفلسطيني ويجري مراسلات واسعة مع جميع الفاعلين المعنيين في أوروبا الشرقية وفي فرنسا وفي فلسطين[١٣].

وفي البداية، نجد أنفسنا بإزاء عمل دقيق يتوجب إنجازه في أكبر سرِّيّة، ويبدو أن تطلعات إدمون دو روتشايلد متواضعة بالأحرى. وهو يستخدم كوسيط وممثل له خليفة نيتّر في ميكفيه إسرائيل، صمويل هيرش. والحال أن هيرش، مدعومًا بالمساعدة من جانب نائبه، البستاني المعاون دوجور، إنما يعيد تنظيم مستوطنة ريشون، ويوفر لها أدوات الحفر (يتم العثور على المياه على عمق ٥٠ مترًا) ويموِّل بناء بيوت راسخة. ومنذ البداية يبدو مبعوثو البارون سلطويين

ومتدخلين في إدارة المستوطنة، الأمر الذي لا يمر دون قدر من التوتر مع المهاجرين. وسعيًا إلى تأمين المستقبل، يأخذ البارون صكوك الملكية لنفسه، حيث يقوم مبعوثه ميشيل إيرلانجر بتوقيعها باسمه من الناحية الظاهرية. وبالمثل، يستغل هيرش مكانة التحالف الإسرائيلي العالمي لكي يطلب من قنصل فرنسا في القدس أن يتدخل لأجل السماح بنزول المهاجرين الذين تسعى السلطات العثمانية إلى إعادتهم من حيث جاءوا: فهو قد باء برفض من جانب متصرّف القدس في حين أن هؤلاء المهاجرين "مزارعون جادون"، جاءوا "لكي يعملوا ولكي يسموا بأنفسهم". ويتوصل القنصل إلى الحصول على تصريح بنزولهم إلى البر(١٤).

ومنذ عام ١٨٨٣، تتسع نشاطات إدمون دو روتشايلد. فهو يرعى تكوين مستوطنة نموذجية جديدة في عيكرون، على بعد ٥ كيلومترات من ميكفيه إسرائيل، و، على أثر تدخل زادوك كاهن، يتولى المسئولية عن مستوطنتي الشمال، بيتا ـــ تيكفا وسَمرين(١٥) (التي سوف تغير اسمها فيما بعد لتأخذ اسم ذكرون ياكوف "ذكرى يعقوب"، تكريمًا لذكرى چيمس دو روتشايلد، والد إدمون)(١٦). وتوسيع المجال ينطوي على إعادة تنظيمٍ وإقامة إدارة دائمة: وهذا هو عمل إيلي شيد، الذي أُرسل إلى فلسطين في أواخر عام ١٨٨٣.

ورؤية البارون الاجتماعية هي تكوين جماعة سكانية فلاحية مستقلة وفق نموذج الجماعة الفلاحية الفرنسية في عهد الجمهورية الثالثة. وهو مدفوع إلى الارتياب في نوعية ما سوف يسمى فيما بعد بـ"المادة البشرية" التي يمثلها المهاجرون من أوروبا الشرقية: فافتقارهم الكامل إلى الخبرة الزراعية والمثالب المترتبة على الحياة في الجيتّو الروسي إنما تتطلب تربية مسبقة كيما يتسنى لهم الصعود إلى مستوى هذا الاستقلال الاقتصادي والمعنوي. والإحياء عن طريق العمل تيمة رئيسية من تيمات نشاط التحالف الإسرائيلي العالمي. وفي اللحظة المباشرة، نجد أن عملاً أبويًّا، بل سلطويًّا، إنما يفرض نفسه كيما يتسنى للمشروع أن يبقى لا أكثر. ويتابع إدمون دو روتشايلد باهتمام دقيق تطور الوضع. والأسلوب العام هو بالأحرى أسلوب لعبة المكافآت أو العقوبات بحسب مآثر أو مثالب المستوطنين.

ويحاول أحباء صهيون العمل بشكل مستقل عن البارون، إلاّ أن افتقارهم إلى الإمكانات المادية سرعان ما لا يسمح لهم بتجاوز مرحلة تأسيس (أو إعادة التأسيس، في حالة بيتا ــ تيكفا) المستوطنات. وفي مؤتمر كاتوفيتز في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٨٤، تضطر الحركة إلى تعيين إيرلانجر ممثلاً لها في فلسطين. والواقع أن سلطة البارون تمتد إلى منشآت ومستوطنات أخرى، إمّا بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر من خلال إعاناته الضرورية. وهكذا نجد أن المرحلة الأولى للاستيطان اليهودي سوف تتم تحت رعاية وحماية الإسرائيليين الفرنسيين(١٧).

رد فعل السلطات

منذ صيف عام ١٨٨٢، أبدت السلطات العثمانية عداءها لمشاريع توطين اليهود الروس أو الرومانيين في فلسطين ــ سوريا. والحاصل أن القادمين الجدد قد وجدوا مصاعب جمة في التوصل إلى مجرد النزول إلى البر. ويتدخل التحالف الإسرائيلي العالمي تدخلاً مباشرًا لدى القسطنطينية لمحاولة التوصل إلى تخفيف للقيود. ويُرَدُّ عليه بأن الباب العالي يعتبر استيطان فلسطين مسألة سياسية ويعارض خلق مشكلة قومية في فلسطين مشابهة للمشكلات القومية التي تُدمي البلقان(١٨). وفي الأعوام التالية، يزداد تشدد التشريع العثماني أكثر فأكثر.

وعلى الفور، يشن رءوف باشا، متصرف سنجق القدس، حربًا إدارية على المستوطنات مشككًا في صكوك ملكيتها. وزميله المسئول عن بيروت يتصرف بالشكل نفسه فيما يتعلق بمستوطنات الشمال. وفي عام ١٨٨٤، يضطر مبعوثو البارون إلى الانخراط في إجراءات قانونية طويلة الأمد حتى يتسنى لهم تحويل الصكوك باسم إيرلانجر (ذلك أن إدمون دو روتشايلد يود ألاّ يظهر اسمه رسميًا). والحال أننا بإزاء تبادل للإجراءات ينطوي على سوء النية من جانب الطرفين: فالسلطات العثمانية تفعل كل ما بوسعها لكي تؤخر القضية، في حين أن رجال البارون يستخدمون الفساد على نطاق واسع ويلجأون إلى استئجار شهود زور ولا يحترمون لوائح الإدارة العثمانية. وسعيًا إلى فرض رقابة أدق على نشاطات الأجانب يطالب العثمانيون بشهادات جنسية للأجانب المقيمين في

الدولة العثمانية، ثم تطالب السلطات العثمانية على نحو منتظم بجوازات سفر تحمل تأشيرات دخول صادرة عنها. وهذه الوثائق يطلب تقديمها بشكل خاص عند تسجيل عمليات بيع وشراء الأراضي.

وفي عام ١٨٨٥، يطالب المهاجرون الرومانيون المقيمون في سَمرين بالحصول على الجنسية الفرنسية، وهو أمر من شأنه أن يسمح لهم بالتمتع بالحماية القنصلية. ويجري طرح المسألة على جول فيري الذي يأمر بإجراء دراسة دقيقة للموضوع. والواقع أن السلطات العثمانية إنما تسعى بنشاط، منذ بداية عهد النظام الحميدي، إلى الحد من اتساع الحماية القنصلية وتصطدم بفرنسا في مسألة الجزائريين المقيمين في سوريا. وكان عدد كبير من الجزائريين المسلمين، وهم رعايا فرنسيون، قد رافقوا الأمير عبد القادر الجزائري خلال وجوده في المنفى في سوريا. ومنذ سبعينيات القرن التاسع عشر، كان قد انضم إليهم يهود جزائريون رافضون لمرسوم كريميو الصادر في عام ١٨٧٠ والذي يجعل منهم مواطنين فرنسيين وذلك في مقابل التخلي عن أحوالهم الشخصية. وقد استقر يهود ومسلمون في الجليل وفي الأردن وفي منطقة دمشق[١٩]. والحال أن موت عبد القادر في عام ١٨٨٢ إنما يعطي إشارة البدء لحملة ضغوط من جانب العثمانيين لإرغام الجزائريين على التخلي عن جنسيتهم الفرنسية (من حيث كونهم رعايا) واتخاذ الجنسية العثمانية. وأول من يتعرضون لهذه الضغوط هم المسلمون ــ فالسلطان ــ الخليفة لا يمكنه أن يقبل وجود مسلمين في دولته لا يعترفون بسلطته الزمنية جنبًا إلى جنب اعترافهم بسلطته الروحية ــ، بيد أن الاضطهاد سرعان ما يمتد إلى الإسرائيليين. والصدامات متكررة بين القناصل الفرنسيين والسلطات العثمانية فيما يتعلق بهذا الموضوع، لاسيما أن المعطيات العددية مهمة: ففي الجليل، في عام ١٨٨٧، كان عدد الجزائريين المسجلين على القوائم القنصلية الفرنسية ٢٠٦٨ شخصًا (١٣٤٦ إسرائيليًا و٧٢٢ مسلمًا)[٢٠]. وتضاف إلى ذلك أيضًا مسألة التونسيين المقيمين في الدولة العثمانية: فالباب العالي، الذي يرفض الاعتراف بالحماية الفرنسية التي فرضت على تونس في عام ١٨٨١، إنما يعارض كل حماية قنصلية لهؤلاء الأشخاص الذين يعتبرهم رعايا عثمانيين[٢١].

وفي هذا السياق بالتحديد يجري طرح مطلب الحصول على الجنسية الفرنسية. والحال أن باريس، وهي في موقف دفاعي فيما يتعلق بمسألة الجزائريين والتونسيين، لا يمكنها السماح لنفسها بقبول هذا المطلب. وبالمقابل، يقترح جول فيري حماية شبه رسمية وغير سافرة للرومانيين، وذلك بحسب اقتراح طرحه قنصل فرنسا في بيروت:

الشيء الرئيسي هو أن يظل الكادر القيادي فرنسيًّا. وفي هذه الحالة، سيكون من السهل أن نعطي للمسائل الواقعية شكلاً شخصيًّا يستتبع تدخلنا الرسمي. وهذه المسألة، كما هي الحال دائمًا، مسألة حذق ولباقة من جانب الممثلين القنصليين(٢٢).

وبالنسبة للتحالف الإسرائيلي العالمي، لا ترجع هذه القيود إلى روح انعدام التسامح أو إلى معاداة للسامية، بل ترجع إلى رغبة السلطات العثمانية في ألاّ يتدفق على فلسطين مهاجرون يهود رومانيون أو روس من شأنهم، بالنظر إلى عدم حيازتهم أي مورد، أن يزيدوا من بؤس إسرائيليي فلسطين الهائل بالفعل. ومن ثم يتوجب الامتناع عن تشجيع إنشاء مستوطنات جديدة(٢٣). والتحالف يرى دائمًا، خلال الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيسه، أن الهجرة إلى الأرض المقدسة مستحيلة: فمن غير الممكن إيجاد مستوطنات زراعية فيها؛ ذلك أن الأراضي الجيدة والمياه ومواد البناء نادرة؛ ولامفر من السعي إلى الحصول على أدوات زراعية من الخارج. "إن العرب أنفسهم، بالرغم من حيويتهم، وبالرغم من درايتهم بالأحوال المناخية وبالمحاصيل الملائمة للبلد، إنما يحيون هناك حياة خاملة"(٢٤).

وفي عام ١٨٨٧، يدعو متصرف القدس القنصليات إلى الكف عن حماية الإسرائيليين ذوي الوضعية غير القانونية والمسارعة إلى طردهم. ويبدو أن قنصلي روسيا واليونان، وهما الدولتان الأرثوذكسيتان، يوافقان على هذا الإجراء، لكن القناصل الآخرين يمتنعون عن ذلك باسم الامتيازات ويردون بشكل مراوغ(٢٥). وفي العام التالي، تُحَوَّلُ القضية إلى مستوى سفراء الدول العظمى في القسطنطينية، والذين يتخذون موقفًا جماعيًّا حيال الباب العالي. وبعيدًا عن مسألة المبدأ، يعترف الغربيون بمشروعية الرفض العثماني لرؤية

تدفق جماعي ليهود من أوروبا الشرقية لايملكون موارد. ويتم التوصل إلى حل وسط على شكل خطابات موجَّهَة من جانب الحكومة العثمانية إلى الدول العظمى: فالهجرة الفردية سوف يجري التصريح بها. وهكذا نجد، في الحالة الفرنسية، خطابًا من السفير العثماني لدى باريس إلى وزير الشئون الخارجية، بتاريخ ١٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٨٨[٢٦]:

السيد الوزير

إلحاقًا بالمذكرة التي وجهتها إلى وزارة فخامتكم بتاريخ ١٨ فبراير/ شباط الماضي بناءً على أمر من حكومتي، ألفت انتباهكم إلى أنه، وفقًا لقرار صدر مؤخرًا، لن يجري تطبيق الإجراء الخاص بالإسرائيليين القادمين من الخارج إلاّ على أولئك الذين يهاجرون بشكل جماعي وأنه لن توضع أي عقبة في وجه إقامة من لا يكونون في هذه الحالة.

وما هذا غير توقف قصير، ذلك أن الباب العالي سرعان ما يستأنف ملاحقته الإدارية للجزائريين، الإسرائيليين والمسلمين، ولليهود الأجانب في فلسطين. فالآن يجب أيضًا مراعاة ردود فعل السكان المحليين. ومن المؤكد أنه قد حدثت في ثمانينيات القرن التاسع عشر بالفعل صدامات بين المستوطنين اليهود وسكان القرى العربية المجاورة، وذلك أساسًا حول حقوق الرعي الحر لماشية العرب في الأراضي اليهودية. إلاّ أنه كان يتم التوصل بسهولة كبيرة إلى تعايشات وذلك بقدر ما أنه كانت هناك علاقات اقتصادية فيما بين المستوطنات اليهودية والقرى العربية ــ شراء منتجات، استخدام الأيدي العاملة ــ وبقدر ما أن السكان اليهود الريفيين لم يكونوا يتألفون آنذاك إلاّ من بضع مئات من الأفراد. أمّا في مستهل تسعينيات القرن التاسع عشر، فإن احتجاج العرب إنما يصدر أساسًا عن الأوساط الحضرية التي يزعجها تدفق المهاجرين اليهود على مراكز حضرية كالقدس ويافا. وفي عام ١٨٩١، يوجه أعيان مسلمون ومسيحيون احتجاجات إلى الباب العالي حيال وصول يهود أجانب جدد، وتقوم الحكومة العثمانية، عبر خطاب تعميمي موجه إلى مختلف المديرين المعنيين، بالتذكير بحظر الإقامة الدائمة ليهود أجانب في فلسطين. وتظل الدول العظمى حازمة في دفاعها عن الحقوق التي نصت عليها الامتيازات، ومن بين هذه

الدول هذه المرة روسيا التي كانت، إلى ذلك الحين، ما تزال معادية للهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وفي العام التالي، يحاول متصرف القدس حظر بيع أراضي الميري (الأراضي التي تحتفظ الحكومة فيها بنوع من حق الملكية الأعلى) لليهود، الأمر الذي يؤدي إلى احتجاجات من جانبهم لدى القناصل[٢٧]. وهو يشرح موقفه لقنصل فرنسا في يناير/ كانون الثاني ١٨٩٣ على النحو التالي: إن عمليات الشراء الواسعة للأراضي والتي تمت لصالح "أصدقاء صهيون" من جانب "البارونات أوليفانت وهيرش وإيرلانجر وروتشايلد" قد أدت إلى طرد السكان المسلمين من عشرين قرية أو إلى تحويلهم إلى عمال زراعيين في المستوطنات اليهودية؛ وهناك خطر في أن يجد سكان القدس من الأهالي أنفسهم وقد حاصرتهم ضواحي يهودية لا تكف عن التوسع السافر؛ والمهن الحضرية المتمثلة في التجارة والحرف في المدينة المقدسة بسبيلها إلى الانتقال إلى أيدي القادمين الجدد. وكل هذا يتم عبر انتهاك للّوائح العثمانية؛ وذلك بفضل الفساد الذي يلجأ إليه وكلاء البارون دو روتشايلد. ونمو عدد المهاجرين اليهود ينذر بأن يتيح لروسيا وسيلة للنفوذ وللفعل[٢٨]. وعندئذ تتوصل الدول العظمى إلى الاعتراف بحق الإسرائيليين المقيمين إقامة شرعية في فلسطين في شراء ممتلكات عقارية[٢٩].

واستهلال نشاطات هرتسل يطلق من جديد انزعاج العثمانيين الذي يعقب مناقشات المؤتمرات الصهيونية الأولى. وفي يونيو/ حزيران ١٨٩٨، يجري تجديد القيود وتدابير الحظر: فالزائرون اليهود يجب أن يدفعوا تأمينًا ضخمًا (٥٠ نابوليونًا ذهبيًا كحد أدنى) يفقدونه إذا ما تجاوزوا مدة الإقامة المسموح بها والتي لا تزيد عن شهر؛ ويتمكن القناصل في نهاية الأمر من الاتفاق مع العثمانيين على الاكتفاء بتعهدهم هم بدفع هذا المبلغ في حالة حدوث تجاوز كهذا[٣٠]. وفي سبتمبر/ أيلول، نجد أن إسرائيليين جزائريين هم الذين يجري رفض نزولهم إلى يافا. وعندئذ يوجه پول كامبون، سفير فرنسا لدى القسطنطينية، مذكرة احتجاج شفاهية إلى الباب العالي:

لا يقيم التشريع الفرنسي البتة اعتبارًا للمعتقدات الدينية ويعترف بحقوق متساوية

لجميع الفرنسيين بصرف النظر عن معتقداتهم.

وبما أن الفرنسيين لهم، بموجب شروط المواثيق سارية المفعول، حق التحرك والإقامة في الدولة العثمانية، فإن هذا الحق لا يمكن حرمان الإسرائيليين الرعايا الفرنسيين منه(٣١).

وبما أن عدد الإسرائيليين الجزائريين المعنيين محدود جدًا، فإن القضية تتم تسويتها بسرعة. وفي عام ١٩٠١، يمد الباب العالي إلى ثلاثة شهور مدة الإقامة المشروعة لليهود الأجانب في فلسطين. وتتمسك فرنسا بالدفاع عن رعاياها الإسرائيليين فقط، وتفعل الدول الأخرى الشيء نفسه: فالبريطانيون يغمضون أعينهم عندما يبدو المهاجرون الذين يحملون جنسيتهم قليلي الاستحقاق للاهتمام؛ ويطلب الروس تأمينًا إضافيًا يُدفع لقنصلياتهم، وهو تأمين يفقده المهاجرون غير الشرعيين ويرفضون الانصياع لتدابير الطرد(٣٢).

المستوطنات الزراعية للعاليّا الأولى(٣٣)

الكوادر الإدارية التي أرسلها إدمون دو روتشايلد ذات كفاءة عالية جدًا. فرجال البارون الذين اعتادوا توزيع المعونات على اليهود المحرومين في الشرق الأوروبي وفي الشرق الإسلامي، وغمرتهم الرغبة في ترسيخ فكرة الإحياء عن طريق العمل وثابروا على استخدام المراوغات التي يتيحها القانون العثماني، هم منظمون نشيطون لا يترددون في الإكثار من الأفعال غير المشروعة سعيًا إلى تحقيق مشاريعهم ويبدون خبراء في استخدام الحمايات القنصلية. والوجه الآخر لهذه الخصال هو المسافة الملحوظة التي تفصل هؤلاء المديرين الكبار عن الناس المدارين من جانبهم. وبما أن عقولهم أقل رومانسية وجد براجماتية، فإنهم قلما يهتمون بإعادة بناء وطن ولا يعتبرون عملهم إلاّ مجرد تكوين "ملاذ مؤقت" في فلسطين لليهود المعرّضين للاضطهاد(٣٤). وهم لا تعوزهم رؤية للمستقبل. فكل استراتيجية إدمون دو روتشايلد إنما تتمثل في مراكمة رأس مال عقاري واقتصادي وبشري، ضروري لكي يصبح الاستيطان يومًا ما مكتفيًا ذاتيًا. وبما أنه يعتبر نفسه ممثلاً لمجمل اليهودية، فإنه لا يتردد في محاولة السعي إلى استردادٍ عن طريق الشراء لحائط المبكى التابع لوقف أبو

مدين الإسلامي، والذي يشمل الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس، وذلك خلال رحلته الأولى إلى فلسطين في عام ١٨٨٧. ومن جهة أخرى، تبدو السلطات العثمانية مستعدة للموافقة على ذلك، بيد أن الحاخام السيفاردى للمدينة المقدسة يعارض ذلك متنبئاً بمذبحة رهيبة ليهود المدينة إذا ما تم الشراء: ولعله رأى في الأمر محاولة من جانب الأشكيناز للاستحواذ على قدس أقداس اليهود[٣٥].

وفي وقت جد مبكر، ينشأ عدم تفاهم يضاعف من حدته انعدام متبادل للثقة بين الإدارة والمستوطنين. وبما أن المستوطنين لا يرون أن مطالباتهم بإمكانات إضافية قد لبيت، فإنهم يخاطبون باريس مباشرة وينقلون مطالبهم إلى إدمون دو روتشايلد وإلى زادوك كاهن. ويرى البارون في هذه المبادرات رغبة في التمرد على الإدارة المحلية ويرد، بنبرة صارمة، بانه "يسعى إلى تشجيع مستوطنين حقيقيين لا ملجاجين لحوحين". ومن لا يعمل لن يحصل على إعانة منه[٣٦]. وسعيًا إلى تحطيم تمرداتهم، سيصل به الأمر إلى حد الاستعانة بالسلطات القنصلية الروسية.

وعشية رحلة البارون الأولى، ينشب التمرد في ريشون ــ ليزيون ضد "استبداد" المديرين. ولا يتردد إدمون دو روتشايلد في مواجهة المتمردين ويأمر بطرد نحو ثلاثين من قادة التمرد من المستوطنة. ويضطر المستوطنون الباقون إلى توقيع تعهد يضعهم رهن التبعية الكلية للإدارة. وفي العام التالي، يتخذ الاعتراض طابعًا دينيًا في ذكرون ــ ياكوف: فمدير المستوطنة إنما يجري اتهامه بأنه ليس متدينًا بما يكفي. وخلافًا لتوقعاتهم، يجد المستوطنون أنفسهم وقد شجبت باريس موقفهم. وتجري الاستعانة بالشرطة العثمانية لطرد المسئولين عن الحركة.

وفي عيكرون، تتصل المسألة برهانٍ أساسي أكثر. فحاخامات القدس يطالبون بالمراعاة المطلقة لسنة ١٨٨٩ السبتية في حين أن حاخامات الدياسبورا يلجأون إلى تحايلات للسماح بأداء العمل الزراعي خلال تلك السنة المشؤومة. وينحاز المستوطنون إلى المراجع الدينية في القدس، الأمر الذي يثير عظيم غضب البارون الذي يرى في ذلك رغبةً في عدم العمل. فهو إذا ما تراجع أمامهم، فإن اليهودية الفلسطينية سوف تتخلى عن الإحياء عن طريق العمل

وسوف ترجع إلى اعتمادها على الصدقات التي ترسلها الدياسبورا. ويدعمه في موقفه زادوك كاهن، الذي يعتبر أن الالتزام بالشـريعة لا يجـب أن يعـرِّض للخطر أساس الحياة. ويدوم النزاع عدة أعوام وينتهي بانتصـار الإدارة التـي جمعت بين الاعتماد على الشرطة العثمانية لاستعادة النظام وطرد قادة الحركة (١٨٩٢ ــ ١٨٩٣). وبفضل هذا التشدد، تتوقف حركات التمـرد ولا يقـع أي حادث خلال السنوات السبتية التالية، غير أن الريبة والعـداوة تـدومان بـين المديرين والمستوطنين.

وخلال سنوات المواجهة هذه، يواصل البارون عمله في مجـال التوسـع العقاري. وإذ يسقط في نوع من الهوس، فإنه يمد اهتمامه إلى شـرقي الأردن والجليل والجولان. وحيثما لا يمكنه توطين مستوطنين يهود، فإنه يُبقـي علـى الفلاحين العرب، خاصة في المناطق السورية غير الفلسطينية. وبما أن عمليات شرائه للأراضي تعد معاصرةً للانطلاقة الديموغرافية الجديدة للسكان العـرب الفلسطينيين، مع أننا نظل بعيدين عن حالة فائض سكاني، فـإن سـعر الأرض يدشن حركة ارتفاع طويلة الأمد. وهذه الظاهرة محسوسة بشكل خاص علـى مقربة من المستوطنات اليهودية التي تنزع إلى التوسع، لكن الحركة تبـدأ فـي التأثير أيضًا على مجمل فلسطين. ويبدو من الواضح أن منطق الاستحواذات لا يتماشى مع ضرورات اللحظة بل يتماشى بالأحرى مع مخطط كبير لا يجـرؤ البارون على طرحه علنًا: تكوين رصيد عقاري متماسك لأجل مهاجرين يهود في المستقبل إلى فلسطين، وذلك ما أن يشهد عمله على الحيويـة الاقتصـادية للوجود اليهودي. وبرصانته المعهودة، يتجنب شراء أراض في منطقة طريـق يافا ــ القدس حتى لا يثير انتباه السلطات العثمانية. وفي الوقت نفسـه، يـأمر مندوبه بشراء أوسع مساحات ممكنة من الأراضي وبأن يركـزوا الحيـازات، عندما يكون ذلك ممكنًا، في مناطق معينة، بهـدف تكـوين منـاطق يهوديـة متجانسة(٣٧).

كما تتصل عمليات الشراء بالقطاعات التي تعد الأسـعار فيهـا أضـعف الأسعار، كالأراضي المشهور عنها أنها رديئة، خاصة منـاطق المسـتنقعات والمناطق البُردائية. والحال أن استغلال هذه الأراضي، والذي ينطـوي علـى

خطر الإصابة بالملاريا أو بالحمّى الصفراء، إنما يتم بفضل استخدام اليد العاملة اليهودية أو العربية وكذلك استخدام فلاحين مصريين يتم توظيفهم للقيام بهذا المشروع بشكل خاص(٣٨).

ومنذ ذلك الحين نجد أن إدمون دو روتشايلد، شاءَ أم أبى، إنما يتحول إلى مُجَرِّبٍ اجتماعي وزراعي. ومنشآته تميل إلى أن تصبح معامل حقيقية. وهو يزود المستوطنات بخدمات طبية – علاجية ومدرسية حديثة. والمسألة بالنسبة له إنما تتمثل في التوصل، بفضل التعليم المناسب، إلى القضاء على انعدام الشروط الصحية وعلى البؤس الذي يحيا فيه يهود فلسطين. كما أنه يشيد معابد يهودية ويكفل دفع مرتبات كهنتها: إذ لابد له من أن يبرهن على أن المقصود هو إقامة حياة يهودية تحترم الشريعة بالفعل. والبارون رجل ذهنيته متدينة، الأمر الذي يفسر تدخله الأول في فلسطين. وشأن التحالف الإسرائيلي العالمي، فإنه يهتم على نحو دائم بالنزعة الإنتاجية، ومن هنا نزاعه مع المراجع الدينية التقليدية عندما تهدد إنجاز مشروع الإحياء. بيد أن حرصه على التأطير الديني لا يخضع فقط لمنطق مراعاة الحاخامات الأرثوذكسيين، فهو في مركز مشروعه. والحال أن الرزانة والنزعة الإنتاجية والحياة الدينية هي العناصر الجوهرية في عمله.

واعتبارًا من عام ١٨٨٧، ينخرط في هربٍ إلى الأمام، باحثًا في أحدث المناهج الزراعية عن السبيل إلى تحقيق الربحية لاستثماراته الفلسطينية. وعلى غرار الزراعة الفرنسية في الجزائر، يتسثمر أموالاً ضخمة في الكِرامة، أكان في اختيار أشجار الكرم أم في إنتاج الأنبذة. ويصبح قبو ريشون واحدًا من أحدث الأقبية في العالم(٣٩). وفي هذا، يبدو البارون وفيًّا لتراث آل روتشايلد الفرنسيين العظيم، فهم أصحاب مزارع كرم شهيرة يسعون إلى إنتاج الأجود. وعلاوة على الكِرامة، يشجع إدمون دو روتشايلد، بنفقات ضخمة، إنتاج خيوط الحرير والبستنة والنباتات العطرية المخصصة لإنتاج العطور كما يشجع بشكل ثانوي تمامًا إنتاج الحمضيات. والحال أن التشديد على الكِرامة له معنى معين في اللحظة المباشرة: فالسوق العالمية تبدو مفتوحة بسبب انهيار الإنتاج الفرنسي، الراجع إلى انتشار إصابة الكرم بالفِلُكسرة. إلاّ أن فرنسا تخرج من

الأزمة في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، في اللحظة التي يجيء فيها الدور على الكرامة الفلسطينية الناشئة لكي تصاب بالداء. ويتعين الزرع من جديد، بنفقات ضخمة، في حين أن منافذ التسويق الخارجية موصدة. ونحو عام ١٨٩٥، بالرغم من دعاية لدى صهيونيي أوروبا الشرقية تجعل من استهلاك النبيذ الفلسطيني واجبًا قوميًّا، نجد أن فائض الإنتاج يصبح جليًّا. وبما أن الكرامة الفلسطينية تقع بين سندان أسعار غير تنافسية، ترتبط خاصةً بتكاليف الشحن، ومطرقة تدابير الحماية الجمركية التي تطبقها بلدان أوروبا الغربية، فإنها إنما تشهد غرقًا حقيقيًّا.

والحال أن الكوادر الأكثر تبصرًا كانت قد حذرت رب عملها: إن الجري وراء محاصيل ذات عائد كبير إنما يهدد بأن يصبح بالوعة مالية لا قرار لها، في حين أن الحل الأكثر عقلانية هو التركيز على محاصيل المشرق التقليدية، مع تحسينها بفضل البحوث الزراعية: الحبوب المحلية، زراعة الأشجار. إلاّ أنه حتى بالرغم من التحسينات المتحققة، فإن هذه المحاصيل لن تكون تنافسية وذلك بسبب عدم تناسب تكاليف اليد العاملة المباشرة وغير المباشرة (الإعانات المقدَّمة للخدمات الاجتماعية للمستوطنات) بين العرب واليهود في فلسطين.

وفي اللحظة التي يبدأ فيها هرتسل دعوته و، بذلك، يزعج البارون إزعاجًا كبيرًا في علاقاته مع السلطات العثمانية، يستوعب هذا الأخير المأزق الذي تورط فيه مشروعه. فمعوناته، بعيدًا عن أن تبني المستقبل، إنما تميل بشكل متزايد باطراد إلى عدم تغطية شيء سوى العجز المتراكم لمشاريعه المختلفة، وتصل إلى مستويات تتزايد ارتفاعًا باطراد (أكثر من مليون فرنك ذهبي في بعض الأعوام). ومن المؤكد أن إدمون دو روتشايلد واحد من السباقين: فهو قد اخترع الزراعة التي تحصل على الدعم والمعونات في القرن العشرين.

وهذا الفشل الاقتصادي يترافق مع تحرر من الأوهام الاجتماعية. فالمفتشون الذين يرسلهم إلى الساحة يرسمون لوحة جد سلبية عن الوضع. والحال أن المستوطنين، بدلاً من أن يتبنوا أسلوب حياة الرواد الذي يتميز بالتقشف، إنما يحولون تجمعاتهم السكنية إلى بورجات حقيقية تحتل فيها التجارة مكانة متنامية الأهمية. ويتم اللجوء بشكل متزايد باطراد إلى اليد العاملة العربية

للقيام بالأعمال الشاقة كقطف العنب أو لأجل استصلاح مناطق موبوءة بالملاريا. واعتبارًا من ١٨٩٠ ـ ١٨٩١، يصل المهاجرون اليهود شيئًا فشيئًا إلى موقع المستوطنين: فيجري استخدامهم كعمال مياومين في تنافس مع العرب الأرخص أجرًا. وهؤلاء العمال كثيرو المطالب يحلمون بصعود اجتماعي يجعل منهم مستوطنين ـ مالكين بأكثر مما يحلمون بتكوين بروليتاريا واعية بنفسها وحاملة لمشروع مجتمع جديد. وأبناء المستوطنين، الذين جرت تربيتهم في نظام تعليمي يجمع بين الثقافة الفرنسية والديانة اليهودية، إنما يرفضون أن يصبحوا فلاحين كآبائهم. وتتضخم الإدارة وتتشعب، فتصبح هدفًا في حد ذاتها، وتكلفتها تزيد بقدر ما أن كفاءتها تصبح محل شك(٤٠).

وإذ يقرر إدمون دو روتشايلد أن يعاين الوضع بنفسه، فإنه يقيم لثالث مرة في فلسطين (كانت الرحلة الثانية في عام ١٨٩٣). وهو يعلن إنجاز عمله: فالمستوطنون لم يعودوا بحاجة إلى معوناته وهم على استعداد لأن يكونوا مستقلين. على أنه يؤكد حرصه على بعث إسرائيل:

لم أهب لمساعدتكم بسبب بؤسكم ومكابداتكم، فهناك الكثير من الملمات والنوائب في العالم. لقد فعلت ما فعلت لأنني رأيت فيكم محققي بعث إسرائيل ومحققي المثل الأعلى العزيز علينا جميعًا، والذي يتمثل في عودة إسرائيل إلى وطنها القديم(٤١).

وإذ اقتنع البارون بضرورة إدخال تعديل جذري على شروط الاستيطان، ولأنه، على الأرجح، تأثر أيضًا بتدهور حالته الصحية في عام ١٨٩٩، وهو التدهور الذي أقنعه بالبحث عن سبل لتخليد عمله، ولأنه كان منزعجًا بالتأكيد من تطور الصهيونية الهرتسلية، فقد قرر نقل المسئولية عن مستوطناته إلى جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا)، وهو ما تم عمله في ١٣ أغسطس/ آب ١٨٩٩، على أساس أن يجري تطبيق النظام الجديد في العام التالي.

والحال أن إيكا، بعد موت مؤسسها البارون هيرش، كانت قد بدأت الاهتمام بفلسطين. وبالرغم من اسمها الانجليزي ومن واقع أن مقرها موجود في لندن، فإن قيادتها إنما تنتمي إلى عين الأوساط الإسرائيلية التي ينتمي إليها إدمون دو روتشايلد: الفيلسوف ميئيرسون ونرسيس ليڤين، الرئيس القادم للتحالف

الإسرائيلي العالمي. وكان زادوك كاهن قد لعب دورًا كبيرًا في الاستيطان في الأرجنتين(٤٢). وهكذا فقد أصبح الحاخام الأكبر وسيطًا بين إدمون دو روتشايلد وجمعية الاستيطان اليهودي. وكان قد جرى إيفاد بعثة استقصاء أولى في فبراير/ شباط ١٨٩٨. ولحرص الجمعية على مراعاة موقف السلطات الفرنسية، فقد تعهدت بألاّ تقوم بأي عمليات شراء لممتلكات في لبنان(٤٣). والحق أن وزارة الخارجية البريطانية ليست مسرورة لنقل المستوطنات إلى شركة ذات وضعية بريطانية. وبما يشكل تباعدًا عن أي حب للسامية، فإنها تمتنع عن منحها الحماية القنصلية(٤٤).

على أن نقل المسئولية إلى إيكا لا يرمز إلى انتهاء عمل إدمون دو روتشايلد. فسعيًا إلى إعادة تنظيم على أسس مالية أسلم، ينسحب البارون لا أكثر ولا أقل. وتقوم إيكا بإنشاء لجنة فلسطينية، يلعب فيها دورًا رئيسيًّا. وانسحابه النسبي يسمح بتنفيذ إعادة الهيكلة على المحاور الثلاثة المعلنة: اختزال الإعانات الجارية، وتقليل وزن الإدارة عبر إيجاد طاقم جديد والبحث عن منتجات زراعية تكون أكثر ملاءمة. ويحدث تغيير الإدارة دون مشكلة صاخبة، ورجال الإيكا، وهم رجال لديهم خبرة العمل في الأرجنتين وأوروجواي وقبرص وروسيا الجنوبية والأناضول العثمانية، عازمون على إنهاء الأبوية الخانقة التي ميزت عمل سابقيهم. وبما أنهم أنصار للنفقات الأقل، فإنهم يريدون توفير الحد الأقصى من الاستقلال للمستوطنين كما يحبذون ويشجعون جميع المحاولات الرامية إلى العمل التعاوني. وفي الوقت نفسه، يقومون باختزال حاد للمساعدات المالية، الأمر الذي يؤدي إلى بطالة عدد كبير من العمال اليهود الذين سوف يضخمون من حجم البروليتاريا اليهودية الحضرية في القدس(٤٥).

ومن الواضح تمامًا أن التدابير الأولى تستثير حركة تمرد. فيجري الهجوم بعنف على الكوادر. وتقع إضرابات. بيد أن إيكا تظل حازمة. وبالتعاون مع لجنة أوديسا، يرسل المستوطنون وفدًا إلى باريس لمقابلة إدمون دو روتشايلد وقادة إيكا. وتدور المحادثات بشكل سيئ، حيث يقوم المستوطنون بتحميل إدارة "النظام القديم" وحدها المسئولية عن المصاعب. وتدريجيًّا، يأخذ الموقف في الاستقرار.

وفي جنوبي فلسطين، يسمح تنوع الزراعة بالتوصل إلى قدرة حقيقية على الحياة. فمن جهة، يجري السعي إلى تزويد السوق المحلية والإقليمية بمنتجات ذات قيمة عالية نسبيًا، كمنتجات الألبان والفواكه والخضروات. ومن الجهة الأخرى، نجد أن الكرامة تصبح مربحة، وذلك بفضل خفض تكاليف الإنتاج. وإذا كان يتم ذلك بالتوصل إلى قدر من التوازن المالي، فإنّ من الواضح أن من غير الوارد الحديث عن استرداد لقيمة الاستثمارات الأولية. والمهم أنه يجري الانخراط في المنتج القائد في فلسطين، الحمضيات، وهو المنتج الوحيد الذي يمكن لهذا الجزء الصغير من الشرق الأدنى أن يوفره للسوق العالمية (إلى جانب الأشياء التي ترتبط بالدين). والحال أن نجاحًا كبيرًا إنما يحالف بيتا - تيكفا: ففي عام ١٩٠٧، تنتج ٢٨٠٠٠ سلة حمضيات؛ وفي عام ١٩١٠، تنتج ٧٨٠٠٠ سلة؛ وفي عام ١٩١٣، تنتج ٢٦٣٠٠٠ سلة (من إجمالي فلسطيني قدره ٤١٣٨٥٥ سلة). وآثار هذه الثورة في عالم الحمضيات ملحوظة: فالمستوطنة يصل عدد سكانها اليهود في عام ١٩١٤ إلى ٢٦٠٠ مستوطن مع ٦٠٠ عامل عربي دائمين و ١١٠٠ عامل عربي موسميين(٤٦). ويمر الازدهار الاقتصادي عبر الاعتماد الواسع على اليد العاملة العربية وعبر تكوين طبقة من الملاك العقاريين اليهود الميسورين، الذين يسميهم خصومهم بـ"الأفندية اليهود".

وفي شمالي فلسطين، وبدفع من مسئولين سلطويين وذوي كفاءة، كهنري فرانك وحاييم كالڤاريسكي، تواصل إيكا سياسة الاستحواذات العقارية. فيجري شراء ممتلكات شاسعة. وسعيًا إلى تحاشي وقوع توترات مع الوسط المحلي يقوم رجال الإيكا بعمليات إفراز واسعة [قوامها ضم أراض زراعية بعضها إلى البعض بما يؤدي إلى توسيع الملكية وتيسير استغلالها]، عبر مفاوضات صعبة مع القرويين وصولاً، عبر تبادلات بين الطرفين، إلى تكوين كتل متجانسة من الأراضي، وإلى التحديد الدقيق لحقوق الرعي وإلى التسوية النهائية للمنازعات بشأن صكوك ملكية الأرض. وفي هذه التبادلات والمناقشات التي لا تنتهي، لا يتردد البعض والبعض الآخر في اللجوء إلى السلطات المحلية، من أعيان أو رجال إدارة، سعيًا إلى تأمين الفوز لدعاويهم، وأحيانًا ما كانوا يلجأون في ذلك إلى الفساد. ولا تتردد إيكا في طلب تدخلات قنصلية، فرنسية خاصة، في

منازعاتها العقارية. والسياسة الفرنسية متعقلة: فهي لا تقدم عونهــا إلاّ بقــدر انخراط فرنسيين في الأمر وترفض تقديم دعم شامل لإيكا[٤٧].

وحرصًا على عدم إعانة المستوطنين بشكل مستديم، تكتفي إيكا بتزويــدهم بالأرض وبأدوات زراعية أولية وبحصانين وبعض أدوات الإنتاج. وفيما بعد، تقدم الجمعية خدمات اجتماعية، طبية بالأخص، وإرشادات زراعية. والمحاصيل المعتمدة هي الحبوب المحلية. وتجمع المستوطنات ما بين عشــرين وثلاثــين مستوطِنًا. وتحصل كل أسرة على نحو ٣٠٠ دونم. واستلهامًا للنموذج الفرنسي كالعادة، يرتأي مسئولو إيكا تطورًا اجتماعيًّا متعدد الجوانب يفضي إلى تكــوين جماعة فلاحية مستقلة عبر تربية حقيقية تحث على العمل: ففي مرحلة أولــى، سوف يتوجب على المستوطِن أن يحصل على تعليم زراعي فــي مزرعــة ـــ مدرسة؛ وفيما بعد، سوف يجري تسكينه كمحاصٍ على أراضي إيكا؛ وإذا مــا أبدى كفاءة خاصة، فسوف يكون بوسعه أن يصعد إلى وضعية المزارع وأخيرًا إلى وضعية المالك المستقل[٤٨].

وفي الممارسة العملية، يحيا مستوطنو الشمال في ظروف جد صعبة، مــع مستوى معيشي جد منخفض. وبما أنهم على حافة البؤس غالبًا، فمن غير الوارد أن يتمكنوا من سداد الاستثمارات الأولية ولا أن يتجاوزوا مرحلة المحاصــة. وفي كثير من الحالات، تميل ظروف معيشتهم إلى الاقتراب من ظروف معيشة الفلاحين العرب جيرانهم. وهم يظلون في تبعية لقيادة إيكا، مثلما كــان رجــال **العاليا** الأولى سابقًا تحت سلطة رجال إدمون دو روتشايلد.

وفي استقلال عن إيكا، وإن كان غالبًا بالتعاون معها، تقوم لجنــة أوديســا بالاستحواذ على بعض الأراضي لأجل الاستيطان. كما نجد بعض المبــادرات الفردية من جانب أشخاص قادمين من أوروبا، بل ومن أميركا، معهم إمكانات مالية ولديهم خبرة زراعية معينة.

تنظيم اليِيشوف

في المستوطنات التي أنشأها البارون أو أحباء صهيون، كان المبدأ الرئيسي هو المشروع الخاص: فالأرض والاستغلال الزراعي يجب أن يخصا مســتغلاً

فرديًا، إلاّ أنه، بحكم قوة الأشياء، كان لابد من القيام بجانب من العمل على نحو جماعي، وكانت التبرعات القادمة من أوروبا تستخدم في سد العجز. وقد بنيت القرى الأولى وفق نموذج القرى الأوروبية، على امتداد محور مركزي في أغلب الحالات. وكان المقصود من وراء ذلك هو التمايز عن القرى العربية التي اعتبرت بدائية وقذرة. وفي البداية، كان عدد السكان ضئيلاً جدًّا، بيد أن تنفيذ سلسلة بأكملها من الخدمات الاجتماعية واعتماد الكِرامة إنما يخلقان ظروف تمايز اجتماعي بين عمال ومُلاَّك، بينما يميل نمو الاستيطان إلى تحويل المستوطنات إلى بورجات شبه حضرية(٤٩).

والحاصل أن مجموعات المهاجرين الأولى، فيما عدا **بيلو**، كانت تتألف من رجال تجاوزوا عمر الفتوة والشباب، ينحدرون من طبقات متوسطة وذهنيتهم محافظة على المستوى الديني. أمَّا أعضاء **بيلو** فقد كانوا أكثر فتوة وشبابًا وكانوا متعلمين ومتأثرين بالعلمنة وشعبويين. وأمّا الجيل الذي ولد في فلسطين والقادمون الأحدث فهم يبدون متحررين فيما يتعلق بالشأن الديني. وحتى إذا كنا نرصد غياب خطاب إيديولوچي متماسك في ذلك العصر، فإن المستوطنين إنما يجيئون ولديهم قناعة راسخة بأنهم الأصحاب الشرعيون لفلسطين التي سوف تعود إليهم برمتها يومًا ما. وهم الذين زودوا حركتهم بعدد معين من الرموز القومية: استعادة الأعياد الزراعية اليهودية القديمة، النشيد القومي الذي سوف تتبناه الحركة الصهيونية فيما بعد، نشيد **الهاتيكفا** (الأمل)، نجمة داوود، التي تظهر لأول مرة بشكلها الأزرق والأبيض في ريشون في عام ١٨٨٥(٥٠).

وإذا كانت المستوطنات تحيا في تداخل اقتصادي مع محيطها العربي، فإن العلاقات الإنسانية لم تكن من نوعية غير عادية. فهي لها عين طبيعة العلاقات الإنسانية في البيئات الكولونيالية الزراعية: ذلك أن العرب في وضع تبعية ودونية اقتصاديتين واجتماعيتين وثقافيتين. والحاصل أن أحاد هاعام كان قد شجب ذلك مبكرًا جدًّا. ويرى المهاجرون أن عمالهم لا يفهمون غير القوة. ومنذ البداية، ينمو استخدام العقوبات الجسدية. وتتمايز مستوطنة ريحوبوت عن ذلك لأن من المحظور فيها ضرب العمال العرب. والفلاحون أنفسهم لا يترددون في الرد باللجوء إلى العنف في منازعات العمل، أكان ذلك عن طريق المواجهات

البدنية، أم عن طريق تدمير الأدوات الزراعية أو المحاصيل. وموقف الاحتقار الذي يتخذه المستوطنون ممتزج بالخوف. ونحن نجد ذلك أيضًا في الخوف من عدوى الأمراض التي يحملها الأهالي، والتي تعد مؤذية بشكل خاص لأطفال المستوطنين. وإذا كان قد أمكن قيام بعض الصداقات الحقيقية، فإن الموقف العام هو موقف مسافة لاشخصانية ترمز إلى وضع السلطة والتفوق. والإطار العام هو بالفعل الإطار الذي نجده في مشروعات الاستيطان الأوروبي في العالم القديم.

وإذا كان الفلاح العربي يعامل بهذا الشكل، فإن البدوي الأبعد إنما يجري إضفاء قدر من الصفات المثالية عليه: فتستعاد منه سمات من سمات أسلوب حياته كحمل السلاح أو ركوب الخيل أو وضع كوفية على الرأس. وهناك حب للظهور في مظهر الإنسان الحر بعد الاضطهاد الأوروبي، والحال أن البدوي إنما يقدم الصورة الأولى لهذه الحرية الملموسة. أمَّا فيما يتعلق بالأرستقراطية العقارية العربية وبالطبقة المثقفة، فليس لهما من الناحية العملية أي علاقة مع رجال المستوطنات، الأمر الذي يؤدي إلى تعزيز الصورة النمطية لدى المستوطنين عن غياب الثقافة لدى العرب(٥١).

والتشديد المنصب على الزراعة لا يجب أن يخفي واقع أن السكان الزراعيين اليهود لا يشكلون غير أقلية ضئيلة من سكان فلسطين اليهود (أقل من ١٠% بالفعل) وأن الفريق الأكبر من القادمين الجدد يستقر في المدن. وهم يتوجهون إلى المراكز الاقتصادية الأكثر دينامية في المنطقة، يافا والقدس، حيث يعتبر غير المسلمين أغلبية أو يشكلون جماعة مهمة. ونابلس والخليل تعدان قلعتا النزعة المحافظة المسلمة (من الواضح أن هناك بالفعل جماعة سكانية يهودية قديمة في المدينة الأخيرة، بيد أنها تحيا حياة بائسة على المعونات الممنوحة من الخارج لليهود المتدينين، كما أنها جماعة معرضة للعديد من المضايقات من جانب المسلمين).

والجماعة السكانية الحضرية اليهودية جد منقسمة. فالسيفارديون والأشكيناز موزعون على عديد من الجماعات الفرعية، وهناك انقسام جد قوي بين اليهود "العصريين" واليهود الأرثوذكس. والأكثر تشدُّدًا في الدعوة إلى مراعاة الشريعة

مراعاة مطلقة ينتمون إلى الوسط الأشكينازي، في حين أن كثيرين من السيفارديين يستفيدون من مؤسسات التعليم التي أقامها التحالف الإسرائيلي العالمي. والأكثر حداثة ينتمون إلى وسط أحدث المهاجرين القادمين من أوروبا الشرقية. والنزاعات دائمة بين مختلف أوساط اليهود في فلسطين، وهي أوساط غالبًا ما تستشهد بسكان الدياسپورا في نزاعاتها. وينجم عن ذلك عجز عميق عن خلق مؤسسات قادرة على توحيد مجمل يهود فلسطين.

وفريق كبير من اليهود المهاجرين لايأخذون الجنسية العثمانية حتى لا يدفعوا ضريبة الإعفاء من أداء الخدمة العسكرية وحتى يستفيدوا من الحمايات القنصلية. بيد أن عددًا معينًا يظل في وضع غير قانوني تمامًا، أكان ذلك في العلاقة مع القنصليات أم مع السلطات العثمانية، ومن هنا صعوبة تحديد عددهم. على أن ڤييت، مدير قنصلية فرنسا، يقدم تقديرًا تقريبيًا لعدد سكان القدس اليهود، في عام ١٩٠٤، وذلك بمناسبة التعداد السكاني العثماني(٥٢):

مثلما تشرفت وأشرت سلفًا، فإن المهاجرين اليهود بالأخص هم الذين سوف تطالهم أيضًا الترتيبات المتعلقة بتحديد جنسية السكان. وفي القدس، من بين الـ٤٠٠٠٠ فرد الذين يشكلون سكان المدينة الإسرائيليين، فإن ١٠٠٠٠ مقيدون في القنصليات وما بين ١٤٠٠٠ و١٥٠٠٠ مقيدون بشكل منتظم في السجلات العثمانية. ومن ثم فإن ٢٥٠٠٠ فقط من بينهم هم الذين يتمتعون بوضعية مدنية، في حين أن الآخرين، أي نحو ١٥٠٠٠ لا ينتسبون إلى أي جنسية وذلك سعيًا منهم إلى الإفلات من نتائج الاختيارات التي قد يقدمون عليها، وبموجب المادة ٩ من القانون الصادر في ٦ شوال ١٢٨٥ بشأن الجنسية العثمانية، سوف تحسبهم الحكومة الإمبراطورية في عداد رعاياها، بيد أن هذا القرار سوف يفجر نزاعات خطيرة بين الباب العالي وروسيا، إن لم نتحدث إلاّ عن الدولة الأكثر اهتمامًا بالمسألة، لأن غالبية اليهود الذين ليست لهم الآن جنسية محددة قد جاءوا من روسيا. وإلى الآن، تظاهرت القنصلية الروسية بتجاهل وجودهم إلاّ أن مما لاشك فيه أنها سوف تتخلى عن تحفظها إذا ما طالبوا عمدًا أو دون عمد بالجنسية العثمانية. ويبدو أنها سوف تطلب أولاً من الفرد أن يدفع غرامة قدرها ٥٠ روبلاً لعدم تقييد نفسه في القنصلية، ناهيك عن متأخرات الضريبة السنوية لتسليم جوازات السفر، بل ربما تتخذ حياله تدابير صارمة إذا كان مايزال خاضعًا للقانون العسكري. وإذا لم يقدم، من جهة

أخرى، أسانيد جنسيته الأجنبية، وقد عدَّدنا للتو الاعتبارات التي تثنيه غالبًا عن عمل ذلك، فسوف يعتبر رعية عثمانية، وبهذه الصفة سوف يجري إلزامه بأن يدفع عن كل فرد ذكر في أسرته غرامة قدرها ١٧ فرنكًا (٤ مجيدي) تقريبًا عن كل سنة تصرمت منذ ميلاده. والحال أن أسرة مؤلفة من الأب وولدين بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر سوف يتعين عليها، في هذه الظروف، أن تدفع للخزانة نحو ٨٠٠ فرنك. وما لم يتم منح الجنسية بشكل جماعي لمجمل الإسرائيليين وإعفاؤهم في الوقت نفسه من الضرائب المتأخرة، فإن الحكومة التركية سوف تصطدم من ثم بمشكلات جسيمة إذا ما أرادت إجراء تعداد لسكان فلسطين ويجب لرشيد بك أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار، فأعمال اللجان ذات الصلاحية لم تبدأ بعد.

ومستوى السكان الحضريين ليس مرتفعًا بشكل خاص.وبما أن الامتيازات تحول من الناحية العملية دون نمو نشاط صناعي حقيقي، فإن النشاطات الاقتصادية اليهودية إنما تظل ضمن إطار تقليدي تمامًا. والحال أن عرضًا لاقتصاد فلسطين قام بإعداده في عام ١٩٠٨ قنصل فرنسا[٥٣] يشير إلى عوز اليهود الحاد للغاية: فهو يتحدث بالنسبة للقدس عن بروليتاريا من ٦٠٠٠ عامل يهودي (أي أكثر بكثير من مجمل أفراد جميع المستوطنات الزراعية) في مقابل ١٥٠٠ عامل ينتمون إلى ديانات أخرى، وبين هؤلاء العمال اليهود ٦٠٠ نجار و٣٥٠ حَجَّارًا و٥٠٠ عامل بناء و٢٠٠ خياط و٣٠٠ صانع قبعات نسائية وخياط لملابس النساء. وهذه المؤشرات المتفرقة، حيث الصدارة للمهن المتصلة بالبناء، إنما تؤكد أن النشاط الاقتصادي اليهودي يتغذى ذاتيًا. فإذا ماتباطأت الهجرة أو توقفت مؤقتًا، فسوف يعني ذلك أزمة وبطالة. وهذا ما حدث في عام ١٩٠١، حيث تجتمع آثار التدابير التقييدية المتخذة ضد الهجرة مع آثار تحمل إيكا المسئولية عن المستوطنات الزراعية. وعندئذ فإن جوزيف عنتيبي، مدير المدرسة المهنية (التقانية) للتحالف الإسرائيلي العالمي في القدس إنما يحث على إرسال عمال القدس اليهود إلى مصر للبحث عن عمل فيها، وذلك بالنظر إلى محدودية موارد المدينة المقدسة[٥٤]. وفي يافا، تشير دراسة القنصل إلى وجود مهن أحدث ــ أطباء، أطباء أسنان، صيادلة، مدرسين ــ، بيد أن الكتائب

الرئيسية تظل في التجارة والنجارة وصناعة الملابس وصناعة الأحذية. والعاملون في هذه المجالات مهاجرون. ونجد التوزيع المهني نفسه أيضًا عند المهاجرين في القدس.

والحال أنه في هذا الوسط بالتحديد يتقدم بعث العبرية من حيث كونها لغة غير دينية. والعمل الرئيسي هو العمل الذي يقوم به بن يهودا، الذي يحيا خلال كل هذه السنوات في القدس والذي يستفيد من معونة مالية من التحالف الإسرائيلي العالمي ومن إدمون دو روتشايلد بالرغم من منازعاته المنتظمة مع ممثليهما المحليين. وفي ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤، تعتقله السلطات العثمانية على أثر وشاية من مجهول صادرة عن **الييشوف** المتدينين الذين يتهمونه بالإعداد لعمل عنيف يرمي إلى الاستيلاء على حائط المبكى. ويجري إنقاذه بفضل التدخل النشيط من جانب قنصلي روسيا وفرنسا وممثلي التحالف والبارون وعن طريق دفاعه العلني الذي قدمه الأب لاجرانج الذي كان يستقبل بن يهودا بصورة منتظمة في مكتبة مدرسة الكتاب المقدس، وهي المكان الوحيد في القدس الذي كانت توجد فيه المؤلفات المرجعية حول اللغات السامية.

ويكشف هذا الحادث عن مدى قوة التوترات في صفوف الطوائف اليهودية الحضرية، وهي أوساط مغلقة حيث كان الوجهاء يتنازعون على إيرادات الإحسان الديني والعمل الإنساني الحديث باسم كل جماعة قد يمثلونها (أشكيناز وسيفارديين من شتى الآفاق)، كما يكشف في الوقت نفسه عن وجود اختلاط اجتماعي يجمع بين النخب الثقافية المسيحية واليهودية والمسلمة.

استيطان دون استعمار؟

بعيدًا عن هذه الحكاية تنطرح مسألة الفهم الأشمل لظواهر الاستيطان اليهودي في أواخر القرن التاسع عشر. والحال أن الكتابة التاريخية الصهيونية قد أدمنت عدم الاهتمام بالبيئة العامة لهذا الاستيطان، اللهم إلاّ عندما يجري اعتبارها عقبة. بينما المدرسة الإسرائيلية "بعد الصهيونية"، إذ تنطلق من تفسير يتميز بطابع تنظيري أكثر، تتحدث عن استيطان ضمن إطار استعماري وتجد تماثلاً بين المشروع وتجارب استيطان أخرى في العالم. ويحاول الجغرافي

والمؤرخ ران آرونسون دحض أطروحات هذه المدرسة متحدثًا عن "استيطان دون استعمار" كمشاريع إيكا في الأرجنتين ومتمايز عن "استيطان ضمن الاستعمار" يمكن أن يكون مثاله استيطان الفرنسيين في الجزائر. والحال أن عمل إدمون دو روتشايلد إنما يعد من الناحية العملية إنفاقًا دون مردود ومن ثم لايمكن إدراجه في الباب نفسه الذي تتدرج فيه العمليات الاستعمارية الكبرى(٥٥).

ويبدو لي أننا هنا بإزاء نظرة اختزالية تُشَبِّهُ الاستعمار (أو الإمبريالية) بمجرد مشروع استغلال اقتصادي عادي ولا تراعي الأبعاد الأكثر جوهرية لتأكيد وجود الدول العظمى، وهي أبعاد ليس البعد الاقتصادي غير مجرد بعد واحد من بينها. فحتى في حالة الجزائر، إذا كان لا يمكن الشك في الرغبة في الاستغلال، فإن بوسعنا التساؤل عن ربحية الاستثمار من الزاوية الاقتصادية، ولكن ليس من زاوية القوة، أي من زاوية الواقع السياسي والچيوستراتيچي.

والحاصل أن الدولة العثمانية، اعتبارًا من الشطر الأول للقرن التاسع عشر، كانت خاضعة لوصاية جماعية حقيقية من جانب الدول الغربية (بما في ذلك الولايات المتحدة). وبقدر ما أن هذه السيطرة كانت جماعية أصلاً، فإن التعبير عن القوة إنما يتم تعريفه آنذاك من خلال المصطلح الأساسي: مصطلح النفوذ. بيد أن المجتمع والدولة العثمانيين قد تكيفا، في الوقت نفسه، مع هذا الوضع، واستخدماه لأجل غاياتهما الخاصة. وسعيًا إلى مقاومة الوصاية، اتجهت السلطة إلى إدخال إصلاحات تميل إلى إعادة بناء حقيقية لجهاز الدولة عبر إعادة تعريف دوره الاجتماعي. كما أن المجتمع لم يبق عاجزًا وسلبيًا. ومجمل هذه التحولات يقود إلى اللحظة "المشرقية" في تاريخ الشرق الأدنى، وما كان يمكن للاستيطان الروتشايلدي أن يتم إلاّ بفضل هذا الاجتماع لأشكال نفوذ أجنبية ولتوازنات محلية جديدة تميز هذه الفترة.

المشرق الحميدي

خلال هذه الفترة برمتها، تظل الهجرة والاستيطان اليهوديين واقعًا هامشيًا نسبيًا. وتواصل فلسطين التطور بالإيقاع نفسه الذي تتطور به بقية الشرق

الأدنى، وليس الوجود اليهودي غير عامل بين عوامل أخرى من عوامل تأكيد تمدن مشرقي مميز لهذه اللحظة الخاصة التي تمتد من بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى عام ١٩١٤. وهذا المشرق العثماني هو نتاج مجمل تحولات القرن التاسع عشر ويعرف أوجه عندما يؤدي مشروع إعادة تأكيد حضور السلطة المركزية في كل أرجاء الدولة إلى إيجاد توازن بين نتائج التدخلات الأجنبية العديدة. وبعيدًا عن التحارب بشكل مقيم، نجد أن الولاة العثمانيين والقناصل الأوروبيين يتبادلون العون غالبًا. وبما أنهم يتقاسمون رؤية موظفي السلطةِ الواحدةَ، ويعبرون عن أنفسهم في أغلب الأوقات بلغة الحداثة المشتركة ـ الفرنسية ـ، فإن هؤلاء الشركاء إنما يرتابون في أغلب الأحيان في الأعيان المحليين ويعتبرون أنفسهم دعاة نظام عام قائم على التنمية الاقتصادية وعلى الإصلاحات الإدارية.

وتتجسد عبقرية عبد الحميد السياسية في لعبة حاذقة تخلق توازنًا بين سلطات وسلطات مضادة. فالطوائف غير المسلمة تستفيد الآن استفادة كاملة من تدابير التحرير الكبرى المتخذة في منتصف القرن. والهياكل الطائفية تحظى بالاعتراف من جانب الدولة التي تعهد إليها بإدارة حكم ذاتي حقيقي يمتزج فيه الديني بالثقافي. والمسلمون الذين يخامرهم الشعور بأن الإصلاحات الكبرى التي حققتها التنظيمات قد تمت على حسابهم، إنما يجدون الطمأنينة في أسلمة المعجم السياسي. وخلال عهد آخر سلطان عظيم، تجري متابعة الإصلاحات، ولكن عبر تقديمها على أنها التعبير الخاص عن عبقرية الإسلام. وكلما مُنحت حريات جماعية لغير المسلمين، كلما جرى تأكيد الرسالة الإسلامية للسلطة المركزية(٥٦). والتعبير الخليفي عن طبيعة سلطة، كان يتم تعريفها إلى الآن على أنها سلطانية أساسًا، إنما يعد ضمانةً لهذا التوازن الطائفي الجديد. فعبد الحميد يمكنه تقديم نفسه على أنه حامي الطوائف غير المسلمة لأنه بالتحديد خليفة مسلم. وهذا الدمج ضمن الاختلاف ليس ممكنًا إلاّ إذا لم يكن هناك تهديد لعين وجود الطبيعة الإمبراطورية للدولة. والخطر القاتل الذي يهدد هذه التعددية المنظَّمة هو تحول أشكال الوعي الطائفي إلى نزاعات قومية سياسية، والانتقال من الواقع الطائفي إلى المطالبة بدولة وبأرض خاصتين. فإذا ما حدث تطور

كهذا، فسوف ننتهي عندئذ إلى السير في موكب أعمال العنف الرهيب الذي هو موكب البلقان آنذاك، أكان البلقان العثماني أم غير العثماني. وتلك تحديدًا هي الحال في ولاية مقدونيا العثمانية، حيث تستند مدينة سالونيك المشرقية الكبرى إلى داخل تهزه أعمال العنف المتفرقة بين "خليط" من الشعوب. وتلك أيضًا هي الحال اعتبارًا من تسعينيات القرن التاسع عشر في الأناضول: فرغبة الثوار الأرمن الواعية في إثارة القلاقل سعيًا إلى حفز تدخل أوروبي يفضي، وفق النموذج البلقاني، إلى حكم ذاتي ثم إلى استقلال، إنما تؤدي إلى حدوث مذابح رهيبة ترمز إلى قطيعة تنزع إلى أن تكون نهائية بين الأتراك والأرمن.

وفي حين أن الأمم، في البلقان وفي الأناضول، تنبني على هويات ذات أسس دينية (المسلمون الناطقون باليونانية يصبحون أتراكًا والأرمن الناطقون بالتركية يصبحون أرمنًا)، فإن الوضع مختلف في الولايات العربية. فالمسيحيون العرب، هؤلاء المشرقيون بامتياز، إنما يلعبون دورًا رئيسيًّا في النهضة الأدبية والثقافية للعرب. وبفضل مدارس الإرساليات التبشيرية، نجد أن تقدمهم الثقافي على المسلمين ملحوظ، وإذا كانت الثنائية اللغوية الفرنسية ــ العربية تصبح مميزة لنخبهم العديدة، فإنهم يعبرون عن أنفسهم بشكل واسع أيضًا في الصحافة والمطبوعات الصادرة بالعربية. وسمة الاتحاد هذه التي يشكلها الحب المشترك لتراث واحد، إنما تعرقل أي انتقال من الطائفة إلى الأمة، بالرغم من أنها لاتبدد أشكال انعدام الثقة. ولا ينطبق هذا على الطوائف اليهودية التي تظل بمنأى عن النهضة الأدبية العربية، فيما عدا بعض الأفراد جد النادرين[٥٧].

وفي بعض قطاعات الجبل اللبناني، هناك من يمكنهم بالفعل أن يحلموا بتحويل الحكم الذاتي اللبناني إلى دولة ترابية. وهذا المشروع، المستند إلى هيمنة عددية مسيحية، إنما يجري تصوره على أساس إقليمي بأكثر مما على أساس طائفي. وفي مقابل هذا الداخل الجبلي، يوجد ساحل تعددي، تزدهر فيه أفضل ثمار التمدن المشرقي، في الموانئ الكبرى، من يافا إلى بيروت وطرابلس، بل وإلى الإسكندرون. وفي هذه المدن الكبرى، نجد أن شعور الانتماء شعور طائفي بالدرجة الأولى، وإن كان بهدف التوصل إلى توزيع معقول للسلطة البلدية تحت وصاية السلطات العثمانية. وفي كل طائفة، يفرض

الأعيان أنفسهم بأنفسهم أولاً في داخل المؤسسات التي تخص كل جماعة، ثم كممثلين خارجها لإخوتهم في الدين في مختلف المجالس الإدارية. وإذا كانت الزيجات المختلطة نادرة وتقابل باللوم من جانب الجميع، فإن الاختلاط الاجتماعي والتمدن يفرضان تبادلات وتعاملات دائمة مع المنتمين إلى الديانات الأخرى. والأفول السريع للوجود الأرمني في الإدارة العثمانية (حيث كان الأرمن قد حلوا محل اليونانيين بعد عام ١٨٢١) إنما يتم لصالح المسيحيين العرب. كما أن المهاجرين المسيحيين الذين عادوا إلى بلدهم الأصلي بعد إقامة طويلة إلى هذا الحد أو ذاك في أميركا أو في أفريقيا غالبًا ما يشعرون بأنهم أكثر عثمانية مما كانوا قبل رحيلهم. ففي تجربة المنفى، شعروا بأنهم يُعاملَون على أنهم "أتراك" بأكثر مما على أنهم ممثلون لهذه الطائفة أو تلك.

ومثل هذا الوضع العام إنما يفسر السبب في تشجيع عبد الحميد لهجرة اليهود الأوروبيين إلى إمبراطوريته ـ فسوف يحملون معهم قدراتهم ورساميلهم ـ، وإن كان بشرط أن يكونوا متفرقين. وريبته الدائمة حيال الصهيونية إنما تجد تفسيرها في الخوف من أن تتحول فلسطين إلى مقدونيا جديدة. وفي الأوساط الحضرية، تندرج الإضافة اليهودية بالطبع في الاختلاط الاجتماعي المشرقي، والذي يستند في المقام الأخير إلى البوارج المسلحة الغربية. وبالمقابل، تندرج المستوطنات الزراعية في قطيعة مع المحيط الريفي التقليدي، حتى وإن كان هناك استخدام لليد العاملة العربية. ومن الواضح تمامًا أنه ضمن هذا الإطار تحديدًا تتكون التجليات الأولى للنزعة القومية اليهودية في فلسطين نفسها.

ويناضل الباب العالي بدأب ضد توسيع الحمايات القنصلية. وهذا النضال يؤدي إلى نتائج متباينة؛ فهو فعال فيما يتعلق بالمسلمين، كما تبين ذلك النزاعات الدورية بشأن الجزائريين المسلمين؛ لكنه أقل نجاحًا فيما يتعلق باليهود ـ وقد رأينا ذلك آنفًا ـ ومستحيل عمليًّا فيما يتعلق بالمسيحيين.

وإذا كانت الحماية الأجنبية ليست هي التي حفزت الاستيطان الروتشايلدي، إلاّ أنها هي التي سمحت به في كل لحظة، ودونها ما كان يمكن لهذا الاستيطان أن يحدث. وينطبق القول نفسه على جميع مشاريع "الاستيطان دون استعمار".

فهي لا تنفصل عن العصر الذهبي للإمبريالية التي تلغي الحدود والعقبات في وجه تحركات الناس والرساميل: ولم يحدث قط أن كان الإنسان حرًا في الانتقال في العالم بالدرجة التي كان بها حرًا في عمل ذلك بين عامي ١٨٨٠ و١٩١٤، ولم يكن المستفيدون الرئيسيون من هذه الحرية رعايا الدول الاستعمارية، فرنسا وبريطانيا العظمى في المقام الأول، وإنما سكان شواطئ البحر المتوسط ووسط أوروبا، الذين قاموا بهجرات ضخمة عبر المحيطات والقارات. ومن الواضح أن أهل البلاد التي حلوا بها لم يكن لهم الحق في التعبير عن رأيهم حيال ذلك. والحال أن اليهود الأوروبيين في الثلاثينيات من القرن العشرين سوف يدركون بشكل مأساوي، وذلك في اللحظة التي يرتسم فيها في الأفق خطر الإبادة، إغلاق أبواب العالم في فترة ما بين الحربين. ففي عام ١٩٣٩، لن يكون مفتوحًا أمامهم وبشكل جزئي سوى امتياز شانغهاي الدولي. وهذا الإغلاق للساحات، وهو حقيقة كبرى من حقائق الفترة الممتدة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٠، هو عين التعبير عن هذا الأفول للإمبريالية والذي يعقب استقرارها. والحاصل أن أحفاد وأبناء المهاجرين والمستوطنين وكذلك أهل البلد سوف يرفضون أي قدوم جديد لدخلاء، أمَّا السلطات فسوف تكون عاجزة عن فرضه، في حالة ما إذا كانت راغبة فيه.

عبد الحميد والدول العظمى

حيال سياسة الدول العظمى، يتخذ السلطان ــ الخليفة موقفًا يتميز بحدة الإدراك. فهو لا يملك الإمكانات اللازمة لمنع هذا النوع من الوصاية الجماعية من جانب القناصل والسفراء على ولايات دولته، إلاّ أنه مادامت هذه السيطرة تعددية، فإن الفاعلين إنما يميلون إلى تحييد أحدهم الآخر. وهكذا، ففي عام ١٩٠٣ يؤدي اعتداء دون خطر جسيم على نائب القنصل الأميركي في بيروت إلى انزعاجات معمّمة: فسوريا تهوي بالفعل في وضع مشابه لوضع مقدونيا. وعلى الفور، يقوم الأسطول الأميركي في البحر المتوسط باستعراض بحري للقوة قبالة المدينة المشرقية الكبرى(٥٨). وعندئذ يستدعي عبد الحميد كونستانس، سفير فرنسا لدى القسطنطينية، لكي يردد على سمعه الكلمات التالية(٥٩):

أعتقد أن من واجبي، بصدد هذه الأحداث، أن أقول لفخامتكم، بصورة ودية تمامًا، أنني لاحظت منذ بضع سنوات، وليس دون أسف، أنه في حين أن نفوذ بعض الدول العظمى لم يكف عن التعاظم في سوريا، فإن نفوذ فرنسا قد أخذ في التراجع: وهذا التراجع ليس من شأنه إلاّ أن يثير لديَّ مخاوف مشروعة.

فالواقع أن النفوذ الفرنسي كان يوازن في هذه المنطقة نفوذ كل الدول العظمى مجتمعة وكان يحافظ، من ثم، على توازن أعتبره ضروريًّا لمصالح حكومتي لكنه ينذر اليوم بأن ينهدم لصالح منافسيكم. ثم إنني قد وضعت في اعتباري دومًا، دون انزعاج، العمل الذي اضطلعت به فرنسا وما تزال تضطلع به في سوريا، مدركًا أنه يستلهم مشاعر الحكومة الفرنسية ومبدأ سياستها التقليدية تجاه دولتي والذي يتمثل في الحفاظ على الوضع القائم وعلى وحدة الأراضي العثمانية. أمَّا الهدف الذي يتوخاه منافسوكم، وأنا لا أجهل ذلك، فهو مختلف تمامًا؛ ومثال مصر ماثل بما يجعلني أتذكر ذلك. ولو كانت حكومتكم قد أصغت إليَّ، لما خسرتُ هذه الولاية، والمخاوف التي عبَّرتُ عنها لفخامتكم إنما تعد أكثر قوة لاسيما أن سوريا مجاورة لمصر.

وغداة مؤتمر برلين، مال السلطان إلى الحماية البريطانية، وكان الهدف من التنازل عن قبرص لبريطانيا العظمى هو السماح بتدخل سريع من جانب البريطانيين ضمن إطار حرب قرم جديدة ضد الروس. على أن تصريحات مسئولي لندن العفيفة المؤيدة للدفاع عن وحدة أراضي الدولة العثمانية سرعان ما صاحبتها مبادرات صاخبة كمبادرات أوليفانت، ثم احتلال مصر في عام ١٨٨٢. ومنذ ذلك الحين، انصبت شكوكه، التي تقاسمها معه الفرنسيون، على أهداف البريطانيين المفترضة في فلسطين وسوريا. واللعب بالورقة الفرنسية ليس من شأنه أن يكون مرضيًا بالكامل، وذلك بسبب أفريقيا الشمالية (لم يعترف الباب العالي بالحماية الفرنسية على تونس)، وظلت روسيا العدو التاريخي. أمَّا الرايخ الثاني، خاصة بعد ارتقاء ڤلهلم الثاني العرش، فهو يبدو بوصفه الشريك المميَّز الجديد للدولة العثمانية. وكان الوجود الألماني ذا طبيعة تجارية أساسًا: وبما أن الألمان كانت تعوزهم الرساميل اللازمة للاستثمار استثمارًا ضخمًا ضخامة استثمار الفرنسيين والبريطانيين في بناء مرافق النقل والمواصلات، فقد

صبوا كل جهودهم على تبادلات السلع. وإلى عـام ١٩١٤، تمـت التقـدمات الألمانية من حيث الجوهر على حساب المشتريات الانجليزية والفرنسية. أمَّـا مشروعهم الكبير الخاص بمد خط للسكك الحديدية يربط العاصـمة العثمانيـة ببغداد وبالخليج فقد جرى تصوره في الأصل علـى أنـه إنمـا يعتمـد علـى مسحوبات من الرساميل الفرنسية والبريطانية، ومن هنا عدم الإنجاز النسـبي للمشروع في اللحظة التي تبدأ فيها الحرب العظمى (الأولى).

ومن الناحية السياسية، فإن التقارب بين ألمانيـا الإمبراطوريـة والدولـة العثمانية إنما يتماشى مع المخطط الأعـم الخـاص بــ"السياسـة العالميـة" (Weltpolitik) لڤلهلم الثاني. فالرايخ الثاني، الذي جاء متأخرًا إلى اقتسام العالم من جانب الدول الاستعمارية، إنما يجد نفسه في وضع من له مطالـب حيـال فرنسا وانجلترا. وفي الأعوام الأخيرة للقرن التاسع عشر، وبشكل مسرحي إلى حد ما، يقدم قيصر ألمانيا نفسه عندئذ في صورة حامي حمى الإسـلام. وهـذا خطر سياسي واقعي بالنسبة للدولتين الأعظم اللتين تحتلان بلادًا إسـلامية، أي فرنسا وانجلترا. وهذا يسمح لبرلين بأن تبدو كعقبة في وجه التغلغل الفرنسي في المغرب الأقصى وبأن تعزز نفوذها في القسـطنطينية وفـي أرجـاء الدولـة العثمانية. ويتوافق التأكيد الألماني زمنيًا مع إحياء نزعة الجامعـة الإسـلامية، التي كانت قد ضعفت إلى حد بعيد بعـد عـام ١٨٨٣. والحـال أن الأحـداث الأرمنية ثم حرب العثمانيين الظافرة ضد اليونان في ١٨٩٦ ــ ١٨٩٧ إنما تعيد للمسلمين خارج الدولة العثمانية ثقة جديدة في مواجهة السيطرة الاسـتعمارية. ومن المحيط الأطلسي إلى الهند، يرى الفرنسيون والبريطانيون فـي حركـات التململ الإسلامي العفوية وجود منسّق سري لا يمكن أن يكون سوى عبد الحميد مدعومًا من ڤلهلم الثاني. وعندئذ يدور الحديث عن نزعـة جامعـة إسـلامية جرمانية. والحال أن رحلات ڤلهلم الثاني في الدولة العثمانية، خاصة زيارته إلى سوريا وإلى فلسطين، إنما تعيد إحياء هذه الانزعاجات. وبالرغم من ذلك، فإلى مستهل القرن العشرين، يظل الشرق الأدنى هادئًا وتحدث المنافسة فيمـا بـين الدول العظمى بشكل سلمي. وسوف يتعين الانتظار إلى ١٩٠٥ ــ ١٩٠٦ لكي تعاود سوريا وفلسطين الظهور في الشواغل السياسية الأوروبية.

وضمن هذا السياق العام تتطور فلسطين في العصر الحميدي.

فلسطين الحميدية

في العصر الحميدي، يستمر نمو السكان الفلسطينيين بالإيقاع نفسه الذي شهده العصر السابق. والحال أن ترتيب البيانات الديموغرافية اعتمادًا على الإحصاءات العثمانية والذي قام به الديموغرافي مكارثي بالنسبة لمجمل المنطقة التي سوف تصبح فلسطين في عهد الانتداب إنما يقدم المؤشرات التالية (ولأجل نظرة كلية أفضل، سوف نضيف هنا بيانات عصر حكم جماعة تركيا الفتاة)(٦٠).

سكان فلسطين ضمن حدود عهد الانتداب

١٨٨٣ ــ ١٩١٤

العام	المسلمون	اليهود	المسيحيون	الإجمالي
١٣٠١(١٨٨٣ــ١٨٨٤)	٤١٢٩٠٦	١٥٠٩٩	٤٥٣٠٢	٤٧٣٨٠٧
١٣٠٢(١٨٨٤ــ١٨٨٥)	٤١٧٥٦٠	١٥٩٠٨	٤٦١٥٢	٤٧٩٦٢٠
١٣٠٣(١٨٨٥ــ١٨٨٦)	٤٢٢٢٨٠	١٦٢٢٨	٤٧٠٢٢	٤٨٥٥٣٠
١٣٠٤(١٨٨٦ــ١٨٨٧)	٤٢٧٠٦٨	١٦٥٥٦	٤٧٩١٢	٤٩١٣٥٦
١٣٠٥(١٨٨٧ــ١٨٨٨)	٤٣١٩٢٥	١٦٨٩٧	٤٨٨٢٣	٤٩٧٦٤٥
١٣٠٦(١٨٨٨ــ١٨٨٩)	٤٣٦٨٥٤	١٧٢٤٩	٤٩٧٥٦	٥٠٣٨٥٩
١٣٠٧(١٨٨٩ــ١٨٩٠)	٤٤١٢٦٧	١٧٦١٤	٥١٠٦٥	٥٠٩٩٤٦
١٣٠٨(١٨٩٠ــ١٨٩١)	٤٤٥٧٢٨	١٧٩٩١	٥٢٤١٢	٥١٦١٣١
١٣٠٩(١٨٩١ــ١٨٩٢)	٤٥٠٢٣٩	١٨٣٨٠	٥٣٧٩٢	٥٢٢٤١١
١٣١٠(١٨٩٢ــ١٨٩٣)	٤٥٤٧٩٩	١٨٧٨٢	٥٥٢١٢	٥٢٨٧٩٣
١٣١١(١٨٩٣ــ١٨٩٤)	٤٥٩٤١٠	١٩١٩٨	٥٦٦٧٠	٥٣٥٢٧٨
١٣١٢(١٨٩٤ــ١٨٩٥)	٤٦٤٥٥٠	١٩٦٤٩	٥٧٨١٥	٥٤٢٠١٤
١٣١٣(١٨٩٥ــ١٨٩٦)	٤٦٩٧٥٠	٢٠١١٧	٥٨٩٨٧	٥٤٨٨٥٤
١٣١٤(١٨٩٦ــ١٨٩٧)	٤٧٥٢٦١	٢٠٧٨٠	٥٩٩٠٣	٥٥٥٩٤٤
١٣١٥(١٨٩٧ــ١٨٩٨)	٤٨٠٨٤٣	٢١٤٦٦	٦٠٨٣٤	٥٦٣١٤٣

١٣١٦(١٨٩٨_١٨٩٩)	٤٨٦٨٥٠	٢٢١٧٣	٦١٨١٠	٥٧٠٨٣٣
١٣١٧(١٨٩٩_١٩٠٠)	٤٩٢٩٤٠	٢٢٩٠٥	٦٢٨٠١	٥٧٨٦٤٦
١٣١٨(١٩٠٠_١٩٠١)	٤٩٩١٠٠	٢٣٦٦٢	٦٣٨٠٩	٥٨٦٥٨١
١٣١٩(١٩٠١_١٩٠٢)	٥٠٥٣٦٤	٢٤٤٤٦	٦٤٨٣٢	٥٩٤٦٤٢
١٣٢٠(١٩٠٢_١٩٠٣)	٥١١٧٠٢	٢٥٢٥٧	٦٥٨٧٢	٦٠٢٨٣١
١٣٢١(١٩٠٣_١٩٠٤)	٥١٨١٢٦	٢٦٠٩٦	٦٦٩٢٨	٦١١١٥٠
١٣٢٢(١٩٠٤_١٩٠٥)	٥٢٤٦٣٧	٢٦٩٦٥	٦٨٠٠٢	٦١٩٦٠٤
١٣٢٣(١٩٠٥_١٩٠٦)	٥٣١٢٣٦	٢٧٨٦٢	٦٩٠٩٢	٦٢٨١٩٠
١٣٢٤(١٩٠٦_١٩٠٧)	٥٣٧٩٢٥	٢٨٧٩١	٧٠٢٠١	٦٣٦٩١٧
١٣٢٥(١٩٠٧_١٩٠٨)	٥٤٤٧٠٤	٢٩٧٥٣	٧١٣٢٧	٦٤٥٧٨٤
١٣٢٦(١٩٠٨_١٩٠٩)	٥٥١٥٧٦	٣٠٧٤٩	٧٢٤٧١	٦٥٤٧٩٦
١٣٢٧(١٩٠٩_١٩١٠)	٥٥٨٥٤١	٣١٧٧٨	٧٣٦٣٣	٦٦٣٩٥٢
١٣٢٨(١٩١٠_١٩١١)	٥٦٥٦٠١	٣٢٨٤٣	٧٤٨١٥	٦٧٣٢٥٩
١٣٢٩(١٩١١_١٩١١)	٥٧٢٧٥٨	٣٣٩٤٦	٧٦٠١٥	٦٨٢٧١٩
١٣٣٠(١٩١١_١٩١٢)	٥٨٠٠١٢	٣٥٠٩٧	٧٧٢٣٥	٦٩٢٣٣٤
١٣٣١(١٩١٢_١٩١٣)	٥٨٧٣٦٦	٣٦٢٦٧	٧٨٤٧٤	٧٠٢١٠٧
١٣٣٢(١٩١٣_١٩١٤)	٥٩٤٨٢٠	٣٧٤٨٩	٧٩٧٣٤	٧١٢٠٤٣
١٣٣٣(١٩١٤_١٩١٥)	٦٠٢٣٧٧	٣٨٧٥٤	٨١٠١٢	٧٢٢١٤٣

وتقدير عدد اليهود [الوارد أعلاه] أقل من عددهم الفعلي، وذلك بالنظر إلى عدم قيدهم في السجلات. بيد أن من الراجح أن تقدير عددهم بـ ٨٠٠٠٠ يهودي في عام ١٩١٤ ـ وهو تقدير يتكرر من كتاب إلى آخر ـ تقدير يتميز بالمبالغة. ويمكن أن نقدر عددهم بشكل معقول أكثر بنحو ٦٠٠٠٠ في عام ١٩١٤. وكما في بقية بلدان الشرق الأدنى قبل عام ١٩١٤، فإن الجماعة التي تعرف أعظم نمو طبيعي هي الجماعة السكانية المسيحية. بيد أن هذا التقدم تحد منه ضخامة الهجرة، أكان إلى مصر، أم إلى بقية العالم، خاصة القارتين الأميركيتين.

وتنتمي فلسطين تمامًا إلى العالم المشرقي وتعرف النمو الاقتصادي والتجاري نفسه الذي تعرفه بقية سواحل شرقي البحر المتوسط. والحاصل أن الاندماج في السوق العالمية، والذي يسهله تطور وسائل النقل والمواصلات، إنما يسمح بنمو سريع للتبادلات التجارية مع العالم الخارجي. وفيما يتعلق بسنجق القدس، تقدم الإحصاءات التجارية لميناء يافا مؤشرات جيدة لحجم التقدم الحادث. وإذا أخذنا عام ١٨٧٥ كعام أساس(١٠٠)، فسوف نجد أمامنا الأرقام التالية(٦١):

	الصادرات	الواردات	الإجمالي
١٨٧٩_١٨٨٢	١٠٢	٢١٧	١٣٨
١٨٨٥_١٨٨٨	٦٣	٢١٧	١١١
١٨٨٩_١٨٩٣	١٣٠	٢٦٠	١٧١
١٨٩٤_١٨٩٨	١٢١	٢٤٦	١٦٠
١٨٩٩_١٩٠٣	١٠٧	٣٥٠	١٨٣
١٩٠٤_١٩٠٨	١٧١	٥٤٩	٢٨٩
١٩٠٩_١٩١٣	٢٦٦	٩٥١	٤٧٩

والجانب الرئيسي من الصادرات تمثله المنتجات الزراعية: زيت الزيتون، حبوب مختلفة، حمضيات. ويرمز التطور إلى تراجع زيت الزيتون، الذي حل محله الصابون، وهو منتج نهائي سوف يصبح على مدار عقود المنتج الصناعي الأول الذي تصدره فلسطين، وصعود الحمضيات، المصدَّرة أساسًا إلى السوق البريطانية(٦٢). وفي أواخر العصر الحميدي، تصبح الحمضيات المنتجات المصدَّرة الأولى، تليها منتجات الصابون والحبوب. وتوسع محصول الحمضيات سريع: فبالنسبة لمجمل السنجق، سوف يغطي المحصول ٦٦٠ هكتارًا نحو عام ١٨٩٥، ونحو عام ١٩١٠ سوف يغطي ٣٠٠٠ هكتار(٦٣). وتصدير الحبوب يصبح ممكنًا بفضل استغلال مناطق زراعية جديدة، خاصة في جنوبي فلسطين والنقب، حيث يجري فرض النظام العثماني في وقت أكثر تأخرًا.

وتترجم الواردات غياب القاعدة الصناعية: وبحسب الترتيب في درجة الأهمية نجد الواردات من القطنيات والتبغ والأدوات المنزلية والأخشاب والسكر والأرز والدقيق والبترول وقضبان الحديد. والشريك التجاري الأول هو انجلترا، تليها مصر ثم الدولة العثمانية (البلدان المستهلكة للصابون الفلسطيني) وفرنسا. ثم تتلوهن بعد ذلك ألمانيا والنمسا. وفي السنوات التي تتلو انتهاء النظام الحميدي، تضطر فرنسا إلى التراجع أمام ألمانيا، بيد أنها تظل متقدمة على النمسا. وقيمة الواردات قياسًا إلى قيمة الصادرات تكاد تصل إلى الضعف. وهذا العجز الملحوظ تخفف من وطأته الإيرادات "غير المرئية"، والتي تتألف من عائدات الحج، والسياحة عمومًا، وتبرعات الإرساليات التبشيرية أو التبرعات الصهيونية، وحصيلة الصدقات الموجَّهة إلى يهود **الييشوف** القديم المتدينين وتحويلات المهاجرين المسيحيين إلى أميركا إلى عائلاتهم.

وكما هي القاعدة في مجمل أرجاء الدولة العثمانية، فإذا كانت بريطانيا العظمى هي الشريك التجاري الأول للمنطقة، فإن فرنسا هي المستثمر الأول. وفي فلسطين، يتعلق الأمر بخط سكة حديد يافا ــ القدس. ففي البداية، كان قد جرى بدء المشروع بمبادرة من مقاول إسرائيلي عثماني، هو يوسف ناڤون، الذي حصل على الامتياز من الباب العالي في عام ١٨٨٨. وبما أنه لم يكن يملك رساميل شخصية، فقد اتجه إلى السوق الفرنسية وأسس شركة السكك الحديدية العثمانية من يافا إلى القدس وامتداداتها. والحال أن افتتاح الخط الذي يبلغ طوله ٨٣ كيلومترًا وبنته شركة فرنسية قد تم في ٢٦ سبتمبر/ أيلول ١٨٩٢. ومنذ عام ١٨٩٣، نجد أن الشركة، لكونها قد قدَّرت تكاليف البناء بأقل مما حدث بالفعل، قد منيت بالفشل، وكان قد بولغ في تقدير حجم الركاب، وإذا كانت القطارات ترحل مليئة بالسلع في اتجاه القدس، فإنها ترجع إلى يافا خاوية من الناحية العملية، فعاصمة فلسطين كانت من حيث الجوهر مركز استهلاك لا مركز إنتاج. وفي عام ١٨٩٤، يحصل المساهمون الفرنسيون على تسوية بحكم صادر من محكمة السين التجارية ويعيدون تنظيم الهياكل المالية للشركة. ومنذ ذلك الحين، يصبح التقدم متواضعًا لكنه منتظم: فالإيرادات تنتقل من ٥١٠٠٠٠ فرنك في عام ١٨٩٤ إلى ١٣١٠٠٠٠ فرنك في عام ١٩١٣ (بنسبة ٥%

سنويًا). وتتزايد الأرباح الصافية بشكل أسرع (بنسبة ١٣% سنويًّا). وتتم تصفية المديونية في بضع سنوات. وتراقب الكيه دورسيه [وزارة الخارجية الفرنسية] تركيب رأس المال مراقبة منتبهة وتتدخل في عام ١٨٩٨ عندما يبدو أن مجموعة إمپان البلچيكية (ذات الانغراس القوي في مصر) تريد شراء حصص من رأس مال الشركة. والحال أن هذه سكة حديد ضيقة الطريق وذات أهمية محلية أساسًا. وعشية الحرب العظمى [الأولى]، يجري التفكير في مد الخط ليتم ربطه بالشبكة الفرنسية في سوريا عن طريق رياق وبخط سكة حديد الحجاز. ومستقبل الخط مرتبط بمستقبل يافا، حيث لا يوجد ميناء حديث ذو أرصفة. إذ يتعين على السفن نقل السلع والركاب إلى مراكب صغيرة تتولى نقلهم إلى الشاطئ. ويجري التفكير بإلحاح في إنشاء ميناء حديث في أواخر العصر العثماني، إلاّ أن هناك مشروعًا منافسًا لإنشاء ميناء جديد في حيفا(٦٤).

وفي المجال المصرفي، تعتبر المنافسة حادة. فالصيارفة الأهليون يواصلون احتلال موقع رئيسي، بالرغم من أن بنك الكريدي ليونيه يفتتح فرعًا له في القدس في عام ١٨٩٢. ويتبعه ألمان الدويتش پاليستينا بانك، الذي أقيم في القدس في عام ١٨٩٧ وفي يافا في عام ١٨٩٩ وفي حيفا في عام ١٩٠٤، ثم البانك إمپيريال أوتّومان (وهو في غالبية رساميله فرنسي)، والذي يؤسس توكيلات في القدس وفي يافا في عام ١٩٠٤ وفي حيفا في عام ١٩٠٥. وأخيرًا، يدشن البنك الصهيوني أنجلو ــ پالستاين بانك نشاطاته في عام ١٩٠٣.

وأشكال التقدم الاقتصادي هذه لا تنفصل عن العمل الإداري. فاعتبارًا من مستهل عهد عبد الحميد يجري تطبيق القانون الخاص بالولايات (والذي يستلهم النموذج الإداري الفرنسي) في فلسطين. فمتصرف القدس يتبع القسطنطينية مباشرة لا عاصمة ولاية من الولايات. وبالرغم من أنه إلى عام ١٩١٠ تتبعُ المنظومةُ القضائية محكمةَ استئناف بيروت (في ذلك التاريخ يجري إنشاء محكمة أخرى في القدس) والهيئة العسكرية للفيلق الخامس للجيش المرابط في دمشق، فإن المتصرف يتصرف كما لو كان واليًا على ولاية. وهو رجل نظام حريصٌ على تأمين احترام الإصلاحات العثمانية، لكنه خاضع دومًا لمطالبات الباب العالي له بأن يرسل إليه الحد الأقصى من الأموال. وغالبًا ما تقيد من

عمله حقيقة أن الفصل بين السلطات الإدارية والقضائية والعسكرية هو الآن واقع ملموس. وهو لم يعد الوالي كليّ القوة لزمن ما قبل **التنظيمات**[٦٥]. وبالمقارنة مع العهود التالية، فإن ضعف الإمكانات العسكرية الموضوعة تحت تصرفه إنما يعد صارخًا: ٤٠٠ رجل، يرابط أغلبهم في القدس[٦٦]. وهم يكفونه لتأمين النظام في البلد، بما يشكل نجاحًا ساطعًا للإدارة العثمانية. وفي حالة نشوب قلاقل، يمكنه استدعاء جنود الاحتياط وقوات غير نظامية. ومثل هذا الوضع لا ينشأ خلال العصر الحميدي. وبالمقابل، يجري استدعاء جنود الاحتياط في عام ١٨٩٥ لاستخدامهم في قمع التمرد الدرزي في حوران. وهذه الأحداث في الولاية المجاورة تثير انزعاجًا عظيمًا في فلسطين[٦٧]. والتكلفة البشرية لحملة حوران هذه بالنسبة للفلاحين الفلسطينيين باهظة، وذلك من جراء الحرمانات وقسوة الموسم بأكثر من جراء نيران المتمردين[٦٨]. ونواب المتصرف قائمقامات يديرون مختلف أقضية السنجق. وبوجه عام، نجد أن هؤلاء القائمقامات ليسوا منحدرين من فلسطين، إلاّ أن هناك بعض الاستثناءات الشهيرة كموسى كاظم الحسيني، الذي كان مسئولاً عن قضاء يافا والذي لم يقدم ما يرضي: وهكذا، فعلى أثر حوادث طائفية بين المسيحيين والمسلمين في عام ١٨٩٠، جرى عزله عن منصبه بتدخل من القناصل الذين طالبوا بأن يكون القائمقام غريبًا عن المنطقة الخاضعة لإدارته[٦٩].

ونجد كثيرين من أبناء الأعيان في مناصب قضائية أو اقتصادية، كمنصب مفتش الغلال والحاصلات الزراعية. وبما أن مرتبات الوظائف الإدارية كانت جد هزيلة، فإن من يندرج في هذا النوع من العمل ليس العناصر الأكثر أهمية في عائلات الأعيان، بل بالأحرى العناصر الأحدث أو الفروع الأصغر. وتقدمهم مشروط بحراكهم، والغالبية بينهم يعملون خارج فلسطين، بل خارج الولايات العربية (في مقدونيا مثلاً)[٧٠].

وقد أنشئت البلديات الأولى في ستينيات القرن التاسع عشر (في عام ١٨٦٣، فيما يتعلق بالقدس)[٧١]. وفي مستهل القرن العشرين، زوِّدت التجمعات السكنية الرئيسية بمؤسسات كهذه، بإمكانات محدودة نسبيًا. وكان انتخاب أعضاء المجالس البلدية يتم عبر اقتراع يمارسه دافعو الضرائب، وكان هؤلاء

الأعضاء يجيئون من بين صفوف الأعيان. وقد تمت كفالة تمثيل غير المسلمين. وتهتم البلديات بالأعمال الجماعية التي تفيد السكان ـ مراعاة القواعد الصحية، توفير المياه، الإنارة الليلية. وفي التجمعات السكنية المهمة كالقدس، تنشأ سياسة تحديث حضري حقيقية: طرح الخطوط العريضة لتوفير المياه بصورة مستديمة، مناقشة إدخال الكهرباء. ويبقى أن محدودية الإمكانات هي العقبة الرئيسية في وجه تحسين شروط الحياة الحضرية. والحال أن الحصانات التي منحتها الامتيازات للأجانب إنما تشكل كابحًا للنشاطات البلدية، كما هي الحال في بقية أرجاء الدولة العثمانية.

وفي القرى، نجد أن المخاتير ينتخَبون، من الناحية النظرية. بيد أنهم في أغلب الأحيان إنما يتم اختيارهم وتسميتهم من جانب زعماء العشائر القروية الرئيسية. والمختار مسئول عن السهر على جباية الضرائب ومسك دفاتر رسمية يتم فيها تسجيل المواليد والزيجات والوفيات، كما أنه مسئول عن السهر على تسجيل الحيازات الزراعية. وهو قد حل محل شيخ القرية الذي عرفته العصور السابقة، والذي لم يكن تابعًا للدولة. وهو موظف يلعب دور الوسيط بين الفلاحين والإدارة.

والمؤسسة الأهم هي مجلس القدس الإداري[٧٢]، الذي يملك صلاحية فيما يتعلق بالأشغال العمومية والزراعة والشئون المالية وجباية الضرائب والشرطة وتسجيل حيازة الأراضي وإدارة الأوقاف وتصاريح إقامة الأجانب وتعداد السكان. وهو لا يملك سلطات قضائية، خلافًا لما كانت عليه الحال في السابق. وبوصفه صاحب صلاحية فيما يتعلق بقضاء القدس، فإنه يشرف على نشاطات المجالس الإدارية للأقضية الأخرى. وهو يتألف من أعضاء مكتب (المتصرف، المفتي، أمين الخزانة، نواب الطوائف الأرثوذكسية واللاتينية والأرمنية واليهودية) وأعضاء منتخبين، بينهم كالعادة مسيحي. والقاعدة هي أنه يتألف من سبعة مسلمين ومن خمسة من غير المسلمين. والعلاقات مع المتصرف نزاعية أحيانًا. والحال أن رءوف باشا قد نجح خلال فترة إدارته (١٨٧٦ـ١٨٨٨) في فرض سلطته على الأعيان. وسوف يحاول خلفاؤه عمل المثل. فسوف يلعبون على التنافسات العائلية، وذلك عبر قيامهم، مثلاً، باختزال الوظائف الممنوحة

لآل الحسيني لصالح آل الخالدي.

وكانت **التنظيمات** العثمانية قد أقامت محاكم مدنية، متمايزة عن المحاكم الدينية. وهي تملك صلاحيات فيما يتعلق بالمسائل المدنية (خارج شئون الأحوال الشخصية)، وتجارية (بسبب غياب محاكم التجارة). وأعضاؤها (المسلمون والمسيحيون) منتخبون، من الناحية النظرية. أمَّا في الواقع، فإن رئيسها إنما يتم تعيينه من جانب الباب العالي، والأرجح أن الآخرين كان يتم تعيينهم من جانب المجلس الإداري، بالتشاور مع المتصرف. وهذا قضاء جد مستقل عن الإدارة المحلية، الأمر الذي يثير عظيم سخط القناصل الذين كانت تجري إحالتهم إلى المحاكم للنظر في دعاويهم كلما طرحوا شكاية ما. وهكذا فإن سلطة ممثلي الدول العظمى إنما ترتهن بسلطة المتصرف، ويمكننا أن نفهم سخطهم إذ يرون تطبيق هذه الإصلاحات التي كانت أوروبا مع ذلك هي التي فرضتها على الدولة العثمانية.

ويظل **الالتزام** ممارسة رائجة، لكن الإدارة تراقب بشكل أدق فأدق نشاطات الملتزمين وتسعى، عندما يكون ذلك ممكناً، إلى إحلال إدارة مباشرة محلهم. وتنصب الضرائب بشكل خاص على النشاطات الزراعية. والضريبة الأهم هي ضريبة العُشر على الحاصلات الزراعية والضريبة على المواشي والأدوات الزراعية.

وإحدى المهام الرئيسية للإدارة تتمثل في تسجيل صكوك الملكية. ويكرس المجلس الإداري لهذه المهمة جانبًا كبيرًا من وقته. وفي بعض المناطق، نشهد بداية مسح الأراضي. وهذا يطرح مشكلة الاستغلال الجماعي للأراضي القروية (المُشاع). والمسألة جد معقدة لاسيما أنها تشمل تباينات إقليمية مهمة. فتاريخيًّا، ولأسباب أمنية، كانت حيازة الفلاحين مركزةً في مناطق الروابي والجبال. ومنذ آلاف السنين، قامت على المرتفعات شبكة "القرى الجذمورية". وبسبب هذه المعطيات الطوبوغرافية، كانت زراعة الأشجار سائدة ومن ثم فقد كان الاستغلال يتم على أساس ملكيات عائلية. وفي هذه المناطق، لا يطرح تسجيل الملكيات مشكلة كبرى.

وبالمقابل، تتوافق عودة النظام العام مع انتشار، مؤقت في البداية ثم دائم

فيما بعد، لمستوطنات فلاحية في السهول، حيث تهيمن زراعة الحبوب. وهذه الأرض المستعادة إنما تعد ملكية جماعية لمجمل الجماعة الفلاحية المعنية. وغالبًا ما ينضم إلى هذه الجماعة البدوُ الرحل الآخذون بالاستقرار. ويظل الاستغلال فرديًّا، من زاوية إمكانية العمل التي تشكلها الجماعات الأسرية (**الحمولة**). وبوجه عام، يتألف سكان القرية من خمس إلى ست **حمولات**: وإذا كان أعضاء **الحمولة** أقارب من الناحية النظرية، فإنهم في الأغلب أطراف في علاقة سلالية وهمية. فالقادم الجديد يندمج في **حمولة** ويتبنى منظومة قرابتها. على أن الجماعة تعمل بوصفها جماعة تتصاهر من داخلها وتتصرف حيال الخارج بشكل تضامني، متقاسمة المسئولية الجماعية نفسها، وهو أمر مهم بشكل خاص في حالات الثأر، جد المتواترة. وفيما يتعلق بتوزيع السكن، فإن القرية تتألف من أحياء متمايزة تتحدد بوجود **حمولة**.

وهكذا يجري تقسيم الارض المتوافرة إلى سلاسل من الحصص التي يعاد توزيعها بشكل دوري. وكل شريك لايعمل إلاّ لنفسه، إلاّ أن عليه التقيد بانضباط جماعي فيزرع المحاصيل نفسها التي يزرعها الآخرون ويتبع الأساليب نفسها التي يتبعها الجيران. والبنية متينة وسليمة ومتوازنة، وهي تمنع التدخل الخارجي مع حفاظها على المساواة والسلم الاجتماعيين. وهذا هو ما يسميه جاك ويليرس **بالمُشاع الأصلي**(٧٣)، والذي يوفر قدرًا من التشابه مع **الحقل المفتوح** (*open field*) الأوروبي ونظامه الخاص بالتناوب الزراعي. بيد أن التطور التاريخي يميل إلى تجميد الأوضاع المكتسبة: فالعائلات الأقوى تشهد تزايد حصصها ثم ترفض إعادة توزيعها، في حين أن القانون العقاري العثماني يحظر الملكية الجماعية، من الناحية النظرية. وعندئذ يحاول الأعيان الحضريون الدخول إلى منظومة الملكية. فيسجلون باسمهم كل الأرض، أو يقومون في الأغلب بادعاء حيازتهم لعدد من حصص الأرض كلها. وتأخذ الملكية شكلها النهائي، ونصل إلى وضع أرض جاهزة للتقسيم، **مشاع مستقر** يسمح الآن بتسجيل صكوك الملكية. وبما أن الشرع الإسلامي مساواتي في مسألة اقتسام التركات، فإن الاستثمارة قد تنقلب إلى استثمارات صغرى، ومن هنا ضرورة الضم الودي (والذي يسمى بالإفرار) في لحظة تفرض فيها

المحاصيل الجديدة هجر الانضباطات الجماعية. وشراء المستوطنين اليهود للأراضي إنما يدفع في هذا الاتجاه.

وفي فلسطين، تقود عمليات تسجيل الأراضي، بشكل تلقائي، إلى انتهاء إعادة التوزيع، بينما تبقى الانضباطات الجماعية. وشراء الأراضي من جانب أشخاص من الخارج إنما تشجع عليه مديونية الفلاحين، الذين يبيعون حصصهم من **المشاع** لكي يسددوا ديونهم. وهكذا يحوّل الأعيان أرض المشاع إلى أرض مزارعة واسعة. فيفقد الفلاح قيمة رأسماله العقاري، لكن مستواه المعيشي لا يتغير عمليًا من جراء ذلك، لأنه يواصل استغلال الأرض(٧٤). وفي العصر الحميدي، نظل، بحسب الأماكن، في وضع مشوش بين **المشاع** الأصلي و**المشاع** المستقر. وتظل إعادة التوزيع شيئًا مألوفًا في الجزء الأعظم من الأراضي المعنية، أي في مناطق السهل، بينما تبدو غائبة عن قرى المرتفعات. وبالمقابل، يسجل فلاحون الأراضي باسمهم مع حفاظهم على أسلوب استغلال جماعي. ويتعقد الوضع لاسيما أن الباب العالي منحاز عمومًا إلى إنهاء الاستغلال الجماعي، لأنه تبنى المذهب الليبرالي عن التفوق الحصري للملكية الفردية. وعندئذ يدرك أن **الإفراز**، في الحالة الفلسطينية، إنما يشجع على الاستئثار بالأراضي من جانب "الغرباء"، أي من جانب المستوطنين الصهيونيين، ومن ثم يصدر تعليمات مؤاتية للحفاظ على **المُشاع**(٧٥).

والحال أن الجانب الأعظم من الأراضي إنما يدار الآن كما لو أنه ضمن نظام ملكية كاملة، بالرغم من أن الدولة تحتفظ، من الناحية النظرية، بحق ملكية عليا فيها [الأراضي المسماة بالميري]. وتهتم الإدارة العثمانية قبل كل شيء بالإيرادات الضريبية. وهكذا تَدْفَع إلى بيع الأراضي التي لا مُلاّك لها (المحلول) كيما يتسنى استغلالها. وهي تحبذ توسيع المحاصيل. والسلطان نفسه يكوّن لنفسه ملكية عقارية مهمة في فلسطين، تنتمي إليه بشكل خاص ويتولى استغلالها. والقيد الوحيد على تسجيل أراضي الملكية هو رغبة الإدارة في تولي الدفاع عن المراعي المشاعية، والتي يحاول كبار الملاك الاستئثار بها لحسابهم.

وتقدم المواصلات، واحترام القانون وتوسيع اختصاصات المحاكم المدنية والدينية أمور تعزز بشكل متصل من سيطرة الأوساط الحضرية على الأرياف.

وتنشأ هيراركية حضرية جديدة: يافا، المدينة الميناء المشرقية، عاصمة الحمضيات، القدس، مدينة الحج والحكم، ثم نابلس، التي تأخذ مكانها في صناعة الصابون. وهذه التجمعات السكنية مراكز ثقافية ذات أهمية أولى، على المستوى الفلسطيني كما هو واضح. وهناك نجد المدارس الحديثة التي هي بسبيلها إلى تكوين الجيل الأول من المثقفين الفلسطينيين — سوف يكونون حاملي النزعة القومية في الشطر الأول للقرن العشرين.

وأعظم مشروع للنظام الحميدي في فلسطين هو استعادة زمام الجنوب(٧٦). فاعتبارًا من عام ١٨٩٠، تفرض السلطات على بدو النقب إنهاء نزاعاتهم. وفي عام ١٨٩٩، يجري اتخاذ قرار بإنشاء مدينة جديدة، هي بئر سبع، لإحكام السيطرة على المنطقة. وفي عام ١٩٠١، يتكون المركز الحضري ويتم حث البدو بقوة على الاستقرار فيه. والحال أن المدينة، حتى مع أن سكانها يظلون قليلين، إنما تحوز جهازًا إداريًا كاملاً يرمز إلى إنجاز الإصلاحات العثمانية في العصر الحميدي: بلدية، إلى جانب مجلس إداري ومحكمة دينية ومسجد. وهي تصبح مركزًا لقضاء جديد أنشئ قرب سيناء. والحاصل أن النقب، المستغل في المحاصيل البعلية، إنما يصبح منطقة مهمة لإنتاج الحبوب. وهذا الموقف مواز للموقف الحادث في جنوبي شرقي الأردن مع إنشاء قضاء الكرك. وفي هذه الساحات لاستعادة السلطة، تحفز الحكومة العثمانية نشاط "دعاة" مسلمين مهمتهم القضاء على ممارسة دينية تعتبر من قبيل الخرافات إلى جانب موازنة نشاط المبشرين المسيحيين الذي يعتبر خطرًا. وهذا الإسلام الآخذ بالإصلاح إنما يعتبر الضمانة القادمة لولاء السكان. ولا يحدث الزحف باتجاه الجنوب دون إثارة مخاوف كبيرة لدى البريطانيين في مصر.

وهكذا نجد أن الإصلاحات العثمانية والتحولات الاقتصادية قد قادت إلى إنهاء الاستقلاليات المحلية لصالح خلق تجانس يشمل المجالات الإدارية والاقتصادية والثقافية. والحال أن التهدئة ومختلف التوازنات المشرقية وجدل العلاقات مع أشكال النفوذ الأجنبي قد ساعدت على الهجرة اليهودية وعلى الاستيطان الروتشايلدي. وهذا النظام كله هش ويفترض غياب النزعة القومية، مع مروره عبر ولاء بعيد عن أن يكون أكيدًا حيال السلطة العثمانية.

وإذا كانت الإشارة إلى نزعة قومية عربية أو فلسطينية ما تزال ضعيفة قبل عام ١٩٠٨، فإن جميع الشروط الضرورية لطرحها تتوافر في مستهل القرن العشرين، في لحظة يبدأ فيها الحل الوسط الحميدي في البقاء بعد أن لم يعد ما كان عليه. وهنا أيضًا فإن شجبه إنما يمر عبر الإطاحة بالتوازنات الداخلية كما عبر انتقال الدول الأوروبية التدريجي من التعاون إلى المواجهة. وطبيعي أن أشكال القطيعة هذه لا يمكن الفصل بينها ولا يمكن طرحها كلاً على حدة إلاّ لأجل وضوح العرض.

فلسطين الحميدية في العلاقات الدولية

فيما يتعلق بالعلاقات الدولية، ليست فلسطين بالدرجة الأول سوى الأرض المقدسة. وإذا كان سنجق القدس قد تم ربطه على نحو مباشر بعاصمة الدولة العثمانية، فما ذلك إلاّ لهذا السبب. فمسألة الأماكن المقدسة تظل مسألة رئيسية، وموضع نزاع دائم بين مختلف فروع المسيحية: فكل دولة أوروبية عظمى إنما تجعل من نفسها المتحدث بلسان الكنيسة السائدة فيها، وفعل الدول العظمى يتبع دومًا مرجعية طائفية.

والمصدر الأول للمواجهات هو العداوة الدائمة بين الكاثوليك والأرثوذكس لأجل إدارة الأماكن المقدسة. وفي كل عام، تصبح الأعياد الدينية ومواسم الحج مناسبة لحوادث تتفاقم أحيانًا لتصبح أعمال عنف. ويتدخل القناصل سعيًا إلى استعادة النظام كما إلى فرض حل ملائم لمحمييهم. وليس من شأن التحالف الفرنسي ــ الروسي سوى تخفيف حدة الموقف. وقد جرت محادثات في سان بطرسبورغ لأجل تدشين تعاون في الشرق بين الروس والفرنسيين، بيد أن النزاع حول موضوع الأماكن المقدسة إنما يظل قائمًا باستمرار. وفي عام ١٨٩٧، يتم تبادل مراسلات بين الحكومتين الفرنسية والروسية لأجل تهدئة التناحرات الطائفية في القدس(٧٧).

كما أن التنافس بين الإرساليات التبشيرية يتصل بالمسائل المدرسية. فالفرنسيون شأن البريطانيين، وهم موجودون هناك من زمن أسبق، ينزعجون من الجهد المتعاظم الذي تبذله روسيا، والتي تكرس إمكانات مهمة لأجل إنشاء

شبكة مدارسها الخاصة. وهذه المؤسسات الجديدة موجَّهة إلى الأهالي الأرثوذكس وتهدف إلى هدم سيطرة كبار رجال الدين الأرثوذكس، الذين يتألفون من يونانيين، على العرب المسيحيين. وتلك هي الحال بوجه خاص في الجليل، الذي يتبع ولاية بيروت(٧٨). وفي عام ١٨٩٧، نجد أن پول كامبون، سفير فرنسا لدى القسطنطينية، يرى في حوادث الأماكن المقدسة كما في السياسة المدرسية التي تنتهجها روسيا رغبة لدى هذه الأخيرة في احتلال الصدارة في المنطقة. والدعاية الموجَّهَة إلى الأرثوذكس العرب تهدد بنقل هؤلاء الأخيرين إلى الانحياز إلى روسيا ويجر الروم الكاثوليك معهم، وهم متعاطون تقليديون مع فرنسا(٧٩).

على أن الكاثوليك يحسون أنهم في مركز قوة. وفي عام ١٨٩٢، يفكر بعض المبشرين في مخطط كبير: فهم لا يقترحون أقل من شراء فلسطين من جانب جميع كاثوليك العالم لتقديمها هدية إلى البابا، السجين باختياره في روما. والحجج التي يقدمونها تتبئ بالحجج التي سوف يستخدمها بُعيد ذلك هرتسل: فالبيع سوف يسمح للباب العالي بسداد ديونه؛ وهو قد تنازل بالفعل عن قبرص؛ والسكان سوف يتم احترامهم في أنفسهم وفي ممتلكاتهم، بل وفي ديانتهم. وهذه الأفكار تزعج قنصل فرنسا في القدس، بيد أن المسألة سرعان ما تتوارى(٨٠). فالمسألة الأكثر أهمية بالنسبة للكاثوليك هي حالة العلاقات بين الكنائس الشرقية الموالية لروما والكاثوليكية اللاتينية. والمبشرون الأوروبيون يميلون إلى تحبيذ تحويل لاتيني مسرف للشعائر الشرقية. والبابا ليون الثالث عشر يحاول وقف هذا التطور الذي يعتبره ضارًا والذي يمكن، علاوة على ذلك، أن يفيد الدعاية الروسية. وهو يكلف الكاردينال الفرنسي لانچينيو بتنظيم المؤتمر القرباني الدولي الثامن في القدس في عام ١٨٩٣. والحال أن ألمانيا الإمبراطورية، المتنازعة مع الكنيسة الكاثوليكية، إنما تسعى إلى إيقاظ مخاوف السلطان حيال مبادرة كهذه، بينما تتولى فرنسا الجمهورية الدفاع عن المبشرين الفرنسيين في مواجهة رجال الدين الكاثوليك الشرقيين الموالين للباباوية الكاثوليكية. ويناور الباب ليون الثالث عشر بدهاء ويحول المؤتمر إلى حج. ومناقشات ومجادلات القدس لها أهمية كبرى، لأنها تقود الكنيسة الكاثوليكية إلى توجيه اهتمام جديد

إلى الثروات الشعائرية والروحية للكاثوليكية الشرقية. كما يرى البابا فيها وسيلة للتوصل إلى تقارب مع الأرثوذكسية. وبالمقابل، نجد أن أنصار التحويل اللاتيني يستعيدون هيمنتهم في الڤاتيكان، في عهد پيوس العاشر، خليفة ليـون الثالـث عشر[٨١].

والمسائل التبشيرية والمدرسية تتجاوز المواجهة بين فرنسا وروسيا. ففـي الأوساط البروتستانتية، ينزعج الممثلون البريطانيون من تعزز الوجود الألماني. ففي عام ١٨٨٧، ينفصل الألمان عن الأسقفية الأنجلو ـ بروسية، التي تصـبح أنجليكانية بصورة خالصة، ويسعون إلى تكوين منظومة نفوذهم الخاصة، وذلك باستخدام مستوطنات جماعة الهيكل بشكل خاص. كما أن المبشرين من مختلف الطوائف يرون خطرًا في إنشاء العثمانيين مدارس دولة مهمتها إعداد النخـب المسلمة لتولي المناصب والمهام الإدارية. وهذه السياسة تترافق مع رغبة مـن جانب السلطات في ممارسة سيطرة أفضل على المدارس الأجنبيـة. وعندئـذ يجري الاحتجاج على "التعصب" المتجدد لدى الإدارة العثمانية.

وتشير مراسلات قناصل فرنسا في القدس إلـى أن التـوترات الطائفيـة الرئيسية تقع فيما بين الطوائف المسيحية. ومن المؤكد أنه يشار بشكل متفـرق إلى حوادث بين مسيحيين ومسلمين، إلاّ أن تحركًا نشيطًا من جانب القناصـل والمتصرف سرعان ما يؤدي إلى استعادة النظام. وبداية الأزمة الأرمنية فـي الأناضول وفي القسطنطينية تثير انزعاجات قوية في فلسطين. والحرب الظافرة التي تخوضها الدولة العثمانية ضد اليونان في عام ١٨٩٦ تحفز لدى المسلمين إحساسًا جديدًا بالثقة. وإذا كان قد تم تجنيد قوات من فلسطين، فإنها قد رابطت في سوريا الشمالية، ومن هنا غياب خسائر مهمة في الأرواح البشرية[٨٢].

وفي عام ١٨٩٧، نجد أن تعيين الباب العالي لضابط متورط في المـذابح الأرمنية في عام ١٨٩٥ كقائد عسكري للقدس إنما يثير احتجاجات من جانـب القناصل ويؤدي إلى اتخاذ موقف من جانب السفراء لدى الباب العـالي. وهـم ينجحون في التوصل إلى نقل هذا الضابط من موقعه[٨٣].

وفي اللحظة التي تحدث فيها مواجهة بين فرنسـا وإنجلتـرا فـي مسـألة فاشودة، يتعاظم نفوذ ألمانيا السياسي. ومن المؤكد أن التقـارب بـين الدولـة

العثمانية والرايخ الثاني يغذي الشائعات التي تذهب إلى أن عبد الحميد ينوي التنازل لألمانيا عن ميناء حيفا ونواحيها[٨٤]، بيد أن هذا سرعان ما يتم تكذيبه عبر الأسلوب الذي يقدم به ڤلهلم الثاني نفسه على أنه حامي حمى الإسلام.

ورحلة – حج الإمبراطور الألماني في عام ١٨٩٨ إنما تعد دليلاً صارخًا على اهتمام ألمانيا بهذه المنطقة. فبشكل سافر، ينازع قيصر ألمانيا حماية فرنسا على الكاثوليك الشرقيين. كما أن دولاً أخرى كاثوليكية بشكل مباشر أكثر كإسبانيا وإيطاليا والنمسا – المجر تهدد هذه الحماية في اللحظة التي تحدث فيها مواجهة بين الجمهورية والكنيسة في نزاع جديد يفضي في عام ١٩٠٤ إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والڤاتيكان، ثم إلى الفصل بين الكنيسة والدولة. على أن فرنسا تحتفظ بمركز قوة. وسعيًا إلى تسوية مجمل المنازعات مع الدولة العثمانية، تنخرط في عام ١٩٠١ في سياسة مواجهة: فيجري سحب سفير فرنسا لدى القسطنطينية، بينما تحتل البحرية الفرنسية جزيرة ميتيلين، في بحر إيجه (أكتوبر/ تشرين الأول – نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩٠١). ويتراجع الباب العالي على الفور. والحال أن الاتفاقات المسماة باتفاقيات ميتيلين لا تتعلق بالمسائل الاقتصادية وحدها: إذ تحصل فرنسا على اعتراف بحق حماية على جميع المؤسسات الكاثوليكية ذات الجنسية المزدوجة، بينما لا تحتفظ الدول العظمى الأخرى إلاّ بحق حماية على مؤسساتها القومية الخاصة. وهكذا يجري تعزيز الصدارة التبشيرية الفرنسية في فلسطين، كما يجري تعزيز موقع فرنسا الخاص فيما يتعلق بالأماكن المقدسة.

وإذا كانت بعض المؤسسات التبشيرية تتخلى، غداة الفصل بين الكنيسة والدولة، عن الحماية الفرنسية – لصالح الحماية الإيطالية عمومًا (الاتفاق الفرنسي – الإيطالي لعام ١٩٠٥) – ، فإن الجمهورية تعزز سياسة تواجدها. وتستفيد المدارس الفرانكوفونية في فلسطين من إعانات مهمة تنمو بصورة منتظمة إلى عشية حرب ١٩١٤. ومن ثم فإن السياسة الفرنسية، بعيدًا عن الرغبة في إهمال فلسطين، إنما يبدو أنها توجه إليها اهتمامًا متزايدًا.

وفلسطين في مستهل القرن العشرين لا تعود مجرد رهان سياسي قوامه الأماكن المقدسة وحدها.

واستعادة زمام منطقة النقب من جانب العثمانيين في أواخر القرن التاسع عشر لا تنفصل عن مجمل سياسة عبد الحميد العربية. فحرصًا على تعزيز الروابط بين الولايات العربية ومركز الدولة العثمانية، لعب السلطان بورقة الهوية الإسلامية وهو ينخرط في مشروع يهدف إلى استرداد شبه الجزيرة العربية. والفكرة العظمى للعهد هي البناء، تحت إشراف السكرتير الثاني للسلطان، السوري عزت باشا، لسكة حديد الحجاز. وبتمويل من تبرعات تم جمعها من مجمل العالم الإسلامي، وعلى شكل وقف، تندرج سكة حديد الحجاز في استمرارية واجبات خليفة الإسلام، وبينها تنظيم الحج إلى مدينتي مكة والمدينة المقدستين. وفي الوقت نفسه، يجري استثمار أراض جديدة على امتداد مسار السكة، وتتسارع سيرورة استقرار البدو. وينشأ محور شرق أردني جديد. وإذا كان لابد للسكة من أن تحول اتجاهها إلى داخل شبة الجزيرة العربية، فإن بناء سكة حديد فرعية متجهة إلى البحر الأحمر، تجتاز خليج العقبة(٨٥)، هو فكرة يجري طرحها منذ عام ١٨٩٩، الأمر الذي من شأنه أن يسمح للعثمانيين بتجنب اجتياز قناة السويس لإرسال تعزيزات إلى بلاد العرب. وفي جنوبي شبه الجزيرة العربية، يتعين عليهم مواجهة تمرد اليمن. والحال أن تجنيد قوات عربية من الولايات السورية للحرب في هذه المناطق إنما يثير مشاعر الألم لدى المسلمين، الوحيدين المتأثرين بذلك.

ويتوافق نشاط العثمانيين المتجدد في البحر الأحمر أيضًا مع نشاط معزّز في الخليج الفارسي. ويرى البريطانيون أن سكة حديد بغداد وسكة حديد الحجاز هما فكا كماشة تهدف إلى الاستيلاء على مجمل شبه الجزيرة العربية. وهم يردون على ذلك منذ عام ١٨٩٩ بتدشين الحماية البريطانية على الكويت سعيًا إلى منع العثمانيين من الوصول مباشرة إلى مياه الخليج ويراقبون بانزعاج تقدم خط السكة الأخرى. وفي هذا السياق، تتابع الدول العظمى باهتمام الحركات البدوية في داخل شبه الجزيرة. والحال أن استئناف صراع الوهابيين، تحت قيادة الشاب عبد العزيز (المعروف لدى الأوروبيين باسم بن سعود)، ضد القبائل العربية المتحالفة مع العثمانيين إنما يُعزى تلقائيًا من جانب المراقبين في ذلك العصر إلى رغبة بريطانية في الهجوم بشكل غير مباشر على مؤيدي الباب

العالي في المنطقة، وذلك في لحظة تتعرض فيها بريطانيا العظمى للشلل والمهانة من جراء حرب البوير. كما يجري تفسير هذا التمرد البدوي ضد تعزيز الوجود العثماني على أنه علامة نهضة سياسية عربية(٨٦). وبما أن سكة حديد الحجاز تهدم نشاطات القوافل البدوية، فإن التمرد متكرر أيضًا على طول الطريق. وفي فلسطين، يصبح تجنيد جنود الاحتياط من أجل القتال في بلاد العرب متكررًا بشكل متزايد باطراد(٨٧).

واعتبارًا من عام ١٩٠٥، في ارتباط بالأحداث غير الواضحة في شبه الجزيرة العربية ومع إرسال قوات إلى هذه المناطق، يبدأ تحسس سخط من جانب السكان السوريين والفلسطينيين: ويبدأ الحديث عن نزعة انفصالية عربية في سوريا وفي فلسطين(٨٨). وسوف يتعلق الأمر بالأحرى بحركة تستمد الإلهام من حركة تركيا الفتاة الهادفة إلى الاستيلاء على السلطة المركزية. والحال أن نشر كتاب بالفرنسية، هو كتاب **استيقاظ الأمة العربية**، المنسوب إلى موظف مسيحي سابق في القدس، هو نجيب عازوري، إنما يوفر مصداقية أكبر للشائعة التي تتحدث عن وجود تيار قومي عربي قوي. وفي يوليو/ تموز ١٩٠٥، تتخذ لجنة تحقيق، أرسلها الباب العالي إلى عكا، تدابير عزل للموظفين المشتبه بمشاركتهم في حركة قومية عربية(٨٩). ويشتبه الفرنسيون بأن البريطانيين يدعمون سرًا هذه النشاطات العربية انطلاقًا من مصر(٩٠). وعشية ثورة جماعة تركيا الفتاة، في ١٩٠٧ــ١٩٠٨، تكتشف الشرطة في نابلس قضايا تآمر جديدة ضد السلطة(٩١).

وتأخذ التنافسات فيما بين الدول العظمى اتجاهًا آخر مع إعادة صياغة التحالفات السياسية في أوروبا. فمع أزمة فاشودة، كان رهان استعماري قد أصبح، للمرة الأولى، باعثًا للحماسة القومية في فرنسا وفي انجلترا. وقد عززت حرب البوير هذا الملمح في بريطانيا العظمى. وتعاطف الرأي العام الفرنسي والألماني مع الخصوم الأفارقة لانجلترا الخبيثة. وقد استخلص فلهلم الثاني الاستنتاج المترتب على عجز ألمانيا عن تقديم عون للبوير: فهي تفتقر إلى أسطول حربي قادر على مواجهة الأسطول البريطاني في الساحات البحرية خارج أوروبا. وقد انصاع لمسئولي البحرية الذين أقنعوه بالانخراط في برنامج

طموح للتسلح البحري. والحال أن البريطانيين، القلقين على أمن جزرهم، قد سعوا إلى ترضية مع ألمانيا. بيد أن هذه الأخيرة، وقد أراحها أن ترى لندن تتراجع عن غطرستها المتمترسة، بدت قليلة الاستعداد للتفاهم. وعندئذ اتجهت الحكومة البريطانية إلى باريس وعقدت اتفاقات الوفاق الودي التي شهدت، بين أمور أخرى، اعتراف فرنسا بدور انجلترا في مصر في مقابل غض انجلترا بصرها عن التغلغل الفرنسي في المغرب الأقصى. واستفادة من الضعف الذي أصاب التحالف الفرنسي ـ الروسي بسبب الحرب الروسية ـ اليابانية، تنخرط برلين في امتحان قوة في المغرب الأقصى سعيًا إلى اختبار قوة الوفاق الودي. ولأول مرة، تندرج في جدول الأعمال حرب أوروبية على أثر نزاع استعماري، بما يجر إلى صدام تحالفات. وفي نهاية الأمر، يتم التراجع وتحال المسألة إلى مؤتمر دولي ينعقد في الجزيراس [بإسبانيا].

والحال أن عبد الحميد، إذ يرى أن بريطانيا العظمى جد منشغلة بأموره، إنما يتجه، في مستهل عام ١٩٠٦، إلى أخذ زمام المبادرة في شط العرب، سعيًا إلى فتح مسألة المدخل إلى الخليج، وفي النقب، سعيًا إلى التأكد من إمكانية الوصول إلى البحر الأحمر. وتحتل القوات العثمانية موقع طابا، على مقربة من العقبة(٩٢). وعلى الفور، ينزعج البريطانيون في مصر: فإذا ما وصلت سكة حديد الحجاز بالفعل إلى مشارف سيناء، فسوف تكون تلك نهاية حصانة مصر النسبية، المترتبة على وجودها بين صحرائين. والحاصل أن اللورد كرومر، المعتمد البريطاني في القاهرة، إنما يطالب بسيناء بوصفها أرضًا مصرية، مستعيدًا أطروحة كان قد تم طرحها بالفعل في عام ١٨٩٢ عند تنصيب الخديوي عباس الثاني حلمي. وهو يطالب بقوة برحيل القوات العثمانية عن طابا. ويذكِّرُ الباب العالي بأن مصر تعد من الناحية الرسمية جزءًا من الدولة العثمانية ويعارض إنزال قوات بريطانية في العقبة وفي طابا.

وبالنسبة للفرنسيين كما بالنسبة للانجليز، تعد المسألة خطيرة: فهم يرصدون خلف العثمانيين ظل ألمانيا الخطير، خاصة ظل ماكس ڤون أوبنهايم، وهو عالم آثار ورحالة سوف يصبح، على مدار عقود، هاجس الفرنسيين ـ البريطانيين المتسلط عليهم في الشرق الأدنى[٩٣]. وترى لندن ومعها باريس أن نزعة

الجامعة الجرمانية ونزعة الجامعة الإسلامية إنما تشكلان تهديدًا واحدًا يتميز بخطورة خاصة. ويرى پول كامبون أنه "مع خصم كإمبراطور ألمانيا، فإننا معرضون دومًا لأن نشهد حدوث دوامات خطرة في طبقات الإسلام العميقة"(٩٤).

ويتحدث كرومر أمام محاورين فرنسيين عن ضرورة إقامة اتحاد للبلدان الغربية لمواجهة هذا التهديد(٩٥).

وفي مايو/ أيّار ١٩٠٦، تقرر الحكومة البريطانية تنظيم استعراض للقوة البحرية على مقربة من القسطنطينية. ويستسلم عبد الحميد ويقبل تكوين لجنة لترسيم حدود سيناء. ويعود الترسيم بالفائدة على مصر. ثم إن العثمانيين يتعهدون بألاّ يبنوا خطًا فرعيًّا لسكة الحديد يتجه إلى البحر الأحمر. ولا يخطئ المعاصرون في تقدير أهمية هذه الأزمة: إن منطقة جديدة للنزاع السياسي قد أضيفت للتو إلى المشكلات الأناضولية والبلقانية للدولة العثمانية، هي منطقة شبه الجزيرة العربية والولايات العربية. ويتنبأ پول كامبون، من لندن، محقًّا(٩٦):

> سوف تضطر انجلترا من ثم إلى التواجد أكثر فأكثر في شبه الجزيرة العربية؛ وهي تحتفظ بالفعل بجميع مداخلها، إلاّ أنه سوف يتعين عليها أن تضع يدها، يومًا أو آخر، وبشكل ظاهر إلى هذا الحد أو ذاك، على شريف [مكة] الكبير. وسوف يكون ذلك صراعًا رهيبًا مع القسطنطينية.

وإدراكًا لانشكاف مصر وقناة السويس للخطر، يفكر الاستراتيجيون البريطانيون في السبيل الأفضل لحمايتهما من غزو قد يقوم به جيش جرماني ـ عثماني. وقد توصلوا إلى استنتاج أن التحرك سوف يتمثل في إنزال في سوريا أو فلسطين تصحبه انتفاضة من جانب الدروز والعرب (البدو)(٩٧). ويجري تنظيم استطلاعات لدراسة أفضل مواقع الإنزال. وفي اللحظة المباشرة، لا يتعلق الأمر إلاّ بالتحسب لما يمكن أن يحدث، وبإعداد افتراضات لجميع الاحتمالات النموذجية. بيد أن هذا التحويل لاتجاه السياسة البريطانية سوف تترتب عليه آثار مقيمة.

وهكذا، ففي أواخر العصر الحميدي تصبح فلسطين من جديد رهانًا في سياسة الدول العظمى. وذلك في سياق تتشابك فيه بشكل لافكاك منه لعبة التحالفات الأوروبية والتحدي الإسلامي للاستيطان وللاستعمار وظهور شعور قومي عربي وتآكل الصيغة الحميدية للسلطة.

وهذه الأحداث تترجم أيضًا اختلالاً تدريجيًا للتوازنات الداخلية والخارجية لأوروبا، والتي تبدي بشكل موازٍ معاداةً للسامية تصبح عدوانية بشكل متزايد باطراد. ورد يهود أوروبا، في الفترة نفسها، هو قلب الصهيونية من عمل براجماتي ومستتر إلى تأكيد سياسي قائم على مخاطبة الرأي العام وعلى القدرة على المناورة عبر التعقيدات المتزايدة للوضع الدولي، وذلك سعيًا إلى استخدامها لصالحها. وهذه الصهيونية السياسية بالمعنى القوي للمصطلح هي من صنع تيودور هرتسل.

الفصل الخامس

تيودور هرتسل ونشأة الصهيونية السياسية

"نحن أكثر ارتباطًا بالماضي مما نظن عادةً. فلدى دخولنا الحياة، صُبَّت في عقلنا الناشئ وفي فؤادنا معتقدات لا نتوصل إلى قتلها بالتفكير. وهناك أشباح تسكننا، نصون بها الحياة، دون أن ندرك ذلك، وغالبًا ما توجّهنا وتدفعنا وتجرنا: إنها تنبثق من اللاوعي وتظهر أمام أعيننا المندهشة. فننظر إليها في البداية على أنها غريبة، بل دخيلة تبلبل مفاهيمنا، لكننا لا نتأخر عن التعرف عليها ونفرح حين نستسلم لهدهدتها لنا [...]. وهذه الأشباح تفعل ما هو أكثر من ذلك أيضًا، فهي قادرة على أن تولّد فينا صورًا جديدة؛ وهي تجتمع بأفكارنا الحقيقية، وتؤثر على مفاهيمنا، وتجعلنا نراها من زوايا غير متوقعة، من جوانب غريبة".

برنار لازار، ١٨٩٣[١].

الفرد والتاريخ

يبدو تيودور هرتسل في البداية الأولى كشخص وحيد، يتميز بشخصية انفعالية ومعذّبَة، ويتمتع بتفكير قليل الواقعية، فيحسب رغباته غالبًا على أنها حقائق واقعية. ودوره غير العادي في تطور مسألة فلسطين وفي تأسيس الصهيونية إنما يطرح العلاقة فيما بين الأفراد الاستثنائيين والتاريخ. والواقع أن نجاح هرتسل بحد ذاته إنما ينبني على موقف شخصي من حيث الجوهر، جعله يكتشف، عبر تطوره الفردي، المعطيات الجديدة لتلك المشكلة الجماعية الواسعة التي تتمثل في المسألة اليهودية اعتبارًا من ثمانينيات القرن التاسع عشر. ومما له دلالته واقع أنه، في "ڤيينا نهاية القرن" تلك، يظهر مصطلح "اللاوعي" مرات عديدة في يومياته. ونجد هذا الواقع نفسه ايضًا في فرنسا في نصوص واحد كبرنار لازار.

إن هرتسل، الذي ولد في عام ١٨٦٠[٢] في أسرة من البورچوازية اليهودية

الميسورة والناطقة بالألمانية في المجر، في عين اللحظة التي كان فيها تحرير يهود هذا البلد بسبيله إلى أن يتم وحيث كان النمو الاقتصادي في مستهل الشطر الثاني للقرن التاسع عشر يفيد بشكل خاص جماعة سكانية يهودية بسبيلها إلى أن تستوعَب ضمن إطار ليبرالية ظافرة، إنما يصل إلى سن الرشد في اللحظة التي تستقر فيها أسرته في ڤيينا وفي زمن حدوث الانقلاب العظيم لأعوام ١٨٧٨ ــ ١٨٨٢. والحال أن هذا الفتى المدلل من جانب أسرته والذي يحتفظ بقدر من عدم النضج النفسي الذي سوف يلازمه طيلة حياته، إنما يبدي في وقت جد مبكر مواهب فكرية تسمح له بالتطلع إلى أن يكون كاتبًا كبيرًا.

وفي عام ١٨٨٢، عشية المذابح الكبرى التي استهدفت اليهود في روسيا، يقشعر بدن هرتسل من الاعتداءات الأولى التي ترتكبها معاداة السامية ويرد بقوة على كتابات دوهرنج، الذي يشجب الإسهامات اليهودية الرئيسية في الحضارة ــ بدءًا بالتوراة ــ ويطالب بطرد اليهود من الحياة العامة وبحظر الزيجات المختلطة سعيًا إلى صون نقاء الجنس الألماني. على أنه يقبل شجب "انعدام الأخلاق الذي يميز الكثير [كل، بحسب دوهرنج] من النشاطات اليهودية"(٣). وهو ينهي دراساته في الحقوق بدرجة دُكتوراه حصل عليها في عام ١٨٨٤ مع انخراطه بكل قواه في الأدب. ثم يصبح كاتب مسرحيات تلقى قدرًا من النجاح، ويصبح بالأخص صحافيًا كبيرًا، أستاذًا في فن المسلسلات الأدبية. وهو يتزوج في عام ١٨٨٩ من جوليا ناشاور، المنحدرة من عائلة يهودية جد ميسورة وقليلة التدين كعائلته. وسوف يكون هذا الزواج سيئ الحظ إلى حد بعيد بالرغم من مولد ثلاثة أطفال: فشخصيتا الزوجين سوف يتكشف أنهما غير منسجمتين بالمرة. وأقل ما يمكن قوله هو أن الأخطاء كانت متبادلة. وفي عام ١٨٩١، يتعاقد على الكتابة بشكل دائم لصحيفة نوييه فرييه بريسّه، الصحيفة النمساوية الأوسع نفوذًا في مجال السياسة والأدب، ولسان حال البورجوازية الليبرالية اليهودية وغير اليهودية في النمسا. وسرعان ما يصبح أحد أهم كتّاب الصحيفة التي ترسله إلى باريس لتغطية المجريات الحاضرة للسياسة الفرنسية، خاصة البرلمانية.

وهو يصل إلى باريس في لحظة انتهاء الأزمة البولانچية، ويشهد موجة

الإرهاب التي يرمز إليها رافاشول (سوف يتابع محاكمتـه فـي عـام ١٨٩٢) ويقابل، عبر وساطة حلقة [ألفونس] و[ليون] دوديه، دريمو، الذي سوف يكن له قدرًا من الإعجاب (وهو إعجاب متبادل من جهة أخرى). ويتعرف على ماكس نوردو، وهو يهودي من أصل مجري مثله ويكبره بخمسة عشر عامًـا، وهـو آنذاك مفكر شهير إلى أبعد حد: فالحال أن كتابه **الانحطاط** (المنشور في ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣) قد جعل منه واحدًا من أشهر الأنبياء العلميين المزعـومين لـروح نهاية القرن. وهو يشجب في هذا الكتاب كل ما هـو منحـرف عـن الجمـال والسلامة الأخلاقية، وهو ما يشمل الجانب الأعظم من الفنون والفكر والأدب في الشطر الثاني للقرن التاسع عشر (راسكين، رامبو، فيـرلين، فـاجنر، نيتشـه، زولا، تولستوي، إلخ.)[٤].

وفضيحة بنما وبدايات قضية دريفوس تجعله يكتشف قوة المعاداة الفرنسية للسامية، وهي قوة كان يميل في البداية إلى التهوين من شأنها. وتصبح المسألة اليهودية أحد موضوعات اهتمامه الرئيسية. وقد حلم بتحويل جماعي لليهود إلى اعتناق المسيحية تتلوه زيجات مختلطة، الأمر الذي من شأنه أن يضـع نهايـة لمعاداة السامية عبر اختفاء الخصوصية اليهودية[٥]. وهو يدرك لاواقعية فكرته. وتأخذ فكرة أخرى في السيطرة عليه بشكل متزايد باطراد: إن التحرير هو سبب معاداة السامية، واليهود، دون أن يكونوا مسئولين عن ذلك، إنما يظلون جسـمًا غريبًا في مختلف الأمم التي يحيون بينها. ومن شهر إلى آخر، تهيمن المسـألة على تفكيره بشكل متزايد باطراد ويتعاظم انفعاله، فهو يستشعر أن له رسـالة تاريخية. وفي عام ١٨٩٥، يستولي عليه الإشراق: لقد وجد حلاً بسيطًا، قوامه إقامة دولة يمكن ليهود العالم برمته أن يهاجروا إليها بشكل جماعي. وقد سمحت له إقامته في باريس بأن يتباعد إلى حد معين عن المعاداة النمساوية للسامية مع تزويده بالإجابة عن المسألة التي استولت على تفكيره[٦].

بحثًا عن مُحَاوِر

يسعى هرتسل في البداية إلى جذب اهتمام البارون هيرش إلى مشـروعه. وقد تم اللقاء بينهما في ٢ يونيو/ حزيران ١٨٩٥. وهو يبدو مشاكسًا، فيهـاجم

فلسفة الإحسان والأعمال الإنسانية الخيرية. ويدعو إلى تكوين قيادة سياسية يهودية موحَّدة مهمتها في البداية تحسين المستوى الأخلاقي لليهود وإعدادهم للإقبال على العمل؛ وسوف تهتم هذه القيادة بعد ذلك بتنظيم الخروج من أوروبا؛ ويجد هيرش محاوره خياليًا ويحاول إفهامه أنه لن يحصل أبدًا على دعم من اليهود الأثرياء. ويرد هرتسل عليه بأن هذا لا أهمية له بالمرة: فهو سوف يجمع الاكتتاب اللازم من الجماعة السكانية اليهودية المعنية بالأمر(٧). وبما أن هرتسل ساخط في غروره، فإنه لن يرى البارون هيرش أبدًا مرة أخرى، وسوف يموت البارون في السنة التالية.

وبعيدًا عن أن تفتر همة الصحافي، ينهمك في جنون كتابةٍ ويكثر من تسجيل الملاحظات حول دولته التي سوف تنشأ في المستقبل. فهي ليست دولة يهودية قائمة على الديانة والثقافة اليهوديتين، بل هي دولة لليهود سوف يتسنى لهم فيها أن يحيوا حياة طبيعية على غرار الأوروبيين الآخرين. وهذه يوتوبيا حديثة تتواجد فيها من جديد آخر مبتكرات التكنولوجيا ومشاريع المصلحين الاجتماعيين في أواخر القرن التاسع عشر. وموسى الجديد هذا المكلَّف بإخراج اليهود من أوروبا لا يحب الديموقراطية ويرتأي جمهورية أرستقراطية وفق نموذج ڤينيسيا الأرستقراطية. وهو يخاطب الآن بسمارك، بيد أن المستشار الحديدي، المجبر على التقاعد السياسي، لا يرد عليه. ثم يتجه إلى فرع آل روتشايلد في ڤيينا ويلقى الفشل نفسه في لحظة نجد فيها أن كارل لويچير، مبتكر الشعبوية المعادية الحديثة للسامية، يجري انتخابه عمدة لڤيينا (سبتمبر/ أيلول ١٨٩٥). والحال أن ديماجوجية العمدة الجديد ـــ والذي يقدم نفسه بوصفه المدافع عن الطبقات المتوسطة المهدَّدَة في وجودها ـــ وبراعته في التلاعب بالطبقات الحاكمة المحافظة، سوف تكونان مثالاً يقتدي به هتلر، الذي كان يقيم آنذاك في عاصمة آل هابسبورج(٨).

وفي خريف عام ١٨٩٥، يحاول هرتسل إقناع جويدمان، حاخام ڤيينا الأكبر، بأطروحاته. بيد أن هذا الأخير، الذي تأثر في البداية بهذه الأطروحات، إنما يتحول بشكل متزايد باطراد إلى اتخاذ موقف متصاعد العداوة حيال الصهيونية ويصبح في الأعوام التالية واحدًا من ألد أعدائها. وبالمقابل، يبدو

زادوك كاهن، حاخام فرنسا الأكبر، أكثر انفتاحًا. ومن المؤكد أنـــه يـــرى أن المشروع لا يمكنه أن يهم الإسرائيليين الفرنسيين، الذين لا يعرفون سوى الولاء للأمة الفرنسية، بيد أنه يعتقد أن مثل هذا المشروع قد يعالج شقاء يهود شـــرقي أوروبا، وهو موضوع يشغل باله منذ زمن بعيد. وخلافًا للحال مع هرتسل، فإنه يعرف بالفعل كتابات الصهيونيين الروس الأوائل. وعلى مدار عـــدة ســـنوات، سوف يبدي الحاخام الأكبر تعاطفه مع مشاريع هرتسل مع تحذيره من أن قيـــام دولة يهودية سوف يطرح بالضرورة مسألة العلاقات بين الدولة والـــدين، وأن خطر حدوث نزاع إنما يكمن في ذلك(٩).

والمرحلة التالية أكثر أهمية. ذلك أن صديقه نـــوردو ينتقـــل إلـــى تبنـــي أطروحات الصهيونية ويوفر له اتصالات ثمينة في انجلترا. فيزور هرتسل لندن في أواخر نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٩٥ ويقابل إسرائيل زانجويل. وشأن نوردو وهرتسل، يعد زانجويل شخصية أدبية معروفة إلى أقصى حد في نهاية القـــرن هذه. وهذا الرجل، الذي ولد في عام ١٨٦٤، وهو الابـــن الأكبـــر لمهـــاجرين يهوديين، كان قد نشر سلسلة من الروايات التي تتحدث عن حياة اليهود البؤساء في لندن وعن عالم الجيتّوات مقدّمًا للجمهور البريطاني صورًا غرائبية يشتهيها، الأمر الذي يعود على زانجويل بنجاح أدبي هائل(١٠). وبما أنه مؤيد للصهيونية منذ زمن بعيد، فإنه يُدخل هرتسل إلى حلقة أحباء صهيون البريطانيين، ويقدمه بشكل خاص إلى الماليّ الكبير صمويل مونتاجو، الشـــهير بصـــراعه مـــع آل روتشايلد في داخل الطائفة اليهودية في لندن، وإلى الكولونيل جولدســـميد(١١)، وهو ضابط ولد في عام ١٨٤٦ لأبوين يهوديين تحولا إلى اعتنـــاق المســـيحية وعاد إلى ديانة أسلافه. ومن هذه الإقامة الأولى في بريطانيا العظمى، يستخلص هرتسل الانطباع بوجود تعاطف عام مع الأطروحات الصهيونية، أكان ذلك عند اليهود أم عند غير اليهود ـــ عند هؤلاء الأخيرين بسبب تشرب البروتســـتانتية في أواخر العصر الفيكتوري للتراث التوراتي. ويبدو أن هرتسل قد سمع لأول مرة، خلال مناقشاته مع جولدسميد، بفكرة تحقق النبوءات(١٢).

دولـــة اليهـــود

يهجر هرتسل مشروعه الخاص بتوجيه خطاب علني إلــى آل روتشـــايلد ويحوِّل مخطوطه إلى كتاب، هو كتاب **دولة اليهود**، الذي نشر بالألمانية فـــي فبراير/ شباط ١٨٩٦، والمعروف بالفرنسية وبالانجليزية أكثر تحـــت عنـــوان **الدولة اليهودية**. ويشهد هذا البيان على أن أفكار الرجل الذي يعتبر نفسه بمثابة بارنيل اليهود (والإحالة إلى الزعيم القومي الأيرلندي الشهير) تجري بلورتهـــا بشكل متزايد باطراد مع بقائها وهمية بالأحرى بحسب رأي الفريق الأعظم من معاصريه. وهذا البحث(١٣) يعتبر نفسه "مساهمة في إيجاد حل حديث للمســـألة اليهودية" وينطلق من معاينة أن مما لا طائل من ورائـــه إنكـــار وجـــود هـــذه "المسألة". فهي موجودة منذ تزايد عدد اليهود، ومن هنا "استيراد" المهـــاجرين اليهود لها في بلدان الغرب. ولا يمكن أن يكون هناك من حـــل ســـوى الحـــل القومي، لأن اليهود يشكلون شعبًا. والوسيلة الوحيدة لتحقيق الاســـتيعاب هـــي تعميم الزيجات المختلطة، بيد أن هذا التعميم مستحيل.

أمَّا توطين اليهود في بلدان جديدة بدافعٍ إنساني خيري حيالهم فقـــد منـــيَ بالفشل لأنه لا يجتذب المهاجرين. وما يتوجب لنقل شعب من مكان إلى آخر هو وجود فكرة ـــ قوة، ودولة اليهود هي هذه الفكرة ـــ القوة. وهي تنطوي علـــى إقامة جمعية لليهود(١٤) مهمتها تهيئة الخروج على المستوى العلمي والسياســـي في أوروبا وشركة يهودية(١٥) تتمثل رسالتها في تنفيـــذ هـــذا الخـــروج علـــى المستوى العملي.

وسوف يتوجب اعتبار جمعية اليهود دولة بسبيلها إلى أن تُتكون، فتتفاوض مع الدول حول موضوع الأرض التي يجب منحها للشعب اليهـــودي. وســـوف تكون "مدير أعمال" (*gestor*) هذا الشعب. ومن غير الوارد التخطيط لـــ"تســـلل تدريجي"، فمثل هذا التسلل التدريجي من شأنه أن يقود لا محالة إلى رد فعل من جانب السكان الذي سيشعرون بأنهم مهدَّدون. لذا يتوجب الحصول أوّلاً علـــى سيادة تضمنها الدول الأوروبية؛ أمَّا فيما يتعلق بأولئك الذين يتمتعون بالســـيادة على الأرض التي سوف تقام عليها الدولة اليهودية في المستقبل، فسوف يكـــون بالإمكان منحهم تعويضات اقتصادية مهمة، يتمثل أولها في شراء جزء من الدين

العام. ويمكن تصور منطقتين: فلسطين والأرجنتين. والأولى هي الوطن التاريخي لليهود ولهذا السبب تمثل نقطة احتشاد ذات قوة غير عادية.

إذا ما وافق صاحب الجلالة السلطان على أن يمنحنا فلسطين، فسوف يكون بوسعنا تحمل إصلاح ماليات تركيا. وبالنسبة لأوروبا، سوف نشكل هناك عنصر جدار في وجه آسيا وكذلك موقعًا أماميًا للحضارة في مواجهة البربرية(١٦).

وسوف تكون الدولة اليهودية محايدة وستتمتع الأماكن المقدسة بوضعية مجاوِزةٍ للحدود يضمنها القانون الدولي. أمّا فيما يتعلق بالأرجنتين، بما تملكه من ثروات ملحوظة وبعدم ازدحامها بالسكان، فهي تمثل موضوع اهتمام كبير. وعلى اليهود أن يختاروا، بعد أن يكونوا قد درسوا المعطيات دراسة متأنية.
وأمّا الشركة اليهودية فسوف تأخذ شكل شركة بعقد، على غرار ما وُجِدَ في مختلف عصور الاستيطان.

سوف تهتم بتصفية المصالح المادية لليهود الذين سيترحون وسوف تنظم النشاط الاقتصادي في البلد الجديد.

وكما أشرتُ بالفعل، لا يجب تصور رحيل اليهود على شكل ظاهرة مفاجئة. فسوف يكون تدريجيًا وسيأخذ عقودًا من السنين. والأكثر فقرًا هم الذين سيرحلون أوّلاً وهم الذين سيستصلحون البلد. وبما يتماشى مع خطة معدة سلفًا، سوف يبنون الطرق والجسور وخطوط السكك الحديدية، وسوف ينشئون الخطوط التلغرافية ويحولون الأنهار إلى قنوات صالحة للملاحة ويبنون بيوتهم الخاصة. والحال أن عملهم سوف يخلق تداولاً للسلع. وهذا التداول للسلع سوف يخلق سوقًا وهذا التداول للسلع وهذه السوق سوف يجتذبان مستوطنين جددًا. لأن كل واحد سيأتي بمحض إرادته، مواجهًا ما قد يواجهه من مجازفات ومخاطر. والعمل الذي سوف نبذله في الأرض سوف يزيد من قيمة البلد. وسرعان ما سيدرك اليهود أن هناك حقلاً جديدًا للفعل أمام روحهم الاستثمارية التي كانت إلى ذلك الحين جد مكروهة وموضع احتقار(١٧).

وبعد الأكثر فقرًا، سوف يرحل مثقفو الطبقات المتوسطة، بأعداد كبيرة. وسوف يجرون معهم تدريجيًا كل الطبقات المتوسطة. أمّا الأغنياء فسوف يأتون

في النهاية. ويصف هرتسل السمات الكبرى للانضباط شبه العسكري الضروري لتحقيق هذا المشروع الضخم. فهو بعيد عن أن يندرج في استمرارية الثقافة اليهودية في أوروبا الشرقية لأن اليهودية في رأي الكاتب لا تمثل غير "ديانة آبائنا"، ولأن عمل الحاخامات لن يتجاوز الإطار الضيق للكنيس، مثلما يتحدد مكان العسكريين بالثكنة. وسوف يكون كل واحد حرًّا في إيمانه أو في عدم إيمانه. ولا يمكن للّغة أن تكون العبرية، إذ لا أحد يتكلم هذه اللغة بما يكفي بحيث يمكن استخدامها في شراء تذكرة ركوب للقطار. وهكذا يجهل هرتسل بداية الإحياء اللغوي لهذه اللغة كما يجهل التحول المعاصر لليديّة ــ التي يعتبرها رطانة منحطة تميز عالم الجيتو ــ إلى لغة أدبية. وهو يرتأي مجتمعًا متعدد اللغات وفق نموذج الفيديرالية اللغوية في سويسرا. ولغة الاتصال الأكثر شيوعًا هي التي سوف تفرض نفسها من تلقاء نفسها. وبما أنه مناوئ دومًا للديموقراطية، فإنه يدعو إلى جمهورية أرستقراطية قائمة على الجدارة الفردية، لأن "السياسة يجب أن تتحقق من أعلى في اتجاه الأدنى".

وإذا كان يمكن لكتاب **دولة اليهود** أن يلقى ملاحظات ساخرة كملاحظات زادوك كاهن ــ "الدكتور هرتسل يشبه هذين الزوجين اللذين، في انتظارهما لوليد، يحددان مقدَّمًا أدق أحداث وجوده"(١٨) ــ، فإنه إنما يستند إلى تفسير سوسيولوجي لوضع اليهود في أواخر القرن التاسع عشر، وهو تفسير يعطي لهذا البرنامج ملمحًا واقعيًّا وجذابًا تمامًا: فالمسألة اليهودية هي بالدرجة الأولى مسألة جماهير فقيرة من الشرق الأوروبي تؤدي، بهجرتها إلى الغرب، إلى مولد وتنشيط معاداة السامية. وبنقل هذه الجماهير إلى خارج أوروبا وبتنظيم إحياء لها عن طريق العمل، يمكن إنقاذها من حظها العاثر. وبالمثل، فإن السبب الثاني لمعاداة السامية، في رأي هرتسل، هو رغبة ممثلي الطبقات المتوسطة في الصعود الاجتماعي، ومن هنا نشاطهم الفائق في المجالات الاقتصادية والثقافية: وهذه الطاقة التي تهدد الاستقرار في أوروبا سوف يجري استخدامها بشكل بنَّاء في تكوين الدولة الجديدة. أمَّا فيما يتعلق بالإسرائيليين الفرنسيين وبكبار الأثرياء اليهود، جد المعادين لأطروحات هرتسل، فإن الأخير مستعد لتركهم في أوروبا. فهم قد استبعدوا أنفسهم بأنفسهم من الشعب اليهودي وسوف يكون بالإمكان

استيعابهم بالكامل، إذ لن يكون هناك بعدُ من يهود سواهم، الأمر الذي من شأنه أن يحول دون تأجيج معاداة السامية. وفي فرنسا، يوافق برنار لازار على هذا الشجب للاستيعاب بأي ثمن ويصبح داعية نزعة صهيونية ذات محتوى فوضوي وثوري.

والحال أن هذا الكتاب الذي يمثل دفاعًا مشبوب العاطفة عن قضية النزعة القومية اليهودية كانت له قوة إقناع غير عادية وقد عرف نجاحًا هائلاً في مجال النشر. فسرعان ما جرت ترجمته إلى مختلف اللغات المستخدمة في العالم اليهودي آنذاك. فقد تمكن هرتسل، انطلاقًا من إحباطاته الشخصية، من التعبير عن الإحباط الجماعي لكثير من عناصر الطوائف اليهودية المعرَّضة لمعاداة السامية. وبفضل شهرة كاتبه، ترك هذا البيان أثرًا ما كان يمكن أن يتوافر لكتابات القوميين اليهود الأولى. ومن المؤكد أن الطبقات المتوسطة والعليا في اليهودية الغربية كانت في غالبيتها العظمى مناوئة لهذه الأطروحات التي بدت لها قبل كل شيء على أنها بالقدر نفسه تبريرات جديدة يجري تقديمها لمعاداة السامية (والحق أن معادين مشاهير للسامية إنما يرحبون ترحيبًا متلذذًا بكتاب هرتسل، وأولهم دريمون). بل إن صحيفة هرتسل نفسها تمتنع عن الحديث عن العمل الذي كتبه واحد من أشهر كُتّابها. وبالمقابل، نجد أن يهود الإمبراطورية الروسية ورومانيا يسمعون للمرة الأولى باسم هرتسل، ويرافق شعورٌ شبه مسياني توزيع الكتاب. وعلامة الوصل بين يهود شرقي أوروبا ويهود الغرب إنما تكمن في تلك الكتيبة من الطلاب اليهود المنحدرين من روسيا والذين نجدهم في المدن الجامعية الرئيسية للقارة. فهم يعترفون بالمرجعية الأدبية للصحافي الفييناوي ويجعلون من أنفسهم ناقلين لأفكاره يتولون إذاعتها.

أمّا كوادر جماعة أحباء صهيون الأقدم كناحوم سوكولوف، الذي يقيم آنذاك في بولنده الروسية، فإنهم ينتقدون هذه الكتابات التي تدعو إلى جمهورية تشبه البندقية بأكثر بكثير مما تشبه جمهورية يهودية، وترفض، عبر استخدام تهمة التسلل، برنامجهم الصبور المتمثل في بناء مستوطنات زراعية يهودية في فلسطين. ثم إن مناحم أوسيشكين، أحد مؤسسي جماعة أحبّاء صهيون، لا يجد شيئًا جديدًا في كتاب هرتسل، ويرفض مقابلته خلال رحلة إلى فيينا: فهو يُفضِّلُ

الترقب لمعرفة ما إذا كان الرجل ينوي بالفعل العمل جديًا من أجل القضية(١٩). وبالمقابل، نجد رجل أعمال براجماتيًا، هو وولفسون، وهو يهودي بولندي مقيم في ألمانيا ويقود فيها أحباء صهيون، يقترح عليه التوجه بالخطاب إلى جماهير أوروبا الشرقية. ويرى هرتسل أن الأمر ما يزال مبكرًا جدًا لذلك، إذ لابد من التحضير للخروج. بيد أنه يُقَدِّرُ هذا الرجل الذي سوف يصبح أوفى الأتباع والذي سوف يزوده بمواهب التنظيم التي تعوزه. وفي ڤيينا نفسها، يشرع الصهيونيون الأوائل بالاتصال به، بيد أن العلاقات سرعان ما تتدهور مع بيرنباوم، الذي يشعر بشكل مشروع بأنه قد جرى الاستيلاء على التيمات والأفكار التي كان أول من استحدثها وطوَّرها. غير أن هذا المناضل النكرة الذي يدافع عن صهيونية تتخذ مظهرًا اشتراكيًا لا يملك ثقلاً في مواجهة أشخاص هم من بين الأشخاص الأكثر شهرة في العالم الأدبي والصحافي في ڤيينا وفي أوروبا. وسرعان ما سوف يزيحه هرتسل عن الحركة الصهيونية. وعندئذ سوف يصبح بيرنباوم ناقدًا لرؤية سياسية فقط وسوف يشدد على البُعد الثقافي للهوية اليهودية، الأمر الذي سيقوده، في الأعوام التي تسبق حرب ١٩١٤، إلى تأكيد نفسه بوصفه مدافعًا عن استقلال ذاتي ثقافي يدِّي، ثم إلى التوجه بشكل أكثر تحديدًا إلى الأسس الدينية لتعريف الهوية اليهودية.

ومنذ الأسابيع الأولى التي تعقب نشر كتاب هرتسل، يصبح بوسع هذا الأخير أن يكف عن اعتبار نفسه وحيدًا. وهو يصبح ممثل حركة جماعية تتعرف على نفسها فيه. ويمكنه بدء إجراء مفاوضات مع الدول العظمى، بما يشكل مرحلة أولى لبرنامجه، بينما تفشل محاولة للتقارب مع البارون إدمون دو روتشايلد، قام بها نوردو وزادوك كاهن. إذ يرى البارون أنه لا يمكن الحصول على شيء من السلطان عبد الحميد، وأن أفعال هرتسل خطرة لأنها تثير الشبهات حول وطنية اليهود وتهدد بالإساءة إلى مستوطناته في فلسطين(٢٠).

الاتصالات السياسية الأولى

اجتذبت كتابات هرتسل اهتمام الأشخاص المهتمين اهتمامًا مباشرًا بالمسألة اليهودية. وأول من يقدم إليه عروضًا بالمساعدة هو الكاهن الأنجليكاني للسفارة

البريطانية في ڤيينا، هشلر. ففي استلهامه لفكرة تحقق النبوءات، توصل إلى حساب أن المجيئ الثاني قريب، فهو يرى أنه يجب حساب ١٢٦٠ سنة بين سقوط أورشليم وبعثها: وبما أن تاريخ البدء لا يمكن أن يكون تاريخ تدمير الهيكل على أيدي الرومان، فهو يرى أن من الواجب تحديده باستيلاء الفاتحين المسلمين على المدينة في ٦٣٧ ــ ٦٣٨، ومن هنا لحظة ١٨٩٧ ــ ١٨٩٨ المصيرية. وهو يجد تأكيدًا لتخميناته في نشر كتاب **دولة اليهود**(٢١). كما أن هشلر له دراية بالصهيونية أرقى من دراية هرتسل بها. وبوصفه مرافقًا لأوليفانت، كان قد زار أوديسا في عام ١٨٨٢، حيث التقى بينسكر، وقرأ وعلّق على كتابه **التحرير الذاتي**(٢٢)، الذي لم يكن هرتسل قد قرأه بعد. ومنذ ذلك الحين تابع نشاطات أحبّاء صهيون. ويقترح الكاهن على هرتسل أن يقدمه إلى الأوساط الحاكمة في ألمانيا الإمبراطورية. وفي ٢٣ أبريل/ نيسان ١٨٩٦، يجري استقبال هرتسل بلطف من جانب دوق بادن الكبير، الذي يكتفي بالتحدث في عموميات. بيد أن هرتسل ينجح بذلك في فتح خط اتصال مع حاشية قيصر ألمانيا.

والوسيط الثاني شخصية أكثر إزعاجًا، فهو نيڤلينسكي. وهو أرستقراطي بولندي مطرود من بولنده بعد انتفاضة عام ١٨٦٣ وأصبح مغامرًا سياسيًّا متخصصًا في الشئون العثمانية بفضل نشرة إعلامية تحمل اسم **مراسلات الشرق**، يستخدمها أساسًا في ممارسة الابتزاز(٢٣). وبما أنه مأجور يعمل لحساب عدة بلدان في آن واحد، فإنه يلعب دور الوسيط والمستشار أكان ذلك في المسائل السياسية أم في الترتيبات المالية. وفي مقابل الحصول على مكافأة، قَدَّمَ خدماته للحركة الصهيونية، وهو يبدو مستعدًّا لتقديم هرتسل إلى الأوساط الحاكمة في الدولة العثمانية. ويسعى نيڤلينسكي إلى الحصول على دعم من اليهود فيما يتعلق بالمسألة الأرمنية. وهو مكلف من السلطان بالتوصل إلى حل وسط مع اللجان الأرمنية في أوروبا: فالباب العالي سوف يقبل إدخال إصلاحات لصالح الأرمن بشرط ألاّ تتدخل الدول العظمى في المسألة(٢٤). ويعتقد نيڤلينسكي أن على عبد الحميد أن يتحالف مع المعارضة التي تمثلها جماعة تركيا الفتاة، والتي تحتفظ بعلاقات طيبة مع مختلف الحركات القومية في البلقان

وفي الأناضول، وأن عليه أن ينجز مع هذه الحركات الإصلاحات، دون تدخل من جانب الدول العظمى(٢٥).

وفي يونيو/ حزيران ١٨٩٦، يسافر نيڤلينسكي وهرتسل إلى القسطنطينية. والحال أن هذا الأخير كان قد ارتجل في اللحظة الأخيرة خطة مالية واسعة تهدف إلى شراء الدين العثماني. وهنا يظهر بُعدٌ جوهري في الديبلوماسية الهرتسلية: الخداع: فهو سوف يسمح دومًا بتصور أنه يحوز إمكانات مالية جبارة، بل بتصور أنه يحوز نفوذًا خفيًا على مجمل العالم اليهودي، مستخدمًا، على حد سواء، الواقع — وجود رأس مال مصرفي يهودي كبير، هو من جهة أخرى على خلاف تام معه — ومجمل الأساطير التي تروجها معاداة السامية بين جمهورها غير اليهودي (مؤكدةً بذلك رؤية هذا الجمهور للعالم). بيد أن هرتسل، في القسطنطينية، إنما يتعامل مع مفاوضين رهيبين. فمنذ بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر، يرتاب عبد الحميد في مشاريع اليهود في فلسطين. والأرجح أنه يعرف الملف معرفة أفضل من معرفة هرتسل نفسه به(٢٦).

وفي ١٨ يونيو/ حزيران، يتحادث نيڤلينسكي بمفرده مع السلطان. وبحسب أقوال المغامر — التي يمكن تصديقها هذه المرة — فإننا بإزاء دفع بعدم جواز سماع الدعوى:

قال السلطان: إذا كان السيد هرتسل قريبًا منك قربك مني، فلتنصحه إذًا بألاّ يخطو خطوة أخرى في هذه الحكاية. إنني لن أبيع شبرًا من هذه الأرض؛ إنها لا تخصني، بل تخص شعبي. وقد كسب شعبي هذه الإمبراطورية بجهاده وبإراقة دمه الذي رواها فجعلها خصبة. وسوف نرويها بدمائنا قبل أن ندعه ينتزعها. إن جنود كتيبتيّ القادمتين من سوريا ومن فلسطين قد استشهدوا الواحد تلو الآخر في پليڤنا. ولم يستسلم أي واحد منهم؛ فكلهم فاضت أرواحهم في ساحة المعركة. والإمبراطورية التركية ليست ملكي، بل هي ملك الشعب التركي. فليوفر اليهود ملياراتهم. فعندما تتمزق إمبراطوريتي شذر مذر، سوف يكون بوسعهم نيل فلسطين بلا مقابل. لكن ما سوف يجري تمزيقه هو جثتنا وحدها. لأنني لن أقبل تمزيقًا للجسد الحي(٢٧).

أما فيما يتعلق بنصيحة نيڤلينسكي والخاصة بالتجاوب مع مطلب جماعة تركيا الفتاة واستعادة دستور عام ١٨٧٦، فإن عبد الحميد يملك ردًا مُحذِّرًا: فبحسب علمه، لم يحل دستور پولنده دون اقتسام هذا البلد.

لا ينجح هرتسل إذًا في كسب اهتمام الحكومة العثمانية بمشاريعه. على العكس، فهذه الحكومة إنما تسعى إلى استخدامه هو. فمهندس سياسة السلطان العربية، سكرتيره الثاني الشهير عزت بك، يقترح هجرة يهودية إلى ولايات أخرى غير فلسطين. وهو إذ يقترح على هرتسل الاكتتاب في قرضٍ يصل قدره إلى مليوني جنيه عثماني، يتم ضمانه بفنارات الدولة العثمانية، والبرهنة على نفوذه في أوروبا بالتحرك فيما يتصل بالمسألة الأرمنية، إنما يضعه على محك الاختبار. وفي اللحظة المباشرة، يجري منحه ميدالية عثمانية سوف تسمح له بإثبات الحالة الممتازة لعلاقاته بالباب العالي.

بيد أن نجاح هرتسل الحقيقي في هذه المغامرة الأسطنبولية هو أنه أفلح، وهو مجرد فرد عادي غير مفوض من أحد، في إجراء مفاوضات مع حكومة. ومراهنًا على استغلال هذا الوضع، يسارع إلى الذهاب إلى لندن سعيًا إلى جمع القرض الذي طلبه العثمانيون وإلى عرض وساطته بين الحكومة العثمانية والأرمن. وهؤلاء الأخيرون يرفضون عروض الصحافي الڤييناوي: إذ يرون في هذه العروض موالسة بين اليهود والعثمانيين — ففي مقابل دولة يهودية في فلسطين، سوف تتخلى الدول العظمى عن المشاريع الخاصة بإدخال إصلاحات لصالح الأرمن في الأناضول الشرقية(٢٨).

والإحباط الآخر الأكثر جسامة بكثير هو أن هرتسل يُقابَلُ ببرود أكثر بكثير من جانب الوجهاء الانجليز — اليهود. فمشروعه لابد له من أن يمر عبر فعل مشترك من جانب كبار الأثرياء اليهود، وهو أمر من قبيل المستحيل. ولابد له من أن يحصل أولاً على موافقة إدمون دو روتشايلد. وهو يقابل هذا الأخير في باريس في ١٨ يوليو/ تموز، بصحبة نرسيس ليڤين. ويستعيد البارون اعتراضاته: لا يمكن الثقة بالسلطات العثمانية، وهو لا يريد تحمل المسئولية عن إطلاق قطعان من المتسولين اليهود على فلسطين. فالأولوية يجب أن تُعطى للاستيطان ذي

الأهداف الإنسانية: "لا يجب للأعين أن تكون أضخم من البطون"(٢٩).

ويضع اللقاء نهاية للأمل الذي عقده هرتسل على رأس المـــال المصـــرفي اليهودي الكبير. بيد أن إشراقة تستولي عليه، منذ بعض الوقـــت. فالتظـــاهرات الأولى التي أعقبت نشر بيانه قد كشفت له أثر أفكاره في الأوساط الشعبية. ففي لندن، كان مناضل صهيوني، هو چاكوب دو هاس، قد حثـــه علـــى مخاطبـــة مهاجرين يهود في العاصمة الانجليزية. وكان قد قوبل بحماسة غير عادية (١٣ يوليو/ تموز ١٨٩٦). وبعد يومين، يكتب في يومياته:

يوم الأحد الماضي، على منصة نادي العمال، أحسست بمشاعر غريبة. لقد أبصرت وسمعت مولد أسطورتي. إن الشعب عاطفي؛ والجماهير لا ترى رؤية جد واضحة. وأنـــا أعتقد، الآن أيضًا، أنها لا تملك صورة جد واضحة عني. إن ضبابة خفيفة تبدأ في الارتفاع حولي، ويمكن أن تصبح سحابة كثيفة سأمشي فيها. إلاّ أنها [هذه الجماهير] حـــتى وإن كانت لا تميز بعدُ بشكل جيد جدًّا ملامحي، فإنها إنما تشعر مع ذلك بأنني أريد لها الخـــير وبأنني نصير الفقراء. والحق أنها تشعر نحو نَصَّاب أو غشاش بالحب نفسه الذي تشعر بـــه نحوي، أنا الذي لن أخدعها.

ومن الوارد أنني أرصد للتوِّ الموضوع الأكثر إثارة للاهتمام في هذا الكتاب ـــ مولد أسطورتي. وبينما أنصت للإطراءات الحماسية الصادرية عن مريديّ، فإنني أعاهد نفسي، بيني وبين نفسي، بأن أصبح أكثر فأكثر استحقاقًا لثقتهم ولمحبتهم(٣٠).

وكان هرتسل قد اعتمد چاكوب دو هاس ممثلاً له في بريطانيا العظمـــى. وبما أن البارون يخاف من الجماهير، فإنه سوف يتجه إلى مخاطبتها. وفي ١٩ يوليو/ تموز، يبرق إلى دو هاس بأن "يبدأ في تنظيم الجماهير".

مؤتمرا بال الأوَّلان

لا يمكن فهم كفاءة الفعل العام الذي يضطلع به هرتسل إلاّ إذا أخذنا بعـــين الاعتبار مواهبه الخطابية وخاصة ما يتمتع به من كاريزمية حقيقيـــة كمحـــرِّك للناس، ترتبط بمظهر جسماني يمنحه، اعتبارًا من عام ١٨٩٧، هيئة ملكية. فهو رجل شرقي الملامح، بالغ التهذيب، ذو لحية أشورية، يلفت انتباه معاصـــريه.

والحال أن ستيفان زفايج قد رسم صورة شهيرة للرجل الذي يقابله للمرة الأولى في عام ١٩٠١ في مكتبه بصحيفة نوييه فرييه بريسّه:

> نهض هرتسل ليحييني، وسرعان ما استشعرت، بشكل غريزي، إحساسًا بأن هناك ما هو حقيقي في كنية "ملك صهيون" التي أُطلقت عليه من باب السخرية: فهو يتمتع فعلاً بمظهر ملكي بجبينه السامق المكشوف، وملامحه الصافية ولحيته الطويلة التي تشبه لحية كاهن، وذات اللون الأسود الذي يكاد يكون ضاربًا إلى الزرقة، وعينيه الحزينتين بلونهما الأزرق الداكن. والحال أن إيماءاته التي تتميز بالرحابة، والتي قد تكون مسرحيةً بعض الشيء، ليست مصطنعة لديه، فهي مشروطة بنبالة طبيعية، وما كانت لتكون هناك حاجة إلى هذه الجزئية لكي يبدو لي مهيبًا. فحتى في مكتبه العتيق حيث تتراكم الأوراق، في غرفة التحرير تلك الضيقة، بنافذتها الوحيدة، يخلق [هرتسل] الانطباع بأنه شيخ من مشايخ البدو في الصحراء؛ فمن شأن بُرنس أبيض فضفاض أن يكون مناسبًا له بشكل طبيعي تمامًا شأن جاكتته السوداء المفصلة بعناية، والتي تتماشى من جميع النواحي مع طراز باريسي(٣١).

واعتبارًا من صيف عام ١٨٩٦، ينشئ هرتسل شبكة مراسلين في المدن الأوروبية الرئيسية. وفي مستهل العام التالي، يتحدث عن فكرة عقد "اجتماع عام للصهيونيين". وفي مارس/ آذار ١٨٩٧، يحصل على موافقة أحبَّاء صهيون في برلين، بالرغم من أن هؤلاء الأخيرين يفكرون أساسًا في تشجيع التسلل اليهودي إلى فلسطين بالتعاون مع جمعية الاستيطان اليهودي التي تتجه، بعد موت البارون دو هيرش، إلى الاستيطان لأهداف إنسانية خيرية في فلسطين. وتتمثل المسألة بشكل أخص في شراء أملاك سُرسُق بمبلغ ٧ مليون فرنك(٣٢). وتفكر جماعة برلين في تنظيم جمع للمبلغ لأجل هذا الهدف.

وفي تلك الأثناء، يواصل هرتسل رصد تطور المسألة الشرقية. فالمسائل الأرمنية قد تحولت إلى مذبحة وهو لا يستطيع بعدُ التحرك في هذا المجال. وفي السنوات التالية نجد أن حبه المعلن للأتراك، والمقصود من ورائه الفوز بحسن التفات الباب العالي إليه، إنما يعود عليه بانتقادات من جانب الأوساط اليهودية الناشطة في حقل المساعدات الإنسانية: فزادوك كاهن(٣٣) ينضم إلى

الاحتجاجات على المذابح، الأمر الذي يؤدي إلى استياء الدولة العثمانية وإلى انزعاج يهود تركيا. والحال أن الحرب اليونانية ـ العثمانية قد أيقظت من جديد شعور التضامن الإسلامي، وشبح نزعة الجامعة الإسلامية يبدأ من جديد في إزعاج الأوساط الاستعمارية الأوروبية.

وفي مارس/ آذار ١٨٩٧، يلتقي هرتسل القومي المصري الشاب مصطفى كامل، الذي يخلف لديه انطباعًا قويًا: فالمصري يسعى إلى الحصول على دعم الصحافة الغربية، ومن هنا زيارته لهرتسل. والواقع أن تلقي الصحافة الألمانية لحملة القومي المصري موزَّعٌ: فمن جهة، يجد رهاب الانجليز المتصاعد في الرايخ الثاني حجة جديدة ضد بريطانيا العظمى؛ ومن الجهة الأخرى، تستثير فرانكوفونية الزعيم القومي وحبه لفرنسا (التاكتيكي في جانب منه) حركة عداء[٣٤]. ويأخذ هرتسل في اعتباره العامل القومي المصري: فإذا ما اضطر البريطانيون إلى الرحيل عن وادي النيل، فسوف يضطرون إلى البحث عن وسيلة للاستعاضة عن قناة السويس في الطريق إلى الهند، ومن شأن فلسطين يهودية وحديثة أن تكون جد مفيدة لهم عبر إنشاء خط للسكك الحديدية بين يافا والخليج الفارسي[٣٥]. وبما أن الصحافي الڤييناوي مراقب محنك للسياسة الدولية، فإنه يعرف أن لندن قلقة من المشاريع الألمانية الخاصة بسكة حديد بغداد والتي ما تزال في مرحلة الاختمار (في عام ١٨٩٩، يجري فرض حماية بريطانية على الكويت سعيًا إلى السيطرة على مداخل بلاد الرافدين من جهة الخليج) وأن بعض الأوساط الانجليزية تدعم مشروع خط للسكك الحديدية، يُعْهَدُ به إلى شركة بريطانية، بين الساحل السوري وبغداد[٣٦]. ونشوب الحرب اليونانية ـ العثمانية يزعج هرتسل: فمن شأن انتصار عثماني مرجح، يترتب عليه قيام اليونانيين بدفع تعويضات للعثمانيين، أن يقلل من تبعية العثمانيين المالية (الواقع أن الدول العظمى سوف تحرم العثمانيين من مكاسب نجاحاتهم العسكرية). وفي اللحظة المباشرة، ينقل إلى السفير العثماني في ڤيينا شيكًا قيمته ألف فرنك أرسله زادوك كاهن لصالح الجرحى الأتراك[٣٧].

ويجري توجيه دعوات إلى مؤتمر كان من المقرر أن ينعقد في ٢٥ أغسطس/ آب في ميونخ. والهدف مرة أخرى هو مخاطبة ممثلي يهود الغرب.

بيد أن الدعوة إنما تقابل بشلال من الرفض والانشقاقات، لكن العداوة السافرة التي يبديها اليهود المستوعَبون ــ عبر رفض الولاء المزدوج ــ واليهود الأرثوذكسيون ــ لبواعث دينية ــ إنما تضفي على الحدث المتوقع شهرة كان من غير الممكن لهرتسل أن يتوصل إليها بإمكاناته الخاصة. وهو يرد على هذه المعارضة المستندة إلى الوطنية والدين بتدشينه، على نفقته الخاصة وعلى نفقة عائلته، صحيفة أسبوعية صهيونية، هي صحيفة دي ڤيلت (العالم)، التي يصدر عددها الأول في يونيو/ حزيران. وبما أن الطائفة اليهودية في ميونخ تحتج على عقد المؤتمر في هذه المدينة، فإنه يقرر نقل مكان انعقاده إلى بال. وهو يخاطب يهود روسيا ويتوصل، عبر إقناعهم، إلى الفوز بتمثيلهم في المؤتمر.

ومن ثم يبدأ المؤتمر الصهيوني الأول أعماله في بال في ٢٩ أغسطس/ آب. والحال أن هرتسل ونوردو وزانجويل هم الشخصيات الأشهر (امتنع زادوك كاهن عن الحضور لكنه أرسل رسالة مؤازرة). وحضر القادة الرئيسيون لأحبّاء صهيون: ليليانبلوم، أوسيشكين، سوكولوف، أحاد هاعام (بصفة مراقب). ويتباين عدد المندوبين والمراقبين بحسب الجلسات من ١٩٩ إلى ٢٤٦ (بعض المندوبين الخائفين من البوليس الروس طلبوا صون غفليتهم). ويهيمن اليهود الروس: فهم ٦٣ قدموا مباشرة من الإمبراطورية القيصرية بالإضافة إلى عدد معين حضروا مع الوفود الأخرى العشرين. وتنتمي أغلبية المندوبين إلى الطبقات المتوسطة: صغار أرباب العمل، المهن الحرة، الأدباء، الطلاب. ويتكشف هرتسل عن محرِّك رهيب للاجتماع وذلك بفضل سنوات من متابعة الأعراف البرلمانية الفرنسية. وهو ينجح في فرض مظهر معين أكان ذلك في هيئة الثياب أم في المناقشات. والخطبة الأهم هي خطبة نوردو، الذي يرسم صورة لحالة العالم اليهودي.

وتتصل المناقشة الحقيقية بالتعارض بين أطروحات هرتسل ــ أو الصهيونية السياسية ــ، التي تعطي الأولوية للحصول على ضمانة قانون عام قبل أي استقرار في فلسطين، وأطروحات أحبَّاء صهيون ــ أو الصهيونية العملية ــ، القائمة على التسلل التدريجي. وهؤلاء وأولئك مدركون لضرورة مراعاة الحساسيات العثمانية، ويجري استبعاد مصطلح الدولة من القرارات

النهائية، التي تعد نتيجة توفيق بين الآراء(٣٨):

تتطلع الصهيونية إلى أن يتم، في فلسطين، لأجل الشعب اليهودي، خلق مقام يضمنه القانون العام. وسعيًا إلى هذا الهدف، يرى المؤتمر استخدام السبل التالية:

١. التشجيع، بشكل ملائم، على استقرار مزارعين وحرفيين وتجار يهود في فلسطين.

٢. تنظيم وتوحيد جميع الطوائف اليهودية بفضل مؤسسات مناسبة محلية وعامة، وذلك بما يتماشى مع قوانين كل بلد تحيا فيه.

٣. تعزيز الشعور اليهودي والوعي القومي.

٤. اتخاذ تحركات تحضيرية بهدف الحصول من الحكومات على الموافقة الضرورية لتحقيق هدف الصهيونية.

وهنا، فإن مصطلح "المقام" له معنى "محل الإقامة" جد العادي، كما يثبت ذلك تصحيح بالفرنسية قدَّمه هرتسل ونوردو إلى الصحافة الباريسية على أثر الترجمة الخاطئة التي قدمتها وكالة هاڤاس:

النص الحقيقي للبرنامج الصهيوني، الذي تم اعتماده بالصوت المسموع، هو ما يلي:

تهدف الصهيونية إلى أن تخلق للشعب اليهودي في فلسطين محل إقامة [منزلاً] يضمنه القانون العام(٣٩).

وتنبع أهمية المؤتمر أوّلاً من أنه قد انعقد، وإن كانت تنبع أيضًا من واقع أنه يزوّدُ الحركة بمنظمة: فالمؤتمر يصبح الجهاز الأعلى، وسوف تهتم لجنة عمل من ثلاثة وعشرين عضوًا منتخبًا بالشئون السياسية الجارية. وسيتم الانتماء إلى المنظمة الصهيونية عن طريق دفع اشتراك سوف يحمل الاسم الرمزي "شيكل" (اسم عملة عبرانية قديمة). ويجري تدشين مشروع لإنشاء بنك صهيوني مهمته إعداد تمويل الاستيطان:

مقترحات

هذه هي المقترحات التي قدمت في مؤتمر بال لأجل خلق رأس مال قومي:

I. ـــ لأجل خلق صندوق اجتماعي إسرائيلي سوف يجري جمع تبرعات واكتتابات مؤقتة من يهود العالم بأسره؛

II. ــ سوف يجري استخدام ثلثي رأس المال في شراء أراض وسيجري تخصيص ثلث لزراعة هذه الأراضي؛

III. ــ لن يجوز البتة بيع هذه الأراضي لأجانب ولا حتى لأفراد إسرائيليين وإنما لن يكون ممكنا سوى تأجيرها لفترة لا تتجاوز تسعة وأربعين عامًا؛

IV. ــ سوف يتعين أن يبقى الصندوق الاجتماعي بلا استخدام إلى أن يبلغ رقم ٢٥٠ مليونًا من الفرنكات؛

V. ــ إلاّ أنه قبل أن يجري استخدامٌ ما لجانبٍ من هذا المبلغ، سوف يتعين تقديم ضمان سداد على خمسين عامًا؛

VI. ــ قبل أن يتسنى اعتماد أي مبلغ يتجاوز الفائدة السنوية لرأس المال، سوف يتعين، قدر الإمكان، الحصول على موافقة المعنيين؛

VII. ــ سوف يكون من الضروري توافر ثلثي الأصوات، إذا كان الأمر يتعلق بنفقات تتجاوز نصف رأس المال؛

VIII. ــ سوف تكون الإدارة حرة في التصرف في المبالغ التي لا تتجاوز الفائدة السنوية؛

IX. ــ جميع النفقات سوف تتم الموافقة عليها، إن أمكن، قبل سنة، من جانب الشعب اليهودي أو مندوبيه. وفي الحالات جد الملحة وحدها سيكون بوسع الإدارة إنفاق نفقات طارئة، إلاّ أن على الإدارة أن تقدم تقريرًا بذلك إلى اجتماعٍ لاحق؛

X. ــ لن يعين مؤتمر ١٨٩٧ غير إدارة مؤقتة. وسوف ينتخب المؤتمر القادم لمدة عشر سنوات المديرين الذين سوف يتعين عليهم صياغة اللوائح؛

XI. ــ كل تغيير لهذه الأحكام سوف تتوجب إجازته في اجتماع موسَّع مع وجوب تأييد أغلبية الثلثين للمشروع؛

XII. ــ سوف يتعين الإعلان عن استفتاء ثلاث مرات، مع فاصل مدته عشر سنوات بين كل إعلان وآخر يتوجب نشره في العالم برمته(٤٠).

وهكذا تظهر بالفعل فكرة ملكية الشعب اليهودي التي لا يمكن حرمانه منها، والتي سوف تصبح جد جوهرية في المشروع الصهيوني في فلسطين. ومرة أخرى، نجد أن طلب أموال من كبار الأثرياء اليهود سوف يتبين أنه لا طائل من ورائه. إذ سوف يتوجب الاتجاه إلى اكتتاب شعبي. والمنظمة الصهيونية

والبنك هما تجسيد للمؤسستين اللتين ارتآهما كتاب **دولة اليهود**(٤١).

ويصبح بوسع هرتسل، الذي جرى الاعتراف به بوصفه زعيم الحركة، أن يسجل هذه الملاحظة النبوئية في يومياته:

> إذا كان بوسعي اختصار محصلة مؤتمر بال في كلمة ـــ سأحترز من قولها علنًا ـــ فسوف أقول ما يلي:
>
> في بال، أسَّستُ الدولة اليهودية. ولو قلت هذا اليوم بصوت عال، فسوف أفجر ضحكًا عامًا. بيد أن الجميع سيفهمون ذلك بعد خمس سنوات من الآن ربما، وبعد خمسين عامًا من الآن بالتأكيد. فالدولة إنما تتأسس أساسًا على إرادة شعب، بل إرادة فرد قوي بما يكفي (لويس الرابع عشر: "الدولة هي أنا"(٤٢)). والأرض ليست سوى ركيزتها الملموسة؛ فالدولة، حتى عندما تملك أرضًا، إنما تحتفظ دومًا بطابع مجرد. ودولة الفاتيكان موجودة، حتى دون أرض، وإلاّ لما أصبح البابا صاحب سيادة.
>
> ومن ثم فقد خلقتُ في بال هذا الشيء المجرد، ومن ثم غير المرئي بالنسبة لغالبية الناس؛ وقد فعلتُ هذا، في الواقع، بإمكانات هينة. فقد دفعتُ الناس، شيئًا فشيئًا، إلى حالة ذهنية مؤاتية للدولة، وغرست فيهم الشعور بأنهم يشكلون جمعيتها الوطنية(٤٣).

والحال أن الصحافة الدولية، خاصة وكالات الأنباء الكبرى، قد غطت الحدث، فأعطت له صدى عظيمًا. وفي الأشهر التالية، في الصحافة اليهودية وغير اليهودية في أوروبا، دار نقاش نشيط حول مفهوم الشعب اليهودي. وفي يوليو/ تموز ١٨٩٧، حتى قبل انعقاد المؤتمر الأول، كان اجتماع للحاخامات الألمان قد شجب الصهيونية: فالجهود المبذولة لتكوين دولة يهودية في فلسطين إنما تتناقض مع الوعود المسيانية المتضمنة في الأسفار المقدسة؛ واليهودية تطلب من أعضائها أن يتفانوا في خدمة الوطن الذي ينتمون إليه؛ والجهود المبذولة في الإستيطان الزراعي في فلسطين لا يمكن قبولها إلاّ بشرط عدم امتدادها إلى تكوين دولة قومية(٤٤).

وكان الصهيونيون الروس قد اقتيدوا إلى التعرف على أنفسهم في عمل هرتسل. والحال أن شكوكهم لم تتبدد، بيد أن أصداء مؤتمر بال قد حركت شعورًا شبه مسياني في صفوف فريق من اليهود الروس وتشكلت عبادة حقيقية

لشخصية هرتسل على حسابهم[٤٥]. وبالمقابل، بدا أحاد هاعام ناقـدًا لا يـرحم لأفكار الزعيم الڤييناوي: فحتى إذا نجح هرتسل في اجتياز العقبات الهائلة التي تعترض سبيله، فإنه يبقى مع ذلك أن فريقًا ضخمًا من الأمة اليهودية لن يكون بوسعه أو لن يريد الذهاب إلى فلسطين، ومن هنا ضرورة البحث عن صهيونية روحية وليست سياسية. ويواصل زادوك كاهن إبداء تعاطفه مع هرتسـل مـع انتقاده غياب مراعاة العامل الديني: فإذا ما أقيمت دولة يهودية، فإن هذا سوف يعيد بالكامل طرح مسألة العلاقة بين الديانة اليهودية والدولة، إذ سوف يتعين، لا محالة، طرح مشكلة الاستعادة الكاملة للشريعة اليهودية، والتي تسمح الحيـاة في الدياسپورا بتجنبها وذلك بفضل المثل القائل بأن "قانون المملكة هـو الـذي يحدد القانون"[٤٦]. ويأسف الحاخام الأكبر لموقـف المناضـلين الصـهيونيين العدواني حيال معارضيهم ويرى أن رأي أولئك الذين يخشون من أن تصـبح الصهيونية سلاحًا قد يستخدمه أعداء السامية إنما يعد رأيًا جديرًا بالمراعاة، بيد أنه لا ينشر هذا الجزء من تعليقه[٤٧]. وتظل علاقته قوية مع منظم المـؤتمر، الذي يرى أن مما لا غنى عنه الاحتفاظ بآصرة مع هذه الشخصية جد المـؤثرة في أوساط إيكا.

وفي تلك الأثناء، يحاول هرتسل، بكثير من الصعوبات، بناء هياكل مستقرة لحركته مع مواصلته كسب عيشه عبر عمل مُجْهِد كصحافي وكاتب مسرحيات. وتتشكل قيادة صهيونية، تتألف من لجنة عمل دائمة صغيرة تلتف حول هرتسل في ڤيينا ولجنة عمل كبيرة نجد أن تكوينها يعكس بهذه الدرجة أو تلك من الدقة السمات الكبرى للسكان اليهود الأوروبيين، وهي بالأحرى لجنة مكلَّفة بتمثيـل المنظمة الصهيونية في كل بلد من البلدان المعنية.

والحاصل أن عقد مؤتمر بال الثاني، في العام التالي، في أواخر أغسطس/ آب ١٨٩٨، إنما يوضح التقدم في المنظمة: ٣٤٩ مندوبًا ـــ الضـعف تقريبًـا قياسًا إلى المؤتمر الأول ـــ، مع أغلبية تمثلها روسيا، وإن كان قـد حضـرت أيضًا وفود من القارتين الأميركيتين ومن أفريقيا الجنوبيـة. وللمـرة الأولـى، تحصل النساء على حق التصويت، بما يشكل نجاحًا باهرًا للنزعة النسوية (في ذلك العصر، لا يوجد اقتراع نسوي في الديموقراطيات الكبرى). وهذه قطيعـة

جديدة مع اليهودية الأرثوذكسية. وهناك تمثيل للصحافة الدولية وحضور مختار منتشر في المقصورات. وبحسب صحافي **الطان**: "يكاد المرء يظن أنه في الكوميدي فرانسيز أو في الپاليه ـ بوربون في أيام الحفلات الكبرى"(٤٩).

ويفند هرتسل، في خطبته الافتتاحية، تهمة أنه يريد إقامة نوع من التحالف الدولي؛ فالمقصود هو جذب اهتمام الرأي العام إلى طموحات الأمة اليهودية سعيًا إلى التوصل إلى استعادة الجنسية اليهودية. وهو يهاجم الحاخامات خصوم الصهيونية والذين، بالرغم من تردد اسم صهيون على شفاههم، يحاربون الفكرة الصهيونية، فاعلين ذلك بأساليب غادرة. وهو يتحدث عن الإحياء المعنوي والمادي للشعب اليهودي بفضل الصهيونية.

وكما في السنة الماضية، يقدم نوردو عرضًا لحالة العالم اليهودي مشددًا بشكل خاص على معاداة السامية في فرنسا. وهو يهاجم قوة الخصوم اليهود للصهيونية في حين أن هذه الأخيرة هي العنصر الحي الوحيد في إسرائيل. ويشدِّد الخطباء الآخرون على التيمات نفسها. ويرى ماندلشتام، وهو أستاذ بجامعة كييف وأحد زعماء الصهيونية الروسية، أن الشعب اليهودي كائن عليل:

> ما يريده الصهيونيون هو إنقاذ اليهود من حيث كونهم أمة. وما تفتقر إليه هذه الأمة هو تراب، بلد، أرض. وهذه الأرض موجودة من جهة أخرى؛ وجميع الشعوب تملكها فيما عدا الشعب اليهودي مع أنه الوحيد الذي يجب أن يفكر فيها، إنها فلسطين، بلد إسرائيل، وطن اليهود القديم. ونحن لا نريد فتحها بالحديد. لكننا نطمح إلى إحيائها بإحياء أنفسنا فيها، عبر عملنا، بعرق جبيننا. وقد كانت تركيا دائمًا عاطفة على الإسرائيليين الذين، فضلاً عن ذلك، أبدوا عرفانهم النزيه، في جميع المناسبات. ويومًا ما، ستدرك نخبة المجتمع المسيحي، أيضًا، أن من صالح المسيحيين السماح لليهود باستعادة جنسيتهم على أرض أسلافهم؛ وعندئذ فسوف تسارع إلى مساعدتنا. ومن المؤكد أن مهمتنا صعبة. ونحن لا نريد إنجازها بين عشية وضحاها. فنحن صابرون ونشعر بالامتنان للشعوب لأنها علمتنا الصبر. وما يجب علينا عمله هو بذل مجهود منهجي.

ويتوجب على هذا المجهود المنهجي أن يقود إلى إحياء قومي للشعب اليهودي عن طريق العمل، خاصة الزراعة. ويتلو موتسكين تقريرًا يبين أن

فلسطين بلد قابل تمامًا لاستيطانه. والرهان، بالنسبة لأحبَّاء صهيون القدامى، هو التوصل إلى مواصلة عمل استيطان فلسطين مع انصياعهم من الناحية الشكلية لمذهب الصهيونية السياسية. ويشير وولفسون إلى وجوه التقدم في تحقيق البنك الاستيطاني اليهودي. ويوقف هرتسل المناقشات عند تناول التفاصيل الدقيقة عن قوة الحركة وإمكاناتها المالية. فهو بحاجة كبرى إلى إخفاء الأرقام الفعلية كيما يتمكن من ممارسة هذا الخداع الذي هو جوهر دبلوماسيته. وهذا الموقف يستثير استياء الروس، الذين يجدون أنهم يعاملون بشكل أبوي جدًّا. ثم إن العناصر الاشتراكية الأولى (وبينها الفرنسي برنار لازار، الذي قوبل بترحيب كبير بسبب دوره في قضية دريفوس، والروسي سيركين) إنما تنتقد بقوة مشروع البنك بحد ذاته، والذي يبدو لها أنه يعبر عن الجوهر البورچوازي للحركة.

وينفض المؤتمر بإقرار مشروع البنك وقيادة هرتسل. وبالرغم من اعتراض أنصار حرية الشعوب، يجري إرسال رسالة شكر إلى السلطان (مضطهد الأرمن) وإلى قيصر روسيا. وإذا كان جوهر العمل "سياسيًا"، أي، في هذه المرحلة، دبلوماسيًا بالدرجة الأولى، فإن تيمات الإحياء عن طريق العمل كانت أعلى صوتًا.

هرتسل وألمانيا الإمبراطورية

يخرج وضع هرتسل من المؤتمر معزَّزًا بدرجة ملحوظة. فيمكنه الآن تأكيد مصداقيته على المستوى الدولي. فدوق بادن الأكبر، وقد تأثر بالتطورات الأخيرة، يقرر تقديم هرتسل إلى الإمبراطور ڤلهلم الثاني بمناسبة رحلته إلى الدولة العثمانية، والتي تشكل لحظة مهمة في صياغة السياسية العالمية لألمانيا الإمبراطورية. وهو يحصل على دعم من الكونت فيليپ ڤون إيولينبورج، وهو رجل غير اتباعي صار صاحب حظوة لدى الإمبراطور. والآن يصبح رئيس المنظمة الصهيونية معروفًا بشكل جيد في الأوساط الحاكمة ويلتقي عدة وزراء. وهو يشدد على واقع أن الصهيونية سوف يكون بوسعها صرف اليهود عن مذهب الاشتراكية الخطير[٤٩]. كما يقدم حججًا جديدة: فعودة اليهود، أشباه

الآسيويين هؤلاء، تحت قيادة عقول حديثة، سوف تعني وصول التمدن والنظام إلى الشرق ومن شأنها أن تشكل حماية للمسيحيين الشرقيين. وسوف يكون بوسع اليهود أن يكونوا بناة خط السكك الحديدية العظيم ذلك بين البحر المتوسط والخليج والذي يتزايد الحديث عنه باطراد(٥٠). وبما أن اليهود الفرنسيين قد أصبحوا حلفاء للاشتراكيين ضمن إطار قضية دريفوس، فلم يعد بالإمكان الاعتماد عليهم. فهم سوف يصبحون العنصر القائد للفوضوية الأوروبية (وهذه تهمة خطيرة غداة اغتيال إليزابيث، إمبراطورة النمسا)(٥١). ويرتأي هرتسل وإيولينبورج حماية ألمانية على فلسطين يهودية تحفظ السيادة العثمانية عليها. وسوف يجري فرض هذه الحماية كأمر واقع على الدول العظمى الأخرى، خاصة فرنسا(٥٢). والهدف هو جعل الصهيونية إحدى الأدوات الرئيسية للسياسة الألمانية في المسألة الشرقية وذلك بفضل تكوين شركة صهيونية تحصل على فلسطين كامتياز، على غرار الشركات القديمة في الهند وشركة الكونغو البلچيكية الأحدث.

ويصل هرتسل إلى القسطنطينية في ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول على رأس وفد صهيوني صغير. وفي اليوم التالي، يستقبله الإمبراطور فيشرح برنامجه السياسي. ويهتم الإمبراطور بالأحرى بفكرة التخلص من المرابين اليهود الذين يسيئون معاملة السكان الريفيين، خاصة في ولاية هيسّين، ومن العنصر السامي في الحزب الاشتراكي ــ الديموقراطي، وهو تنظيم سياسي يزعجه تقدمه المتماسك بشكل متزايد باطراد. وتتفرع المناقشة إلى قضية دريفوس: ويقتنع قيصر ألمانيا ببراءته ويشكو من طيش القادة السياسيين والعسكريين الفرنسيين(٥٣). ويَعِدُ ڤلهلم الثاني بتقديم مساندته عند الحديث مع السلطات العثمانية. ومما لا جدال فيه أنه مخلص في وعده، بيد أن المسئولين عن سياسة ألمانيا الخارجية يحذرونه من أن عبد الحميد مناوئ للصهيونية، وهو يدرك ذلك بنفسه عندما يتناول المسألة في اجتماعه مع السلطان. فهناك رفض بات وحازم(٥٤).

ويجهل هرتسل هذا التطور الأخير عندما يزور فلسطين لأول مرة، ضمن إطار الرحلة الإمبراطورية. ومع أنه يسعى إلى حجب الأنظار عنه سعيًا إلى

عدم استثارة سخط العثمانيين، إلاّ أن المستوطنين اليهود يرحبون به بحماسة. ومما له دلالته أن يوميات رحلته لا تسجل البتة وجود أحد من الأهالي، و، عندما يتحدث عن القدس، فإن ذلك إنما لكي يحلم أساسًا ببناء مدينة جديدة مريحة وجيدة التهوية تتمتع بشبكة صرف صحي بعد هدم العشوائيات القذرة القائمة (فيما عدا الأماكن المقدسة كما هو واضح)(٥٥). وهو يلتقي الإمبراطور لوقت قصير، في ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٩٨، حيث يوجه الإمبراطور إليه كلمات طيبة ويمتنع عن تقديم تعهدات حقيقية. وسوف يحتاج إلى عدة أسابيع لكي يفهم أنه بإزاء دفع بعدم جواز سماع الدعوى. على أنه يوهم الرأي العام بأن رحلته إلى فلسطين قد آتت نتائج سياسية محدَّدة. وهو يشدِّد في كتاباته إلى مراسليه الألمان على خطورة قيام الحكومة الفرنسية باستخدام الصهيونية الفرنسية في تعزيز نفوذ باريس في الدولة العثمانية، وهو نفوذ أضعفت منه رحلةُ الإمبراطور. ويدعمه هشلر في هذا التحرك(٥٦).

ثم إن هرتسل، وهو ناشط في صميمه، إنما يفرض على زملائه، بالرغم من هزال الاكتتاب (لم يسمح النجاح الشعبي بالحصول على المبالغ المأمولة)، إنشاء الصندوق الاستيطاني اليهودي، المسجل في لندن لدى بنك انجلترا في ٢٠ مارس/ آذار ١٨٩٩. وموت نيڤلينسكي في أبريل/ نيسان من العام نفسه إنما يحرمه من علاقاته بالسلطة العثمانية. وهو يحاول التفاوض من خلال كبار موظفين عثمانيين موجودين في أوروبا الغربية، بيد أن هؤلاء الأخيرين إنما يسعون بالأخص إلى انتزاع المال منه في مقابل كلام معسول. ثم إن نشاط هرتسل الدبلوماسي وتورطاته مع السلطات القائمة إنما تؤدي إلى القطيعة مع برنار لازار، الذي يتهم الحركة بأنها "بورجوازية":

أنتم بورجوازيون في تفكيركم وبورجوازيون في مشاعركم وبورجوازيون في أفكاركم وبورجوازيون في مفاهيمكم الاجتماعية. وبصفتكم هذه تريدون توجيه شعب، هو شعبنا، وهو شعب من الفقراء والتعساء والپروليتاريين. ولا يمكنكم عمل ذلك إلاّ بشكل سلطوي رغبةً منكم في قيادته إلى ما تعتقدون أن فيه صالحه. وعندئذ فإنكم إنما تتصرفون من خارجه ومن فوقه: فأنتم تريدون تحريك قطيع. وقبل أن تخلقوا شعبًا، تؤسسون حكومة تعمل ماليًا ودبلوماسيًا وهكذا، شأن جميع الحكومات، تكونون تحت

رحمة إخفاقاتكم المالية أو الديبلوماسية.وشأن جميع الحكومات تريدون تزوير الحقيقة، وأن تكونوا حكومة شعب له شكله الخاص، ويصبح أوج الواجب بالنسبة لكم هـو "عـدم إظهار المخازي القومية"(٥٧).

وعندئذ ينسحب الكاتب الفرنسي من المنظمـة ويطـرح نفسـه بوصـفه "صهيونيًا مستقلاً".

أمَّا مؤتمر بال الصهيوني الثالث، في منتصف أغسطس/ آب ١٨٩٩، فهو يشهد التحول التدريجي للمؤسسة إلى منتدى برلماني: ويهنئ هرتسل نفسه على ذلك علنًا ويرصد وجوه تقدم الحركة: الاعتراف الدولي بها، كما تبـين ذلـك لقاءاته مع ڤلهلم الثاني (وهي لقاءات شوَّه خصومه معناها)، إنشاء الصـندوق الاستيطاني، الذي يبالغ هرتسل في تقدير نتائجه. وهـو يسـعى إلـى طمأنـة الحكومة العثمانية ويهاجم أولئك الذين يتهمون نشاط الصهيونيين بأنه قد ترتبت عليه زيادة حدة الشكوك العثمانية وإحياء التشريع الذي يقيد عدد اليهود الـذين يدخلون الأرض المقدسة. وهو يستفيد من ذلك لكي يـذكِّرَ بمبـدأ الصـهيونية السياسية:

كيف؟ أيريدون أن يوطِّنوا في بلد جماعة سكانية بأكملها، دون أن يكونوا شرحوا أولاً على المكشوف كل أركان المشروع؟ إن من يصل سرًا في الليل والضباب لا يجب أن يدهش إذا ما صاحوا في وجهه: قف مكانك؟ من القادم؟ والويل له إن لم يقدم عن هذا السؤال جوابًا واضحًا لا لبس فيه. ثم إن هذا ليس وضعًا ستبدو فيه أول إجابة صـادرة طبيعية. أمَّا نحن فإننا نتصرف بشكل آخر، إننا نشرح أهدافنا في رائعة النهار؛ فنحن، معاذ الله!، لسنا بحاجة إلى الخوف من النور، ونحن نريد الفوز بالشرعية قبل أن نحاول الانخراط في مشروع من شأنه، في غياب ذلك، أن يكون تجربة رهيبة فادحة المسئولية. فالهدف ليس هو مجرد دفع الناس إلى الذهاب إلى هناك، إذ لابد أيضًا من جعلهم يسـتقرون هنـاك. وذلك في وضع مكفول تمامًا(٥٨).

وهو يشدِّدُ على الحاجة الملحة التي تمثلها الصهيونية والتي تهـدف إلـى تخليص ملايين من اليهود من بؤس رهيب، وتوفير العمـل لهـم وتزويـدهم

بإمكانات الوجود ومنحهم في الوقت نفسه الاستقلالية والكرامة.

والمناقشات ملتهبة:

تصادمت الأفكار في قعقعة تُصِمُّ الأسماع. واللحى الأرثوذكسية والقفاطين والأردية اللاّوية المنضبطة كل الانضباط تلتقي مع الشوارب والريدنجوتات جيدة التفصيل التي يرتديها الليبراليون المتطرفون. كان الصراع حاميًا، مشبوب العواطف، متقدًا، بما يتناسب مع مداولات تلهبها شمس الشرق بالإيحاءات الذهنية(٥٩).

وتنهمر الانتقادات على انعدام المحصلة وعلى المسلك الأوتوقراطي الذي يتخذه زعيم الحركة الصهيونية. ويقترح نائب أميركي مشروعًا بتوطين اليهود في قبرص تحت السلطة البريطانية، الأمر الذي يستثير الاحتجاجات من جانب مؤيدي الاستيطان في فلسطين دون سواها. وفي إحدى اللحظات، يضع هرتسل استقالته في كفة الميزان ويحصل على تأييد لمنحه الثقة: فدوره يظل غير قابل للاستعاضة عنه. وفي الأشهر التالية، وبالرغم من صعوبات شخصية جسيمة ترجع إلى مشكلات مالية (فهو يخصص لتمويل قضيته حصة متزايدة الأهمية باطراد من ممتلكاته)، وإلى صداماته مع قيادة صحيفته (التي ترفض مواقفه الصهيونية) وإلى حالته الصحية التي تبدأ في التدهور، فإنه يواصل العمل والمواظبة على إبلاغ دوق بادن الأكبر وإيولينبورج بنشاطاته.

لندن والقسطنطينية

في مؤتمر بال الثالث، يحرص هرتسل على طمأنة الدولة العثمانية بخفض التشديد على فكرة المقام المضمون بالقانون العام وزيادة التشديد على صون السيادة العثمانية على فلسطين. وهو يسعى الآن إلى التوصل إلى عقد لقاء مباشر مع السلطان. وفي النهاية يعثر على وسيط مناسب في شخص المستشرق أرمينيوس ڤامبيري، وهو شخص غير عادي. فهذا اليهودي المجري، الذي كان آنذاك في السبعين من عمره، عاش حياة غير مألوفة. فقد ترحّل في الشرق مرتديًا ثياب درويش مسلم، وخدم السياسة البريطانية وكان في وقت من الأوقات بروتستانتيًا. وقد صار صديقًا ومستشارًا لعبد الحميد مع استمراره في تزويد

البريطانيين بالمعلومات. وكان ڤامبيري أستاذًا للغات الشرقية بجامعة بودابست، وقد فاز بسمعة علمية ضخمة وصار داعية لنظرية الجامعة الطورانية: فطوران، التي تتطابق مع آسيا الوسطى الحالية، هي، في نظره، مهد الجنس البشري الثالث الكبير، إلى جانب الجنسين البشريين الكبيرين السامي والآري. وهو يرى أن هذا الجنس يشمل جميع الشعوب ذات اللغات التركية والمنغولية والفنلندية والمجرية(٦٠). وقد سمحت هذه النظرية في الأجناس برد الاعتبار لدور الأتراك في تاريخ العالم، بينما كانوا متهمين عادة بالبربرية وبانعدام الحضارة. وهكذا فإن الوحدة الثقافية الطورانية الشاسعة الواقعة على مجمل حدود الإمبراطورية الروسية يمكن أن تتحول إلى حاجز في مواجهة توسع إمبراطورية القياصرة (ومن هنا العلاقات بين ڤامبيري والأنجلو ـ ساكسون) مع إتاحتها للمجريين إمكانات الصمود الثقافي في مواجهة العالم الجرماني.

واعتبارًا من يونيو/ حزيران ١٩٠٠، تنشأ علاقات ودية بشكل خاص بين الزعيم الصهيوني والمستشرق السياسي الذي يعرض القيام بخدمات لدى السلطان. وبما أن ڤامبيري يعرف جيدًا منطلقات السياسة العثمانية، فإنه يدعو إلى عمل يتميز بالصبر والكتمان.

وفي تلك الأثناء، نجد أن هرتسل، الذي هجر آماله المعلقة على ألمانيا، إنما يسعى إلى التأثير على الأذهان ويؤيد فكرة عقد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن. فهذا من شأنه أن يسمح بجذب اهتمام البريطانيين في لحظة توشك فيها حرب البوير على الانتهاء. والحال أن المؤتمر(٦١)، الذي انعقد كالعادة في منتصف أغسطس/ آب، إنما يشهد تحية هرتسل لانجلترا الحرة التي سوف تتفهم طموحات الصهيونيين. وهو يجتهد في إبراز التقدم الملحوظ للنزعة القومية اليهودية منذ أربع سنوات، وضرورة تنظيم خروج إلى فلسطين، يشكل الحل المشرّف أكثر من سواه للمسألة اليهودية بالنسبة لمختلف الأمم: فهذه الأرض المستعادة سوف تكون المحطة الوسيطة بين الحضارة الأوروبية وسكان آسيا، ووسيلة تسوية المشكلة الآسيوية، التي سوف تصبح شاغلاً ديبلوماسيًا في الأعوام القادمة. وبما أن حال اليهود الرومانيين تزداد

تعثرًا، بما يؤدي خاصة إلى هجرات جماعية إلى بلدان الغرب، فإنه يرى في هذه المسألة حجة إضافية تدعم أطروحاته.

والخروج الجديد ليهود رومانيا إنما يثبت تفاقم الظروف المفروضة على اليهود في مستهل القرن. ويعلن اليهود الأميركيون عداوتهم لهجرة جماعية إلى الولايات المتحدة، فهذه الهجرة إنما تنذر بخلق "مشكلة يهودية" في هذا البلد. والمنظمات اليهودية الكبرى تفعل كل ما بإمكانها لحث المهاجرين على العودة إلى رومانيا. بيد أن فريقًا منهم سوف ينجح مع ذلك في الاستقرار في أوروبا الغربية وفي أميركا الشمالية. والحكومة الأميركية، غير الموقعة على معاهدة برلين، سوف تقوم في أغسطس/ آب ١٩٠٢ بتحرك لدى مختلف الحكومات الأوروبية لتطلب إليها إرغام رومانيا على احترام التزاماتها الدولية. أمَّا الدولة الوحيدة التي تقبل صراحة استقبال يهود رومانيين فهي الدولة العثمانية، وإن كان شريطة أن يتفرقوا في الأناضول. والحال أن ذلك سوف يسفر عن فشل جد محزن(٦٢).

والمناقشات حادة في لندن. وهناك يبرز ويتميز مناضل شاب: حاييم ڤايتسمان. فهذا الشاب الذي ولد في عام ١٨٧٤ في روسيا البيضاء وأبدى مواهب فكرية ملحوظة، كان التقييد الروسي لعدد الطلاب اليهود قد أرغمه على إجراء دراساته في الكيمياء في الخارج، أولاً في ألمانيا، ثم في سويسرا. وهو، في هذا، ممثل للجيل الجديد من المناضلين، المرتبطين مباشرة بالدياسپورا الأوروبية للطلاب اليهود القادمين من الإمبراطورية الروسية. ومنذ صدر شبابه، انتمى إلى أحبَّاء صهيون وأصبح من أتباع أحاد هاعام المتحمسين. وفي جنيف، نجده يكافح تأثير الماركسيين والبوند على الشبيبة الطلابية. وخلافًا لأستاذه، ينضوي تحت لواء هرتسل ويكاد يحضر مؤتمر بال الأول. وهو يحضر المؤتمرات التالية و، بوصفه ناشطًا في الصميم، فإنه يحاول خلق حركة للشبيبة الصهيونية. وخطبته يوم ١٦ أغسطس/ آب ١٩٠٠ في لندن تتصل بالمسألة الثقافية في الصهيونية، وهي هجوم مباشر على صهيونية هرتسل السياسية الصرفة كما على الحاخامات، الذين لا يفعلون شيئًا في حين أن الطوائف اليهودية في روسيا تتعرض للخطر. ويتعين رفض تقديم تنازلات: "إذا

جاء الحاخامات بوصفهم ممثلين للشعب، فسوف نرحب بهم. أمَّا إذا جاءوا بوصفهم ممثلين للمعابد، فهذا موقف غير يهودي، فاليهودية لا معبد فيها"(٦٣). وهو يقصد بذلك أن الحاخامات لا يمكنهم لعب دور باسم مجرد وظائفهم.

وتتصل المداخلات الأخرى بمسائل التنظيم المعتادة وبالحالة الصحية ليهود الجيتّو. ومن جراء الانفتاح المتزايد للمناقشات، تميل الحركة الصهيونية إلى الاهتمام بمجمل مشكلات العالم اليهودي وتجازف، بهذا نفسه، بأن تأخذ بُعدًا إنسانيًا خيريًا بشكل متزايد باطراد، على غرار المنظمات اليهودية الأخرى التي تعرضت لانتقادات جد عنيفة. وينجح هرتسل، بالرغم من حالته الصحية السيئة، في أن يظل مهيمنًا على المناقشات. وهو يهنئ نفسه على تأثير المؤتمر على الصحافة الانجليزية(٦٤).

والصهيونيون البريطانيون نشيطون بشكل متزايد باطراد. وهم يغتنمون فرصة الانتخابات العامة لكي يطرحوا على كل مرشح أسئلة عن مواقفه حيال الصهيونية. ويرد البعض بشكل إيجابي، ومن هنا حدوث تقدم كبير في الاعتراف السياسي بالحركة. والحال أن البروتستانتية إنما تفسر هذا التلقي المؤيد. وفي هذه السنوات بالتحديد جرت استعادة تعبير شافتسبري، بشكل مستقل على الأرجح، من جانب الأميركي چون ستودارد (١٨٥٠ ــ ١٩٣١)، وهو رحالة شهير حظيت مؤتمراته ومحاضراته العامة بنجاح ضخم. وفي عام ١٨٩١، خلال جلسة مكرَّسة للقدس، يرتأي، بعد أن شجب معاداة السامية، عقد مؤتمر برلين جديد مهمته تسوية المسألة الشرقية وبمناسبة انعقاده تقوم الدول المسيحية، كبادرة تدل على السخاء، بمنح فلسطين لليهود:

تُعيل فلسطين اليوم ستمائة ألف إنسان فقط، إلاّ أن بإمكانها، مع استغلالها بشكل مناسب، أن تعيل مليونين ونصف مليون إنسان. إنكم شعب بلا أرض؛ وهناك أرض بلا شعب. فلتحققوا أحلام شعرائكم وأنبيائكم القدامى، عودوا، عودوا إلى أرض أبراهام(٦٥).

وكان هذا النص معروفًا للصهيونيين الأميركيين الأوائل، وقد نُشر في عام ١٨٩٧ في كتاب بيع على نطاق واسع. ويستعيد زانجويل الفكرة ويكتب في عام

١٩٠١: "فلسطين أرض بلا شعب؛ واليهود شعب بلا أرض. وإحياء الأرض سوف يقود إلى إحياء الشعب"[٦٦]. ويبدو أنه كان يعرف في آن واحد تعبير شافتسبري وتعبير ستودّارد[٦٧].

وفي اللحظة المباشرة، يعلق هرتسل كل آماله على لقائه بالسلطان. وينجح ڤامبيري في ترتيبه له على أن ينعقد في مايو/ أيّار ١٩٠١، وذلك ليس دون صعوبات من جهة أخرى. وفي اتصالاته بالسلطان، يحصل على دعم من حاخامية القسطنطينية الكبرى[٦٨]. ويوم ١٧، يقابل عبد الحميد، الذي يحبطه مظهره الجسماني (يحتفظ بإعجابه بڤلهلم الثاني الذي كانت مواهبه السياسية أدنى بكثير من مواهب عبد الحميد). وهو يعرض عليه خدماته لتصفية الدين العثماني ولا يتحدث عن فلسطين والصهيونية[٦٩]، بل يتحدث عن مجرد تنمية الدولة العثمانية على أيدي اليهود الذين سيستقرون فيها بشكل نهائي. وهو يظن بذلك أنه قد كسب السلطان إلى قضيته بينما تتحدث الحاشية عن الثروات البترولية لبلاد الرافدين وعن الآثار الاقتصادية لسكة حديد بغداد. وفي الأيام التالية، يعطيه عبد الحميد الانطباع بأنه يطلب إيضاحات. ويغتنم هرتسل ذلك لكي يتحدث عن الهجرة اليهودية إلى الدولة العثمانية. والعثمانيون مستعدون لاستقبال هذه الهجرة، وإنما شريطة أن تكون متفرقة في مجمل الولايات. وأن يقبل القادمون الجدد الجنسية العثمانية وأداء الخدمة العسكرية. وهذا لا يناسب هرتسل بالمرة، الذي يضطر إلى الإكثار من توزيع الرشاوي على حاشية السلطان. بيد أنه يتكون لديه الانطباع بأنه قد جرى تدشين مفاوضات جادة[٧٠].

وهو ينهمك في نشاط محموم لأجل جمع الأموال الضرورية من كبار الأثرياء اليهود الذين يدفعون، مرة أخرى، بعدم جواز سماع دعواه. وفي هذا السياق، ينعقد المؤتمر الصهيوني الخامس في بال اعتبارًا من ٢٦ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠١. ويوحي هرتسل للمجتمعين بأن أحداثًا عظمى توشك أن تحدث ويؤكد أن السلطان قد صرح له بأن يعلن على الملأ أنه صديق الشعب اليهودي وفاعل الخير له. والحال أن المناضلين الشبان إنما ينظمون أنفسهم الآن في "فصيل ديموقراطي"، يتزعمه رجال أقوياء مثل ڤايتسمان ومارتن بوبر وليو موتزكين. وهم تحت رعاية أحاد هاعام، الذي استعاروا منه فكرة الصهيونية

الثقافية، بيد أن هذا الأخير، مع بقائه صاحب مواقف انتقادية قوية حيال أساليب هرتسل، إنما يمتنع كالعادة عن أي شكل من أشكال العمل السياسي. وهم يرفضون التفسير الهرتسلي للصهيونية: فهي ليست مجرد رد سياسي على معاداة السامية بل هي بالفعل نهضة ثقافية للعالم اليهودي. ولا يجب الاعتماد كثيرًا على المشاريع الدبلوماسية في الأجل المتوسط والتي يطرحها مؤسس المنظمة الصهيونية، بينما يجب الاعتماد أكثر على فعل مباشر وفوري في أوروبا من أجل تحسين الثقافة والتعليم اليهوديين، ويجب محاربة العمل السلبي الذي يقوم به الحاخامات. بل إنهم يرتأون تكوين منظمة صهيونية جديدة، بيد أن ما يثنيهم عن ذلك هو امتناع أحاد هاعام عن تقديم مساندة علنية لهم. ويبقى مع ذلك أن سلطة هرتسل الهشة على الصهيونيين الروس إنما تتعرض للتهديد باسم الصهيونية الثقافية. والحال أن هذه الصدارة للمسألة الثقافية على المسألة السياسية، وهذا التشديد على اليهودية مما على الشعب اليهودي، إنما يعدان موقفين غير مفهومين بالنسبة لأناس كهرتسل، منفصلين تمامًا عن الحياة اليهودية التقليدية. فهم لا يدركون التحولات الثقافية الجارية في المجتمع اليهودي في روسيا ولا يسعون إلى إنشاء دولة يهودية، بل إلى إنشاء دولة لليهود ستكمن خصوصيتها الوحيدة في الاستيطان وليس في التأكيد الثقافي.

ويضطر هرتسل إلى تقديم تنازلات لكنه ينجح في الاحتفاظ بسلطته. وسعيًا إلى مواجهة النفوذ المتزايد للفصيل الديموقراطي، يدعم من طرف خفي تكوين حزب لفريق من الصهيونيين المتدينين يحاول التوفيق بين الأصولية الدينية والقضية الصهيونية. وسوف ينبثق عن هذا الاتجاه الحزبُ الديني الصهيوني الأرثوذكسي، حزب مزراحي(٧١). وهذه الصهيونية الدينية تبدو لهرتسل على أنها الأداة الأفضل لمواجهة أولئك الذين يطرحون اليهودية على أنها واقع ثقافي وليست واقعًا دينيًا. ومن الواضح أن هذا لا يعني أن رئيس المنظمة الصهيونية قد تحول فجأة إلى اعتناق صيغة دينية للصهيونية. فما فعله لا يترجم سوى مهارته السياسية: الاعتماد على الوسط مع معارضة المتطرفين. كما تتجلى تعددية المكونات الإيديولوچية للحركة في انبثاق تيار اشتراكي بشكل سافر يجسده نحمان سيركين، الذي يدعو إلى تكوين دولة يهودية اشتراكية. فهو

يحارب "تجهيلية" الحاخامات والطابع الرجعي للصهيونية البورجوازية. وهو يسعى إلى الفوز بتأييد من الشبيبة الصهيونية ويطرح نفسه بوصفه منافسًا للفصيل الديموقراطي. وهذا كله يسمح لهرتسل باحتلال الموقع الثمين المتمثل في الوسط وباللعب على التعارضات بين مختلف الاتجاهات، لاسيما أن القيادة الصهيونية الروسية، التي تمثلها شخصيات مثل أوسيشكين، إنما تعادي بشكل خاص هذه الجماعات التي تنازع سلطتها استنادًا إلى الدياسپورا الطلابية ليهود أوروبا الشرقية الموجودين في غربي ووسط أوروبا.

أمَّا فيما يتعلق بڤايتسمان، الذي يتعرض موقعه للمزاحمة أحيانًا في داخل فصيله هو، فهو ينكب على مشروع إنشاء جامعة عبرية في القدس. ونجد في ذلك في آن واحد تشديده على الجانب الثقافي للصهيونية واهتمامه كعالم بمؤسسات المعرفة والبحث عن وسيلة للاستعاضة عن الجامعات الغربية التي تبدأ في إغلاق أبوابها أمام الطلاب اليهود المنفيين من روسيا، والرغبة في إيجاد قاعدة سلطة تخصه بخلق شبكة فيما بين الأشخاص المعنيين، كمارتن بوبر. وهو يعكف بشكل جاد على دراسة شروط التمويل والتوجه الذي يجب أن يهيمن على الدراسات. ويبدو هرتسل مهتمًا بالأمر ويقدم تأييده للفكرة(٧٢).

وفي فبراير/ شباط ١٩٠٢، تستدعي السلطات العثمانية هرتسل إلى القسطنطينية. فهو مدعو الآن إلى تنفيذ وعوده فيما يتعلق بتنمية الدولة العثمانية. وهو يرد على ذلك مطالبًا بحرية الهجرة ويتحدث عن إنشاء الجامعة العبرية. فيجاب بالاستعداد لقبول دخول اليهود إلى أي مكان في الدولة ما عدا فلسطين، وبشكل متفرق ودون أي تنظيم عام. ويتحسس هرتسل غواية قبول فكرة استقرار في الأناضول وفي بلاد الرافدين يكون مرتكزًا للوصول على أثر ذلك إلى فلسطين. والواقع أن الباب العالي إنما يستخدمه كأداة ضغط في مفاوضات أكثر جدية بكثير مع مجموعة مالية فرنسية لأجل تجميد الدين العثماني(٧٣). وفي الوقت نفسه، ينزعج الباب العالي من العدوى الثورية في داخل الحركة الصهيونية: فتصرف عدد من الصهيونيين الذين تضامنوا علنًا مع الأرمن خلال المؤتمر الصهيوني الأخير إنما يعزز المخاوف القديمة التي أحيتها النزعة القومية اليهودية. وتنشر وكالة الأنباء العثمانية شبه الرسمية البلاغ التالي(٧٤):

إن الصحافة الثورية هي التي تلقت احتجاج العناصر المنشقة في المؤتمر وهي التي زخرفته بتعليقاتها المعتادة...

وتحتل الأحزاب الثورية مكانًا في الحركة الصهيونية. فمن الذي يقول لنا إنه لن تندس في الهجرة اليهودية إلى فلسطين عناصر فوضى؟

· إن تركيا تود بالفعل أن تبدي ضيافتها؛ بيد أن هذه الضيافة لا يمكن أن تتصل إلاّ بعدد محدود من الأفراد لاتندس بينهم، بحال من الأحوال، جرثومة متاعب بالنسبة لفلسطين، التي تنعم بكل هذا السلام في ظل حكومة صاحب الجلالة السلطان المتسامحة.

وفي هذا السياق، نجد أن هجمات برنار لازار، الذي يتهم هرتسل باتباع "ديبلوماسية أوبريت" تنزع إلى عرض "المشهد العظيم والجميل لعبيد يلعقون سوط السيد"[٧٥]، إنما تثير حنق هرتسل، الواقع في مصيدة الواقعية السياسية والمساومات التي لا مفر منها إذا كان يراد التوصل إلى نتيجة ملموسة: ففي المسألة الأرمنية، يبدي البراجماتية نفسها التي سوف يبديها عندما تجيء لحظة التحرك لدى السلطات الروسية. والحق أن برنار لازار نفسه إنما يُقاد إلى معارضة البعض الذين يؤيدون الأرمن لأنهم مسيحيون ويرفضون الدفاع عن اليهود المضطهدين في روسيا ورومانيا. وشأن هرتسل، لم يبق أمامه في الحياة سوى القليل من الوقت. وقبل موته، في الأول من سبتمبر/ أيلول ١٩٠٣، يناضل مع بيجي من أجل الدفاع عن يهود رومانيا. ويواصل عمله تلميذه، الصهيوني المستقل إيلي إبرلان.

وبعد أن فشلت مساعي هرتسل في القسطنطينية، يتجه إلى بريطانيا العظمى. فالسلطات البريطانية منزعجة بشكل متزايد باطراد من الهجرة الجماعية ليهود أوروبا الشرقية وذلك بسبب ظهور حركة رُهاب للأجانب. وكان قد جرى تشكيل لجنة ملكية للاستقصاء، ودُعيَ زعيم الحركة الصهيونية إلى الإدلاء بشهادته أمامها. وفي ٧ يونيو/ حزيران ١٩٠٢، يعيد طرح أطروحاته المألوفة: إن الظروف المعيشية غير المحتملة والتي يحيا فيها يهود أوروبا الشرقية إنما تجعل هجرتهم أمرًا لا مفر منه؛ وإذا كانت البلدان الغربية لا تريدهم، فلابد من توفير أرض تستقبلهم بشكل معترف به قانونيًا حيث لا يعود

من الوارد اعتبارهم أجانب. وكانت المسألة قد أزعجت آل روتشايلد الانجليز ودفعتهم إلى تقديم هرتسل إلى الأوساط الحاكمة البريطانية لتسهيل البحث عن أرض الاستقبال هذه في مجال الإمبراطورية البريطانية: قبرص، سيناء، أوغنده[٧٦].

وفي أواخر يوليو/ تموز ١٩٠٢، يرجع هرتسل إلى القسطنطينية بناءً على طلب من العثمانيين، الذين كانوا في المرحلة الأخيرة لمساوماتهم مع الماليين الفرنسيين. فمن المفيد لهم أن يبينوا أنهم يتمتعون، بوجود هرتسل معهم، بحل بديل، بل يبدو أن عبد الحميد قد فكّر للحظة باهتمام في مقترحات زعيم المنظمة الصهيونية: فاليهود، غير التابعين بشكل مباشر لدولة من الدول، سوف يكونون مكتتبين في الدين العثماني لا يميلون إلى استخدام السلاح المالي في ممارسة ضغوط سياسية. بيد أن الثمن الذي يتوجب دفعه في مقابل ذلك، التنازل عن فلسطين في الأمد الطويل، إنما يبدو له ثمنًا باهظًا[٧٧].

وعندما تتم تسوية الأمر مع الفرنسيين، يجري صرف الڤييناوي بأدب. وهو ينتظر هناك، مقتنعًا بأن العثمانيين سرعان ما سوف يحتاجون من جديد إلى طلب العون من رأس المال الأجنبي. بيد أن هرتسل يدرك، تدريجيًا، أن موقف السلطان، بالرغم من الاحترازات البلاغية والتلاعبات المالية، كان دائمًا عديم المرونة: قبول هجرة يهودية متفرقة في الدولة العثمانية مع رفض الحماية القنصلية واشتراط قبول المواطنة العثمانية بما يشمل وجوب أداء الخدمة العسكرية. ويلحظ هرتسل تدهور حالته الصحية في حين أن وضع الشعب اليهودي يتفاقم. ومن ثم يتحول إلى الخيار البريطاني، كمرحلة انتقالية على الأقل. وبفضل علاقاته الجديدة في مجتمع علية القوم اليهود، يتم استقباله في ٢٢ أكتوبر/ تشرين الأول من جانب الرجل القوي في وزارة المحافظين، وزير المستعمرات جوزيف تشمبرلين، الذي كرّس عمله لتعزيز وتوسيع الإمبراطورية البريطانية.

والحال أن تشمبرلين، الذي يرى في الصهيونية إسهامًا بالبشر وبالرساميل مفيدًا للإمبراطورية شريطة ألاّ تمتد إلى الأجزاء المأهولة بـ"البيض" وأداة، علاوة على ذلك، لتقليل تدفق أجانب مشبوهين على المتروبول، إنما يبدو

متجاوبًا تمامًا مع أطروحات هرتسل. وفي مجال اختصاصه، ليس هناك ما يمكن الحديث عنه بشكل مناسب سوى قبرص. ومن المستحيل أن يضاف فيها مهاجرون جدد إلى السكان الأتراك والمسلمين؛ ثم إن اليونانيين، مدعومين ربما من جانب اليونان وروسيا، سوف يقاومون الهجرة اليهودية. ويرد عليه هرتسل بأن الشركة الشرقية اليهودية سوف تقدم عروضًا جد مهمة بحيث إنَّ المسلمين سوف يرحلون وسيسعد اليونانيون ببيع أراضيهم بأسعار جيدة بحيث يمكنهم الرحيل للاستقرار في أثينا أو في كريت.

وفيما يتعلق بمصر[٧٨]، يتوقف الاستيطان في سيناء على وزارة الخارجية البريطانية، و، ورائها، على السيد الحقيقي للبلد، المعتمد البريطاني اللورد كرومر. ويرتب تشمبرلين موعدًا في ٢٤ أكتوبر/ تشرين الأول مع اللورد لاندسداون، وزير الشئون الخارجية. ويتم سماعه ووعده بطرح المسألة مع كرومر[٧٩]. وتعمل البيروقراطية البريطانية بشكل جيد وتتعرض المسألة لدراسة جادة. ويبدو المشروع قابلاً للتحقيق: ويجب على الصهيونيين أن يشكلوا لجنة دراسات سعيًا إلى توضيح الجوانب التقانية بشكل أفضل. ويرى هرتسل أن المقصود هو إنشاء مستعمرة يهودية ذات حكم ذاتي في داخل ولاية مصر العثمانية المحتلة من جانب البريطانيين. وفي المقابل، سوف يتولى اليهود أداء ضريبة سنوية للباب العالي[٨٠]. وسوف تنشأ المستعمرة في العريش، على ساحل البحر المتوسط، مع تحويل لمياه النيل إليها للسماح بتوسعها الاقتصادي.

ويرى عبد الحميد أن سعي هرتسل إلى التفاوض في آن واحد معه حول فلسطين ومع البريطانيين حول سيناء وقبرص إنما يدل على أن أطماع الصهيونية تتجاوز بكثير جدًا مجرد إنشاء دولة يهودية في فلسطين: فاستيطان الجماهير اليهودية لأوروبا الشرقية في الشرق الأدنى إنما يفترض تكوين إمبراطورية شاسعة في المنطقة، حيث إنَّ فلسطين جد صغيرة على استقبال الجميع. وهذا يعزز إصراره على التصدي لمشاريع مؤسس الصهيونية السياسية. وهو يفرض قيودًا جديدة على الهجرة اليهودية وعلى النشاطات الصهيونية في فلسطين[٨١].

أمَّا الوفد الصهيوني الذي أرسل إلى مصر برعاية وكالة كوك فهو يذكر أن

بطرس غالي، رئيس النظار المصري، يرفض أي ميثاق يمنح حقوقًا خاصة للمهاجرين، ويقترح عين الحقوق التي يتمتع بها غيرُ المسلمين الآخرون في مصر الخديوية. ومن غير الوارد الحديث عن خصوصية يضمنها القانون العام. ويسارع هرتسل بالسفر إلى مصر، و، في ٢٥ مارس/ آذار ١٩٠٣، يستقبله كرومر، أبشع انجليزي التقاه قط[٨٢]: إن من غير الوارد أن يتمتع المهاجرون بحقوق مختلفة عن حقوق المصريين. وبعد بضعة أيام من المفاوضات، التي ينبثق عنها أن المسألة التقانية (جدوى المشروع) تجب دراستها أولاً، يرحل هرتسل إلى لندن، مارًّا بباريس، حيث يحاول جذب اهتمام إيكا إلى المسألة.

ويتحدث إليه تشمبرلين عن المصاعب المادية للمشروع ويقترح عليه التفكير في أوغنده، وهو ما يجر إلى رفض جازم من جانب هرتسل (٢٤ أبريل/ نيسان ١٩٠٣). وبعد ذلك ببضعة أيام، يوضح كرومر أن الظروف التقانية والسياسية لا تسمح بتنفيذ مشروع العريش. وقد أبدت الحكومة المصرية معارضتها لأسباب تقانية[٨٣]. وفيما يتعلق بالمجال السياسي، خارج الحقوق الخاصة المطلوبة للمستوطنين اليهود، تنطرح المشكلة الحساسة والخاصة بالسيادة العثمانية على مصر، والتي يزيد من تعقيدها واقع أن ترسيم الحدود بين مصر وفلسطين لم يسوَّ: فتحديد لمن تنتمي سيناء هو موضع نزاع كامن بين القاهرة والقسطنطينية منذ مستهل تسعينيات القرن التاسع عشر، واختبار القوة سرعان ما سوف يحدث. وفي ١٦ يوليو/ تموز ١٩٠٣، توجه وزارة الخارجية البريطانية دفعًا بعدم جواز سماع الدعوى، وهو دفع نهائي، بينما يتحدث تشمبرلين من جديد عن أوغنده (بتحديد أكثر، مرتفعات كينيا الحالية)، وذلك في لحظة يتفاقم فيها فجأة وضع العالم اليهودي: فنحن ندخل دورة جديدة من المذابح التي تستهدف اليهود.

مذابح ١٩٠٣ ــ ١٩٠٦[٨٤] والمسألة الأوغندية

بعد فترة خمود للمذابح دامت نحو عشرين عامًا، تنفجر في روسيا موجة مذابح أكثر دموية بكثير. وأشهرها أولها، مذبحة كيشينيوف، في بيسارابيا. فهي تنشب في أبريل/ نيسان ١٩٠٣، على أثر اتهامٍ بارتكاب جريمة شعائرية،

وتؤدي إلى مصرع خمسين إنسانًا وإصابة عديدين بجراح ووقوع خسائر مادية ملحوظة. ومن جديد، جرى تجاوز السلطات، ناهيك عن أنها أبدت قدرًا من السلبية. وفي سبتمبر/ أيلول من العام نفسه، تنشب مجزرة جديدة في جوميل، في منطقة الإقامة [اليهودية]. وللمرة الأولى، نجد أن اليهود، تحت قيادة البوند، ينظمون جماعات دفاع ذاتي وتتحول المسألة إلى مواجهة طائفية. واعتبارًا من عام ١٩٠٤، مع الحرب الروسية ـ اليابانية ثم الثورة الروسية الأولى، تصبح المذابح أوفر عددًا. وفي بعض الحالات، تتورط منظمات تنتمي إلى اليمين المتطرف الملكي. وتحدث عدة مئات من أعمال الشغب التي تؤدي إلى سقوط عددٍ إجمالي يزيد عن ثلاث آلاف ضحية حتى عام ١٩٠٦. ولا يمكن إثبات المسئولية المباشرة للحكومة، بيد أن سكوتها على نمو الكتابات المعادية للسامية وعزوفها عن معاقبة المذنبين وموقفها العام حيال اليهود كانت عوامل رئيسية في هذه الأحداث.

وفي هذا السياق، تنشر في روسيا، للمرة الأولى، أشهر كتابة معادية للسامية في جميع العصور، **بروتوكولات حكماء صهيون**. وهذه البروتوكولات، المنبثقة من تراث أقدم بالفعل، إنما تقدم نفسها على أنها ملاحظات يعرض فيها أعضاء الحكومة السرية اليهودية السبل التي يتوجب استخدامها للتمكن من السيطرة على العالم: فبفضل انتشار الأفكار الليبرالية، سوف تكف الجماهير عن الإيمان بالسلطة الطبيعية للنخب التقليدية وسيضع حائزو الثروات رجالهم الصوريين على رأس الدول المسيحية؛ وشيئًا فشيئًا سوف يتفكك المجتمع بفضل التشجيع الممنوح للفساد وللإلحاد؛ وعبر سلسلة بأكملها من المؤامرات، ستقاد الدول العظمى إلى التحارب، الأمر الذي سوف يجر إلى انهيارٍ للاقتصاد؛ ومنذ تلك اللحظة، سيكون بوسع البلوتوقراطية فرض الدولة العالمية ضمن إطار نظام بوليسي قائم على التلاعب بالإعلام والمعلومات وعلى توفير الرعاية الاجتماعية لمجمل السكان. وبحسب مختلف الصيغ، ليست هذه الحكومة السرية اليهودية سوى التحالف الإسرائيلي العالمي أو المنظمة الصهيونية التي أسسها هرتسل (في هذه الحالة، لا تكون البروتوكولات سوى بروتوكولات مؤتمر بال الأول)(٨٥). ومصدر قوة هذا النص ذي الأصول المعقدة هو أنه يجمع بين العلّية

الشيطانية ونقد العالم الحديث ضمن إطار تفسير سوف يسمح تدريجيًا بمراعاة التغيرات الأكثر حدة في القرن العشرين: الحروب، الثورات، الأزمات الاقتصادية، تحرر الأخلاق والأعراف، قيام دولة الرعاية الاجتماعية ووسائط الاتصال الجماهيري. وفي اللحظة المباشرة، لا يتم تداول هذا النص إلاّ في داخل إمبراطورية القياصرة، مع نجاح محدود. إذ سوف يتعين عليه انتظار أعاصير الحرب العالمية الأولى حتى ينتشر في الغرب أوّلاً، ثم في مجمل العالم.

وبشكل ملموس أكثر، تؤدي أحداث ١٩٠٣ ـــ ١٩٠٦ إلى تعجيل إيقاع الهجرة الكبرى إلى الغرب من جانب اليهود الشرقيين، وذلك في لحظة تبدأ فيها بلدان الغرب الأوروبي بإقامة حواجز أمام وصول هؤلاء "الغرباء". فحكومة اللورد بلفور المحافظة تقدم في عام ١٩٠٤ مشروع قانون بشأن هجرة الأجانب قائمًا على استنتاجات لجنة الاستقصاء التي شُكِّلت في عام ١٩٠٢: فالأجانب الذين يريدون الإقامة في بريطانيا العظمى سوف يتعين عليهم تقديم معلومات حول ماضيهم وحول محل إقامتهم. وسيكون بالإمكان رد غير المرغوب فيهم إلى الحدود. ومن الممكن منع إقامتهم في المناطق المزدحمة بالسكان، وذلك بحسب المعايير الصحية.

ويسعى الوجهاء الأنجلو ـــ يهود إلى تخفيف شروط هذا المشروع، ومن هنا حدوث نقاش واسع في أوساط الرأي العام، إذ أن من الواضح للجميع أن الأجانب المقصودين هم يهود أوروبا الشرقية. وچوزيف تشمبرلين واحد من أنصار فرض قيود على الهجرة ويعلن على الملأ دعمه للحل الذي اقترحه على هرتسل، ألاَ وهو الاستيطان في سيناء أو في أفريقيا الشرقية. ويعلن بلفور أنه لن يكون مفيدًا لتمدن بلاده أن يرى جمعًا غفيرًا من الناس، لاشك أيضًا في أنهم يستحقون التقدير، يشكل شعبًا على حدة، منفصلاً بالديانة وبرفض الزيجات المختلطة عن بقية مواطنيه، وهو كلام يعود عليه باتهامه علنًا بمعاداة السامية[٨٦]. وهو يدافع عن نفسه معلنًا أنه يؤيد الاستيطان في أوغنده. وبالمقابل، نجد أن ونستون تشرتشل الشاب، والذي هو بسبيله إلى الانتقال من حزب المحافظين إلى حزب الأحرار، إنما يعد واحدًا من أكثر خصوم المشروع

حدة. وفي نهاية الأمر يتم اعتماد صيغة مخففة قليلاً في أغسطس/ آب ١٩٠٥، وهو ما لن يحول دون إصابة حزب المحافظين بهزيمة انتخابية مدوية في يناير/ كانون الثاني ١٩٠٦[٨٧].

وفي داخل الصهيونية، تقود هذه التطورات إلى نقاش أساسي سوف يدوم إلى إبادة يهود أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. فهرتسل يرى أن الأولوية يجب أن تُعطى لإنقاذ اليهود الشرقيين، حتى ولو أدى ذلك في نهاية المطاف إلى تأخير إقامة دولة يهودية. ويرى خصومه الصهيونيون أن من غير الوارد الحديث عن تأبيد للدياسبورا في صورة أخرى وأن من الواجب تكريس كل شيء للاستيطان في أرض إسرائيل، حتى ولو اقتضى ذلك تمديد أمد مكابدات المنفيين. وهنا نجد التعارض الذي سوف يصبح كلاسيكيًا في القرن العشرين بين من يضعون البُعد الإنساني في الصدارة ومن يفكرون من زاوية "السياسة أوّلاً". وهكذا يقبل هرتسل مبدأ دراسة المشروع الأوغندي، والذي أكدته الحكومة البريطانية في بيان مبدئي في أغسطس/ آب ١٩٠٣. ويحاول نوردو معارضة ذلك، لكن هرتسل يرد عليه بأنه، بفضل هذا العرض البريطاني، حصل على ما يسعى إليه منذ البداية: ميثاق، أي اعتراف من جانب الدول العظمى[٨٨].

ومدعومًا بهذه الحجة الجديدة، يتجه إلى الحكومة الروسية. وهدفه المباشر هو إنقاذ الحركة الصهيونية في إمبراطورية القياصرة. وبقدر ما أن الحكومة الإمبراطورية قد رأت في الصهيونية أداة لتيسير رحيل اليهود، فإنها قد تسامحت معها، بيد أن هذه الحكومة إنما تنزعج الآن من تقدم النزعة القومية اليهودية والتي تتصل مطالبها على حد سواء بتكوين دولة يهودية في الخارج وتحقيق استقلال ثقافي وسياسي في الداخل، وذلك بالتعاون مع مختلف القوى الليبرالية والثورية المعادية للأوتوقراطية. وتسير المحادثات على ما يرام بين هرتسل والقادة الروس، خاصة بليهفي الرهيب، المسئول عن أعمال الاضطهاد الأخيرة، وذلك لأن ما يفكران فيه متقارب نسبيًا: منح الصهيونيين الروس حرية العمل، وذلك في مقابل تهدئة عاصفة الاحتجاجات في الغرب والتي أعقبت مذبحة كيشينيوف[٨٩].

ومن جهتهم، قام مسئولو اليهودية الغربية المستوعَبة ــ پول ناثان، السكرتير التنفيذي لجمعية مساعدة اليهود الألمان الألمانية ولوسيان وولف، سكرتير اللجنة الخارجية المشتركة لهيئة النواب والجمعية الأنجلو ــ يهودية، والملقب بـ"وزير الشئون الخارجية البريطانية"، وجيكوب شيف، الشخصية اليهودية الأوسع نفوذًا في الولايات المتحدة (اتخذ التحالف الإسرائيلي العالمي موقفًا أكثر تحفظًا، وذلك بسبب التحالف الفرنسي ــ الروسي) ــ بتحركات مماثلة لدى السلطات الروسية انتصارًا لقضية تحرير ــ استيعاب كامل ليهود الإمبراطورية الروسية. وبما أنهم قد فشلوا في هذا المسعى، فقد شنوا حملة في صفوف الرأي العام قائمة على فكرة أن حل المسألة اليهودية في روسيا إنما يمر عبر حل المسألة الروسية نفسها، عبر الليبرالية وإقامة نظام برلماني. ولا يجب مراعاة جانب الحكومة الروسية، بل يجب، على العكس من ذلك، محاربتها بلا رحمة عبر حملات صحافية وتدابير المقاطعة الاقتصادية (خاصة في مجال القروض المصرفية)، ودعم الحركات الليبرالية والثورية المعادية للأوتوقراطية. والحال أن هؤلاء الإسرائيليين الليبراليين، الذين لا يتكرون مشاركة اليهود في المنظمات الثورية، إنما يسعدهم ذلك بالأحرى، وذلك بالرغم من عدم ثقتهم الطبيعي بالأفكار الاشتراكية، وهم في الوقت نفسه أنصار لاستخدام سلاح المال اليهودي الدولي. وهم يبدون متحفظين وإن لم يكونوا معادين تمامًا حيال هجرة يهود روسيا إلى البلدان الغربية، وذلك سعيًا إلى تخفيف مكابدات إخوتهم في الديانة. وبالمقابل، نجد أنهم يحاربون أفكار الاستقلال الثقافي القائم على الثقافة اليديّة كما يحاربون نزعة الصهيونيين القومية الترابية(٩٠).

وإذا كان خط العمل هذا سوف يتم اعتماده خاصة غداة ثورة ١٩٠٥ الروسية، في لحظة زيارة هرتسل إلى روسيا، فإننا نشهد ارتسام تعارض بين اليهودية المستوعَبة والصهيونية، وهو تعارض لا يعود مجرد تعارض فلسفي، بل هو يتشكل في مواجهة بين استراتيجيتين سياسيتين: حيث يتصرف المستوعَبون باسم أخلاق لا تقبل المساومات بينما القوميون اليهود على استعداد لعقد تحالفات مع الشيطان في سعيهم إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه وإلى تحقيق

أهدافهم السياسية البعيدة. وسوف يتكرر هذا الوضع بعد الحرب العالمية الأولى وذلك فيما يتعلق بالموقف الذي يجب اتخاذه من النظم المعادية للسامية في وسط أوروبا، ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية.

المؤتمر الصهيوني السادس

يرجع هرتسل إلى بال قبل يومين من انعقاد المؤتمر الصهيوني، وذلك بعد أن كان قد قوبل بحماس من جانب يهود فيلنا، "أورشليم ليتوانيا". وكانت حالته الصحية قد تدهورت، إلاّ أنه يعتقد أنه سوف ينتصر بفضل مقترحات عدد من القادة البريطانيين والروس. ففي خطبته الافتتاحية في ٢٣ أغسطس/ آب ١٩٠٣، يشدِّدُ على الوضع المزعج الذي يكابده الشعب اليهودي بعد مذبحة كيشينيوف: فهذا الوضع يبرر الأطروحات الصهيونية لا سيما أن بلدان اللجوء التقليدية تبدأ في إغلاق أبوابها. وهو يتتبع تاريخ مجمل تحركاته لدى الدول العظمى ويصل من ذلك إلى المشروع الأوغندي، "الاستيطان الأردأ" وإن كان "يستند إلى أساس قومي"(٩١). وهو يشدد على حسن نوايا الحكومة الروسية، المستعدة لاتخاذ موقف مؤات للصهيونية. ويقدم نوردو له دعمه ويطرح الحجة التي تذهب إلى أن من الواجب التفكير أولاً وقبل كل شيء في مصالح الشعب اليهودي وأن من اللازم، في الوضع الحالي، بما أن فلسطين مغلقة، قبول هذا "الملاذ الليلي" المؤقت المتمثل في أوغنده.

والحال أن المشروع الأوغندي وكذلك الاتصالات بالروس إنما تستثير معارضة قوية من جانب فريق من الحضور. ويحظى هرتسل بدعم من غالبية المندوبين الغربيين ومن بعض الأرثوذكسيين أيضًا، في حين أن الصهيونيين الروس ذوي الاتجاه الثقافي يخوضون معارضة صاخبة. ومن المؤكد أن بعض المناضلين كڤايتسمان قد نظروا في البداية نظرة إيجابية إلى العرض البريطاني، إلاّ أنهم سرعان ما اقتنعوا بالعكس بعد مناقشات نادرة الحِدَّة في داخل الوفد الروسي(٩٢).

ورهان النقاش يتمثل في تكوين لجنة استقصاء. ويقترح زانجويل أن مسألة أوغنده يجب أن يُعهد بها بالأحرى إلى إيكا، الأجدر بإدارة مشروع كهذا.

ويهاجم آخرون بقوةٍ إيكا والتحالف الإسرائيلي العالمي، مشددين على الخيانة التي يشكلها المشروع الأوغندي. وعند التصويت في ٢٧ أغسطس/ آب، يبدي ٤٧٣ مندوبًا رأيهم ويمتنع عن التصويت ١٤٣ مندوبًا: فيوافق على المشروع ٢٩٥ ويعترض عليه ١٧٨. وعندئذ يقوم الجانب الأعظم من الأقلية بمغادرة المؤتمر بشكل مسرحي ويجتمعون في مكان آخر. وفي الليل، يناشد هرتسل، الذي نفدت قواه، المتمردين أن يعودوا إلى المؤتمر. فيمتثلون ويرجعون.

وخلال اليوم الأخير، تستعيد الحركة وحدتها من الناحية الرسمية. ويجري التصويت على قوام لجنة الدراسات كما على قوام المؤسسات الصهيونية الرئيسية. ويعاد انتخاب هرتسل رئيسًا للمنظمة. وفي كلمته الاختتامية، يذكرُ بالمهام الملحة المباشرة:

لو كان بالإمكان الوصول إلى الهدف مباشرةً على خط مستقيم، لما عادت هناك حاجة إلى دليل، فالجميع يعرفون أين توجد صهيون. وأنا لا أعتقد أن علينا أن ندع جماهيرنا تهلك في البؤس كي نجعل منها صهيونيين صالحين. فأنا أعتقد أننا بشدنا من أزر الجماهير إنما نشد في الوقت نفسه من أزر الصهيونية.

إلاّ أنه لكي نتجنب سوء الفهم، لابد في لحظة الافتراق من قول ما قلته في الافتتاح[...]:

"هذه ليست صهيون ولن تكونها أبدًا"، وإذا كان هناك من يعتبر هذا الكلام كلامًا فارغًا، فإن هذا الكلام قد أعقبه التزام رسمي.

إننا لن نعطي ولا يمكننا أن نعطي لجماهيرنا إشارة الرحيل.

ولهذا، بعد كل ما حدث، يمكنني تمامًا القول بأننا لم نتخل في وقت عن برنامج بال [براڤو، براڤو].

وعندما فكرت — في لحظة عصيبة، ومثل هذه اللحظات لا تفوتنا —، عندما فكرت أن كل أملٍ قد تبدد لأجل غير مسمّى، لأمد جيل، أردت عندئذ أن أقترح عليكم عونًا كبيرًا في المحنة، وأردت أيضًا، بما أنني عرفت عندئذ ما يدور في أفئدتكم، أن أقول لكم كلمة عزاء وأن أفرض في الوقت نفسه على نفسي واجبًا:

[ثم أقسم بالعبرية]:

"فلتجف يميني إن نسيتك يا أورشليم!".

وفي تواز مع المؤتمر السادس، يحاول أعضاء المستوطنات اليهودية تنظيم أنفسهم. ففي أغسطس/ آب ١٩٠٣، نجد أن أوسيشكين، الذي زار فلسطين، يعقد في ذكرون ـ ياكوف مؤتمرًا ليهود أرض إسرائيل [إيريتز إسرائيل]. إذ يتعين توحيد جهود الييشوف التي كانت إلى ذلك الحين مبعثرة. وتدور المناقشات لأول مرة بالعبرية، وتحصل النساء على حق التصويت والترشيح للانتخابات. ويجري تكوين اتحاد فيدرالي ليهود فلسطين. والسلطات العثمانية يقظة. فهي قد بدأت في ملاحقة النشاطات الصهيونية جد السافرة. كما أن غياب الإمكانات يؤثر على هذا الاتحاد الفيدرالي الذي لا ينجح في البقاء إلاّ لبعض الوقت.

أيام هرتسل الأخيرة

خلال المؤتمر، أصيب هرتسل بأزمات قلبية جديدة. وهو يحاول الاستراحة قليلاً، بيد أن الوضع يستمر في التدهور. ففي روسيا، تتكرر المذابح التي تستهدف اليهود. والحكومة الروسية، بدلاً من أن تتمسك بتعهداتها، إنما تصدر تشريعًا يحظر النشاطات الصهيونية، فيما عدا نشاط لجنة أوديسا[٩٣]، وذلك بالرغم من الرسائل المتتالية التي أرسلها هرتسل إلى پليهفي لكي يشرح له قرارات مؤتمر بال الأخير ولكي يحثه على التدخل لدى الباب العالي سعيًا إلى التجاوب مع الأطروحات الصهيونية، الأمر الذي من شأنه أن يسمح بتجنب ميل يهود روسيا إلى تأييد الأطروحات الثورية الهدّامة[٩٤]. ويواصل الصهيونيون الروس عملهم ضد المشروع الأوغندي ويهددون سلطة هرتسل الذي يعتبرونه خائنًا لقضية الصهيونية التاريخية. وبدفع من أوسيشكين، يعطون الأولوية لتعزيز المستوطنات في أرض إسرائيل. وينجح هرتسل في عزلهم داخل الحركة. ويعاملهم على أنهم "سياسويون محترفون وحقراء" لا يحسون بحرج اللحظة وما تمليه من مهمات ملحة.

وبالرغم من التدهور المتزايد لحالة هرتسل الصحية، فإنه يقوم في مستهل عام ١٩٠٤ برحلة إلى إيطاليا. وبما أن أطماع إيطاليا في برقة وطرابلس الغرب العثمانيتين (ليبيا الحالية) معروفة للجميع، فإنه يأمل في الحصول على امتياز ترابي في هذه المناطق، مماثل للامتياز الذي كان قد طلبه في سيناء.

وبفضل وسيط، يتمكن أولاً، في ٢٣ يناير/ كانون الثاني ١٩٠٤، من مقابلة وزير خارجية الفاتيكان، ميرّي ديل فال. وهذا الأخير يعيد على سمعه الأطروحات الكاثوليكية: مادام اليهود لا يعترفون بألوهية المسيح، فليس بوسعهم أن يأملوا في أن ينحاز الفاتيكان إلى صفهم. وفي اليوم التالي، يوفر له ملك إيطاليا مقابلة ويبدو مؤيدًا للأطروحات الصهيونية وذلك مع تذكيره إياه بأن إيطاليا هي الدولة الأوروبية التي يعد استيعاب اليهود فيها أقوى ما يكون: بل إنهم مقبولون في السلك الدبلوماسي، بما يشكل حالة فريدة في أوروبا.

وفي ٢٥ يناير/ كانون الثاني، يستقبله البابا پيوس العاشر بمودة مع تشدده فيما يتعلق بالمبادئ:

لا يسعنا الموافقة على حركتكم. وليس بوسعنا منع اليهود من الذهاب إلى أورشليم، إلاّ أننا لا يسعنا بأي حال أن نقدم دعمنا لهذا الذهاب. وحتى مع أن أرض أورشليم لم تكن مقدسة في جميع العصور، إلاّ أنها قد تقدست بحياة يسوع ـ المسيح عليها. وبوصفي رأسًا للكنيسة، لا يمكنني أن أقول لكم شيئًا آخر. إن اليهود لم يعترفوا بإلهنا، ونحن لا يمكننا الاعتراف بالشعب اليهودي(٩٥).

ويحاول هرتسل التحدث إليه عن مشروعه الخاص بتدويل الأماكن المقدسة، وإن كان يبدو من جهة أخرى جاهلاً تمامًا بالتعقيدات الحقوقية المحيطة بها. ويرد عليه الحبر الأعظم بأن أورشليم لا يجب أن تسقط في أيدي اليهود. وينوه الزعيم الصهيوني بالجانب الإنساني للمسألة، والذي يتمثل في أن تكون فلسطين ملاذًا لليهود. لكن پيوس العاشر يتمسك بالجانب الديني: إمَّا أن يظل اليهود مخلصين لعقيدتهم ويواصلوا انتظار المسيا الذي، في نظر الكاثوليك، جاء بالفعل، أو أن يذهبوا إلى الأرض المقدسة دون أن تكون لهم ديانة، وهو أمر مرفوض أكثر بكثير من وجهة نظر الكنيسة. بيد أن البابا ليس معاديًا لليهود. فعندما لا يتصل الأمر بشئون الدين، يستقبلهم بالترحيب. بيد أن اللاّء البابوية مطلقة، وهو ما كان متوقّعًا من جهة أخرى.

وفي الأيام التالية، يقابل هرتسل شخصيات سياسية مهمة.

ويبدو في نهاية الأمر راضيًا عن رحلته إلى روما. فمحادثاته مع أعلى

مسئولي الدولة الإيطالية والفاتيكان إنما تعد نجاحات بحد ذاتها. ولدى عودته إلى ڤيينا، ينهمك في دسائس جديدة وعبثية تتعلق بالدولة العثمانية. وفي أبريل/ نيسان ١٩٠٤، يكشف انعقاد لجنة العمل العليا في ڤيينا عن استمرار هيمنته على الحركة. والمواجهة حادة مع أوسيشكين الذي يرى أنه عندما يكون المثل الأعلى عرضة للتهديد، فإنه من غير الواجب بعدُ احترام الزعماء، حتى أشهرهم، بيد أن أحدًا لايريد حدوث انشقاق. وفي أواخر الشهر، ينجح هرتسل في عقد لقاء مع وزير الشئون الخارجية لبلده هو. كما يرى من جديد صاحبه القديم هشلر. غير أن أطباءه، الذين يتزايد قلقهم باطراد، إنما ينصحونه بالركون إلى الراحة المطلقة لعدة أسابيع.

ويصاب بالحمى بيد أنه يواصل الاهتمام على نحو نشيط بالمسائل الصهيونية، مع حضور ذهنه فيما يتعلق باقتراب الموت. وفي يونيو/ حزيران، تتحسن حالته على أثر إقامته في الجبل. بيد أنه يصاب بنزلة شُعبية ثم بالتهاب رئوي. ويموت في ٣ يوليو/ تموز ١٩٠٤.

وبما يشكل دليلاً على كفاءة عمله، تشير كبرى الصحف الأوروبية إلى رحيله، في حين أن الفريق الأعظم من العالم اليهودي يعبر عن حزنه وأسفه.

وقد ترك ستيفان زفايج وصفًا مؤثرًا لجنازته، في ٧ يوليو/ تموز ١٩٠٤:

> كان ذلك يومًا غير عادي، يومًا من أيام يوليو/ تموز سوف لن يُنسى من جانب جميع من عاشوه. ففجأة تدفق من جميع المحطات، قادمين من جميع القطارات، نهارًا وليلاً، أناس من جميع الإمبراطوريات ومن جميع البلدان، يهود من الغرب، ومن الشرق، روس وأتراك؛ تدفقوا من جميع الأقاليم، من جميع البنادر، والهلع الذي أثاره فيهم النبأ ما يزال مرتسمًا على وجوههم. ولم يحدث من قبل قط أن أحس المرء بشكل أكثر تميزًا ما كانت الصرخات والمناقشات قد جعلته في السابق غير محسوس: فهنا زعيم حركة كبرى هو الذي يجري دفنه. كانت جنازة لا نهاية للسائرين فيها. ففجأة، أدركت ڤيينا أن من مات لم يكن مجرد كاتب أو شاعر مبتدئ، بل هو واحد من منشئي الأفكار هؤلاء الذين

لايظهرون ظافرين في بلد، في شعب، إلاّ على مسافات زمنية جد طويلة. وفي الجبانة يحدث هياج؛ إن كثيرين من الناس قد تدفقوا معًا حول نعشه، باكين، منتحبين، صارخين، في انفجار ليأس وحشي؛ لقد كان ذلك انفلاتًا، شيئًا يكاد يكون غضبًا؛ فقد جرى هدم كل نظام بنوع من الحداد العفوي والذاهل الذي لم أر له مثيلاً قط ولن أرى له مثيلاً أبدًا عند دفن أحد آخر. وقد أمكنني أن أقيس لأول مرة بهذا الألم الجسيم، المتصاعد بشكل متشنج من أعماق شعب كامل يتألف من ملايين الناس، حجم الشغف والأمل الذي نشره هذا الإنسان الوحيد في العالم بقوة فكره(٩٦).

الفصل السادس

نشأة المسألة العربية

"أتوجد في فلسطين مشكلة عربية أم مشكلة يهودية؟ في ألمانيا، مثلاً، لا تخطر ببال أي يهودي فكرة الحديث عن مشكلة ألمانية. فمن الواضح أنه لا توجد في ألمانيا سوى مشكلة يهودية: فهناك أقلية يهودية، ضعيفة، والمشكلة هي معرفة كيف ستتطور هذه الأقلية، كيف ستحمي حقوقها، ما إذا كانت ستتوصل هناك إلى صون طابعها القومي أو ما إذا كانت سوف تستوعَب هناك من جانب الشعب الذي تحيا معه، كيف ستحمي نفسها في مواجهة الإذلالات وأعمال الاضطهاد وما إلى ذلك. ونحن أيضًا، نحن أقلية في فلسطين: فنحن لا نشكل غير نسبة ٢٠% من السكان. فمن أين جاءتنا إذًا هذه الجرأة للتحدث عن "مشكلة عربية"؟ في الوقت الحالي — وفي مستقبل قريب — لا توجد في فلسطين سوى "مشكلة يهودية"، مشكلة أقلية يهودية ضعيفة. وأنا أعرف أن هذه الكلمات لن تروق لأسماع أولئك المتعلقين ببلد إسرائيل بآصرة عميقة والذين هم على قناعة بأن أرض إسرائيل ليست بالنسبة لنا زوجة أب قاسية القلب. بيد أن الحقائق هي التي تتكلم، إذا أردنا مواجهة الواقع. [...]

"لا أقصد أن **الييشوف** في بلد إسرائيل مماثل لجميع الطوائف اليهودية في العالم؛ فهناك اختلاف عميق — اقتصادي واجتماعي وسياسي وبشري أيضًا: فالهيكل الاجتماعي والجوهر الثقافي للجماعة اليهودية الفلسطينية، على حد سواء، مختلفان عن الهياكل الاجتماعية والجواهر الثقافية التي نجدها في الدياسپورا. بيد أن هذا اختلاف نوعي فقط. أمَّا من ناحية الكمية، فنحن الآن، ولفترة قادمة أيضًا، أقلية. وهذا هو السبب في أننا نجد أنفسنا بإزاء مشكلة يهودية. وإذا ما واصلنا، بالرغم من كل شيء، التحدث عن "مشكلة عربية"، فما ذلك إلاّ لأن لنا في بلد إسرائيل أفقًا تاريخيًا [...]".

خطبة ديڤيد بن جوريون في المؤتمر الأول
لفلسطين العمالية في برلين في عام ١٩٣٠[١].

شرق أم غرب؟

الحقل الزماني لتطور النزعة القومية اليهودية يتوافق مع الحقل الزماني لانبثاق الحركة القومية العربية. وهاتان القوتان السياسيتان لهما أصل واحد: فهما نتاج زعزعة ثم الإطاحة بالنظم السياسية القديمة على أثر تحولات تصوغ العالم دشنتها أوروبا الغربية منذ القرن الثامن عشر. وبما أن المجتمعات المعنية أكثر بعدًا عن المركز، فإنها تشهد، بقدر ما تقودها هذه التحولات، الانتقال من النظام الهيراركي وعديم المساواة المميز للأزمنة القديمة إلى المبادئ الجديدة للمساواة، والتي تشكل الأساس الجديد للتنظيم الاجتماعي.

وفي الشرق الأوروبي، قام تكوين القوميات عبر إعادة تعريف للهوية استمد الكثير من المعطيات اللغوية والثقافية مثلما استمد الكثير من الانتماء الديني: وعبثًا حاول اليهود، بالنسبة لفريق منهم، أن يتبنوا الثقافة الجديدة لهذه البلدان وأن يشاركوا فيها، فقد ظلوا بالرغم من هذه المحاولة، بالنسبة لعدد كبير من البولنديين أو الروس أو الرومانيين، أجانب لأنهم لم يكونوا منتمين إلى الديانة السائدة، الأرثوذكسية أو الكاثوليكية. ومنذ تلك اللحظة يمكننا أن نفهم الرغبة في تحرير ذاتي من جانب الصهيونيين الأوائل، الذين قبلوا إلى حد بعيد في أذهانهم مشروعية جانب من هجمات المعادين للسامية.

وفي الدولة العثمانية، كان الوضع أكثر تفاوتًا. ففي مرحلة أولى، لم يجر تحرير غير المسلمين دون مآسٍ، كما تدل على ذلك مذابح عام ١٨٦٠ في لبنان وفي سوريا. والحال أن تجسيد تحريرٍ على أساس طائفي وليس فرديًا قد سمح بتحييد ما ينطوي عليه هذا الوضع من مخاطر. على أن خطر قيام الطوائف بتعريف نفسها على أنها أمم كان ماثلاً. وهكذا، فقد حدث ذلك في البلقان العثمانية، حيث أصبحت أعمال العنف بين "خليط الشعوب" موضوعًا خطيرًا تهتم به الدول العظمى. وفي الأناضول، نجد من جديد وضعًا مماثلاً: فاليونانيون والأرمن، وهما جماعتان كان يتم تعريفهما بحسب الانتماء الديني، قد أخذتا تقدمان نفسيهما بشكل متزايد باطراد على أنهما أمتان. والمسيحيون الناطقون بالتركية، والذين كانوا عديدين، قد أعطوا الأولوية للانتماء الديني على الانتماء اللغوي. وحدث الشيء نفسه بالنسبة للمسلمين الناطقين باليونانية أو

بالسلاقية، والذين جرى تمييزهم بشكل متزايد باطراد على أنهم أتراك.

وفي الولايات العربية، يختلف التطور، وذلك مع النهضة الثقافية التي أعطت تراثًا واحدًا للمسيحيين وللمسلمين (وبشكل إضافي، لبعض اليهود). ومنذ ذلك الحين، في أواخر العهد الحميدي، أمكن لتكوين هوية عربية خاصة أن يكون مشتركًا بين المسلمين وغير المسلمين. وهذه الهوية التي تم قبولها، مع كونها مشوَّشة، لم تتجاوز الإطار الجغرافي لآسيا العربية، حيث ظهرت أيضًا صيغ أخرى، قليلة الوضوح أيضًا، لتحديد الهوية على أساس إقليمي ــ الانتماء السوري، أو اللبناني، بل والفلسطيني بالفعل.

والحال أن هذه التعريفات الجديدة للهوية كانت ما تزال بعيدة عن أن تكون دقيقة. وباستثناء الوضعية الخاصة لقضاء جبل لبنان ذي الحكم الذاتي، لم يحدد أي واقع حقوقي تعريف أحد. ففي مجال القانون، لم يكن هناك سوى جنسية عثمانية، التي تعيَّنَ تحديدها على أثر متطلبات الحداثة وضرورة النضال ضد توسيع الحمايات القنصلية. وقد جرى إردافها بتسجيل خاص للوضعية الشخصية، إمّا المسلمة السنّية أو غير المسلمة، وإن كان ضمن طائفة يعترف بها القانون (وهكذا، فإن المسلمين غير السنّة ــ الشيعة أو الدروز، مثلاً ــ لم يكن لهم وجود من الناحية الحقوقية). وهكذا نجد أن المجتمعات المشرقية الساحلية قد سمحت بتعايش جماعات مختلفة، وذلك بفضل عدم التحديدات المتصلة بالانتماء وبفضل الحمايات الأجنبية. والحال أن هذا التنظيم للعلاقات الاجتماعية قد تم في آن واحد عبر وجود تعايش لم يعترف بالتبادلات الزواجية وعبر رقابة خارجية غربية يلخصها تعبير "ديبلوماسية البوارج" المعروف جيّدًا.

والحاصل أن استخدام السلطان عبد الحميد لنزعة الجامعة الإسلامية كدعامة لتلاحم دولته قد ترتبت عليه بالفعل نتائج ملموسة، وذلك مع انبثاق أمة إسلامية متعددة الأعراق في مجال الرأي العام. بل إن واقع التشديد على تضامن المسلمين قد شكل هو نفسه اعترافًا ضمنيًا بأن الأمة الإسلامية إنما تتألف من شعوب مختلفة. وهكذا، فعند الأفراد الواحدين، بحسب اللحظات والظروف، يمكن لهم أن يقدموا أنفسهم أكثر كمسلمين أو عرب أو سوريين.

والتحرير الذاتي الذي ارتأته الصهيونية، والتي دعت إلى عودة جغرافية

إلى الشرق الأصلي، كان النقيض تمامًا لرغبة التمشرق. فإذا ما كان هناك قبول لتعريف معاداة السامية لليهودي على أنه أجنبي، فقد كان هناك رفض قوي للاعتراف، كمحصلة لذلك، بأنه جزء من الشرق في الثقافة الغربية. إذ ليس هناك سوى الاعتراف بأن أرض إسرائيل، بحكم قوة الأشياء، موجودة على ضفاف شرقي البحر المتوسط. ومشروع العودة إلى وطن الأسلاف والأنبياء كان يترافق مع رغبة حارة في أن يصبح غربيًا كسواه. كما أن تطبيع حياة الشعب اليهودي كان عبارة عن تمغرب كامل. وهذا أمر لم يشكك فيه لا هرتسل ـ الذي كان يجد صعوبة تصور وجود ثقافة يهودية متميزة ـ ولا المتمسكون بصهيونية ثقافية. ومنذ ذلك الحين، فإن المشروع السياسي قد جعل من الدولة اليهودية التي يتعين بناؤها موقعًا أماميًا للغرب، للتمدن بامتياز، في الشرق. وهكذا نجد أن المهاجرين القادمين من أوروبا الشرقية قد تبنوا مجمل الخطاب الاستعماري والإمبريالي للغربيين فيما يتعلق بالأهالي أصحاب البلاد. ومنذ بداية الصهيونية إلى أيامنا سوف يكون تمشرق يهود أرض إسرائيل تهديدًا مقيمًا ستتوجب مكافحته بصورة مستديمة. والحال أن النزاع بين النزعتين القوميتين اليهودية والعربية على أرض واحدة سوف يتميز بمجمل طابع نزاع حضارات.

ردود الفعل العربية الأولى والمواقف الصهيونية الأولى

لم يثر مشروع إدمون دو روتشايلد غير ردود أفعال محدودة، تتمثل في منازعات بسبب الجيرة. أمّا ردود الفعل الجماعية العربية الأولى فقد كانت تتعلق بالهجرة اليهودية الحضرية، خاصة في القدس، أكثر من تعلقها بالاستيطان الريفي. والحال أن السلطة العثمانية وحدها هي التي أدركت منذ البداية الخطر السياسي الذي يمثله انبثاق نزعة قومية يهودية وإصرارها على انتزاع فلسطين.

ومن ثم فإن هرتسل لم يضف لعبد الحميد شيئًا. والأحرى أنه قد جعله يتأكد من مشروعية انزعاجاته السابقة. غير أن الإدارة العثمانية كانت عاجزة في محاولاتها الرامية إلى وقف الهجرة اليهودية، وذلك بسبب اللعبة المعقدة التي

تمارسها الدول العظمى في الدولة العثمانية، ولأن السلطان ـ الخليفة، بالرغم من محاولته التصدي للصهيونية من حيث الأساس، كان ميالاً أيضًا إلى استخدامها في منظومته الخاصة بالتعارضات وبالتحييدات المتبادلة للفاعلين السياسيين على المسرح العثماني. وهكذا يمكننا أن نفهم بشكل أفضل انفتاحاته السياسية الظاهرة ولجوءه إلى مؤسس المنظمة الصهيونية في المسائل المالية أو في الدعاية المضادة في أوروبا الغربية فيما يتعلق بالمسألة الأرمنية.

وكان اللجوء إلى الرأي العام عماد استراتيجية الصهيونية السياسية. ومن ثم فإن ردود الفعل العربية الأولى قد حدثت ليس من زاوية الوجود اليهودي في فلسطين وإنما ردًا على كلام هرتسل. ولاغرابة هناك في أنه قد تعين انتظار مؤتمر بال الأول حتى تظهر الصهيونية في الصحافة العربية، خاصة في البلد الذي عبرت فيه عن نفسها بشكل أكثر حرية، مصر في ظل الاحتلال البريطاني. وهذا شيء يمكن فهمه أكثر بقدر ما أنه كانت توجد في هذا البلد جماعة سكانية مهمة من المهاجرين السوريين، بالمعنى الأعمّ للمصطلح (سوريا ـ لبنان ـ فلسطين)، وبقدر ما أن سوريي مصر هؤلاء، مسيحيين أو مسلمين، كانوا ممثَّلين بشكل خاص في عالم الصحافة والنشر. وقد شكلوا نخبة مثقفة لم تتوقف عن الاهتمام بمصير بلدانها الأصلية وضمت، في جانب منها، معارضين سياسيين للنظام الحميدي لجأوا إلى مصر. وفي هذا الوسط بالتحديد أمكن للمتمسكين بهوية عربية متميزة أن يعبروا عن أنفسهم بشكل أكثر حرية.

ومما له دلالة أكيدة في هذا الصدد دور رشيد رضا. فهذا المصلح الإسلامي المنحدر من منطقة طرابلس كان قد استقر في القاهرة وأنشأ فيها مجلة جد مهمة، هي مجلة **المنار**. ومنذ عام ١٨٩٨، يتحدث في مجلته عن ظهور الحركة الصهيونية. وهو يرى في رغبة اليهود في الاستقرار في الدولة العثمانية دليلاً على التفوق الأخلاقي للبلدان الإسلامية على البلدان الغربية، و، دون أن يستخدم نبرة معادية، يضرب للمسلمين مثلاً بتضامن ونشاط اليهود. وهو يفسر الصهيونية على أنها حركةٌ تُوَحِّدُ المؤمنين بديانة واحدة في طموح سياسي مشترك. وبوصفه نصيرًا لأمة إسلامية، فإنه يجهل إلى حد بعيد البُعد العلماني للنزعة القومية اليهودية. وفي الأعوام التالية، يرتأي أعضاء حلقته

الفكرية عقد مؤتمر إسلامي عالمي، وذلك، ضمنيًا أو جهـرًا، وفـق نمـوذج مؤتمرات المنظمة الصهيونية. وفي عام ١٩٠٠، ينشر السوري عبد الـرحمن الكواكبي في المنار وقائع مؤتمر متخيَّل لمسلمين قدموا من جميع أرجاء العالم إلى مكة انعقد في عام ١٨٩٨. وهذه مناسبة لبلورة برنامج كامل لإصـلاحات دينية للإسلام، ومنازعة الخلافة العثمانية لصالح خلافة عربية دينيـة بصـورة خالصة، وتأسيس جمعية عالمية للمسلمين مهمتها إعادة قوة الإسلام إليه، أكـان ذلك في المجال الزمني أم في المجال الروحي. ويبدو أن الشبه قوي جدًا مـع فكرة رضا عن الصهيونية(٢). وبالمثل، فعندما يـنظم القوميـون المصـريون مؤتمرات للمنفيين في أوروبا عشية حرب ١٩١٤، نجد أنهـم يشـيرون إلـى النموذج الصهيوني(٣).

ونجد بداية للانزعاج في الرسالة التي يرسلها في عامٍ ١٨٩٩ إلـى زادوك كاهن عمدة القدس السابق يوسف ضياء الخالدي. فهو يذكرُ بالتسامح الإسلامي وبالأصل المشترك الذي يجمع بين ذرية إبراهيم، وهم العرب واليهـود، لكـي يبدي بعد ذلك انزعاجه: من المؤكد أن لليهود حقوقًا تاريخية في فلسطين، بيـد أنها مسكونة الآن بآخرين. والسكان الحاليون حراس للأماكن المقدسة للـديانات الثلاث، ومن المستحيل تصور أن المسلمين والمسيحيين لن يتصدوا لمحاولـة الاستحواذ على الأرض المقدسة بالقوة. وصحيح أن اليهود يمثلون قوة ماليـة، بيد أنهم محرومون من السلاح. ومن ثم فإن الصهيونية "حماقة" تنطوي علـى مخاطر جسيمة.

من المؤكد أن الأتراك والعرب يتخذون عمومًا موقفًا إيجابيًا من إخوتكم في الديانة. بيد أن بينهم هم أيضًا متعصبون، فهم أيضًا، شأن جميع الأمم الأخرى بما في ذلك الأمم الأكثر تمدُّنًا أيضًا، ليسوا منـزَّهين عن مشاعر الكراهية العنصرية. وعلاوة على ذلـك، يوجد في فلسطين مسيحيون متعصبون، خاصة بين الأرثوذكس والكاثوليك، يتميزون، إذ يعتبرون أن فلسطين يجب أن تعود لهم وحدهم، بحسد بالغ لوجوه تقدم اليهود في بلـد أسلافهم ولايفوتون فرصة لإثارة كراهية المسلمين ضد اليهود. وهناك مبرر للخوف من نشوب حركة شعبية ضد إخوتكم في الديانة، التعساء منذ قرون وقرون، وهي حركـة ستكون قاتلة بالنسبة لهم ولن يكون بوسع الحكومة التركية، حتى ولو توافرت لها أفضل

الاستعدادات في العالم، أن تقمعها بسهولة. وهذه العاقبة جد المحتملة هي التي تضع القلم في يدي لكي أكتب إليكم.

يتوجب من ثم لأجل طمأنينة اليهود في تركيا أن تتوقف الحركة الصهيونية، بالمعنى الجغرافي للكلمة. فلتبحثوا عن مكان ما للأمة اليهودية التعيسة، فليس هناك ما هو أكثر عدلاً وإنصافًا. يا إلهي! إن الأرض جد واسعة، وما تزال هناك بلدان غير مأهولة يمكن إعمارها بملايين من الإسرائيليين البؤساء، الذين قد يصبحون فيها سعداء وقد يشكلون أمة يومًا ما. هذا قد يكون الحل الأفضل، الحل الأكثر عقلانية للمسألة اليهودية. ولكن، بالله عليكم، دعوا فلسطين مطمئنة.

وينقل زادوك كاهن الرسالة إلى هرتسل، الذي يرد مباشرة على عمدة القدس السابق. وهو يتحدث عن مودَّة اليهود التقليدية للمسلمين ويؤكد أن الاستيطان اليهودي لا يمكن له إلاّ أن يعود بالفائدة من الناحية الاقتصادية على البلد بأسره. ونوايا الصهيونيين سلمية وهم لا يريدون تعديل وضعية الأماكن المقدسة.

وفي عام ١٩٠٢، يتحدث رضا من جديد عن الصهيونية. ويظهر الانزعاج مرة أخرى من قوة اليهود المالية، بيد أنه يتحدث بالأخص عن واقع أن غالبية المسلمين واقعون تحت السيطرة الأجنبية، الأمر الذي يقرِّبهم من وضع اليهود، وهو وضع أقل مدعاةً للحسد بقليل من وضعهم. ويجب على المسلمين أن يمارسوا التضامن نفسه الذي يمارسه اليهود فيما بينهم، كما أثبتت للتوّ قضية دريفوس، ومن ثم تظل الصهيونية نموذجًا يتوجب الاقتداء به.

أمَّا مؤسس الصهيونية السياسية فهو قليلاً ما يتحدث عن العرب. ولا يبدو أنه قد رآهم خلال رحلته إلى فلسطين، في حين أن ليون موتزكين، مثلاً، الذي زار فلسطين في عام ١٨٩٨، كان قد تحدث خلال المؤتمر الصهيوني الثاني عن الواقع المزعج الذي تشكله الكثافة المهمة لجماعة سكانية عربية تحوز الجانب الأعظم من الأراضي الخصبة[٤]. وفي عام ١٩٠٢، ينشر هرتسل رواية، هي رواية *Altneuland* (تل الربيع)، يصف فيها يوتوبياه وقد تحققت: لقد أنشأ اليهود في فلسطين مجتمعًا نموذجيًا قائمًا على نظام التعاون جد العزيز

على أفئدة المصلحين الاجتماعيين في أواخر القرن التاسع عشر. وليس هناك جيش، والسجون خاوية، والجميع، اليهود وغير اليهود، يحيون في انسجام تام. أمَّا العرب، الذين لا يظهرون إلا قليلاً (٧ صفحات من ٣٠٠)، فهم يهنئون أنفسهم على الوجود اليهودي الذي عاد عليهم بالثراء. وهم يتمتعون بمساواة مدنية مع سكان البلد الآخرين وذلك مع احتفاظهم بثقافتهم الخاصة. وفي نظر هرتسل، فإنهم من حيث الجوهر مسلمون لابد لهم من الاندماج على أساس فردي في مجتمع أغلبيته يهودية. وهو لا يذكر في أي مكان حقوقًا جماعية أو قومية[٥].

وهذه الرؤية الانسجامية المثالوية ينتقدها بشراسة أحاد هاعام، الذي يرى في وصف هرتسل واقعًا غير يهودي بالمرة، مجرد نقل للثقافة الغربية ــ الأوروبية. وهو يتساءل كيف أمكن للعرب أن يتنازلوا سلميًا عن شبه مجمل الأراضي القابلة للزراعة في فلسطين وكيف وافقوا على إعادة بناء هيكل أورشليم على موقع مسجد عمر[٦]. ويكلف هرتسل نوردو بالردِّ على شانئه، وهو ما يفعله بأقصى درجة من العنف، متهمًا إياه بالرغبة في ذبح أو طرد الأجانب وبالتصرف كأعداء السامية. وهذا السجال يؤدي إلى انقسام الحركة الصهيونية: حيث يتخذ ڤايتسمان وبوبر علانية موقفًا مؤازرًا لأحاد هاعام[٧]، بيد أن المسألة الأساسية والخاصة بالوجود العربي لا يجري تناولها: فنحن بالأحرى بإزاء تعارض بين صهيونية ثقافية وصهيونية سياسية، بين يهود الشرق الأوروبي ويهود الغرب.

والحال أن أول تحليل مسهب للصهيونية من جانب عربي إنما يتميز بطبيعة فريدة. ونحن نعني كتاب **استيقاظ الأمة العربية في آسيا التركية**، لنجيب عازوري. فالكاتب، وهو موظف ماروني سابق في سنجق القدس هو أشبه ما يكون بمغامر سياسي. وبما أنه قد رأي أنه قد أسيئت معاملته من جانب رئيسه، متصرف القدس، فقد لجأ إلى مصر وشن فيها حملة صحافية ضد عدوه[٨]. وفيما بعد، ذهب إلى فرنسا وتحالف مع شخصية أخرى مثيرة للفضول، يوچين يونج، الذي كان قد عمل في السابق في الإدارة الفرنسية في الهند الصينية. ويحاول الرجلان تنظيم حركة سياسية عربية وفق نموذج النزعة القومية الذي

صاغه موريس بارّيه. ومصداقيتهما محدودة في نظر المسئولين عن السياسة الفرنسية، بيد أن نشاطاتهما في مجال الكتابة والنشر أثارت صخبًا عظيمًا في الأوساط المعنية بشئون المشرق. وفي تأكيدهما لمعلومات أخرى، نجد أنهما يجعلان من العامل العربي عنصرًا جوهريًا في مستقبل المنطقة. وفيما يتعلق بالصهيونية، يستعيد عازوري أطروحات المعاداة الفرنسية للسامية حول الخطر اليهودي، بيد أن أصالة مقاربته إنما تنبع من اعتماده على دراية جيدة بالساحة: فهو يشير بشكل واضح إلى وجود استراتيچية ترابية تتمثل في تطويق فلسطين بالمستوطنات اليهودية، فرأى بذلك ما لم يرصده سوى القليل من الناس في نشاط إدمون دو روتشايلد.

وبما أن عازوري قد فشل في أن يجد أسماعًا صاغية في باريس، فقد زار مصر وحاول أن يجد لنفسه مكانًا في السياسة المحلية. ولم يجد عمله المباشر غير القليل من الأصداء في الساحة، غير أن ديباجة نصه سوف تصبح شهيرة بالجانب النبوئي لما تضمنته من تأكيدات:

> إن ظاهرتين مهمتين، لهما طبيعة واحدة وإن كانتا متعارضتين، ولم تجذبا إلى الآن انتباه أحد، إنما تتجليان الآن في تركيا الآسيوية: وهما يقظة الأمة العربية وسعي اليهود الكامن إلى إعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق جد واسع. ومآل هاتان الحركتان هو أن تتحاربا فيما بينهما بشكل متواصل، وذلك إلى أن تتغلب إحداهما على الأخرى. وعلى النتيجة النهائية لهذا الصراع بين شعبين يمثلان مبدأين متعارضين سوف يتوقف مصير العالم بأسره.

توضيح أهداف الصهيونية

تحت قيادة هرتسل، عرفت الحركة الصهيونية زخمًا جديدًا في لحظة اتخذ فيها إدمون دو روتشايلد مظهر التراجع. وفي بداية القرن، يظهر جيل جديد من المناضلين بينما تختفي تدريجيًا الشخصيات المميزة لجماعة أحبَّاء صهيون. والحال أن النزعة القومية اليهودية، بعيدًا عن أن تتطور في وسط مغلق، إنما تعرف توسعًا لمروحتها الإيديولوچية يتناسب مع الاتجاهات العامة لتطور الأفكار السياسية في الإمبراطورية الروسية.

فعلاوة على الصهيونية السياسية المنبثقة من أوساط غرب أوروبية، نجد الآن تجمعًا يحاول التوفيق بين الأرثوذكسية الدينية والفكرة القومية. وكان تجمع مزراحي قد لقى تشجيعًا من جانب هرتسل، الذي كان بحاجة إليه لكي يواجه به أتباع أحاد هاعام، المتمسكين بصهيونية ثقافية. وقد سعى هؤلاء الأخيرون إلى تنظيم أنفسهم ضمن إطار "الفصيل الديموقراطي"، والذي يعد تعبيرًا عن المناضلين الروس الشبان. بيد أن هذا الفصيل لم ينجح في اتخاذ قوام يساعده على أن يصبح قوة مستقرة. والقوة الأكثر أهمية هي قوة الصهيونيين العمليين، والتي يمثلها أوسيشكين النشيط، والتي تتمتع بانغراس خاص في روسيا الجنوبية، كامتداد للجنة أوديسا. والحال أن الصهيونيين العمليين، في رفضهم للمناقشات الإيديولوچية حول الثقافة، إنما يعطون الأولوية المطلقة لاستيطان فلسطين وينزعجون بشكل متزايد باطراد من مبادرات هرتسل الدبلوماسية. ثم إنّ أوسيشكين، العاجز عن انتزاع السيطرة على المنظمة الصهيونية، قد مال إلى تكوين سلطة مضادة إمّا انطلاقًا من الشُعب الروسية، أو بالاعتماد على اليیشوف الفلسطيني. وباتجاه اليسار أكثر، ظهرت لجان صهيونية اشتراكية، لجان پوعالي زيون. وشأن أحبّاء صهيون في الجيل السابق، كانت هذه اللجان عبارة عن مجموعات انبثقت تلقائيًا في الأوساط اليهودية الروسية، في داخل كما في خارج إمبراطورية القياصرة. وما يوحد هذه الجماعات، في البداية، مؤثر مشترك: اشتراكية شعبوية تعترف بنضال الطبقات لكنها تشدّدُ على ضرورة إحياء لليهود عن طريق العمل اليدوي. وفي داخل المنظمة الصهيونية، كان هناك بالفعل بعض الممثلين لأطروحات اشتراكية، إمّا بالشكل الفوضوي، كبرنار لازار، أو بشكل اشتراكي ـ ديموقراطي أكثر، كسيركين. ويحاول الاشتراكيون الصهيونيون الفوز باعتراف الأممية العمالية بهم كممثل للجماهير العمالية اليهودية في الإمبراطورية الروسية. بيد أنهم يفشلون في مواجهة المنافسة التي تبديها الحركة العمالية الاشتراكية اليهودية في روسيا، والمتمثلة في البوند، الذي تأسس في عام ١٨٩٧، والذي يرفض الدعوة الترابية مع مزاوجته بين المشروع الثوري الاشتراكي والرغبة في تكوين أمة تتمتع بحكم ذاتي دون أرض. ويبدو البونديون خصومًا حازمين للصهيونية، فهي "أطروحة

بورچوازية، وأداة بيد الرأسمالية اليهودية، وعدو إيديولوچي يحرف موضوعيًا بعض العمال عن مصالحهم الطبقية"(٩). وهم يجعلون من أنفسهم مدافعين عن فكرة الدياسپورا، مذكِّرين بأن الجانب الأعظم من اليهود، قبل قرون بالفعل من تدمير هيكل أورشليم على أيدي الرومان، كان قد غادر فلسطين وتخلى عن العبرية وراح يتكلم باليونانية أو بالآرامية، "يديِّة العصر القديم"(١٠). وقد بدت الصهيونية في نظر البونديين كمذهب هربٍ وانهزاميةٍ، يسعى، شأن مذهب دعاة الاستيعاب، إلى العمل على اختفاء اليهود، وذلك، هذه المرة، بإزاحتهم على المستوى الجغرافي. والحال أن المناضلين الثوريين سوف يتوصلون إلى الانتساب، في مواجهة الصهيونية، إلى "وطنية المنفى (**جالوت**)".

وبالرغم من اعتراض الاشتراكيين البولنيين، يجري ضم البوند إلى الأممية ويصبح الممثل الوحيد للطبقة العاملة اليهودية.

وفي المناقشات الأوغندية، يُحَرِّكُ هرتسل إئتلافًا غير متجانس يجمع الصهيونيين السياسيين ومتديني مزراحي واشتراكيي سيركين، بينما يشكل الصهيونيون العمليون والثقافيون المعارضة. وعند موت مؤسس المنظمة الصهيونية، يطرأ تغير على قيادة الحركة: فمن الناحية النظرية، توجد لجنة عمل ضيقة دائمة ولجنة عمل موسعة تجتمع مرة واحدة على الأقل في السنة لمراقبة عمل اللجنة الأولى. أمَّا من الناحية الفعلية، فقد كان هرتسل يتصرف من الناحية العملية بمفرده، وهو أمر لم يعد واردًا. وفي أغسطس/ آب ١٩٠٤، يجري إنشاء لجنة تنفيذية دائمة جماعية عبر توسيع لجنة العمل الضيقة لكي تستوعب الشخصيات الرئيسية في الحركة. ومن غير الممكن تحويل مقر المنظمة إلى روسيا، وذلك بالنظر إلى القمع البوليسي وإلى قلاقل تتزايد عددًا بشكل متواصل باطراد على أثر مذبحة كيشينيوف. وعلاوة على ذلك، لا يمكن لقائد الحركة أن يكون، بحسب أفكار ذلك الزمن، شخصًا تدفع له المنظمة راتبًا. وبما أن نوردو لا يبدو رجل تنظيم، فإنه يجري تعيين وولفسون، الذي يعرف الجميع مواهبه كمنظِّم. والحال أن هذا الرجل الذي بلغ السادسة والأربعين من العمر (أكثر بقليل من العمر المتوسط لأعضاء المنظمة) صناعيٌّ عمليُّ التفكير مختلف عن المثقفين الميالين إلى التنظير. وهو ينقل مقر الحركة إلى كولونيا

ويزوده بسكرتارية خاصة أبرز أعضائها هو الصحافي البولندي السابق ناحوم سوكولوف.

والمهمة المباشرة أكثر من سواها هي التحضير للمؤتمر الصهيوني السابع الذي يتعين عليه البت في المسألة الأوغندية. وتحتدم المناقشات في داخل الحركة. ويجري أخيرًا التصدي لمشكلة العلاقات مع العرب على نحو مباشر. والحال أن أنصار قبول العرض البريطاني سعيًا إلى إنقاذ يهود روسيا من المذابح إنما يتخذون اسم "الترابيين". وزعيمهم الرئيسي هو زانجويل. وهو لا يتردد في الحديث عن "الخطر العربي" الذي يهدد بجعل استيطان فلسطين مستحيلاً:

بيد أن هناك صعوبة لا يجرؤ الصهيوني على إغفالها، بالرغم من أنه قلّما يحرص على مواجهتها. وهذه الصعوبة تتمثل في أن فلسطين مأهولة فعلاً بالسكان. وسكان باشاليك أورشليم يعدون الآن أكثر كثافة بمرتين من سكان الولايات المتحدة، إذ يصل عدد السكان إلى ٥٢ إنسانًا في الميل المربع الواحد، واليهود بينهم لا يشكلون سوى نسبة تقل عن ٢٥ %؛ ومن ثم فلابد من أن نكون على استعداد، إمّا إلى أن نطرد بالسلاح القبائل التي تحتل البلد، كما فعل ذلك أجدادنا، أو إلى أن نواجه هذه المشكلة: وجود نسبة ملحوظة من العناصر الدخيلة، المحمدية خاصة والمعتادة منذ قرون على احتقارنا. وهذه صعوبة أخطر بما لا يقاس من سخريات أعداء الصهيونية الذين يقولون إننا لو أخذنا فلسطين فلن يذهب أحد إليها للإقامة فيها؛ وإن كل واحد سوف يتمنى تعيينه سفيرًا في باريس ـــ وهي نكتة ثلمت حدتها قضيةُ دريفوس بالأحرى!(١١)

ثم إن ترابيين آخرين كانوا أكثر حزمًا بكثير: ففي فلسطين لا توجد أي أراض شاغرة. والاستيطان اليهودي في فلسطين مستحيل، إلاّ إذا أريد طرد العرب، وهو أمر مستحيل أيضًا(١٢).

وفي مواجهة أطروحات الترابيين، ينشر أوسيشكين في عام ١٩٠٤ كراسًا تحت عنوان **برنامجنا**، يعرض فيه آراء الصهيونيين العمليين الذين يشجبون الترابية بوصفها أحد انحرافات الصهيونية السياسية. ويتوجب وضع العمل السياسي والعمل الثقافي على مستوى واحد مع

إخضاعهما للاستيلاء على الأرض:

كيما يتسنى إنشاء دولة يهودية في بلد إسرائيل، من الضروري بصورة مطلقة في المقام الأول أن تكون أرض فلسطين، أو، على الأقل، جلها، ملكًا للشعب اليهودي. فإذا لم نصبح ملاّكًا للأرض، فلن تصبح فلسطين يهودية أبدًا، أيًا كانت ضخامة عدد اليهود في المدن أو في القرى. ويتوجب بصورة مطلقة نزع ملكية الملاّك الحاليين للأرض. والآن، فإن الأمر الوحيد الممكن هو شراء الأراضي بموافقة مالكها الحالي. ولذا فإن شراء الأرض إنما يصبح أحد شعاراتنا(١٣).

وبما أنه يدرك صعوبة الاستيطان، فإنه يرتأي إجراء عمليات شراء منظمة سعيًا إلى ربط مختلف المستوطنات الزراعية بعضها ببعضها الآخر. وهذه السياسة تتطلب عملاً جماعيًّا. وفي تقارب مع أطروحات الاشتراكيين، يبدو أوسيشكين غير محبذ للعمل المأجور. وهو يدعو إلى تكوين مدارس زراعية سعيًا إلى تكوين رواد قبل تسليم الأراضي لهم. ويقبل مطالب الثقافيين بجعله العبرية اللغة الإجبارية للتعليم في **البيشوف**. ويدعو إلى تكوين مدارس موازية للمتدينين. وهذا البرنامج المعرَّف على هذا النحو إنما يطرح نفسه بوصفه توليفًا بين مختلف اتجاهات الصهيونية في إطار فلسطين وحده. وهو ينكر بصورة مطلقة وجود مسألة عربية: فالعرب يحيون في علاقات ودية وسلمية مع اليهود؛ وهم يعترفون دون قيود بالحقوق التاريخية لليهود في **الأرض**؛ وبما أنهم جشعون، فإن عمليات شراء الأراضي سوف تقود إلى ارتفاع في أسعار الأراضي وسوف يسعدهم أن يبيعوها لليهود.

واشتراكيو بوعالي زيون يطرحون على أنفسهم أيضًا المشكلة العربية. والحال أن إيديولوجيهم الرئيسي المتأثر بالماركسية (فهو عضو سابق في الحزب الاشتراكي ــ الديموقراطي)، بير بوروخوف، إنما يطور في عام ١٩٠٥ أفكاره في سلسلة من المقالات، **حول مسألة صهيون والأرض**، وهو يرى أن فلسطين هي المكان الوحيد في العالم الذي سيكون بوسع الشعب اليهودي فيه أن يصبح بروليتاريا طبيعية، لأن هذه المنطقة بعيدة بما يكفي عن مراكز الرأسمالية. وهناك عنصر يهودي جاهز لأن يتبلتر، والسكان من الأهالي

قريبون عرقيًا بما يكفي من القادمين الجدد. فهو يرى أن الفلاحين الفلسـطينيين أحفاد لعبرانيي وكنعانيني العصر القديم: ذلك أن اختلاطهم بالعرب القادمين من شبه الجزيرة العربية ضعيف. والدليل على ذلك، من الناحية الجسمانية، هو أن لا شيء يفرقهم عن اليهود السيفارديين، الأقرب إليهم مما إلى الأشكيناز. ومن ثم فسوف يتم استيعابهم دون صعوبات في الثقافة الأرقى التي يحملها القادمون الجدد. وبالتحاقهم بالمدارس اليهودية، سوف يتكلمون بالعبرية شأن اليهود. ومن ثم يتوجب تعزيز **الييشوف** الفلسطيني، الشرط الـذي لا غنـى عنـه لتكـوين بروليتاريا يهودية تدمج العرب، لأن اليهود، بحسب قوانين المادية التاريخيـة، يتمتعون بقوة إنتاج أعظم. وإذا مارفض فريق من الأهالي هـذا الاسـتيعاب، فسيكون بالإمكان منحهم حكمًا ذاتيًا ثقافيًا، في حين أن الأغلبية سـوف تتمتـع بالحكم الذاتي السياسي (فهو يفكر ضمن إطار بقاء الدولة العثمانية)(١٤).

ويبدأ المؤتمر الصهيوني السابع(١٥) أعماله في بال في ٢٧ يوليـو/ تمـوز ١٩٠٥. ويفتتحه نوردو بتأبين هرتسل. وكعلامة على الحـداد، يجـري رفـع الجلسة. وعند استئناف المناقشات، سرعان ما يتضح وجود توتر عظـيم فـي كلمات المتدخلين. فالواقع أنه يجري تناول مسألة أوغنده و، بشـكل مسـتتر، مسألة العرب. وتستمر المناقشة يومين. وتقدم البعثة التي أُرسلت إلى السـاحة تقريرها. وينتج منه أنه لا يمكن قبول العـرض البريطـاني لأن الإمكانيـات الزراعية للمنطقة قيد النظر إمكانيات هزيلة. ويرى أنصار المشروع الفلسطيني أنه يجب رفض الاقتراح جملةً وتفصيلاً. ويقترح زانجويل القيام، بعد توجيـه الشكر إلى حكومة صاحب الجلالة [إدوارد السابع]، بسؤالها عما إذا لـم تكـن مستعدة لوضع أرض أخرى تحت تصرف الصهيونيين. وعندئذ يحاول أنصار المشروع الفلسطيني تمرير اقتراح بجعل برنامج بال، الذي يُفهم منه أن فلسطين هي هدفه الوحيد، نصًا لا يمكن البتة إعادة النظر فيـه. والترابيـون، الـذين يشعرون أنهم أقلية، يرفضون شرعية ولايات عدد معين من المندوبين الـروس ويحاولون عرقلة الاقتراح. إلاّ أنه يجري التصويت عليـه واعتمـاده. بينمـا ينسحب الترابيون من المنظمة الصهيونية. ثم يجري النظر في المسائل الروتينية وينفضُّ المؤتمر في ٢ أغسطس/ آب ١٩٠٥.

وفي أروقة المؤتمر، يجري تناول المسألة العربية. ويبدو أن نوردو قد اقترح أنه، بما أن العرب على حافة التمرد على تركيا، فإنه سوف يتوجب [على الصهيونيين] أن يقترحوا على العثمانيين جماعة سكانية يهودية موالية قادرة على صون وحدة الدولة العثمانية. ولن يكون بوسع الدول الأوروبية، الحريصة على إبقاء الوضع القائم، إلاّ أن تسعد بذلك. بينما يطرح المناضلون السابقون في الفصيل الديموقراطي الفكرة المضادة والتي تتمثل في تعاون عربي – يهودي ضد الأتراك: ففي مقابل تلبية الطموحات القومية العربية، سوف يحصل اليهود على فلسطين. ويجري الاعتراض على فكرتهم بالحديث عن غياب مبرر يدفع العرب إلى التخلي عن هذه الأرض. ويؤكد أتباع أوسيشكين، أنه إذا لم يجر إعطاؤها لهم، فسوف يتعين انتزاعها بالقوة. ويرد عليهم خصومهم بأنهم لا يرون أين توجد القوة اليهودية. وفي جميع هذه المناقشات، لابد من ملاحظة أن الوحيدين الذين طرحوا فكرة طرد العرب هم الترابيون، وهم لم يفعلوا ذلك إلاّ لكي يبرهنوا على استحالة ذلك(١٦).

الترابيون

ينشق زانجويل وأنصاره على المنظمة الصهيونية ويؤسسون منظمة جديدة، هي المنظمة الترابية اليهودية (ITO)، ومقر قيادتها العام لندن. وهم يحصلون على مساندة من خصوم للصهيونية كلوسيان وولف ويستأنفون الاتصال بالسلطات البريطانية. بيد أن هذه الأخيرة أقل حماسة من ذي قبل: فالإيتو تبدو لهم أقل تمثيلاً [لليهود] من المنظمة التي أسسها هرتسل، والمستوطنون البريطانيون في الشرق الأفريقي يبدون عداوة حازمة لتكوين مستوطنة يهودية ذات حكم ذاتي. وسقوط حكومة المحافظين برئاسة بلفور في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٥ وصعود حزب الأحرار إلى تولي الحكم بقيادة كامبل – بانرمان إنما يجعل الوضع السياسي عديم الاستقرار إلى حد بعيد. والحال أن ونستون تشرتشل، الوكيل الجديد لوزارة المستعمرات، إنما يؤيد المشروع الأوغندي. وفي الانتخابات العامة في يناير/ كانون الثاني ١٩٠٦، والضرورية لتكوين أغلبية واضحة، نجد أن تشرتشل، الذي يرشح نفسه في مانشستر، حيث تعد

الجماعة السكانية اليهودية ذات وزن مهم، إنمَّا يأمل في الفوز بأصوات اليهود، ويقدم له زانجويل دعمه. كما أن الوكيل الانتخابي للسياسي الشاب يجري اتصالات مع ڤايتسمان، الذي أقام في مانشستر، حيث وجد وظيفة أستاذ للكيمياء في الجامعة. وليس تشرتشل وحده هو الذي قام بمثل هذا التحرك: فبلفور يلتقي هو أيضًا بڤايتسمان ويتحدث معه عن هدف الصهيونية(١٧). ويتم انتخاب تشرتشل بفضل أصوات الناخبين اليهود. وموقفه ليس انتهازيًا: فكما سوف تثبت ذلك بقية مسيرته السياسية، سوف يكون دعمه للنزعة القومية اليهودية ضمن إطار مصالح الإمبراطورية البريطانية المفهومة جيدًا عنصرًا ثابتًا في نشاطه السياسي.

وفي اللحظة المباشرة، تعبر وزارة المستعمرات، التي يقودها اللورد إيلجين، عن عداوتها لمشروع المستعمرة اليهودية. وبالرغم من عمل تشرتشل والأنباء القادمة من روسيا حول تفاقم أحوال الروس، يفشل زانجويل في محاولاته الرامية إلى الحصول على اقتراح حكومي بريطاني جديد(١٨). وكانت الطبقة السياسية البريطانية قد أفيدت علمًا من جانب رجال كڤايتسمان بأن التيار الرئيسي في الصهيونية إنما يتخذ موقفًا معاديًا من كل مشروع غير مشروع فلسطين. وعندئذ يتحول زانجويل إلى مشروع أميركي.

وبالرغم من علاقات إيتو الطيبة مع إيكا، إلاّ أن الأولى تظل حركة لا يعد طموحها إنسانيًا خيريًا، بل هو طموح سياسي: "إيجاد أرض على أساس حكم ذاتي لليهود الذين لا يمكنهم أو لا يريدون البقاء في بلدانهم الحالية"، وذلك لأن مسألة الهجرة مشكلة دولية لا يمكن معالجتها إلاّ سياسيًا، كما تثبت ذلك التحفظات المتزايدة للبلدان الغربية حيال استقبال مهاجرين جدد، خاصة عندما تكون هذه البلدان قد أشبعت بالفعل حاجتها إلى الأيدي العاملة. وعلاوة على معاداة السامية، فإن مسألة الممارسة الدينية، خاصة وجوب مراعاة عدم العمل يوم السبت، إنما تجعل من المستحيل مواصلة الهجرة الفردية، وتجعل من الضروري إيجاد أرض ذات حكم ذاتي. وهذا الحكم الذاتي سوف يتشكل في البداية على أساسٍ بلديٍ في أرض موجودة في بلد جديد، أي في بلد مفتوح أمام الاستيطان الأوروبي:

إن إهمال الجيل السابق إيجاد بلد من هذا النوع قد وضع الجيل الحاضر في هذا الوضع المهين الذي يتمثل في العجز عن توفير ملاذ لإخوتنا الفارين من القتل ومن أسوأ ضروب المعاملة. وإذا لم نضطلع اليوم بإيجاد هذا البلد، فسوف يُحكم على أحفادنا بأن يشهدوا كوارث جديدة وهم في حالة من العجز وانعدام الحول والقوة(١٩).

وشأن هرتسل، يرتأي زانجويل سيرورة تدريجية: فمن شأن هجرة أولى أن تبني البلد من الناحية الاقتصادية. وعندما يكون قد تم بناء البنية التحتية التي لا غنى عنها، سيكون بوسع الجماهير أن تستقر. وهذه الأرض لا يمكن الآن أن تكون فلسطين؛ فالآفاق الحالية فيها جد سيئة: ذلك أن الحكومة العثمانية معادية لحرية الهجرة؛ والاقتصاد المحلي لا يملك طاقات الاستيعاب الكاملة؛ ووجود العرب ليس عقبة معنوية بل هو استحالة عملية إذ لابد من انقضاء سنوات للوصول إلى تكوين أغلبية يهودية ولأن العرب، في تلك الأثناء، سوف يناضلون من أجل منع اليهود من الوصول إلى هذا الهدف. ومنذ عام ١٩٠٤، كان زانجويل قد تحدث عن "الخطر العربي" وقد اتهم الصهيونيين بأنهم لا يريدون رؤية الواقع. والحال أن ثورة جماعة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ قد دفعته إلى مضاعفة تحذيراته:

إن فلسطين، بمساحتها الهزيلة شبه المجدبة والتي تتألف من ١٠٠٠٠ ميل مربع، إنما يسكنها الآن بالفعل ٦٠٠٠٠٠ عربي وجماعات سكانية أخرى غير يهودية، وذلك بحيث إنه، حتى في ظروف ازدهار تبدو الآن غير مرجَّحة، سوف يتطلب الأمر نصف قرن آخر من التسلل السلمي كيما يتسنى لليهود أن يكونوا على قدم المساواة مع غير اليهود. ومن الممكن أن نتصور أنه قبل الثورة التركية كان من الوارد أن يكون بمقدور حكومة يهودية أن تحكم فلسطين مثلما يحكم بعض البيض ناتال، بيد أن الحكم الذاتي المحلي الممكن الوحيد، بعد الدستور الجديد، سوف يكون عربيًا.

وهناك ما لا يقل عن أربعين صحيفة عربية تصدر في القاهرة، اللواء، المؤيد، الدستور والمنبر، التي تعمل على نهضة الإسلام، وتتم ترجمة مقالاتها من جانب الصحف الفارسية والهندية والتترية، في حين أن الجمعية العربية الفتاة، في باريس، مقلِّدةً في ذلك جماعة تركيا الفتاة، تصدر أيضًا صحيفة بالفرنسية. وطلاب جامعة الأزهر الدينية جد

العريقة في القاهرة والذين يصل عددهم إلى ١٢٠٠٠، والقادمون من جميع أرجاء البلدان الإسلامية، يسهمون في نشر الخوف من استيلاء اليهود على القدس، تلك المدينة المقدسة بالنسبة لـ ٣٥٠ مليون مسلم. ومعارضة المسيحيين العرب أكثر شراسة، ثم إن معارضة اليهود العثمانيين أكثر شراسة أيضًا، وليست أقل قوة[٢٠].

لذا يجب الاتجاه إلى الولايات المتحدة، فهي الاتجاه الذي يختاره بشكل طبيعي تسعة أعشار المهاجرين اليهود: فعدم وجود دين للدولة وإمكانية العثور على عمل إنما يبرران هذا الخيار. والمراد ليس هو الاستقرار بالشكل الذي تم سلفًا في المدن الكبرى كنيويورك، لأن ذلك إنما يحفز ظهور حركات معادية للسامية. لذا يجب الذهاب إلى مناطق الغرب الأميركي التي ما تزال شبه خالية من السكان. وسوف يكون ميناء جالفستون مركز الهبوط. أمَّا الروَّاد، الذين سوف يجري اختيارهم بعناية، فسوف تقودهم إيتو: وبمجرد تكوين البنية التحتية، سوف تجيء الجماهير في أثرهم. والحال أن بلد إيتو هذا الأول سوف يكون بالإمكان أن يصبح نموذجًا يُقتدى به في تكوين بلاد أخرى[٢١].

وبالرغم من دعم شيف وعدد معين من الشخصيات اليهودية الأميركية الحريصة على عدم تضخم الأحياء اليهودية في المدن الكبرى، فإن مشروع جالفستون سوف يفشل شأن مشروع أفريقيا الشرقية وذلك بسبب عداوة السلطات، المنزعجة على الأرجح من الآثار التي سوف تترتب على تكوين أرض يهودية ذات حكم ذاتي والتي يمكن أن تتحول، في المستقبل، إلى دولة يهودية. وإلى عام ١٩١٤، سوف يحاول زانجويل وأنصاره العثور على أراض أخرى، في المكسيك، في كندا، في أستراليا، في أنجولا[٢٢]، في طرابلس الغرب، في بلاد الرافدين، وكل ذلك دون طائل كالعادة.

الصهيونية بعد موت هرتسل

بقاء المنظمة الصهيونية، بعد موت مؤسسها وانشقاق الترابيين، يعد بالفعل نجاحًا بحد ذاته. وإلى الحرب العالمية الأولى، لن تضاعف الحركةُ قواها، بالرغم من قيامها بلعب دور متزايد في فلسطين.

وغداة المؤتمر السابع، نجد أن الموضوع الرئيسي للاهتمام هو روسيا، التي دخلت للتو في ثورة، على أثر الحرب مع اليابان. وفي زمن المتاعب الجديد هذا، تتكاثر المذابح التي تستهدف اليهود وتتكثف الهجرة اليهودية، خاصة في اتجاه القارتين الأميركيتين. ويحاول وولفسون أن يعطي للمنظمة الصهيونية دور منسقٍ للمساعدات الإنسانية التي يجب تقديمها ليهود روسيا وذلك بعقد مؤتمر في بروكسل. بيد أن هذه المحاولة إنما تمنى بالفشل. فالمؤسسات الإنسانية الخيرية معادية للهجرة بينما يخشى الصهيونيون الروس من أن يؤدي الإصرار على تقديم المعونات في اللحظة المباشرة إلى استبعاد آفاق الأمد البعيد، ولايناسب، من ثم، أطروحات الترابيين. ويبدو أن مجلس الدوما الأول الذي جرى انتخابه على أثر الثورة (وهو مجلس يضم نوابًا من اليهود) يميل إلى إصدار تشريع بتحرير يهود الإمبراطورية الروسية، بيد أن القيصر يحل المجلس قبل أن يتجه إلى الفعل. ومجالس الدوما التالية أقل ليبرالية والرجل القوي في الحكومة القيصرية، ستوليبين، ينسى وعوده الخاصة بالعمل تدريجيًا في اتجاه التحرير.

وفي داخل الصهيونية الروسية، نجد أن أوسيشكين، الذي يقود لجنة أوديسا، يواصل التشديد على وجوب إعطاء الأولوية المطلقة لاستيطان فلسطين. وهو يتعرض للنقد من جانب أولئك الذين يرون أن هذه الأولوية المعطاة في الأمد الطويل لا يمكنها تلبية الحاجات الملحة ليهود روسيا. وهم ينجحون في عقد مؤتمر للصهيونيين الروس في هلسنكي في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٦. وفي هذا المؤتمر، يعلنون التمسك ببرنامج بال، لكنهم، في الوقت نفسه، يطالبون، في الحاضر، بحكم ذاتي قومي في داخل الإمبراطورية الروسية: إذ "لا مستقبل دون حاضر"(٢٣).

وهذا التطور نفسه نجده أيضًا في النمسا ـ المجر، حيث يحصل الصهيونيون على تمثيل برلماني من أربعة أعضاء يتيحون لهم قوة تأثير معينة، وذلك على أثر تساوٍ نسبي بين الأحزاب الجرمانية ـ الإيطالية والسلافية. على أن عداوة البولنديين تحول دون أي اعتراف باليهود من حيث كونهم شعبًا يتمتع بحقوق قومية خاصة، في حين أن الفكرة القومية تتقدم بين يهود الإمبراطورية

بأشكالها المختلفة (الصهيونية أو الحكم الذاتي الثقافي القائم على اليديِّة)[٢٤].

وعند الاشتراكيين الصهيونيين، إلى جانب خطاب بوروخوف الماركسي، تتطور ـ بتأثير من أهارون ديڤيد جوردون ـ رؤية للحياة اليهودية أكثر جماعية وأكثر صوفية. فنحن بإزاء ديانة عمل بدني حقيقية ضمن إطار جماعة متلاحمة تلاحمًا وثيقًا. وهنا نجد من جديد مؤثرات تولستوية بشكل واضح[٢٥]. ويتواجد أتباع جوردون في المنظمة السياسية التي تأسست في عام ١٩٠٥، منظمة هابوعيل هاتسائير (العامل الفتي).

والحال أن ثورة ١٩٠٥ قد استثارت موجة هجرة يهودية جديدة إلى فلسطين، هي **العاليا** الثانية. إذ يصل إلى فلسطين نحو ٤٠٠٠٠ يهودي بين عامي ١٩٠٤ و١٩١٤. وبسبب مصاعب الإقامة، يرحل عنها جانب كبير منهم. وتضم هذه الهجرة نواة من نحو ٢٠٠٠ مناضل متأثرين تأثرًا عميقًا بالأفكار الثقافية والعملية والاشتراكية. وهم شبان (ثلاثة أرباعهم يقل عمر الواحد منهم عن خمسة وعشرين عامًا) منحدرون من الفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة، كانوا قد ناضلوا بالفعل غالبًا في صفوف منظمات سياسية كبوعالي زيون أو هابوعيل هاتسائير[٢٦]. وسوف يكون دورهم ملحوظًا في تاريخ الحركة الصهيونية و**الييشوف** ثم في دولة إسرائيل فيما بعد.

والحاصل أن وولفسون ونوردو متمسكان بصهيونية سياسية موروثة من هرتسل. وهما يسعيان دومًا إلى التوصل إلى اتفاق مع السلطان وذلك في مقابل سداد الديون العثمانية. فتتكرر المفاوضات نفسها، مثلما يتكرر انعدام النتائج. على أن وولفسون يبدو معتدلاً في طلباته: فهو يوسع حقل الاستيطان ليشمل مجمل سوريا، ويقترح هجرةً سنوية قوامها ٢٠٠٠ أسرة على مدار ما بين عشرين وخمسة وعشرين عامًا، وتبني الجنسية العثمانية مع ما ينطوي عليه ذلك من واجبات بالنسبة لجميع القادمين الجدد وقيادة مشتركة للعملية كلها من جانب المنظمة الصهيونية والإدارة العثمانية[٢٧]. وتشير هذه المقترحات إلى تعديل حقيقي لخط الصهيونية السياسية، التي تميل إلى وضع نفسها في خدمة العمل الاستيطاني جد العزيز على أفئدة الصهيونيين العمليين.

والمؤسسة الصهيونية الأولى التي تعمل في فلسطين هي بنك أنجلو ـ

باليستاين، وهو مؤسسة تابعة للصندوق الاستيطاني اليهودي. وفي حياة هرتسل، في عام ١٩٠٣، استقر هذا البنك في القدس تحت قيادة ديڤيد ليڤونتين، بهدف تشجيع الاستثمارات اليهودية في فلسطين. وهو بنك صغير يفتح فروعًا له في يافا والخليل وصفد وحيفا وبيروت والقسطنطينية. وفي هاتين المدينتين الأخيرتين، نجد أنفسنا بإزاء جهازين لمراقبة الوضع السياسي بأكثر من كونهما مؤسستين اقتصاديتين: وإذا كان ممثل التحالف الإسرائيلي العالمي في القدس يسعد لتبني الصهيونيين للحلول العملية التي طرحها خصومهم أنصار المساعدات الإنسانية الخيرية[٢٨]، فإن هذا البنك إنما يستثير قلق الباب العالي، الذي يفكر في وقت من الأوقات في حظر وجوده[٢٩]. وفي فلسطين، يندمج الوجود اليهودي في لعبة الدول العظمى: فالتحالف الإسرائيلي العالمي مع فرنسا وإيكا مع بريطانيا العظمى والمنظمة الصهيونية مع ألمانيا[٣٠]. ونقل مقر المنظمة يعزز الاتجاه الفرنسي إلى اعتبار الحركة الصهيونية أداة بيد ألمانيا.

وتحول القيادة الصهيونية إلى تقديم دعم للصهيونية العملية إنما يتواجد أيضًا في مناقشات المؤتمر الصهيوني الثامن، الذي ينعقد في لاهاي من ١٤ إلى ٢٠ أغسطس/ آب ١٩٠٧[٣١]. واختيار هذه المدينة بدلاً من بال يجد تفسيره في انعقاد مؤتمر السلم الدولي في العاصمة الهولندية، حيث يأمل الصهيونيون في أن يجتذبوا بذلك اهتمام الشخصيات الحاضرة. ويشير وولفسون إلى أهداف الصهيونية الثلاثة: انتهاج سياسة يهودية، تهيئة الشعب اليهودي، تهيئة البلد اليهودي. ويشدِّدُ نوردو على أهمية انتماء الصهيونية إلى الحضارة الغربية:

> نحن لسنا حركة إحسان ونحن لا نوزع صدقات. كما أننا لا نرتد إلى البربرية ولسنا متعصبين دينيين. إننا نريد مد حدود أوروبا إلى نهر الفرات. ونحن لا نهدف إلى اتباع سياسة أنانية، بل نهدف إلى وجود يتناسب مع نبوغنا. وما خلق الصهيونية ليس العداء للسامية بل خلقها شعور عميق بالنشاط القومي. وعلينا، إمَّا أن نكون شعبًا، أو أن نختفي.

ويذكِّرُ سوكولوف بالمذابح الأخيرة ويتحدث عن نجاح صندوق الاستيطان. وهو يصف تقدم الصهيونية في مختلف بلدان العالم. ويدور نقاش حول مدى ملاءمة الدخول في اللعبة السياسة الداخلية في روسيا والنمسا (والصهيونيون

السياسيون معادون لذلك، لأن من شأنه عرقلة العمـل الديبلوماسـي) وتنظـيم الاستيطان في فلسطين. وربما للمرة الأولى، يعرض ڤايتسمان، فـي خطبتـه، فكرة الصهيونية التركيبية، أي الجمع بين الصهيونية السياسـية والصـهيونية العملية في مركبٍ واحد: فالدول العظمى ـ وفي المقام الأول بريطانيا العظمى ـ لن تأخذ الصهيونية مأخذ الجد إلاّ إذا امتلك الصهيونيون قاعدة راسخة بمـا يكفي في فلسطين، تسمح لهم بأن يظهروا في صورة القادرين على امتلاك هذا البلد؛ وعندئذ سيكون بوسع الصهيونية أن تبدو في نظر الحكومات بوصفها حلاً دوليًا للمسألة اليهودية الخطرة(٣٢).

ويجري انتخاب لجنة عمل محدودة من ثلاثة أشخاص مهمتها تولي قيـادة المنظمة: وولفسون (رئيسًا)، وكاهن، وهو مصرفي هولندي مؤيد للصـهيونية السياسية والپروفيسور أوتّو واربورج. والحال أن هذا الأخير، والذي ينتمي إلى عائلة واربورج الثرية، وهم أصحاب بنوك ألمان وأميركيون، كان قـد كـرس نشاطه للعمل في فلسطين، خاصة في مجال الزراعة. وبوصفه ألمانيًـا، فإنـه ينتمي إلى يهود الغرب؛ وبوصفه صهيونيًا عمليًا، فإنه مقبول من الصـهيونيين الروس.

العاليّـا الثانية وفلسطـين

في فلسطين نفسها، طبيعي أن النقاش حول العلاقات التي يجب أن تكـون مع السكان العرب يتخذ مسارًا ملموسًا أكثر مما في أوروبا. ففي عـام ١٩٠٦ و١٩٠٧، نجد عدة مواقف في الأوساط الصهيونية: فبالنسبة لمجموعة أولى من الأشخاص، تعد المسألة العربية المسألة "المحتجبة" التي لم تتوفر الجرأة علـى تناولها إلى الآن؛ وإذا كان المسيحيون، بتأثير من المبشرين، معادين للسـامية، فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالمسلمين؛ ويجب انتهاج مسلك مثالي سعيًا إلى الفوز بحسن نوايا الأصحاب الحقيقيين لـلأرض، والتوقـف عـن إزعـاجهم بتصريحات السياسة العليا المطالبـة بالاسـتيلاء علـى فلسـطين؛ وبمـا أن الصهيونيين سوف يساعدون على ثراء السكان الأهليين بنشاطاتهم الاقتصـادية وبوضع شبكاتهم من المدارس ومن المستوصفات تحت تصرف العرب، فمـن

الممكن تمامًا تصور إمكانية التوصل إلى وفاق؛ بل يمكن الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك والأمل في اندماج تدريجي فيما بين الشعبين المنحدرين من أصل سامي واحد.

ويعبر اتجاه ثان عن آراء متعارضة تمامًا مع هذه الآراء: فاليهود قد عاشوا على مدار ألفي عام بين الشعوب الأكثر تحضرًا في الأرض، ولا يجب لهم أن يرتدوا إلى مستوى الأهالي، أشباه المتوحشين. والانفصال يفرض نفسه، و، بما أن اليهود يتمتعون بتفوق ثقافي، فسوف يتمكنون من فرض سيطرتهم تدريجيًا. فاليهود لم يأتوا إلى فلسطين لكي يكونوا تحت رحمة السكان العرب وإنما لكي يكونوا أقوياء. ويجب التباعد عن العرب. وسيجري عقد اتفاق مرض معهم عندما تسمح بذلك علاقة القوى. وسيكون اليهود منفصلين لكنهم سيكونون نسيجًا متحدًا. بل إن البعض يؤكد أن اختلاط الأهالي بالمستوطنات إنما يمثل خطرًا ثقافيًا على **الييشوف**.

والحال أن مقاربة ثالثة، ذات طابع ليبرالي أكثر، إنما تقع في موقع وسطي بين دعاة الاندماج ودعاة الانفصال. إذ تجب مراعاة جانب العرب، وتقديم أقصى عون ممكن لهم، بيد أنه يجب دومًا عدم الاطمئنان إلى نواياهم. وعبر تجنب مباغتتهم بأعمال أو بتصريحات في غير أوانها، سيكون بالإمكان مواصلة العمل البنَّاء الذي يدعم قوة **الييشوف** في فلسطين(٣٣).

أمَّا الموقف المشحون بالعواقب أكثر من سواه بالنسبة للمستقبل فهو موقف الاشتراكيين. فباستعادته للخطاب المتمركس عن نضال الطبقات، يذهب إلى أن العداوة العربية إنما ترجع إلى الاستغلال الاقتصادي لليد العاملة العربية من جانب مستوطني **العاليّا** الأولى. فإذا ما تم الفصل بين اليهود والعرب، فسوف يتوقف هذا الاستغلال تلقائيًا، والنتيجة أن المسألة العربية سوف تكون أهميتها أقل وزنًا. وهذا الموقف إنما يمزج بين عدة سلاسل سببية: فهو يتماشى في آن واحد مع استعادة ميكانيكية للخطاب الاشتراكي ضمن إطار استعماري، ومع تكييف هذا الخطاب ضمن نسق مرجعيات يعد المشروع القومي فيه ركيزة أساسية، ومع مزج هذا الخطاب بمشروع إحياء عن طريق العمل اليدوي، كما يتماشى هذا الموقف مع وجود مشكلة واقعية، ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية

تهد بمساءلة طبيعة الاستيطان.

ونجاح استعادة زمام الأمور التي قامت بها في مستهل القرن إيكا، التي نجحت في توفير ربحية اقتصادية للزراعة اليهودية، إنما يطرح المعضلة الحاسمة الخاصة بمستقبل هذه الزراعة: فإذا ما واصلت السير على الدرب المرسوم الذي يتمثل في اتباع النموذج الاقتصادي المشرقي المستند إلى نظام مزارع تستخدم اليد العاملة الأهلية وتصدِّرُ منتجات ذات قيمة مضافة عالية إلى السوق الأوروبية، فإنها إنما تجازف بألاّ تعود زراعة يهودية إلاّ من حيث تأطير المستوطنات لها. والحال أن ڤايتسمان، الذي يزور فلسطين لأول مرة في عام ١٩٠٧، إنما يعبر في انطباعاته عن رحلته عن الشعور العام الذي أحسَّ به جميع المراقبين في ذلك العصر. فإدمون دو روتشايلد قد أدى لقضية الاستيطان عملاً يفوق بكثير كل العمل الجماعي الذي أدته المنظمة الصهيونية. وبتصرفه كرجل دولة، أثبت أن فلسطين قابلة للاستيطان فيها وأن اليهود هم الشعب المناسب لاستيطانها. وهكذا فإن المستوطنين قد أقاموا أسس الدولة القادمة. بيد أن مسألة اليد العاملة العربية تمثل عائقًا جسيمًا. فبحسب ڤايتسمان، تعتبر نسبة ما بين ٦٠ إلى ٨٠% من مزارعي المستوطنات عربية: وفي بيتا ـ تيكڤا، هناك ٨٠٠ مزارع عربي من إجمالي قدره ١٠٠٠ مزارع، وفي ذكرون ـ ياكوڤ، يحيا ٤٠٠ فلاح عربي في المستوطنة. ونتائج هذا الوضع مزدوجة: فالعرب يتمدنون على حساب جيرانهم اليهود، ورفاهية المستوطنات إنما تعتمد كثيرًا على السكان العرب. وبما أن العرب يحتفظون بتعلق طبيعي بالأرض، بحب غريزي لها، فمن الوارد أن يشعروا بأنهم لا غنى عنهم وأن يطالبوا بحق معنوي. وطالما كان هناك مثل هذا الاستخدام لليد العاملة العربية، فلن يكون بالإمكان اعتبار المستوطنات يهودية بالفعل. ويتعين على المنظمة اليهودية أن تبدأ بالعمل في فلسطين وأن تشتري الأراضي بحسب استراتيجية تسمح بتكوين منطقة متصلة تخص اليهود وحدهم بالكامل(٣٤).

والحاصل أن هذا الإدراك الذي يتوفر لمراقب خارجي إنما يتكرر بشكل أكبر لدى المستوطنين، من العاليّا الثانية، وخاصة لدى أتباع بوروخوف وجوردون، وهم مناضلون متحمسون في سبيل إحياء عن طريق العمل اليدوي

للإنسان اليهودي الذي عانى من الاغتراب من جراء العيش في الدياسبورا. ونجد مثالاً لمسيرة هذه الشبيبة جد المسيَّسة في السنوات الأولى للشاب ديڤيد جرين في فلسطين، والذي سيحمل فيما بعد اسم ديڤيد بن جوريون. فهذا الرجل الذي ولد في عام ١٨٨٦ في پلونسك، في پولنده الروسية، ابنًا لمناضل من أوائل مناضلي أحبَّاء صهيون، إنما يتبنى في صدر شبابه الصيغة الاشتراكية للصهيونية والمتمثلة في اتجاه پوعالي زيون ويشارك بنشاط في السجالات الحادة ضد البوند. وبعد أن تمتع بالفعل بتكوين سياسي كامل، يهاجر في عام ١٩٠٦ إلى فلسطين، ولدى وصوله إلى يافا، يصدمه مشهد المدينة العربية: فهذه ليست بلد إسرائيل. وفي الساعات التالية، يرحل إلى پيتا ـ تيكڤا. وبعد ذلك بأعوام كثيرة، سوف يتذكر الظروف المهينة التي كانت سائدة هناك(٣٥):

في پيتا ـ تيكڤا، كنت أموت من الجوع، بالمعنى الحرفي للكلمة. وكنت صغيرًا وهزيل المظهر، الأمر الذي لم يسهل محاولاتي الرامية إلى الحصول على عمل. وفي كل يوم، كان مئات من العرب يغزون الحقول ومزارع الكرم، أمَّا نحن، اليهود الشبان، فكنَّا نتجمع قرب الكنيس، على أمل أن يمر بنا أحد المزارعين. فإذا ما ظهر واحد منهم، كان يتحسس عضلات المرشحين للعمل ليرى ما إذا كانوا أقوياء بما يكفي لأداء العمل في الحقول. وبما أن ساعديَّ كانا آنذاك هزيلين ـ لن أنمو بالفعل إلاَّ بعد ذلك بعام، عندما أصبح أنا نفسي رائدًا ـ، فلم أكن أحصل عمومًا إلاَّ على مجرد نظرة. وقد تطلب الأمر عشرة أيام كيما يتسنى لي انتزاع عملي الأول ـ ثم إنه كان يتألف من دفع عربة يد ذات عجلة واحدة محملة بالسماد إلى مزارع أشجار البرتقال، وهو عمل ثانوي إن كان هناك عمل ثانوي، وكنت أحصل على أجر بائس كان يكفي بالكاد لإطعامي.

وبما أنه يتمتع بإرادة حديدية، فإنه يتشبث بهذا العمل البغيض بينما تجري معاملته كعربي:

كتب إلى والده يقول(٣٦):

هذا ليس عملاً سهلاً، وهو يتطلب الكثير من الصبر والحمية من جانب أولئك الذين لم يعملوا قط [بأيديهم] ـ وتلك حالة غالبية العمال ـ كيما يتحملوا وهج الشمس ويفتتوا التربة الصلصالية الحمراء [...]. ويسيل العرق، وأيدينا مغطاة بالجسآت

والخدوش، وتبدو أعضاؤنا على وشك التفكك. [...] وفي الوقت نفسه، يقف المالك أو وكيل أعماله على مقربة منّا ويصيح يلّلا!

وهو يمر بمحنة الجوع والملاريا مع مواصلته نشاطاته السياسية بالرغم من ذلك. ويسعى إلى توحيد المنظمتين الاشتراكيتين، بوعالي زيون وهابوعيل هاتسائير، بيد أن هذا السعي يمنى بالفشل. وبعد شهر من وصوله، يشارك في المؤتمر الأول لبوعالي زيون فلسطين، وهي آنذاك جماعة صغيرة، ويرفض أطروحة يسار الحزب، والتي تدعو إلى تكوين بروليتاريا مختلطة، عربية ــ يهودية. فهو يرى أن البروليتاريا اليهودية سوف تنبثق من اقتصاد رأسمالي متقدم، أي من اقتصاد يهودي، في حين أن البروليتاريا العربية سوف تنبثق من اقتصاد إقطاعي، متخلف. وسوف يتعين على الطبقتين البروليتاريتين أن تتطورا بشكل منفصل. وتتطلب الرأسمالية تكوين يد عاملة متعلمة ونشيطة؛ وسوف يتم الوصول إلى مجتمع اشتراكي بفضل نضال الطبقات، والذي يفترض دولة يهودية ويفترض في مرحلة أولى حكمًا ذاتيًا يهوديًا.

وبعد أن مر بن جوريون بعدة مستوطنات زراعية للعاليّا الأولى، يرحل للاستقرار كرائد في الجليل في خريف عام ١٩٠٧، حيث لا تستخدم إيكا اليد العاملة العربية. وفي مؤتمر الحزب في ٢٣ سبتمبر/ أيلول ١٩٠٧، تحت رئاسة إسحق بن ــ زفي، الذي وصل من روسيا في مارس/ آذار من ذلك العام، يشارك في تعريف مبدأ الحزب: في فلسطين، يتوجب على مناضلي المنظمة، شأن جميع الاشتراكيين الآخرين في العالم، أن ينظموا العمال من أجل نضال الطبقات، كما أن لهم رسالة أخرى: حفز الهجرة اليهودية وبناء الدولة؛ والنقابات هي أيضًا أدوات للنضال القومي، ومن ثم فإن العرب لا يمكنهم الانتماء إلى الحزب أو إلى النقابات، إذ لا يمكن توقع أن يكرسوا أنفسهم لإقامة دولة يهودية[٣٧].

أمَّا المنظمة الاشتراكية الأخرى فهي تطوّر شواغل ملموسة أكثر لكنها تؤدي إلى استنتاجات مماثلة. فهابوعيل هاتسائير تعرِّف في عام ١٩٠٦ الأولوية المطلقة على أنها "اقتحام العمل" (**عقْودا إبريت**): والمقصود أولاً هو بذل عمل

على الذات سعيًا إلى أن يعاود اليهود تعلم الأعمال الزراعية، ثم تطبيق نضال الطبقات ضد أرباب العمل اليهود للحصول على أجور أفضل. ونضال الطبقات هذا، كما في كل وضع استعماري، إنما يصطدم بالواقع العرقي لأن الملاك يستخدمون اليد العاملة العربية الأقل أجرًا. واقتحام العمل يعني، باسم المصالح القومية كما باسم المصالح الطبقية، إلغاء العمل العربي والاستعاضة عنه بعمل يهودي بشكل حصري. وهكذا سيكون بالإمكان التوصل إلى مستوى معيشة عمالية من النوع الأوروبي. وفي مرحلة أولى، يمكن الاكتفاء بتخصيص الأعمال الأعلى تأهيلاً والأفضل أجرًا للقادمين الجدد(٣٨).

وتتبع المفارقة التاريخية من أن المتمسكين بنضال الطبقات هم الذي يُدخلون النزاع القومي إلى فلسطين. ووضع التنافس الاقتصادي هذا بين اليدين العاملتين إنما يترافق مع خطاب تحقيري، بل عنصري بشكل سافر، من جانب العمال اليهود حيال منافسيهم العرب.

وتنشب منازعات اجتماعية عديدة في الأعوام الأخيرة للنظام الحميدي بين الملاك والعمال اليهود. والنتائج متباينة: فأصحاب المزارع يقدمون تنازلات، خاصة فيما يتعلق بالأعمال المتخصصة، لكنهم لا يترددون أيضًا في فصل العمال اليهود معتمدين على اليد العاملة العربية. وهم ليسوا أقل قومية في نزعتهم من خصومهم. فبوجه عام، يدعون إلى فصل بين اليهود والعرب في الحياة اليومية، لأنهم يرون أن التعايش إنما يستتبع انحدارًا لمستوى اليهود الثقافي. وبحكم قوة الأشياء وعلى أثر تجارب العصر السابق القاسية، نجد أنهم متعلقون بالربحية الاقتصادية للاستثمارات ويعتبرون الاحتجاج الاشتراكي استيرادًا مصطنعًا لنضال الطبقات الأوروبي. وأولئك الذين يسميهم خصومهم من باب الاحتقار بـ"الأفندية اليهود"، وأشهر ممثل لهم هو آرون أرونسون، وهو عالم زراعي أدى إلى اشتهاره اكتشاف القمح البري، الذي يشكل سلفًا للحبوب المزروعة، هم في الواقع أنصار استيطان وفق النموذج الفرنسي في الجزائر، والمستند إلى زراعة المحاصيل التصديرية وإلى استخدام اليد العاملة الأهلية منخفضة الأجر. وهم يرون أن تكوين الأملاك العقارية يجب أن يكون نتيجة لاستثمارات خاصة، ويأخذون على الاشتراكيين أنهم يشكلون خطرًا مميتًا

بالنسبة لمستقبل الييشوف.

وفي عام ١٩١٧، سوف يحدد آرونسون على النحو التالي مواقفهم في مذكرة موجهة إلى الاستخبارات البريطانية(٣٩):

لقد قيل وأشيع ونُشر الكثير حول هذه المغامرات المتهوسة. لقد ارتكبوا الكثير من الأخطاء، ولكن في حق اليهود وحدهم. فلم يكن عربي واحد على الأقل قد جرى تشغيله في الممتلكات اليهودية؛ و لم يحدث أن كابد عامل عربي واحد خسارة بسببهم. لكن تطور العمل اليهودي كابد الكثير. فالمستثمرون الممكنون قد جرى تثبيط هممهم وتمت زعزعة ثقتهم عن طريق أعمال التخريب التي قام بها هؤلاء المتهوسون، لاسيما أننا لم يكن بوسعنا في قرانا أن نلوذ بالسلطات التركية الفاسدة لكي تفرض القانون والنظام. وكان علينا أن نعتمد على مؤسساتنا وعلى قواعدنا التي فرضناها على أنفسنا بأنفسنا والتي لا تحترمها أحيانًا هذه العناصر التي تنشر الاضطراب.

إن كل التعارض بين اليد العاملة اليهودية واليد العاملة العربية إنما يؤول إلى هذا: حفنة من المتحذلقين المتهوسين يسعون إلى "حماية" الفقراء العرب من "الاستغلال الرأسمالي"، وسعيًا إلى هذه الغاية يحجبون عنهم بسخاء الحصول على أي عمل.

والحال أن تعارض المصالح فيما بين پروليتاريا أوروبية الأصل ويد عاملة "غير بيضاء" تكلفتها أقل إنما يعد بعيدًا عن أن يكون الواقع في فلسطين وحدها. فبضع آلاف من الأشخاص المعنيين في المستوطنات الزراعية الصهيونية لا يفعلون سوى إعادة إنتاج وضع نجده أيضًا في كل مكان تقريبًا من العالم خلال الفترة التي تسبق الحرب العظمى [العالمية الأولى]: فتلك هي الحال، مثلاً، في أستراليا أو في كاليفورنيا، حيث تتوصل النقابات العمالية إلى فرض حظر على استيراد اليد العاملة الآسيوية، وفي جنوبي أفريقيا، حيث ينجح العمال البيض في الاحتفاظ لأنفسهم بالوظائف الأعلى تأهيلاً. وغير بعيد عن ذلك، في مصر، يحتشد العمال ذوو الأصل الإيطالي أو اليوناني والمحميون بالامتيازات لحظر استخدام العمال المصريين، الذين من شأنهم خفض الأجور إلى مستوى لايتحملونه.

وفي النزاعات التي تحدث في المستوطنات الريفية اليهودية، يبدو أن

العرب يتميزون بسلبية كبيرة، ربما بسبب ما بينهم والملاك من تشارك في المصالح. ومن ثم فإن أعمال العنف الأولى بين اليهود والعرب لا تنشب في العالم الريفي وإنما في المدينة الثانية من حيث الأهمية في فلسطين، في وسطٍ مشرقيٍ، في يافا، وذلك في الوقت الذي يدخل فيه النظام الحميدي الشهور الأخيرة لوجوده.

حوادث يافا

مهاجرو العاليّا الثانية، شأن مهاجري الأولى، يستقرون في غالبيتهم في المراكز الحضرية، القدس، يافا (في هذه المدينة الأخيرة، كان هناك آنذاك ٦٠٠٠ يهودي من عدد إجمالي قدره ٤٤٠٠٠ نسمة) و، خارج السنجق، حيفا (٢٠٠٠ يهودي). ولا تختلف نشاطاتهم اختلافًا ملحوظًا عن النشاطات المألوفة في المدن المشرقية الكبيرة، حيث الصدارة للأعمال في الحرف والتجارة. ونجد فقط مكوّنًا مهمًا من المهن الحرة (مهندسين، أطباء، أطباء أسنان، قابلات) ومن المدرسين(٤٠). وإذا كانت التعريفات المهنية لا تتباين مع الممارسات السابقة، فإن مواقف القادمين الجدد إنما تعتبر مختلفة. فهم في الأغلب غير متدينين وعازمون على إظهار سلوك "حديث" أكثر، "متحرر" أكثر و"أوروبي" أكثر. وهم، في هذا، يعدون ممثلين لأوساط الشبيبة المتعلمة في روسيا، اليهودية أو غير اليهودية، خاصة في العلاقات بين الجنسين: فالمطلب الأنثوي والممارسات الاجتماعية هي أقوى بكثير مما في أوروبا الغربية(٤١).

والرغبة في مغادرة روسيا القاهرة رغبة عامة عند السكان اليهود، خاصة خلال فترة الدورة الثانية للمذابح التي تستهدفهم، بيد أن الذهاب إلى فلسطين إنما ينطوي على قطيعة أوضح بكثير من الذهاب إلى أميركا الشمالية. والنسبة الضعيفة لأولئك الذين يختارون العاليّا ذات الأفضلية والتي تتجه إلى الولايات المتحدة (أقل من ١%)(٤٢) إنما تدل على أن الصهيونية العملية بعيدة عن أن تكون حركة جماهيرية. وأولئك الذين يذهبون إلى أرض إسرائيل ويستقرون فيها بالرغم من المصاعب يشكلون نخبة مناضلة ومتحمسة. فهم يعتبرون هذا البلد بلدهم وليس بوسعهم إلاّ أن يرفضوا بحدّةٍ كل ما من شأنه أن يشكل إحياءً

لمواقف الخضوع التي عانوا منها في الدياسبورا. كما أن بعضهم كانوا قد شاركوا في مجموعات الدفاع الذاتي التي ظهرت بين الطوائف اليهودية في أوقات المذابح.

وهم، إذ يصلون إلى فلسطين، إنما يريدون إبقاء رءوسهم مرفوعة وإعلان مطالبهم القومية. وإذ يُظهرون حرية كاملة في النبرة وفي الشمائل، إنما يبدون غير مستعدين لمراعاة جانب مجتمع عربي جد محافظ، خاصة فيما يتعلق بالنساء. فالتعارض بين اليهود والعرب ليس تعارضًا سياسيًّا وقوميًّا فقط، بل هو أيضًا تعارض ثقافي، بالمعنى الأوسع للمصطلح.

وفي عام ١٩٠٤، كان قد جرى سحب كاظم بك، متصرف القدس وعدو نجيب عازوري، وكان الباب العالي قد حدد لخلفه أحمد رشيد بك أن عليه أن يطبق بحزم أشكال الحظر المتعلقة بالنشاطات اليهودية في فلسطين(٤٣). والواقع أن كاظم بك كان قد بدا مناسبًا بشكل خاص للصهيونيين وقد أكثر من سلفيات الإدارة المحلية من بنك أنجلو ــ پاليستاين الصهيوني، الأمر الذي سَهَّلَ قيام البنك في القدس. والحال أن جميع متصرفي سنجق القدس قد وجدوا أنفسهم متورطين في المعضلة نفسها: فمن جهة، كان من المطلوب منهم مكافحة النشاطات الصهيونية، ومن الجهة الأخرى، كان من المطلوب منهم أن يضاعفوا الحصيلة الضريبية سعيًا إلى مساعدة المالية العثمانية العاجزة بصورة مقيمة. وأحد الموارد الأسهل قابلية للإنماء كان يتمثل في الضريبة على نقل الملكية العقارية، الأمر الذي قادهم إلى غض البصر عن الاستحواذات العقارية التي يقوم بها اليهود. ثم إن جميع رجال الإصلاحات هؤلاء كانوا حريصين على التنمية الاقتصادية، ومن ثم فقد شجعوا نشاطات اليهود في فلسطين. وقد واصل رشيد بك ممارسات كاظم بك وتعامل مع بنك أنجلو ــ پاليستاين. وفي عام ١٩٠٦، جرى عزله هو بدوره على أثر شكايات مصدرها ميله إلى الصهيونية. أمَّا أكرم بك، الذي يحل محله في أواخر عام ١٩٠٦، فهو عازم على إبداء حزمه. فيفتح الملفات الحساسة، كالإعفاءات الضريبية التي يستفيد منها التحالف الإسرائيلي العالمي في فلسطين، ويطلب دعمًا من الباب العالي في مواجهة لا مفر منها مع ممثلي الدول العظمى الحامية ليهود فلسطين(٤٤).

وفي أواخر عام ١٩٠٧ ومستهل عام ١٩٠٨، نجد أن المراقبين، وقد فتحوا أعينهم جيدًا لمرّة، يرصدون سخطًا عامًّا في الدولة العثمانية ويتوقعون حركة اجتماعية مهمة وشيكة(٤٥). وفي فلسطين، يحتدم السخط مع مسألة الصهيونية. وفي يافا، نجد أن القائمقام، عسّاف بك، وهو مسيحي، يلتزم التزامًا دقيقًا بتنفيذ تعلميات الباب العالي والمتصرف ويكثر من التدابير المعادية للمؤسسات اليهودية، ومن بينها التحالف الإسرائيلي العالمي وإيكا. والحال أن قلق الموظفين العثمانيين والسكان العرب شديد لاسيما أنهم قد رصدوا التغيرات التي طرأت على السلوك والتي ترجع إلى المهاجرين الجدد وأنهم قد وجدوا صدى لمناقشات المنظمات الاشتراكية.

وهناك عدة روايات متناقضة عن حوادث يافا في مارس/ آذار ١٩٠٨. فبحسب مصدر صهيوني معاصر لهذه الحوادث، تقع المسئولية الرئيسية على المسيحيين العرب: فبما أنهم يشكلون طبقة سائدة مشرقية، فقد رأوا في المهاجرين اليهود منافسين خطرين مستعدين للحلول محلهم؛ وهم مشرَّبون بمعاداة قوية للسامية ترجع إلى التعصب الديني وإلى تأثير المبشرين الكاثوليك والمبعوثين الروس؛ وكان القائمقام قد تأثر بهم كما تأثر بقنصل روسيا في يافا، وهو عدو للاشتراكيين اليهود والفارين من الخدمة العسكرية، ومن هنا تدابير القائمقام المعادية للمهاجرين؛ والحق أن مسلك الشبان اليهود العلني غير مُرضٍ وأن سلوك الأصدقاء مع صديقاتهم قد أثار شهوات عدد من المسلمين، ومن هنا الاعتداءات التي لم تعاقب السلطات أحدًا عليها، حتى عندما كان اليهود يمسكون بالمذنبين ويسلمونهم إلى الشرطة؛ وفي ١٦ مارس/ آذار، على أثر مشاجرة أولى، ينظم الشبان اليهود أنفسهم ويتمترسون في فندق لمواجهة عودة من جانب المهاجمين؛ وعندئذ نجد أن الشرطة، بمساعدة من السكان العرب، تقتحم الفندق وتصيب عدة يهود بجراح؛ وهذا كله في عيد پوريم الديني، الذي هو بمثابة كرنڤال.

بيد أن مصدرًا عربيًّا يقدم رواية أخرى: فالمشاجرة الأولى ترجع إلى عمليات السطو على منزلٍ عربيٍ قامت بها عصابة من الشبان اليهود؛ وفي اليوم التالي، نشبت معركةٌ منظمة بين عمال يهود وسكان عرب حول أحد

الفنادق[٤٦]. وتتحدث رواية ثالثة عن رغبة ناشطين يهود في ممارسة أفعال انتقامية ضد عربيٍ قيل إنه مذنب بالاعتداء على فتى وفتاة يهوديين قبل ذلك ببضعة أيام، ومن هنا المشاجرة الأولى؛ وبعد ذلك، احتمى الناشطون بجمهور الكرنفال اليهودي؛ وعندئذ بالتحديد قامت الشرطة باقتحام الفندق واجتياحه، مما أدى إلى سقوط عدة جرحى من بين نزلائه[٤٧]. وبحسب إفادة القائمقام ـــ في مذكرته التوضيحية إلى السلطان ـــ، فإننا بإزاء عصابة من "النهلست" [العدميين] الروس الذين اعتدوا على تاجر مسلم برئ، وعندما وصلت الشرطة أمام الفندق، فإن المهاجرين اليهود هم الذين فتحوا النار على الشرطة. ويجب أن نلاحظ أن الموظف العثماني، في هذه الرسالة إلى السلطان، إنما يستخدم مرتين كلمة فلسطين، وهي مصطلح لم يكن يشكل جزءًا من التسميات الرسمية العثمانية[٤٨].

وتتفق جميع الروايات على حقيقة أن الشرطة ما كان يمكن لها أن تهجم على الفندق، الذي يملكه مالك روسي الجنسية، إلاّ بتصريح من نائب القنصل الروسي في يافا، وإلاّ لشكَّلَ هجومها انتهاكًا للامتيازات. واحتجاجًا على هذه "المذبحة"، يستخدم يهود يافا الحمايات القنصلية. والحال أن الممثلين الألمان في فلسطين هم الذين يبدون الأكثر نشاطًا في الدفاع عن يهود يافا، جارين وراءهم بقية السلك القنصلي الأوروبي.

ثم إنَّ رجال التحالف الإسرائيلي العالمي وإيكا إنما يتدخلون بقوة في المسألة، لكن المنظمة الصهيونية أيضًا تعلن عن وجودها، من جديد. ذلك أن وولفسون قد دفع ڤامبيري الذي لا مفر منه إلى التدخل لدى السلطان، وقد أعرب السفراء لدى القسطنطينية عن قلقهم، كما فعل ذلك الحاخام الأكبر في الدولة العثمانية. وفي يافا، نجد أنَّ ممثليَّ المنظمة، اللذين وصلا حديثًا لأجل إقامة مكتب دائم، هما اللذان ينظمان التظاهرات الاحتجاجية. والحال أن عبد الحميد ومتصرف القدس، وقد أصابهما الانزعاج، إنما يتراجعان أمام الضغوط. فيتم التبرؤ من القائمقام وسحبه. ويجري وقف التدابير المتخذة ضد النشاطات اليهودية وقفًا فعليًّا. أمَّا المسئولون اليهود في يافا، فإنهم يقومون، من جانبهم، بإبعاد الناشطين اليهود المتورطين في المسألة عن المدينة.

والحاصل أن مختلف الروايات عن هذا العنف الأول بين الجماعتين إنما تعد من أغنى الروايات دلالة. فللمرة الأولى، خارج السياق الريفي، يصطدم عرب ويهود مهاجرون. ومن جهة، نجد تزايد قلق، ومن الجهة الأخرى، نجد إرادة عدم المكابدة. أمَّا فيما يتعلق بالإدارة العثمانية، فقد اضطرت إلى إبداء عجزها عن مواصلة التصدي للنشاطات اليهودية ما أن يتسنى للتدخل من جانب الدول العظمى أن يتجلى بقوة. وعلى الفور، حللت الأطراف اليهودية الأحداث على أنها تجل جديد لهذه المعاداة اللاعقلانية للسامية التي تكابدها بألم شديد، ومن هنا التشديد على الاتهامات الموجهة إلى المسيحيين المشارقة والمبشرين ونيابة قنصلية روسيا. وبالرغم من رغبة الصهيونية في تأكيد نفسها على أنها تعاملٌ مع السياسة، فإنها ـ وسوف يكون هذا واقعًا مقيمًا ـ سوف تميل دائمًا إلى تفسير النزاعات وأعمال العنف المرتبطة بمسألة إلى من سوف تؤول فلسطين ـ أرض إسرائيل على أنها تجليات لمعاداة عالمية ولازمانية للسامية. فبشكل متناقض، أمام صدى أحداث يافا في صفوف الدياسبورا ـ يجري الحديث في كل مكان تقريبًا عن مذبحة كبرى ـ، يجري نفي أهمية الوقائع وردها إلى حادث محلي ليست له نتيجة واقعية مهمة. وسعيًا إلى عدم تناول المسألة العربية، تنفي الصحافة الصهيونية وجودها: فالعرب يرحبون بالمهاجرين ولاوجود هناك لحركة قومية عربية ولاشيء هناك يسمح بتوقع قرب انبثاقها(٤٩). ولايمكن رد المسئولية فيما حدث إلا إلى المشارقة، أولئك العرب بالاسم فقط.

ويجيد المسئولون اليهود والصهيونيون استخدام آليات الحمايات القنصلية والامتيازات سعيًا إلى الاحتماء من الإدارة العثمانية. بل إن تسوية مسألة يافا نفسها، والتي تشمل عقوبات تطال الجانبين، حتى وإن كانت غير متساوية، إنما تعد ممثلة تمامًا للأسلوب الذي يجري التعامل به مع أعمال العنف الطائفي وأسلوب تسويتها في المدن المشرقية على أثر تدخل الدول العظمى. ذلك أن عددًا كبيرًا جدًا من الحوادث من هذا النوع قد انتهى إلى نهاية مماثلة.

على أن عام ١٩٠٨ هذا إنما يرمز إلى انتهاء العصر الذهبي للقناصل والسفراء. فمع ثورة "تركيا الفتاة" في يوليو/ تموز ١٩٠٨، نجد أن الرقابة

الجماعية التي تفرضها الدول الأوروبية على الدولة العثمانية، خاصة ولاياتها العربية، سوف تهتز من جراء رفضٍ قوميٍ متزايد التجذر باطراد ومن جراء دخول فاعلين جدد إلى المسرح السياسي.

ثورة تركيا الفتاة وفلسطين

على أثر أحداث سنوات ١٨٧٥ ـ ١٨٨٣، كان قد جرى استبعاد الحركة الدستورية العثمانية من السلطة، وكان السلطان قد اعتمد على نزعة جامعة إسلامية خليفية لها شعبية خاصة في الولايات العربية وبرَّرَت ما أسماه خصومه بـ"استبداده". وقد اضطر المعارضون إلى اللجوء إلى مصر أو إلى أوروبا الغربية، خاصة سويسرا (وهي بلد جذَّاب تجاور فيه الثوريون الروس وأكثر مناضلي الصهيونية حماسة). وقد جرت العادة على تسمية هؤلاء المعارضين بجماعة تركيا الفتاة. والحال أن منظمتهم السياسية الرئيسية، جمعية الاتحاد والترقي، قد اعتمدت كبرنامج لها استعادة دستور عام ١٨٧٦، والذي كان عبد الحميد قد عطَّل العمل به دون أن يلغيه (فقد ظل مسجَّلاً ضمن المدونات القانونية العثمانية) واعتمدت كفلسفة سياسية الوضعية بشعارها "النظام والترقي". وكانت جمعية الاتحاد والترقي في المنفى قبل كل شيء حركة تستلهم أفكار الليبرالية السياسية الأوروبية.

وكان تأثيرها داخل الدولة العثمانية قويًا بشكل خاص في الأوساط المنبثقة من المؤسسات المدرسية للدولة، خاصة المدارس العسكرية. وكانت الأفكار في هذه المدارس أقل ليبرالية بشكل واضح وأكثر حرصًا على النظام في الترقي مما على الحرية. ونحن بإزاء كوادر شابة، عسكرية ومدنية، من أصل تركي، بالأخص، منبثقة من الطبقات المتوسطة، رأت في الإصلاحات التي تستلهم الوضعية وسيلة لضمان بقاء الإمبراطورية عبر تعزيز سلطة الدولة في مواجهة التدخلات المستمرة من جانب الدول العظمى والحريات جد الكبيرة الممنوحة لمختلف الطوائف الدينية. والمثل الأعلى لهذه الكوادر، والذي تستلهمه من أوروبا، هو بناء دولة مركزية قوية لايعود فيها وجود لكيانات

وسيطة بين المواطنين ـ الأفراد والسلطة. والحال أن هذه الكوادر كانت يعقوبية بأكثر من كونها ليبرالية.

وفي الولايات العربية، لم يكن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي موجودين إلاّ بين الموظفين القادمين من مناطق أخرى من الدولة. ومن الوارد أن بعض العرب كانوا قريبين من الحركة، لكنهم كانوا بالأحرى أنصارًا للأفكار الليبرالية يجهلون الميول المركزية لدى زعماء هذه المنظمة. وعلى العكس من ذلك، في تركيا الأوروبية، كانت الحركة قوية بشكل خاص في صفوف إدارة وجيش كان عليهما مواجهة القلاقل المزمنة لـ"خليط الشعوب". وكان معقل جمعية الاتحاد والترقي في سالونيك، وهي مدينة ذات غالبية يهودية، حيث نشأت المنظمة وتطورت مستخدمة كغطاء لها الماسونية المحلية، الحاملة للأفكار الليبرالية والغربية.

وفي يوليو/ تموز ١٩٠٨، يعلن جانب من جيش مقدونيا انشقاقه وينجح في كسب تأييد قوات عسكرية أخرى. ومن ثم لايجد أي عقبة في زحفه على العاصمة، ويضطر عبد الحميد، مذعورًا، إلى إعادة الدستور وقبول حكومة تابعة لجمعية الاتحاد والترقي وللجيش.

والحال أن انهيار النظام الحميدي إنما يجد له ترجمة فورية في عزل أو نقل جانب كبير من موظفي السلطة، في العاصمة كما في الولايات. وتلك هي الحال في فلسطين، حيث يمارس موظفون من مرتبة أدنى مهام الانتقال الصعبة. وهم مراقبون عن قرب من جانب لجنة جمعية الاتحاد والترقي المحلية، التي لا تتردد في طلب عزلهم وتتوصل إليه[٥٠]. ومن المؤكد أن تظاهرات فرح ترحب بقيام السلطة الجديدة وينضم بعض المثقفين المحليين إلى المنظمة، مقسمين بمهابة أن يهبوا حياتهم إذا تطلب الأمر ذلك لحماية الدستور والوطن العثمانيين[٥١]. وتجري ملاحقة الجواسيس، رمز نظام الحكم الحميدي البوليسي[٥٢]. ويدوم نوع من الوهم، الشاعري لبضعة أسابيع يتآخي خلالها المسلمون والمسيحيون واليهود. إلاّ أنه عندما يطلب بعض هؤلاء الأخيرين الانضمام إلى لجنة جمعية الاتحاد والترقي في القدس، تجري مطالبتهم باتخاذ موقف معتدل في مسألة الصهيونية وبألاّ يكونوا قد دفعوا الشيكل (وهو

الاشتراك الذي يتيح الحق في الانتماء إلى المنظمة الصيهونية وفي انتخاب المندوبين إلى المؤتمر الصهيوني)(٥٣).

وتؤدي الأزمة السياسية إلى إضعاف مقيم للنظام العام، خاصة في الأرياف، حيث غالبًا ما يختلط نظام الحرية بالقضاء على كل قوة لفرض النظام. وخارج السنجق، في شمالي فلسطين، تتشكل عصابات فلاحية وتشن هجمات على ممتلكات كبار الملاك العقاريين والمستوطنات اليهودية(٥٤).

وفي مستهل خريف عام ١٩٠٨، تبدأ الأمور في الاستقرار: فالموظفون الجدد يحتلون مناصبهم ويجري التحضير لانتخابات. وعندئذ تصل أصداء الأحداث المرتبطة بالبوسنة والهرسك.

فالأزمة الشرقية لأعوام ١٨٧٦ ــ ١٨٧٨ ومؤتمر برلين كانا قد سمحا بقيام توازن هش في شبه الجزيرة البلقانية. وكان من المفهوم أن بلغاريا ماتزال تشكل جزءًا من الدولة العثمانية، شأنها في ذلك شأن البوسنة والهرسك، الموضوعة تحت الإدارة النمساوية. وكانت النزاعات متكررة بين اليونان والدولة العثمانية بشأن مسألة كريت. وكانت الديبلوماسية الحميدية قد نجحت في صون المبدأ النظري الخاص بصون وحدة أراضي الدولة العثمانية، والذي هو في الواقع صون للهيمنة العثمانية لا صونًا للسيادة.

واغتنامًا لفرصة تغير النظام، تعلن بلغاريا، في سبتمبر/ أيلول ١٩٠٨، استقلالها بينما تقوم اليونان بضم كريت وتقوم النمسا ــ المجر بضم البوسنة والهرسك. وبشكل ضمني، يعد ذلك نهاية لمبدأ صون وحدة أراضي الدولة العثمانية، وهو مبدأ كان يتم الاستهزاء به بصورة منتظمة. وتحاول صربيا، المدعومة للحظة من جانب روسيا، التصدي لضم البوسنة: ومن جديد، يدور حديث عن مخاطر نشوب حرب أوروبية معمَّمة. بيد أن الحكومة الروسية، إدراكًا منها للضعف الذي أصاب الجيش والاقتصاد على أثر الحرب الروسية ــ اليابانية وثورة ١٩٠٥، إنما تضطر إلى التراجع. والحال أن الأوساط الحاكمة في سان بطرسبورغ، وقد حلت بها المهانة، عازمة على اتخاذ موقف أكثر حزمًا في حالة نشوب أزمات بلقانية جديدة، بوسنوية بالأخص.

وتنظم لجان تركيا الفتاة تظاهرات احتجاج في كل مكان. وفي فلسطين،

يدور في يافا الجانب الرئيسي من الأحداث[٥٥]. فاللجنة المحلية تعقد مؤتمرًا للتجار وتأمر بمقاطعة المنتجات النمساوية[٥٦]. ثم تهتم بحظر أي نشاط في بواخر شركة ملاحة تريستا والتي تكفل خدمة نقل منتظمة مرتين في الأسبوع الواحد. وبما أن من المستحيل اتخاذ تدابير قانونية وذلك بسبب الامتيازات، فإنه يجري الاعتماد على ملاحي يافا (وبسبب غياب ميناء في المياه العميقة، يجري نقل الناس والسلع على زوارق صغيرة من السفن الواقفة في عرض البحر). ويقوم الملاحون على الفور بمنع الهيئات الصحية من تفتيش البواخر النمساوية، الأمر الذي يحرمها من كل حركة. ومسيحيو يافا من بين الأكثر كفاحية، وذلك، في آن واحد، بسبب نزعتهم العثمانية كما بسبب حرصهم على تجنب خطر تحول النزاع القومي إلى نزاع طائفي بين مسيحيين ومسلمين. وفي المدينة نفسها، يهاجم الجمهور الممتلكات النمساوية التي تجد القوة المسلحة صعوبة في حمايتها (١٣ ــ ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٠٨). ويجري تحويل البواخر النمساوية إلى بيروت. وفي نهاية بضعة أسابيع، يحاول النمساويون نقل السلع على سفن ألمانية. بيد أن البحارة يستولون على هذه المنتجات ويرمونها في البحر[٥٧]. وهذه المرة، وتحت ضغط من الممثلين القنصليين الألمان، تتدخل السلطات العثمانية وتتخذ تدابير حماية[٥٨]. وتهدأ المسألة تدريجيًا على أثر تسوية دبلوماسية لمسألة البوسنة والهرسك، حيث تقدم النمسا ــ المجر تعويضًا ماليًا للحكومة العثمانية.

ولايجب أن نخطئ في فهم أحداث يافا في أكتوبر/ تشرين الأول ــ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٠٨: فإذا كان ما حدث في شهر مارس/ آذار يظل مندرجًا في مألوف الحوادث الطائفية في مدينة مشرقية، فإن التعبئة الشعبية هذه المرة، والمنظمة تحت شعارات سياسية والتي تهاجم بشكل مباشر مجمل نظام الامتيازات، إنما تعد تعبئة أصيلة، الأمر الذي من الواضح تمامًا أنه قد أزعج ممثلي الدول العظمى. وواقع أن هذه التعبئة قد تمت باسم نزعة وطنية عثمانية تجمع المسلمين والمسيحيين إنما يعد مميزًا لمناخ الشهور الأولى لحكم جماعة تركيا الفتاة. ويمكننا أن نرى في ذلك تدشينًا لتكوين رأي عام فلسطيني يتجاوز التباين الطائفي للسكان

العرب، بما يؤكد مارتسمت معالمه في شهر مارس/ آذار.

وفي هذا المناخ بالتحديد تجري الانتخابات في فلسطين. ويقوم النظام الانتخابي العثماني على أساس حق انتخابي على مرحلتين لدافعي الضرائب. فناخبو المرحلة الأولى ينتخبون ممثلين ينتخبون بعد ذلك النواب الذين سوف يصلون إلى برلمان القسطنطينية. والحال أن فريقًا مهمًا من السكان اليهود لم يحصل على الجنسية العثمانية ومن ثم لا يمكنه المشاركة في الاقتراع. وكثيرون من يهود آخرين، يستخدمون الحمايات القنصلية، يتمتعون بحصانات ضريبية. وهم غير مسجلين في الجداول الانتخابية. وهكذا فإن اليهود في القدس، حيث يشكلون غالبية السكان، إنما يعدون أقلية إلى حد بعيد في جمهور الناخبين.

والضعف الذي يصيب سلطة الإدارة لا يفيد بالفعل لجان تركيا الفتاة. فالمستفيدون الرئيسيون من الوضع هم كبرى عائلات الأعيان المسلمين الذين سوف يحتلون صدارة المسرح، منذ ذلك التاريخ. وهكذا فإن عازوري، الذي يرشح نفسه في يافا، لايملك أي فرصة في انتخابه، لاسيما أن الفرنسيين يرفضون مساندته(٥٩). وتمثيل سنجق القدس من ثلاثة نواب؛ والمنتخبون يدلون على وجود توازن بين كبرى العائلات وهم ممثلون لأنماط التعليم في النخبة العربية(٦٠).

فروحي بك الخالدي، الذي يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، إنما يعد شخصية جد قوية: وهو قد أتم دراساته الأولية والثانوية في القدس وبيروت وطرابلس، ثم في القسطنطينية وأخيرًا في فرنسا، في المدرسة الحرة للعلوم السياسية وفي السوربون. وقد خدم كقنصل عثماني في بوردو على مدار عشر سنوات. وهذا الحائز لوسام جوقة الشرف هو أيضًا كاتب (شكل آل الخالدي دومًا عائلة جد مثقفة) وقد شارك، تحت الاسم الأدبي: المقدسي، في تحرير مجلات عربية قاهرية جد مهمة، **كالمنار والهلال**. وهو منتم إلى جمعية الاتحاد والترقي، لكنه ليبرالي قبل كل شيء. وقبيل موته، في عام ١٩١٣، سوف يكتب دراسة كاملة عن الحركة الصهيونية(٦١).

أمَّا سعيد بك الحسيني فهو أصغر سنًا (فهو في الثلاثين من عمره). وقد أتم

دراساته في القدس، بما في ذلك في مدارس التحالف الإسرائيلي العالمي، ويبدو أنه على قدر من الدراية بالعبرية، الأمر الذي سمح له بأن يكون رقيب الصحافة العبرية المحلية في ظل النظام الحميدي. وبما أنه على دراية جيدة بالمسائل اليهودية، فقد اتخذ موقفًا نشيطًا ضد الصهيونية. وفي عام ١٩٠٥، بوصفه رئيسًا لمجلس بلدية القدس، حاول التصدي لبيع أرض لليهود في ضواحي المدينة.

وأمَّا حافظ بك السعيد فهو أكبر سنًّا (فهو في الستين من عمره) وهو منحدر من يافا. وقد اشتُبِهَ في عام ١٩٠٥، وهو في منصب مفتي غزة، بأنه مشارك في الحركة التي نظمها عازوري. على أن يهود فلسطين إنما يعتبرونه حسن النوايا نحوهم وقد صوتوا لصالحه.

وخارج السنجق، كان قد جرى انتخاب رجل دين محافظ في نابلس، هو الشيخ أحمد أفندي الخمَّاش، وشخصية أكثر أهمية في حيفا: نعني عالم الدين الشيخ أسعد أفندي الشقير. وبما أنه كان قريبًا من جماعة تركيا الفتاة قبل الثورة، فقد كان ضمن مجموعة من الأشخاص المشتبه بقيامهم بنشاطات سياسية عربية مضادة للعثمانيين في يوليو/ تموز ١٩٠٥. وكما سوف يثبت المستقبل ذلك، فإنه نصير متحمس للنزعة العثمانية ورفيق طريق لجماعة تركيا الفتاة.

وخلال الحملة الانتخابية، كان قد جرى الحديث على نطاق واسع عن مشاريع للتنمية الاقتصادية. والحال أن صبحي بك، متصرف القدس الجديد، والذي وصل في سبتمبر/ أيلول ١٩٠٨، إنما يستسلم لإغراء مقترحات ألبير عنتيبي، المحرك النشيط للتحالف الإسرائيلي العالمي وللإيكا في القدس(٦٢): وتدور هذه المقترحات حول أعمال حضرية وشق طرق واستصلاح للأراضي المهجورة ومشاريع للنقل والمواصلات وتوفير المياه للقدس، إلخ. ويجري تشكيل لجنة دراسات تحت رئاسة عزيز بك الخالدي، وهو مهندس، وتلميذ سابق في مدارس التحالف الإسرائيلي العالمي، وتسعى هذه اللجنة إلى جذب رساميل فرنسية إلى هذا المشروع(٦٣). وهناك تصور لتكوين شبكة طموحة للمواصلات الحديثة: إنشاء ميناء في المياه العميقة قبالة يافا، مد خط السكة الحديدية إلى مصر عن طريق النقب وإلى سكة حديد الحجاز عن طريق شرقي الأردن.

والهدف هو ربط الساحل بالمناطق ذات الإمكانيات الزراعية والمنجمية الغنية وتدشين كهربة فلسطين عن طريق الموارد الهيدروليكية لنهر الأردن[٦٤]. وفي مواجهة هذه المشاريع التي يدعمها بنك أنجلو — پاليستاين، نجد مشاريع مجموعة رجال الأعمال الشوام المقيمين في مصر: فهم يقترحون تكوين شركة زراعية في فلسطين تشتري ممتلكات واسعة بأسعار رخيصة لكي تعيد بيعها فيما بعد على شكل حصص بعد استصلاحها. والمقصود بشكل خاص هو أن يتم في الجليل تطبيق نوع من المشاريع المألوفة في مصر، حيث تم استصلاح أرض شرق دلتا نهر النيل وفق هذا النموذج. والحال أن القنصلية العامة لفرنسا في بيروت إنما تقوم بتحليل هذا المشروع، وتجده مربحًا على المستوى الاقتصادي، لكنها تطرح مسألة انعدام الأمن في هذه المناطق[٦٥].

استئناف التوترات

خارج هذه المشاريع الكبرى التي تعبر عن قدر من التفاؤل بالنسبة للمستقبل، نجد أن المسألة الرئيسية التي تهز القدس في هذه الأشهر الأخيرة من عام ١٩٠٨ وفي مستهل عام ١٩٠٩ هي استئناف النزاع حول البطريركية الأرثوذكسية في القدس. فالأرثوذكس العرب يستفيدون من الوضع الجديد لكي ينازعوا صدارة كبار رجال الدين ذوي العرق اليوناني. واعتمادًا على لجنة جمعية الاتحاد والترقي المحلية، يوضحون أن الاستبداد الديني الذي يمارسه البطريرك يجب أن يلقى المصير نفسه الذي لقيه الاستبداد السياسي الذي مارسه السلطان[٦٦]. والحال أن الفريقين يلوذان بالسلطة العثمانية. فنجد أن الباب العالي، خوفًا من أن يؤدي تعديل للوضع القائم إلى إعادة طرح لمسألة الأماكن المقدسة في ظرف سياسي جد صعب، إنما يحث البطريرك داميانوس على تقديم تنازلات طفيفة. ويرفض البطريرك، لكن كبار رجال الدين، غير الراضين عن الأسلوب الذي يعالج به المسألة، يقومون بعزله في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٨. ورد الفعل فوري وعنيف. فالعرب الأرثوذكس يدعون المسلمين إلى التضامن معهم، وتقوم تظاهرات عنيفة بالهجوم على مؤسسات رجال الدين اليونانيين. وخلال احتفالات عيد الميلاد، يقوم قنصل روسيا والحجاج الروس،

على نحو استعراضي، بتوجيه التحية إلى البطريرك المخلوع.

وفي يناير/ كانون الثاني ١٩٠٩، يعترف الباب العالي بعزل البطريرك، ومن هنا نشوب موجة جديدة من العنف. ويحتل المتظاهرون مقر البطريركية بينما تتحول التظاهرات إلى أعمال شغب في مجمل فلسطين: ويلقى يونانيان وأربعة عرب مصرعهم. ويدعم المسلمون إخوتهم العرب. ثم إن القوات العثمانية في الحامية في القدس تعلن أنها سوف ترفض فتح النار على الأهالي. وأمام تدهور الوضع، يعيد الباب العالي البطريرك إلى منصبه ويتراجع التوتر. والحق أن مواعيد مناسبات الحج المسيحية الكبرى قريبة وأن أحدًا لا يريد تهديد المورد الاقتصادي الرئيسي للقدس، والمتمثل في السياحة الدينية(٦٧). ويجري تقديم بعض اللفتات المناسبة للعرب في إدارة المدارس والمستشفيات، لكن هذا هو كل ما هناك(٦٨).

وفي الأعوام التالية، يواصل الرافضون الدعوة إلى استعادة حقوق العرب التي اغتصبها اليونانيون. وهم يشرعون، في وثائقهم، باستخدام كلمة "فلسطين" بدلاً من "الأرض المقدسة" التقليدية. والحال أن الدائرة الكنسية لبطريركية القدس قد احتفظت عبر العصور بالتقسيمات الإدارية التي ترجع إلى أواخر العصر الروماني، والتي تشمل ثلاث فلسطينات تمتد من الساحل إلى شرقي الأردن، وتتميز بالكامل عن بطريركية أنطاكية التي تجمع الأراضي السورية الأخرى (لاسيما أن عدة بطريركيات لأنطاكية ــ على أثر انشقاقات مختلفة، تكاثرت هذه البطريركيات ــ كانت قد أقامت مقرها في دمشق). ومما لا جدال فيه أن صون خصوصية جغرافية فلسطينية عبر بطريركية القدس قد سمح بالبعث الأهلي للمصطلح في مستهل القرن العشرين، عبر النخبة المسيحية(٦٩).

وبعد أحداث يافا في مارس / آذار وفي أكتوبر/ تشرين الأول ــ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٠٨، ترمز أعمال الشغب الأكثر دموية بكثير، والتي حدثت في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٨ ــ يناير/ كانون الثاني ١٩٠٩، إلى مرحلة جديدة نحن تضامن عربي فاعل بين المسلمين والمسيحيين (تولى نواب السنجق الدفاع عن الأرثوذكس العرب في البرلمان العثماني): فتبدأ هوية فلسطينية عربية في الانبثاق.

وفي مستهل عام ١٩٠٩، يتلاشى الوهم الشاعري. فعلى العكس من هذا الوهم، نجد أن السخط يستولي على جانب عظيم من السكان المسلمين في الدولة العثمانية والذين صدمتهم نبرة جماعة تركيا الفتاة ذات الاتجاه العلماني. وخصوم هذه الجماعة يشنون حملة نشيطة تشجب إلحاد جمعية الاتحاد والترقي. وفي الولايات العربية، يتلاقى هذا السخط ذو المنشأ الديني تلاقيًا جزئيًّا مع تباين عرقي: ذلك أن فريقًا مهمًّا من الموظفين المعزولين لكونهم خدموا النظام الحميدي إنما يتألف من عرب، والسلطة الجديدة تميل إلى الاعتماد على قيادة إدارية يهيمن عليها الأتراك: فجمعية الاتحاد والترقي لم تكن تضم في بدايتها غير القليلين من العرب، ومن الوارد التشكيك في ولاء "الثوار الذين لا ينضمون إلى الثورة إلاّ بعد انتصارها".

وفي فلسطين، أدت الأزمة الخاصة بالبطريركية الأرثوذكسية إلى تحريك خيبة الأمل في السلطة الجديدة. ففي ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٨ ــ يناير/ كانون الثاني ١٩٠٩، في الخليل، نرصد حادثًا طائفيًّا تعد دلالته معقَّدة. فهذه المدينة التي تضم ٢٠٠٠٠ نسمة لا يوجد بها غير عدد جد قليل من المسيحيين وتوجد بها طائفة يهودية من ١٢٠٠ نسمة. وهذه الطائفة، المنبثقة من الييشوف القديم، إنما تعتمد في بقائها على الصدقات التي يرسلها يهود الدياسپورا. وظروفها المعيشية جد بائسة. وبما أن المدينة قلعة للنزعة المحافظة الدينية الإسلامية، ومقر لمقبرة الأنبياء، فإن تقديرها للثورة كان محدودًا. وفي أواخر عام ١٩٠٨، كان السكان المسلمون قد تمت دعوتهم إلى مقاطعة التجار اليهود سعيًا إلى ردِّ اليهود إلى مكانهم. وبحسب استقصاء قام به قنصل فرنسا، فإن الشعار قد صدر عن منظمة عربية في القسطنطينية، هي "شعبة الإخوان العرب، التي أسسها الاتحاد المركزي في القسطنطينية(٧١)".

ويجري الاحتفال بافتتاح الدورة الأولى للبرلمان العثماني. وبحسب عادة ماتزال سارية المفعول في بعض بلدان الشرق الأدنى، يحتفل فريق من السكان بالحدث بإطلاق صواريخ في الهواء. وفي الحي اليهودي، يلقي إسرائيلي يتمتع بالحماية الفرنسية مصرعه من جراء صاروخ طائش:

أغلق اليهود مذعورين دكاكينهم، وسعيًا إلى ترويعهم، قام المسلمون، بدلاً من

السعي إلى التهدئة وإلى المصالحة، بمضاعفة المضايقات وباختلاق دعوى تتهم الإسرائيليين خاصة من هم تحت ولايتنا بازدراء النبي وباستفزاز المسلمين وبتنظيم هجوم مسلح على عائلة القاتل. ثم توجهوا إلى القنصلية العامة لفرنسا طالبين منها العون والحماية. وبناءً على هذا الطلب وسعيًا إلى طمأنة المشمولين بحمايتنا وإلى تهدئة الخواطر، زرت من ثم الخليل برفقة قائد الجندرمة وفرسان من الجندرمة.

وعكفت هناك على استقصاء جاد؛ لكن السلطات المحلية التي أخذت علمًا بوصولي قبل ذلك بثلاثة أيام، كانت قد ألقت القبض على المذنب المشتبه به، وهو فتى في السادسة عشرة من العمر، وقد اتهمَتْهُ بجريمة القتل الخطأ.

ويبدو أن التظاهرة قد أنتجت أثرًا فوريًّا؛ فقد تم وقف الدعوى وتسليم الشكوى إلى القائمقام وتمزيقها.

ويرسل متصرف القدس تعزيزات من الشرطة ويسعى إلى التوصل إلى إنهاء المقاطعة.

ولا تتصل جدة الحدث بالوقائع بحد ذاتها ـ فالمضايقات في الخليل ضد السكان اليهود شائعة ـ بقدر ما تتصل بالشكل الذي اتخذته. فللمرة الأولى، يبدو أن مصطلح "العربي" يختلط بمصطلح "المسلم"؛ والمقاطعة تبدو منقولة عن المقاطعة في يافا، والخوف من الأعمال الانتقامية اليهودية يحيل إلى أحداث شهر مارس/ آذار ١٩٠٨ في هذه المدينة. وتتم تسوية المسألة بفضل تعاون قنصلية فرنسا مع السلطات العثمانية، كما كانت الحال عليه في العصر الحميدي. ومن جهة أخرى، لايبدو أن المسألة كانت لها دلالة معادية للصهيونية.

وفي فبراير/ شباط ـ مارس/ آذار ١٩٠٩، يتدهور الوضع تدهورًا خطيرًا في سنجق القدس. ويطلب المتصرف عون القنصل الفرنسي سعيًا إلى الحصول على تعزيزات عسكرية. والمسئولان جد منزعجين من التوتر السائد في المدينة المقدسة. وبحسب القنصل، فإنه،

[...] بلغني، علاوة على ذلك، من جهات مختلفة، أنه يجري التفكير دون رادع، في صفوف السكان الجهلاء، في اليوم القريب الذي سوف يجري فيه طرد الأجانب

والاستيلاء على ممتلكاتهم. وهذه المشاعر موجودة لدى عدد معين من المسيحيين [و] بين صفوف المسلمين.

وأخيرًا يبدو أن أناسًا جادين مقتنعون بأن البدو ينتظرون بفارغ الصبر نشوب قلاقل في القدس، ليتسنى لهم المجيء لنهب ولذبح المسيحيين. وأرجو أن تكون هذه المخــاوف مبالغًا فيها، بيد أن من المؤكد أن البؤس ناصح سيئ و، هذا العام، جرَّاء الجفاف، تهــدد الفاقة الأرياف، حيث تعتبر المحاصيل هالكة بالفعل، في المناطق الأكثر خصوبة في فلسطين، كما في بير سابا(٧٢).

وفي القسطنطينية، يصل الصراع على السلطة إلى منعطف حاسم. ذلك أن حركة من جانب الرجعية الإسلامية تتمكن من طرد حكومة تركيا الفتــاة مــن العاصمة (١٣ أبريل/ نيسان ١٩٠٩). وفي أضنه، يؤدي الخبر إلى إثارة مذبحة تستهدف الأرمن. وعلى الفور، يزحف جيش مقدونيا مرة أخرى على العاصمة، التي تتم محاصرتها في ٢٤ أبريل/ نيسان. وفي الأيام التالية، يتم خلــع عبــد الحميد ووضعه تحت الإقامة الجبرية والمراقبة. وهذه المرة، يصــبح النظــام القديم العثماني بائدًا بالفعل.

وفي فلسطين، نجد أن أحداث ١٣ أبريل/ نيسان ١٩٠٩ تقابل بمزيد مــن الترحيب. وسوف تتذكر جماعة تركيا الفتاة ذلك. وبالمقابل، فإن خلع الســلطان ـــ الخليفة قد أدى إلى هياج سافر للخواطر وإلى توتر طائفي قوي. وفي منطقة الرملة، بين يافا والقدس، يجري اتهام حركة سرية، هي الاتحــاد الإســلامي، بالتحضير لمذبحة تستهدف المسيحيين واليهود. ويرى نائب قنصل فرنسا فــي يافا، الذي قام باستقصاء، أننا بإزاء شائعة بأكثر من كوننا بإزاء واقــع(٧٣). إلاّ أنه يجري اتخاذ تدابير حماية: فالمسئولون المسلمون قد جرى تحميلهم المسئولية عن مسلك السكان. ويتم التصرف في الاتجاه نفسه مــع مســتوطنة ذكــرون اليهودية(٧٤).

وفي الجليل، في مستوطنات إيكا، يحدث التدهور نفسه في الوضع. والحال أن الأحداث التي تجري هناك سوف تكون لها أهمية كبيرة في المستقبل، لــيس بسبب واقعها الخاص بقدر ما بسبب أنها سوف تندرج في أسطورة الصهيونية.

فهذه المستوطنات الجديدة كانت قد تأسست على الزراعة الواسعة للحبوب ولم تستخدم اليد العاملة العربية. وبشكل طبيعي تمامًا، فإن الرواد الشبان من **العاليّا** الثانية كبن جوريون، قد مالوا إلى التدفق عليها. وهم مستعدون لمواجهة ظروف المعيشة القاسية إلى أبعد حد. وفي هذه المنطقة، في الأزمنة العادية، كانت ظروف الأمن أقل جودة بشكل سافر مما في بقية فلسطين وكان رجال إيكا قد استخدموا حُرّاسًا شراكسة لحماية المنشآت اليهودية، خاصة في الليل. وفي المستوطنة الأهم بين هذه المستوطنات، مستوطنة سيچيرا، وهي مزرعة ـ مدرسة، كانت العلاقات سيئة بشكل خاص مع القرى العربية المجاورة، المسيحية (شجرة) أو المسلمة أو ذات السكان المختلطين، مثل كفر كَنّة. ولا يعترف السكان بصكوك الملكية التي تحوزها إيكا بيد أنهم لايحوزون الإمكانات المالية لرفع دعوى قضائية في هذا الشأن.

وعندما يصل الرواد كبن جوريون إلى المستوطنة، فإن مطلبهم الأول إنما يتمثل في صرف الحراس الشراكسة والاستعاضة عنهم بمستوطنين:

في سيچيرا، تمسكًا منّا بمبدأنا الخاص بعدم الاعتماد على أحد سوى أنفسنا، قررنا تنظيم دفاعنا الخاص. فالتصرف بشكل مغاير كان من شأنه أن يعني التخلي عن استقلاليتنا، عن حريتنا. [...]

كنّا نريد خلق حياة جديدة تستلهم أقدم تقاليد شعبنا؛ وكانت معركتنا تتمثل في ذلك. ولكي نتوصل إلى ذلك، كان علينا إعادة عمل كل شيء من الصفر، إعادة خلق مجتمع. وهذا هو السبب في أننا قد أعددنا أنفسنا لتضريج أيدينا بالدماء، باسم الحرية وباسم الحق في التصرف في مصيرنا. [...]

فقررنا أن ننشئ منظمتنا الدفاعية الخاصة، الهاشومير ["الخفير"، "الحارس"](٧٥).

وهذه النشاطية من جانب رواد **العاليّا** الثانية لاتستمد أصولها من الوضع الفلسطيني، بل تشكل رد فعل على الوضع الذي عيش في الدياسپورا. والحال أنهم قد جاءوا إلى فلسطين بدافع التمسك بالكرامة وبالكبرياء القومية حيال أعمال الاضطهاد التي كانوا قد تعرضوا لها. وهذه النخبة المناضلة الصغيرة، وقد اعتبرت نفسها طليعة قادرة على قلب نظام الأمور القائم، إنما ترى أن

العنف مشروع إذا ما استخدم لأجل غايات العدل والأخلاق السامية. وهم، في هذا، ممثلون نموذجيون للتيارات الثورية في الإمبراطورية الروسية. وبما أنهم يشعرون أنهم ممثلون لروح قومية حقيقية، فإنهم يعتقدون أن موقف الاعتدال والتهدئة حيال العرب، والذي ميز الجيل السابق، لايعدو أن يكون راسبًا من رواسب مهانة العيش في الدياسبورا. ولا مجال لمثل هذا الراسب على أرض فلسطين، إلاً إذا كان المراد هو محو المشروع الصهيوني نفسه(٧٦).

والحال أن تبديل الحرس، والذي يخلق أعداءً جددًا للمستوطنات، إنما يسبق بقليل ثورة يوليو/ تموز ١٩٠٨. ويتزايد انعدام الأمن أكثر. ففي فبراير/ شباط ـ مارس/ آذار ١٩٠٩، تتكاثر الحوادث بين سكان سيچيرا وسكان شجره. وفي مستهل أبريل/ نيسان، يقتل يهودي عربيًا من كفر كنَّة. وفي ٥ أبريل/ نيسان، يقوم أحد سكان كفر كنَّة باغتيال مصوِّر يهودي، جاء لتخليد ذكرى اجتماع لپوعالي زيون في سيچيرا. وكان ما يزال أمامه الوقت الكافي لكي يصيب من اعتدى عليه بجراح أدت إلى مصرعه هو الآخر. ويطالب القرويون بالدية التي تنهي عادةً أعمال الثأر. لكن المستوطنين يرفضون دفعها. وعندئذ يشرع عرب شجره وكفر كنَّة بتدمير المحاصيل ويهاجمون اليهود الذين يتجولون في المنطقة. ويجري قتل يهوديين. وتتدخل الشرطة لإعادة النظام، الأمر الذي يسهل منه هطول أمطار غزيرة. ويحاول رجال الدين المسيحيون (والقرويون المعنيون هم في غالبيتهم العظمى مسيحيون) التوصل إلى اتفاق صلح مع مسئولي المستوطنات؛ بيد أن هذه المحاولة تمنى بالفشل، ويتم نقل المسألة إلى المحاكم.

وقد بدا أن الفلاحين العرب قد جرى تحريضهم على الحركة من جانب أناس من المدن. وكان هؤلاء الخصوم السافرون للصهيونية قد انضموا إلى لجان جماعة تركيا الفتاة المحلية كيما يتسنى لهم التأثير على سياسة السلطات. وشكري العسلي، قائمقام المنطقة، هو نفسه عربي من أصل سوري كان قد اتخذ بالفعل موقفًا جد معادٍ للصهيونية. وفي الأعوام التالية، سوف يصبح خصمًا لدودًا لها بشكل خاص. والحال أن عدة مصادر يهودية (بينها عنتيبي) إنما تشجب هذه المنظمات بوصفها معادية بعنف للصهيونية. وأحد مسئولي إيكا في

الجليل يتهم بالاسم المسيحي (البروتستانتي) نجيب نصّار، وهو صحافي من يافا كانت صحيفته، **الكرمل**، تصدر مرتين في الأسبوع، بالانخراط في حملة صحافية معادية بعنف للصهيونية[٧٧]. ومن ثم يمكننا أن نرى في ذلك انبثاق ارتباط بين الاحتجاجات الريفية والحركات السياسية الحضرية في الأسابيع المضطربة بشكل خاص في أبريل/ نيسان ـ مايو/ أيّار ١٩٠٩.

وتمتد حركة الهاشومير بسرعة إلى مجمل مستوطنات الجليل وتشكل ميليشيا من مائة عضو. وبالمقابل، نجد أن المحاولات الرامية إلى إقامة هذا الحرس المسلح المؤلف من مناضلين اشتراكيين في المستوطنات القديمة في السنجق إنما تفشل بعد محاولات سيئة الحظ في عامي ١٩٠٩ و ١٩١٠. ومستوطنو الجيل الثاني ـ وهم أول من يولد في البلد ـ، والذين لايسمون بعد بـ"الصابرا"، يشكلون من جانبهم رابطة للمزارعين الشبان، هي رابطة أبناء بنيامين، وذلك سعيًا إلى تكوين ثقل مضاد ليساريي الحركة العمالية. والحال أن ألكسندر، شقيق أهارون آرونسون، سوف يكون محرك هذه الميليشيا التي لا تتردد في مواجهة ميليشيا الاشتراكيين، خاصة اعتبارًا من عام ١٩١٣. والرهان هو نفسه دائمًا: العلاقات الاقتصادية مع العرب.

ومستوطنو المزارع يحتفظون أيضًا بعدد معين من الحراس العرب. وفي جميع الحالات، نجد أن النفقات المخصصة لتأمين صون قوة يهودية بشكل خالص إنما تعد أعلى من تلك التي يفرضها دفع رواتب الحراس العرب أو الشراكسة، ثم إن وجود الميليشيا اليهودية يتعارض مع بقاء اليد العاملة العربية في المزارع. وأفراد الهاشومير، أنصار اقتحام العمل، يتعاملون معاملة قاسية مع العمال العرب، حيث يفرضون عليهم حظر التجول ليلاً ويعتبرونهم أعداء من الداخل على استعداد لدعم الهجمات القادمة من الخارج. وهم يطالبون بإبعادهم إلى أبعد مكان ممكن عن مركز المستوطنات[٧٨]. وبما أن الكتابة التاريخية السائدة في إسرائيل، إلى عهد قريب، قد استلهمت الحركة الاشتراكية، فمما له دلالة أنها قليلاً ما تتحدث عن الميليشيات غير الاشتراكية، بينما تظهر الهاشومير على أنها العنصر الأول في تراث يقود فيما بعد إلى الهاجاناه ويقود أخيرًا إلى الجيش الإسرائيلي الحالي[٧٩]. كما أن وجود أعمال عنف بين اليهود

والعرب يجري التستر عليه في خطاب الصهيونية الشائع: فالاعتراف بهذا الواقع إنما يعني الاعتراف بأن الانتقال من المنفى إلى وطن الأسلاف لا يترافق مع تطبيع حقيقي بالنسبة للشعب اليهودي وأنه، في العالمين، يحيا دومًا في وضع يتميز بالخطر وبانعدام الأمن. واللجوء إلى القوة علاج مؤقت: فإذا كان اليهودي يموت، فإنه، على الأقل، يموت مرفوع الرأس وهو يحارب أعدائه بالسلاح(٨٠).

وفي يوليو/ تموز ١٩٠٩، يجري استئناف التوتر من جهة يافا. ذلك أن أرمنيًا يتعرض للقتل بينما يصاب إسرائيلي نمساوي بجراح على يد مسلم قادم من دمشق. وهذا الأخير يعلن، بعد إلقاء الشرطة القبض عليه، أنه ينتمي إلى رابطة إسلامية مؤيدة للنظام القديم وأنه قد أقدم على ما أقدم عليه بتحريض من زعماء سياسيين مقيمين في دمشق. وبحسب نائب قنصل فرنسا، فإننا بإزاء عمل استفزازي:

> السلطة المحلية وبعض أعضاء جمعية "الاتحاد والترقي" الذين تحدثت معهم هذا الصباح يبدو أنهم يخشون بالفعل من أن تكون هذه الجرائم مقدمة لفتنة رجعية منظَّمة، مركزها دمشق، وأحد المحركين الرئيسيين لها أحد أبناء [الأمير] عبد القادر [الجزائري]. ويُخشى من أن الهدف هو دفع المسيحيين إلى الرد بالعنف على استفزازات غير مبرَّرة وإثارة السكان المسلمين عندئذ ضدهم. [...]
>
> والانطباع الذي يخامرني باستمرار هو أن الجمهور المسلم قد استقبل دون كبير حماس صعود النظام الجديد وخاصة خلع عبد الحميد. فبالنسبة لغالبية المسلمين، يظل عبد الحميد الزعيم الديني، الباديشاه الذي لا يمكن لأحد منازعته، ويرى كثيرون أن الرجال الذين أعدوا ودفعوا وقادوا إلى إسقاطه مشتبه بنزعتهم الأوروبية، إن جاز لي القول، ومشتبه على الأقل بإلحادهم. وأعتقد أن شرارة واحدة ستكون كافية لإشعال حريق، وكثير من ألوان الغضب التي تدمدم في أعماق القلوب لا تنتظر ربما سوى الانفجار في شواهد عنف(٨١).

كما أن خيبة الأمل في النظام الجديد تتخذ شكلاً جديدًا. فبحسب قنصل فرنسا في القدس:

يتمثل شعور عَبّرَ عنه لي بعض الأعيان من الأهالي في أنه إذا لم تنتــزع فلســطين وسوريا، من النظام الدستوري الجديد، فوائد تزيد عما انتزعتاه إلى اليوم، حيث لا يمكننا أن نرصد غير انزعاج وفوضى أوسع إلى حد ما مما في السابق، فإن فرصتهما الوحيدة في الخلاص سوف تتمثل في السقوط في أيدي دولة أوروبية: ويرى البعض أن هذا ســوف يحدث، في غضون سنتين أو ثلاث من الآن(٨٢).

وهذه بداية ملاحظات سوف نجدها، بشكل متكرر باطراد، فـــي الأعــوام التالية، في الأرشيفات الفرنسية والانجليزية. فمسئولو الدولتين سوف يأخــذون في اعتبارهم هذا الواقع الجديد عند رسمهم لسياستهم.

الفصل السابع

نشأة الرهـان الفلسطيني

"يتمثل هدف أعداء جمعية الاتحاد والترقي في جذب انتباه السلطات العامة والعـالم الخارجي إلى الوضع الذي خلقه لهم النشاط الصهيوني. وأمَّا أن البعض منهم يدينون اليهود المهاجرين إلى فلسطين بأنهم يهدفون إلى إعادة تكوين مملكة سليمان، فهذه ليست سوى سذاجة لا تضاهيها سوى سذاجة الصهيونيين أنفسهم. فالحقائق الملموسة الـتي سـوف أحاول عرضها إنما تكفي لتبرير انزعاج السكان السوريين ولإثارة انزعاجنا، لأن هنـاك أيضًا ما يتعلق بمصالحنا الخاصة.

"إن الظاهرة الأكثر وضوحًا هي ظاهرة التزايد السريع للسكان اليهود الذين وصـلوا الآن بالفعل إلى تكوين الأغلبية في بعض المدن كالقدس ويافا. ثم إن النـزوح السوري إلى أميركا وبلدان أخرى إنما يؤدي إلى ارتفاع النسبة أيضًا لصالح القادمين الجدد الـذين، بمـا لديهم من روح التضامن والاعتماد على أنفسهم وحدهم، يتجهون إلى طرد القرويين مـن الأراضي التي تشتريها شركاتهم الاستيطانية، مستأثرين بالنشاط التجاري في المدن، وداخلين في منافسة رهيبة مع العمال الأهليين، ومتسببين في ارتفاع ملحوظ لأسعار أسباب العـيش. وهذا التزايد للسكان اليهود إنما يشكل تحدّيًا للتشريع الخاص العثماني. [...]

"وتكاثر مشتريات الأراضي ليس أقل قوة في جذبه للانتباه. إننا بإزاء حمى حقيقية. فأرض المستوطنات اليهودية وحدها قد اتسعت من ٢٥٠٠٠ هكتارًا مع ٤٥٠٠ نسـمة من السكان في عام ١٨٩٨ إلى ٤٠٠٠٠ هكتارًا و ٩٥٠٠ نسمة من السـكان في عـام ١٩١٢. والشركات الاستيطانية لها وكلاء نشيطون في المراكز الرئيسية. [...]

"إن الروح الصهيونية إنما تناضل أساسًا ضدنا. فالثقافة الفرنسية تمثل بالنسبة لها نقيض المثل الأعلى الذي تسعى إلى بلوغه. وهي تتميز خاصة بالمانع الذي يتمثل في تربية الـنشء تربية أرقى من الظروف التي تتيحها لهم فلسطين وتجعل منهم مؤهلين للهجرة إلى مصر وإلى أوروبا، بل وإلى أميركا".

٣٠ أبريل/ نيسان ١٩١٣، من نائب قنصل فرنسا في حيفا إلى السيد كوچيه، قنصـل فرنسا العـام في بيروت[1].

جماعة تركيا الفتاة والصهيونيون

قام أكرم بك، قبل أن يترك وظيفته كمتصرف، بتوجيه سلسلة بأكملها من التوصيات إلى الباب العالي: فهو يذكرُ بالمخاطر التي خلقتها الهجرة اليهودية ويشير إلى أن استعادة الدستور قد حفزت لدى العرب بشكل تدريجي طموحًا إلى الاستقلال؛ وهذا الطموح مايزال مكتومًا ومستترًا إلاّ أن بإمكانه، بفضل الصحافة، أن يتخذ شكل حركة عصيان وتمرد يستغلها الأعيان؛ وهذا من شأنه أن يدفع الدولة العثمانية إلى إرسال قوات عسكرية سعيًا إلى "تأديب" سكان القدس والمناطق السورية. وهو يقترح أن يُعْهَدَ بكل وظائف السلطة في السنجق إلى أتراك لا إلى عرب(٢).

وهذا هو الوضع الذي ترثه جماعة تركيا الفتاة. فمن جهة، تدرك هذه الجماعةُ المخاطر السياسية التي تنطوي عليها الحركة الصهيونية ــ فالجماعة لا تريد خلق أرمينيا جديدة؛ ومن الجهة الأخرى، لا تثق الجماعة بالسكان العرب وتميل إلى الاعتماد على الأتراك وحدهم، الأمر الذي سوف يدفع بالعرب إلى الانفضاض عنها بشكل محسوس على نحو متزايد باطراد.

وكان وولفسون قد قرر أن يفتح في القسطنطينية مكتبًا دائمًا تحت غطاء فرع للصندوق القومي اليهودي، الأنجلو ــ پاليستاين ليڤانتاين بنك كمپاني. وقد عين لقيادته واحدًا من أوائل متفرغي المنظمة الصهيونية، هو ڤيكتور (أڤيجدور) ياكوبسون (١٨٦٩ ــ ١٩٣٤). ويصل هذا الأخير إلى العاصمة العثمانية في أغسطس/ آب ١٩٠٨، غداة ثورة تركيا الفتاة. وهو يتجه على الفور إلى بذل جهد سياسي جديد لدى المسئولين الأتراك، في داخل اللعبة السياسية العثمانية هذه المرة. ويدخل في اتصال مع مسئولي الطوائف اليهودية ومع النواب اليهود في البرلمان. أمَّا وولفسون، المتعقل، فهو يفضل انتظار اتضاح الوضع السياسي قبل التحرك.

والحال أن المسئولين في العاصمة، المنخرطين في صراع على السلطة، لم يكن لديهم الوقت لدراسة مسألة الصهيونية. وكانت جماعة تركيا الفتاة تكن تعاطفًا أكيدًا مع يهود الدولة العثمانية، يرتبط بما عايشته الجماعة في سالونيك، وقد أدلت، في المراحل الأولى، بتصريحات إلى ممثلين صهيونيين تبين أن

الجماعة ليست غير مرحبة بهجرة يهودية مهمة إلى الدولة العثمانية. وبالمقابل، كانت الجماعة منزعجة من استخدام هذه الهجرة الذي قد تقوم به الدول العظمى عبر الحمايات القنصلية.

وبما أنَّ رجال جماعة تركيا الفتاة قد أصبحوا مسئولين عن تسيير الأمور، فإنه يتعين عليهم أخذ المصالح العليا للدولة في الحسبان. والاضطرابات التي تقع في فلسطين منذ مستهل عام ١٩٠٨ تثير قلقهم: فمسلمو هذه المنطقة قد تجاوبوا بشكل خاص مع الخطابات الإسلامية ـ والشعبوية لخصوم الثورة، والدول العظمى، بسبب الأماكن المقدسة، تراقب عن قرب تطور الوضع المحلي: وهامش المناورة هناك أضيق بكثير مما في الشئون الأرمنية في الأناضول.

ويدرس مجلس الوزراء الملف في ٢٠ يونيو/ حزيران و٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٠٩. وهو يرجع إلى الخطوط العريضة للسياسة الحميدية: لااعتراض على الهجرة اليهودية إلى الأراضي العثمانية، فيما عدا فلسطين، حيث تتخذ هذه الهجرة طابعًا سياسيًّا؛ وليس من صالح الدولة، ولا من صالح اليهود العثمانيين، أن تنشأ مسألة يهودية؛ ويجب صون ألوان الحظر المفروضة على الهجرة وعلى بيع الأراضي؛ وبالمقابل، لابد من تسوية وضع المهاجرين غير الشرعيين بحثهم على اختيار الجنسية العثمانية (ومن ثم وضعهم خارج حقل الامتيازات)[٣]. وإلى الحرب [العالمية الأولى]، يتبع رجال جماعة تركيا الفتاة مسلك أسلافهم: محاولات لحظر الهجرة وبيع الأراضي تخفف منها الشواغل الاقتصادية والضريبية والتدخل الدائم من جانب الدول العظمى؛ الإبقاء على حوار سياسي مع الممثلين الصهيونيين، سعيًا إلى كسب الوقت كما سعيًا إلى استخدامهم في تشابك التعقيدات الدولية. وهم يعتقدون أنهم بحاجة إلى رجال البنوك اليهود لتمويل الدين العثماني ويأخذون بعين الاعتبار ما يفترض أنه نفوذ خفي لليهود في العالم، يرصدون تجليًّا له في تدخلات الدول العظمى لصالح يهود فلسطين.

ومن جهة أخرى، يتعين عليهم مراعاة احتجاجات السكان العرب، والتي يتم التعبير عنها إمَّا محليًّا أو من جانب ممثليهم في القسطنطينية. والحال أن

المكونات الثلاثة الرئيسية للخطاب الإيديولوجي لرجال جماعة تركيا الفتاة لا تجعلهم مؤهلين لقبول مطالب الصهيونيين. فهم قد ورثوا من النظام السابق نزعة الجامعة الإسلامية التي لا يثقون بها لكنهم يجدون أنفسهم مدفوعين إلى استخدامها لأن من الوارد أن تتكشف عن آصرة فعالة مع الغالبية المسلمة في الدولة وعن سلاح سياسي ضد الدول العظمى. وهم بالدرجة الأولى عثمانيو النزعة يريدون تأمين بقاء الدولة عبر تعزيز تلاحمها الداخلي: وليس بوسعم أن يسلموا بفكرة حكم ذاتي يهودي في فلسطين. وهم ينجذبون إلى نزعة الجامعة الطورانية، التي تسعى إلى حشد جميع الناطقين بالتركية في الخارج، خاصة في الإمبراطورية الروسية، حول سلطة القسطنطينية: وفي هذا الإطار، لا مكان للصهيونية. وهذه الخطوط السياسية الثلاثة لاتبدو متمايزة: فهي بالأحرى تمتزج معًا في كل موقف يتخذه النظام، ومن هنا الصعوبة التي نجدها، أحيانًا، في تحليل قراراتهم.

وواقع الإبقاء على حوار سياسي مع الصهيونيين إنما يشكل بحد ذاته بالنسبة لهؤلاء الأخيرين تشجيعًا على التحرك لدى السلطات، في سياق تحاول فيه المنظمة الصهيونية استمالة يهود الدولة العثمانية إلى صفها. وداخل الطوائف اليهودية في شرق البحر المتوسط، تحتدم المناقشات، مع أو ضد الصهيونية، وتتخذ، في بعض الأوقات، شكل مواجهة مباشرة بين أنصار التحالف الإسرائيلي العالمي وأنصار المنظمة الصهيونية. وخلافًا للمجادلات في أوروبا الشرقية، حيث يتعارض بشكل ثلاثي المتدينون الأرثوذكسيون وأنصار الاستيعاب وأنصار النزعة القومية اليهودية (ذات الصيغ المتعددة)، نجد أن التعارض في اليهودية السيفاردية إنما يقوم بين الاستيعابيين الذين يمثلهم التحالف الإسرائيلي العالمي ــ وهم، من جهة أخرى، بعيدون عن الاعتراض على تعزيز للوجود اليهودي في الأرض المقدسة ــ والقوميين الذين تم كسبهم إلى المحورية الفلسطينية. وهذا الوضع الأصيل إنما يجد تفسيره في آن واحد في تحديث أقل تشددًا للأطر الطائفية (ومن هنا غياب الرفض المطلق للحداثة وليهودية ليبرالية) وفي ارتباط تاريخي أقوى بأرض إسرائيل. وكان يهود العالم الإسلامي يحيون في غالبيتهم في الدولة العثمانية وقد ظلوا في الدولة نفسها

والحضارة نفسها عندما هاجروا إلى فلسطين. والحال أن هذا الواقع لم يتغير بدرجة مهمة من جراء فرض السيطرة السياسية الفرنسية على الشمال الأفريقي، كما يشهد على ذلك وجود تيار دائم لهجرة يهود المغرب إلى الأرض المقدسة على مدار القرن التاسع عشر، وإلى عام ١٩١٤[٤]. وبالمقابل، نجد أن سيفارديي فلسطين، بالرغم من أهميتهم العددية، غير قادرين على صوغ مشروع سياسي مستقل، و، من ثم، يجدون أنفسهم تدريجيًّا تابعين في فلسطين لكوادر الحركة الصهيونية القادمين من أوروبا.

وفي يوليو/ تموز ١٩٠٩، يزور القسطنطينية وفد صهيوني مهم. وهذا الوفد، الذي يرأسه وولفسون، يضم سوكولوف وأوسيشكين وتشيلنوف (ممثل روسيا الشمالية، خلافًا لأوسيشكين، المتمركز في روسيا الجنوبية) وأبرز الممثلين القادمين من روسيا، ﭬلاديمير چابوتينسكي (١٨٨٠ــ١٩٤٠). والحال أن هذا الصحافي والكاتب الموهوب الذي يكتب بعدة لغات، والمتأثر تأثرًا عميقًا بالثقافة الإيطالية، هو رومانسي يعرف جيدًا العالم خارج روسيا. وخلافًا للأسماء البارزة الأخرى في الصهيونية، التي خلقت لأنفسها مرتكزات سلطة بفضل مواهبها التنظيمية، نجد أن چابوتينسكي قد أصبح شخصية من المستوى الأول بفضل كتاباته. والمسئولون العثمانيون يشرحون مواقفهم بجلاء لمحاوريهم.

ويقرر الوفد أن يعهد إلى چابوتينسكي بقيادة عمل سياسي دائم في القسطنطينية، بالتعاون مع ياكوبسون. وسوف يجري استخدام الصحافة كأداة للتأثير وللدعاية، وذلك بالمشاركة في تمويل الصحف الصادرة باللغات المحلية أو بإنشاء لسان حال تابع للحركة بشكل مباشر[٥]. وسوف يكون لسان الحال هذا عبارة عن صحيفة إعلام عام تصدر باللغة الفرنسية، هي صحيفة *Le Jeune-Turc*: والخط السياسي لهذه الصحيفة هو دعم جمعية الاتحاد والترقي والدفاع عن نزعة الجامعة العثمانية، وحرية الهجرة إلى فلسطين. وسرعان ما تصبح الصحيفة منبرًا مؤثرًا وتشارك في كبرى المناقشات السياسية في ذلك العصر. ولا يسيطر الصهيونيون سيطرة كلية على خط هيئة التحرير، خاصة في مجال السياسة الخارجية، الأمر الذي يضع الصحيفة في موضع حرج عندما يجري

فيها اتخاذ مواقف معادية لانجلترا وإيطاليا[٦]. وفي عام ١٩١٠، تنشب أزمة خطيرة بسبب نشر كتاب بالفرنسية لصهيوني سياسي، هو ياكوبوس كان، يستعيد أطروحات هرتسل ويدعو إلى إقامة فلسطين يهودية ذات حكم ذاتي، ولها وضعية مشابهة لوضعية الدومينيون، داخل الدولة العثمانية. والنخبة الحاكمة العثمانية تجيد الفرنسية، ومن ثم يمكنها أن ترى في هذا الكلام تنصُّلاً من التأكيدات التي يسرف الصهيونيون في تقديمها للعثمانيين والتي تذهب إلى أنهم لايتوخون هدفًا انفصاليًا[٧]. ويتهم چابوتينسكي وولفسون بأنه وراء هذا الكتاب ويتنحى عن وظائفه.

وكان عقد المؤتمر الصهيوني التاسع قد جرى تأخيره بسبب التطور السياسي العثماني. وهو ينعقد في هامبورج من ٢٦ إلى ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٠[٨]. وكان الصهيونيون الروس عازمين على فرض آرائهم وهم لا يترددون في الدخول في اختبار للقوة مع وولفسون. وينجح هذا الأخير في حشد أغلبية المندوبين وراءه وفي صد هجوم المعارضة. ويجري تمديد القيادة لسنتين.

ويتصل جانب مهم من المناقشات بالعلاقات مع السلطة الجديدة في القسطنطينية. وفي خطاب مهم، يذكِّرُ نوردو بأن النشاط العملي إنما يتوقف برمته على حسن نوايا العثمانيين، ومن هنا ضرورة الحفاظ على اتصالات وثيقة بهم. والأولوية الثانية هي مواصلة العمل الدعائي في صفوف الشعب اليهودي سعيًا إلى تعزيز الحركة. وهو يقدم تفسيرًا جديدًا لبرنامج بال بتخليه علنًا عن فكرة الميثاق: فهذه فكرة شخصية تخص هرتسل وتتماشى مع الوضع في زمانه؛ أمَّا اليوم فلم يعد لها مبرر. ومادامت تركيا الآن نظامًا دستوريًا، فلم تعد هناك حاجة إلى امتيازات أو إلى ضمانات خاصة. وهذا التوجه الجديد يرمز إلى التخلي التاكتيكي عن البحث عن حماية دولية للمقام اليهودي وليس إلى نبذ البرنامج الصهيوني الأصلي. ويجب الآن التحرك ضمن إطار المؤسسات العثمانية التي دخل عليها التجديد. ومن ثم يتعين الرد على أي ادعاء بالرغبة في إقامة دولة يهودية مستقلة في فلسطين بوصفه افتراءً. ولايجب لقبول عثمنة اليهود أن يعني استيعابًا، ومن هنا رفض أي هجرة إلى الأناضول. فيهود

فلسطين يجب أن يشكلوا جماعة قومية متمايزة بين جميع الجماعات القومية في الدولة العثمانية.

ويرحب الصهيونيون العمليون بالتخلي عن فكـرة الميثـاق. والحـال أن نوردو، في عرضه لجسامة المهمة، قد أشار ضمنيًا إلـى أن تحقيـق أهـداف الصهيونية سوف يأخذ وقتًا طويلاً. وليس من شأن تغيير للقيادة أن يغير الوضع في شيء.

ودون علاقة مباشرة بعمل المنظمة الصهيونية، تقوم بوعالي زيـون فـي فلسطين بالتحليل نفسه حول ضرورة اللعب بالورقة العثمانية. وفي خريف عام ١٩١١، نجد أن ثلاثة مناضلين، بينهم بن جوريون وبن زفي، يسـافرون إلـى سالونيك والقسطنطينية سعيًا إلى تعلم التركية العثمانية وإلى إجراء دراسات في الحقوق. وما يرمون إليه هو تهيئة أنفسهم لعمل سياسـي فـي داخـل النظـام العثماني. ومشروعهم هو أن يصبحوا نوّابًا في برلمان القسـطنطينية. وتعلـق واحد كبن جوريون بسياسة عثمنة إنما يرمز جيدًا إلى أن تكوين دولة يهوديـة في فلسطين يعد، في نظره كما في نظر رفاقه، هدفًا بعيدًا لن يتم التوصل إليـه في حياتهم(٩).

وفي مستهل عام ١٩١٠، يقدم رجال جماعة تركيا الفتاة مقترحات ملموسة إلى الصهيونيين: فإذا كان من المستبعد السماح بهجرة حرة إلى فلسطين، فـإن مناطق أخرى في الدولة العثمانية بحاجة إلى التنمية إنما تعـد مفتوحـة أمـام اليهود، وفي مقدمتها بلاد الرافدين. وهذه هدية مسمومة بالفعل: فهذه المنطقـة موقع نزاع مكشوف بين بريطانيا العظمى وألمانيا بسبب سكة حديد بغـداد(١٠). ولا يهتم الصهيونيون بهذا العرض، بيد أن زانجويل والترابيين يسـعون إلـى اغتنام الفرصة(١١). وسوف تستمر المناقشات إلى الحرب العالمية [الأولى]، بل وإلى ما بعدها.

والحال أن التقارب الظاهر بين رجال جماعـة تركيـا الفتـاة والمنظمـة الصهيونية إنما يؤكد في نظر أناس من الخارج وجـود أواصـر خفيـة بـين الحركتين. ومنذ زمن طويل، كان المعادون للسامية قد أعلنوا عن وجود تواطؤ بين اليهود والماسونيين. وواقع أن جمعية الاتحاد والترقي كانت قد اتخذت من

سالونيك مقرًّا لها، وهي المدينة ذات الأغلبية اليهودية، وأنها قد استخدمت المحافل الماسونية في نشاطها الدعائي، سرعان ما يوحي لكثير من الناس، من أتباع نظرية المؤامرة كمحرك للتاريخ، بالاقتناع بأن جماعة تركيا الفتاة ليست غير أداة مؤامرة يهودية ـ ماسونية[١٢]. ويرى هؤلاء الناس أن المنظمة الصهيونية إنما تشكل إثباتًا لوجود منظمة يهودية عالمية ذات مشاريع شبه شيطانية (وهي، في هذا الدور، إنما حلت تدريجيًّا محل التحالف الإسرائيلي العالمي). وهم يرون أن من الواضح أن الصهيونيين ورجال جماعة تركيا الفتاة ليسوا غير عنصرين من عناصر قوة واحدة خفية وخطرة. والواقع أننا لا نعرف سوى ثلاث شخصيات يهودية تلعب دورًا معيَّنًا لدى رجال جماعة تركيا الفتاة: عمانوئيل كاراسّو، وهو مسئول لماسونية سالونيك قدم مساعدة أكيدة للحركة خلال فترة نشاطها السري (ويرى خصوم النظام الجديد أنه واحد من عباقرة الشر الحقيقيين)، وكوهين، وهو واحد من أهم إيديولوچيي النظام اسمه المستعار تيكين ألب، والحاخام الأكبر للدولة العثمانية حاييم ناحوم. وقد ظل الأول على موقف حياد صارم في مسألة الصهيونية، فلم ينحز لا إلى مع ولا إلى ضد؛ أمَّا الثاني، وهو نصير للنزعة العثمانية ثم لنزعة الجامعة الطورانية، فقد أبدى قدرًا من التعاطف مع الصهيونية (كان مندوب سالونيك في مؤتمر هامبورج)، بيد أنه ابتعد عنها فيما بعد، محتفظًا بالتراسل مع زانجويل ثم مبديًا شكوكه حيال مخاطر النزعة الانفصالية اليهودية، وأمَّا الثالث فقد كان مضطرًّا إلى التعامل مع وضع صعب وذلك بالنظر إلى قوة الدعاية الصهيونية في صفوف يهود الدولة العثمانية: وقد اتخذ موقفًا حازمًا ضد الصهيونية مع توسطه بصورة منتظمة لصالح مصالح يهود فلسطين[١٣]. والحال أن الحاخام الأكبر، الذي يتولى منصبه في يناير/ كانون الثاني ١٩٠٩، هو رجل التحالف الإسرائيلي العالمي، والحركة الصهيونية تخوض ضده حملة تهدف إلى جعل الطائفة اليهودية في الدولة العثمانية أداة سياسية من شأنها أن تسمح لها بالوصول إلى تحقيق أهدافها في فلسطين. على أن أنصار التحالف، المسمين بـ"التحالفيين"، وقد خسروا بالفعل بلغاريا التي فاز بها الصهيونيون، إنما يخوضون معركة متأخرة ضد غزو الصهيونيين للمؤسسات الطائفية، والذي

يشكل نوعًا من ثورة اجتماعية تهدد سلطة الوجهاء التقليدية على الطائفة. وحاييم ناحوم هو الرصيد الرئيسي لدى التحالفيين: فعلاقاته المستقرة مع قيادة جماعة تركيا الفتاة تجعل منه شخصية لا بديل لها[١٤]. والحاصل أن "الدبلوماسي الأكثر حاخامية بين الدبلوماسيين والحاخام الأكثر دبلوماسية بين الحاخامات" هو في آن واحد حريص على حماية المصالح التي يمثلها، مصالح الوجهاء اليهود المشارقة والتحالف الإسرائيلي العالمي، كما على حقوق يهود فلسطين. وهو يحارب الصهيونيين المحليين، أعدائه الشخصيين، مع احتفاظه بعلاقات تبدو ودية مع قادة المنظمة الصهيونية. ولايتردد في طرح نفسه كوسيط بينهم والسلطات العثمانية[١٥].

وتظهر الهجمات منذ مايو/ أيار ١٩٠٩ في المجلات العربية في المنفى: فرجال جماعة تركيا الفتاة صنائع لليهود ــ الماسونيين الذين يهدفون إلى تحقيق انهيار للدولة العثمانية سعيًا إلى التمكن من إنشاء دولة يهودية في فلسطين[١٦]. وفي كل مرة تبدي فيها الحكومة العثمانية تحفظات حيال اتخاذ تدابير ضد النشاطات الصهيونية، يسود الاشتباه بوجود هذا التواطؤ الخفي. وربما كان الشيء المشحون بعواقب أفدح هو أن هذه المماهاة بين رجال جماعة تركيا الفتاة واليهود ــ الماسونيين إنما تصبح عقيدة منتشرة في صفوف بعض الدوائر الدبلوماسية، خاصة في السفارة البريطانية في القسطنطينية، والتي تفسر تطور الأحداث بحسب هذا التصور الاستيهامي[١٧]. فالسفير لوثر، في برقياته إلى حكومة لندن، يرى في عمل الصهيونيين في الدولة العثمانية المرحلة الأولى لخطة ماكيافيللية للسيطرة على العالم[١٨]: فسالونيك هي مركز مؤامرة تمتد تشعباتها إلى الولايات المتحدة[١٩]. ومواقف صحيفة *Le Jeune-Turc* المعادية لبريطانيا إنما تؤكد هذا التواطؤ بين الصهيونيين وجماعة تركيا الفتاة.

ويحاول لوثر محاربة هذا الخطر الرهيب بتقديم الدعم إلى المعارضة الليبرالية لنظام تركيا الفتاة. وكان بوسع ثورة ١٩٠٨ــ١٩٠٩ أن تقود إلى إعادة تبريد للعلاقات بين الدولة العثمانية وألمانيا، خاصة أن رجال جماعة تركيا الفتاة كانوا في الأصل محبين لانجلترا بالأحرى. لكن لعبة التحالفات الأوروبية ــ حيث أصبحت بريطانيا العظمى شريكة لعدوة الأتراك جيلاً بعد

جيل، أي روسيا ـ بينما يؤدي رهاب الأتراك المنتشر في صفوف الأوساط الحاكمة البريطانية إلى دفع الدولة العثمانية بشكل شبه حتمي إلى التقارب مع ألمانيا من جديد، الأمر الذي يثير شكوكًا جديدة لدى لندن. وهكذا نجد أن الاقتراح الخاص بفتح بلاد الرافدين أمام الهجرة اليهودية إنما تفسره السفارة البريطانية في القسطنطينية على أنه دليل على تواطؤ اليهود مع أعداء بريطانيا العظمى، جماعة تركيا الفتاة وألمانيا الإمبراطورية. وخلافًا للأقليات وللأعراق الأخرى غير التركية في الدولة العثمانية، نجد أن اليهود العثمانيين، أكانوا صهيونيين أم أنصارًا للتحالف الإسرائيلي العالمي، يؤيدون جمعية الاتحاد والترقي ولا يشاركون في تحالف المعارضين للنظام والذي يجتمع تحت اسم الائتلاف الليبرالي[٢٠]. وهذا يكفي لجعلهم أعداء لبريطانيا العظمى.

واليوم أيضًا، في العالم العربي وفي تركيا، خاصة في الأوساط المسماة بالإسلامية السياسية، يجري النظر إلى الدور الخفي لليهود ـ الماسونيين في سياسة جماعة تركيا الفتاة على أنه دور مؤكَّد بشكل جازم وتجري الإشارة إليه مرارًا وتكرارًا في عديد من المطبوعات.

ابتكار نمط جديد للاستيطان الريفي والمنجزات الحضرية الأولى

تشكل أعوام ١٩٠٨ـ١٩١٤ الفترة الحاسمة في تاريخ الصهيونية: فهي ترمز إلى الانتقال من المشروع السياسي إلى التجسيد الاجتماعي. والحال أن مثل هذا التطور كان قد صار ممكنًا عبر التقاء "تكنوقراط" المنظمة الصهيونية برواد **العاليا** الثانية.

فالحركة لا تحوز أجهزة متفرغين إلاّ بعد موت هرتسل. وفي مرحلة أولى، يتمثل هدفها في صون استمرارية نشاطها السياسي في أوروبا وفي العالم. وكان إنشاء الأنجلو ـ پاليستاين كامپاني تدشينًا أوليًا لشيء جديد: فهي تعبر عن وجود في الساحة على غرار ما فعله منذ وقت بعيد رجال التحالف الإسرائيلي العالمي وإيكا. وسعيًا إلى الوفاء بالمطالب متزايدة الإلحاح دومًا والتي يقدمها القائمون على النشاط السياسي، قررت قيادة المنظمة الصهيونية على الأثر

تكليف أوتّو واربورج بدراسة المسألة. وكان هذا الأخير قد دعا، منذ عام ١٩٠٣، إلى أن يتم في فلسطين إنشاء محطة للدراسات الزراعية ومزرعة — مدرسة ومزرعة تعاونية. وقد استند إلى التجربة الاستعمارية الألمانية في أفريقيا وفي جنوب المحيط الهادئ، وهي تجربة كان نصيرًا متحمسًا لها. وكان واربورج، من جهة أخرى، شخصية مهمة من شخصيات الحزب الاستعماري الألماني. وهو يتولى قيادة اللجنة الفلسطينية التابعة للمنظمة الصهيونية والمكلّفة بدراسة الإمكانيات الاقتصادية لفلسطين. وقد اتفق مع مهندسين زراعيين، أحدهما آرون آرونسون، للعمل معه. وفي تلك الأثناء، يقوم الصندوق القومي اليهودي ببعض الاستحواذات المتواضعة على أراض. ويحاول واربورج تدشين مشاريع للتنمية الاقتصادية قائمة على رأس المال الخاص، لكن النتائج محدودة الجاذبية. وهو يظل أسيرًا للآراء الكلاسيكية السائدة في عصره فيما يتعلق بالاقتصاد الاستيطاني: القيام بنشاط خاص يتم دعمه على نطاق واسع من جانب أموال عامة توفر البنية التحتية للانطلاق وتكفل تمويلاً منتظمًا وذلك إلى لحظة يصبح فيها المشروع الاستثماري مربحًا بما يكفي لأن يتخلى عن المعونات (كانت تلك هي حال الاستيطان الزراعي الفرنسي في الشمال الأفريقي)[٢١]. وسوف تستند أهمية عمله من ثم على جانب ثانوي لنشاطه، هو إنشاء جهاز بيروقراطي متفرغ في فلسطين. ويتوصل واربورج، في عام ١٩٠٧، إلى إنشاء مكتب فلسطيني، تم افتتاحه في مستهل عام ١٩٠٨ وتولى رئاسته آرثر روپّين بينما تولى سكرتاريته چاكوب تون[٢٢]. ومع واربورج وروپّين، يجري الانتقال شيئًا فشيئًا من عصر الإدارة الفرنسية للاستيطان، والذي كانت إيكا قد واصلته، إلى إدارة من النمط الألماني.

ويمكن اعتبار آرثر روپّين الأب الثاني **لليشوف** الريفي بعد إدمون دو روتشايلد. فهذا الرجل الذي ولد في پولنده الألمانية في عام ١٨٧٦، إنما يعد شاهدًا منذ طفولته على الصراع الدائم بين الفلاحين البولنديين والسكان الألمان، الحضريين في غالبيتهم. وكان الرايخ البسماركي قد حاول تنظيم استيطان ريفي ألماني حقيقي في هذه المناطق سعيًا إلى تغيير المعطيات الديموغرافية عبر تكوين مستوطنات زراعية قائمة على مبدأ عدم استخدام اليد العاملة البولندية.

وقد تعين أن تكون الاستثمارات الزراعية ذات مساحة كافية لأن تكون مربحة مع الحرص على عدم استخدام إمكانات عمل سوى إمكانات العمل المتوافرة لدى العائلة الألمانية المستوطنة. وسعيًا إلى تيسير الأمور، توفر الدولة الأراضي على شكل التزام، كما توفر البنية التحتية للاستغلال (المعدات الزراعية، الطرق، الري) والخدمات العمومية. وكانت كل أشكال التعاون فيما بين المزارعين الألمان موضع تشجيع منهجي. بيد أن هذه التجربة قد منيت بفشل نسبي، بالرغم من التسهيلات الممنوحة: فقد كان من الصعب مكافحة عواقب الثورة الصناعية، التي وجدت ترجمة لنفسها في ألمانيا في نزوح ريفي مجتمع مع هجرة من الشرق الزراعي إلى الغرب الصناعي. وإذا كان الألمان قد احتفظوا بالسيطرة على الاقتصاد الحضري، فإنهم قد خسروا الساحة في العالم الريفي. والحال أن تجارب مماثلة ذات نتائج شبيهة كانت قد جرت في النمسا ــ المجر، وعلى مسافة أبعد شرقًا، في أوكرانيا، حاول البولنديون عبثًا، ضمن إطار ممتلكات زراعية شاسعة، أن يكونوا مُلاّكًا لجانب كبير من الأراضي، إذ ظلت هذه الأراضي مستغلّةً من جانب الفلاحين الأوكرانيين، الأمر الذي جعل السيطرة البولندية في هذه المناطق هشةً.

والحاصل أن الأعضاء الألمان والنمساويين في المنظمة الصهيونية كانوا على دراية تامة بهذه التجارب الاجتماعية، وقد رأوا في تنامي الوجود العربي في المستوطنات اليهودية في فلسطين ظاهرة مماثلة لما حدث في منطقة الاتصال بين الجماعات السكانية الجرمانية والسلافية أو بين البولنديين والأوكرانيين(٢٣).

وكانت الاشتراكية ــ الديموقراطية الألمانية قد اجتذبت روبّين في شبابه، وقد قام بدراسات في الاقتصاد السياسي والفلسفة. وهو يتخذ لنفسه منذ وقت مبكر دور المصلح الاجتماعي. وبعد أن دخل مجال الحياة المهنية في عام ١٩٠٢ كحقوقي، عذّبته المسألة اليهودية. وبعد أن عرف في وقت من الأوقات نوعًا من "كره الذات"، شأن هرتسل في السابق، يتخذ موقف فخرٍ بكونه يهوديًا، وهو موقف يقوده إلى الانتقال إلى تبني الصهيونية. وهو يهتم بسوسيولوچيا العالم اليهودي في عصره وينشر في عام ١٩٠٤ كتابًا حول **اليهود اليوم**. فيرى

أن الإحياء اليهودي يجب أن يمر بعودةٍ إلى الأرض، بالمعنى الأكثر حرفية للمصطلح. ويخلّف الشاب انطباعًا قويًّا في نفوس الدوائر القيادية للمنظمة الصهيونية. وفي عام ١٩٠٧، يتم تكليفه بمهمة دراسية في فلسطين. والمسألة هي معرفة ما الذي يجب عمله بالأراضي التي اشتراها الصندوق القومي اليهودي والتي يستغلها دومًا فلاحون عرب: هل يجب استصلاحها إلى أن يستقر فيها مستوطنون يهود، أم يجب بيعها في التوّ والحال سعيًا إلى تفادي الأعباء المالية التي تنطوي عليها إدارتها؟ وبعد أن يجمع روبّين آراء الأشخاص المعنيين بالمسألة، يصوغ برنامج عمل حقيقيًّا يتعلق بجميع مجالات الحياة الاقتصادية اليهودية في فلسطين. وهو يعدّدُ الأخطاء التي ارتكبها الاستيطان الروتشايلدي: فـ"الخامة البشرية" اليهودية لا تملك دراية كافية بالزراعة، ويتوجب تزويدها بتعليم في هذا المجال. وقد أخطأ البارون إذ قدّمَ بسخاءٍ كل أنواع المعدات الزراعية، دون أن يبذل المزارع الجديد أي جهدٍ مقابل، ومن هنا انعدام حرص هذا المزارع على معداته؛ وهذا هو الفرق بين المستوطن الألماني من جماعة الهيكل، والذي يدين بنجاحه إلى عمله، والمستوطن اليهودي الذي حصل على كل شيء من الخارج. والخطأ الثالث هو نظام الإدارة، الذي يحرم المزارع من كل روح للمبادرة؛ وأمّا الخطأ الرابع فهو يتمثل في خيار المحصول الواحد، والذي يعني عملاً موسميًّا. وهو يعترف بأن مأثرة إدمون دو روتشايلد تتمثل في أنه قد خلق من العدم بنية تحتية وحياة قومية يهودية في فلسطين؛ بيد أنه يرصد اتجاهًا مزدوجًا يدعو إلى القلق: استخدام اليد العاملة العربية والهجرة إلى خارج فلسطين من جانب الأبناء ــ الأصغر عمومًا ــ للمستوطنين اليهود والذين لا يجدون مستقبلاً اقتصاديًّا في أرض أسلافهم.

وهو يقترح إنشاء "صندوق زراعي" مهمته شراء الأراضي وتوطين الفلاحين الذين لا يحوزون إمكانات فيها، مع استيفاء الاستثمار بعد عدد معين من السنين. ومذهبه قريب من مذهب إيكا: فمن سوف يصبحون في المستقبل مزارعين إنما يجب تعليمهم في مزارع ــ مدارس، ثم توطينهم كمزارعين، وبعد بضع سنوات، وبفضل مدخراتهم، سوف يكون بوسعهم دفع ثمن الأراضي والتحول إلى ملاّك مستقلين. ويجب التخلي عن المحصول الواحد لصالح

المحاصيل المتعددة[٢٤]. وهو يقدم مشروعه على أنه واجب قومي لا على أنه مشروع للإحياء المعنوي (كان ذلك تفكير إيكا). ويشير روپّين بشكل مباشر كنماذج إلى أعمال الاستيطان الداخلي الألماني في منطقة الفلاحين البولنديين. وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٧، تقبل المنظمة الصهيونية إنشاء صندوقه الزراعي: وسوف يتمثل هذا الصندوق في شركة التنمية العقارية في فلسطين(PLDC)[٢٥].

وفي ربيع عام ١٩٠٧، يتولى روپّين قيادة المكتب الفلسطيني ورئاسة الـ PLDC. ونائبه ألماني آخر، هو الدكتور چاكوب تون. وإذا كانت مهام روپّين عديدة ـ فهو ممثل المنظمة الصهيونية بالنسبة لفلسطين ـ، فإن إمكاناته ضعيفة. وهو يعلق آماله في البداية على نظام ائتمان للزراعة يستلهم النظام البروسي للاستيطان في الأرض البولندية: فبفضل الرهون العقارية، سيكون بالإمكان تخفيض الاعتمادات الضرورية لانطلاق الاستيطان وسيكون بوسع النظام أن يعمل بفضل ضمان جماعي لمجمل المزارعين اليهود. بيد أن هذا المشروع يتجاوز إمكانياته. ومن ثم فإن نشاطه إنما يقتصر على المجال العملي في الساحة.

ويجري إنشاء المزرعة ـ المدرسة في كينيريت، في الجليل، على ضفة بحيرة طبرية. وهي تجتذب بالطبع المناضلين الاشتراكيين في العاليّا الثانية والذين ينفرون من تجربة مستوطنات الجنوب. وتعرف هذه المزرعة ـ المدرسة المصير عينه الذي عرفته التجارب السابقة في ميكڤيه إسرائيل وسيچيرا: فإذا كانت وظيفة التعليم قد تم الوفاء بها على نحو صحيح، فإن هناك مسافة طويلة ما يزال يتعين اجتيازها للتوصل إلى توازن في الحسابات. وخلافًا لما كان يرجوه روپّين ـ استخلاص مكاسب ـ، فإنه لا مفر من مواجهة مسألة العجز. والحال أن اللجوء إلى اليد العاملة العربية إنما يفجر في التوّ والحال نزاعًا عنيفًا مع حفنة المناضلين الاشتراكيين المدافعين الشرسين عن "اقتحام العمل".

وكان روپّين، منذ وصوله إلى فلسطين، قد ووجه بهاتين المسألتين. ويبدأ تفكير جماعي من جانب غالبية مسئولي المستوطنات. وينجم من هذا التفكير أن

المشكلة لا يمكن التغلب عليها طالما أن العمال اليهود لا يرضون بمستوى معيشةٍ عربيٍ. ويتم التوصل إلى حل باهر: لماذا لا نستخدم اليهود العرب؟ فبالتوازي مع الهجرة القادمة من أوروبا الشرقية، يصل إلى فلسطين تيار منتظم من يهود البلدان الإسلامية منذ الثلث الأخير للقرن التاسع عشر، أكان من الشمال الأفريقي (من الجزائر خاصةً) أم من اليمن. وهذا التيار عبارة عن حركة مصدر إلهامها ديني بأكثر من كونه قوميًا بالمعنى الدقيق للمصطلح. والحالُ أن يهود أفريقيا الشمالية لا يهمون المسئولين الصهيونيين كثيرًا: فهم رعايا فرنسيون يتمتعون بالحماية القنصلية ويميلون إلى معاودة التجمع مع الجزائريين المسلمين في الجليل. وبالمقابل، نجد أن اليهود اليمنيين يحملون الجنسية العثمانية، ولذا يتمتعون بحرية في الدخول في حين أنهم خارج حقل الحمايات القنصلية. ومستوى معيشتهم بالغ الانحدار وقد أظهروا بالفعل أنهم مزارعون جيدون. وبالإمكان أن يحلوا محل اليد العاملة العربية في المستوطنات مع صون طابعها العبري. ومن جهة أخرى، نجد أن يهود البلدان العربية المستقرين في فلسطين منذ القرن التاسع عشر منخرطون في نشاطات اقتصادية فعلية (التجارة، الحرف، العمل اليدوي) ولا يعتمدون على الصدقات التي تمنحها الدياسبورا لليهود المتدينين في أرض إسرائيل[٢٦].

وهكذا، ففي عام ١٩١٠، جرى "استيراد" ٢٠٠٠ يهودي يمني إلى فلسطين. وقد خُصِّصَتْ لهم أحياء خاصة في مستوطنات المزارع. بيد أن التجربة إنما تمنى بالفشل أيضًا. فالسعر المنخفض لليد العاملة العربية يستند في جانب منه إلى واقع أن العمل في المستوطنات غالبًا ما يعد، بالنسبة للفلاحين العرب، عملاً إضافيًا إلى مصدر رزقهم الرئيسي. وبوسعهم أن يقبلوا طلب القليل واستخدامهم بشكل متقطع. وبالمقابل، نجد أن اليهود اليمنيين، الذين يعاملون باحتقار من جانب إخوتهم الأوروبيين في الديانة، إنما يتعين عليهم تأمين احتياجاتهم، خاصة الغذائية (يتعين عليهم تناول الكاشير)، في المستوطنات اليهودية، وذلك بأسعار أعلى من الأسعار السائدة في محيط الاستهلاك العربي. وللخروج من هذا الوضع، لابد لهم من عمل مستديم، الأمر الذي يعد بعيدًا عن أن يكون الحال. وبحكم قوة الأشياء، نجد أن الصهيونيين، سعيًا إلى تأمين مجرد البقاء الجسدي

لليهود اليمنيين، إنما يضطرون إلى أن يدفعوا لهم أجورًا أعلى بقليل من أجور العرب (وإن كانت أقل من أجور الأوروبيين) دون أن تكون ربحية عملهم متناسبة مع أجورهم. ومن ثم فهم يشكلون بروليتاريا بائسة على هامش المستوطنات وهم عاجزون عن الحلول محل العرب وعن الصعود إلى وضعية العامل المستقل. والوضع الذي يجدون أنفسهم فيه يبرر في نظر اليهود الأوروبيين الإدانة المعنوية لـ"تأخر" يهود الشرق، وشعورهم هم بالتفوق عليهم. وخيبة الأمل سريعة على الجانبين. فيحتفظ اليمنيون بهويتهم الخاصة ويجري استبعادهم من صياغة الهوية القومية اليهودية الحديثة[٢٧].

ومن ثم لا يمكن للحل المناسب أن يتم عبر استيراد يهود عرب. والحال أن روپّين، الذي كان قد اهتم بالفعل كثيرًا، في ألمانيا، بأشكال العمل التعاوني والجماعي ــ وهو شكل للتعبير عن الاستقلالية العمالية والاشتراكية الأوروبية ــ، إنما يعد منفتحًا للغاية على المطالب التي يعبر عنها الاشتراكيون اليهود في فلسطين. وقد أذهلته حركيتهم ورغبتهم في العمل في بيئة تتميز بصعوبة خاصة. كما رصد الظهور العفوي لمجموعات عمل جماعي وتضامني، وهوشرط حياتي ضروري في سياق المستوطنات القاسي. ويتعارض موقفه مع موقف مسئولين آخرين عن الاستيطان الزراعي، يميلون إلى اعتبار الاشتراكيين صانعين للمتاعب وللإزعاجات الدائمة.

وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٩، يتيح هذا المجرّبُ الاجتماعي لمجموعة صغيرة تمارس العمل الجماعي (*Kvutza*) إمكانية استغلال أرض مساحتها ١٥٠٠ دونمًا في دجانيا، قرب كِنريت. ويتم القيام بشكل موازٍ بمحاولة استغلال تعاوني في وادي جزرائيل. وبسرعة فائقة يبدو أن العمل الجماعي يدور بشكل أفضل من العمل التعاوني. والشراسة في العمل عامل رئيسي من عوامل النجاح: فالإرادوية الكفاحية التي يتميز بها أتباع جوردون، وقد تحرروا من التهديد الذي تمثله اليد العاملة العربية، يبدو أنها العنصر الرئيسي. ومع تزايد أعداد مستوطني ديچانيا، نجد أنها تصبح في عام ١٩١٣ أول مستوطنة جماعية (كيبوتز) ستصبح نموذجًا يحتذى من جانب مستوطنات أخرى: فمساحة الأرض كافية لتأمين معيشة العمال دون إسهامات خارجية، والأرض تنتمي إلى

الصندوق القومي اليهودي، والكومينة بصفتها هذه مسئولة بشكل جماعي عن علاقات أفرادها الاقتصادية بالخارج(٢٨).

وتتميز هذه الصيغة بأهمية إضافية تتمثل في محو المسألة الحساسة الخاصة بالقيادة، والتي كانت مصدر العديد من النزاعات منذ العاليّا الأولى.

ولا تتمثل أهمية عمل روبيّن في إصغائه للناس الموجودين في الساحة بقدر ما تتمثل في قدرته على التنظير. فانطلاقًا من الخبرة الملموسة، وعبر سلسلة من تجارب تحسُّس السبل، يتمكن من بناء مذهب متماسك يسمح بتحقيق تفاعل بين إرادوية الرواد، وهم مناضلون متحمسون من أجل الإحياء عن طريق العمل اليدوي، والمراعاة الضرورية للضغوط الاقتصادية ومشروع الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية.

والحال أن مستوطنات الجنوب لم تتوصل إلى تحقيق الأهلية الاقتصادية إلاّ عن طريق زراعة المزارع الكبيرة والمرتبطة بالسوق العالمية التي تسيطر عليها أوروبا. وهذا الحل لا يمكن أن يكون الحل المناسب لأنه ضعيف في استهلاكه للمكان وقوي في استخدامه لليد العاملة العربية. ولا يمكمن التمكن من إعادة تهويد أرض إسرائيل بهذا الأسلوب. ومستوطنات الجليل التابعة لإيكا لم تنجح في تجاوز مرحلة المزارَعَة، بالرغم من آمال ملهميها. وفي الحالتين، تتوقف الربحية الاقتصادية على السوق. ويتمثل الحل في القضاء قدر الإمكان على السوق بإعادة اكتشاف الاستهلاك الفلاحي الذاتي: فكلّما عاش الرواد على منتجات حقولهم، كلما قلّ طرح مسألة أسعار بيع هذه المنتجات. وهذا يتطلب اللجوء إلى الزراعة المختلطة، الحبوب ــ تربية الحيوانات المدرّة للألبان ــ تربية الدواجن ــ البستنة، بدلاً من الاعتماد على محصول الحبوب الوحيد أو اقتصاد المزارع الكبيرة. وتفرض الزراعة المختلطة عملاً مستديمًا، ومن هنا انتهاء النزاعات المتكررة العائدة إلى العمل المتقطع. وإذا كان نمط الاستغلال هو الجماعية، التي تحظر أي استخدام للنقود في داخل الكيبوتز، فإن التبادل النقدي لا يعود موجودًا إلاّ في العلاقات ــ المحدودة قدر الإمكان ــ والتي تحتفظ بها المستوطنة مع السوق الخارجية. وهناك فائدة أخرى: فعيوب شبكة المواصلات إنما تؤدي إلى زيادة ملحوظة لتكاليف الوصول إلى السوق؛ وتحييد

هذا الأخير من شأنه أن يسمح بفتح مساحات استقرار جديدة أمـــام الاســـتيطان اليهودي.

وما يبتكره روبيّن إنما هو مفارقة ظاهرة: استيطان زراعي يستهلك المكان ويعيش قدر الإمكان في حال استهلاك ذاتي سعيًا إلى القضاء علـــى الوظـــائف التقليدية للسوق كما على استخدام اليد العاملة الأهلية. ولم تكن أي تجربة مـــن هذا النوع قد جرى التفكير فيها إلى ذلك الحين. فرفض السوق مســـتحيل، فـــي تحقيقه الملموس، إلاّ بفضل وجود حركة اشتراكية قوية مدفوعـــة بقـــوة، مـــن الناحية الإيديولوچية، إلى رفض التبادل النقدي، ويدعو طابعُها القـــومي إلـــى استبعاد اليد العاملة الأهلية.

وبالرغم من استعداد المناضلين للتضحية، وهو استعداد سرعان ما أصـــبح أسطوريًّا، فإن أهلية المشروع إنما تظل هشة. فالاستثمار العقاري الأولي لا يتم استيفاؤه البتة من الناحية العملية، وتقوم المؤسسات اليهودية على نحو مســـتديم بتقديم الحد الأدنى من الخدمات الاجتماعية الضرورية للحفاظ على أسلوب حياة قريب من أسلوب الحياة في أوروبا: التعليم والخدمات الصحية. وحالات العجز متكررة وتتم تغطيتها على نحو منتظم من جانب المؤسسات نفسها. وكل ما هو ضروري هو إبقاء هذه التدخلات عند مستوى يمكن أن تتحمله الإمكانات المالية التي يتمتع بها **الييشوف**. ولامفر من التخلي عن الأمل، الذي كثيرًا ما جـــرى التعبير عنه منذ إنشاء ميكفيه إسرائيل، في استيطان زراعي يتولى تمويل توسعه الطبيعي. والاستيلاء على الأرض هو مجرد رغبة سياسية، مجـــرد مشـــروع قومي يتم دعمه دومًا من الخارج، وهو ليس نتاج منطق اقتصادي قـــائم علـــى معايير الربحية.

وهكذا يرتسم، عشية ١٩١٤، وجود زراعتين يهوديتين: الأولى غالبة إلـــى حد جد بعيد، موجودة في المناطق الساحلية وذات توجه إلـــى الســـوق، وذلـــك بفضل استخدام اليد العاملة العربية، والأخرى ماتزال جنينية، وذات توجه إلـــى داخل الأراضي، وقائمة على العمل الجماعي أو التعاوني، وعلى رفض السوق، وتنطوي على نزعة حصرية مطلقة في التعريف العرقي لليد العاملة.

وفي عام ١٩١٤، لا يمثل السكان الريفيون اليهود سوى شريحة صغيرة من

إجمالي السكان اليهود في فلسطين، أمَّا في المستوطنات الجماعية أو التعاونية فهي لا تمثل سوى شريحة من شريحة. وحتى بقدر ما أن هذه المستوطنات عبارة عن معامل اجتماعية، فإنها أيضًا مواقع للإنتاج الإيديولوچي المكثف حيث تتشكل الهوية القومية الجديدة لل**ييشوف**، خاصة الصورة الجديدة عن الذات والتي سوف تفرض نفسها في العقود التالية على بقية السكان. وفي مجموعة دچانيا، نجد شخصيات سوف تلعب دورًا مهمًّا كبيرل كاتزنيلسون أو شموئيل دايان.

وتترافق فكرة إحياء الإنسان مع فكرة إحياء الأرض. وتستعيد الاشتراكية الصهيونية بقوةٍ تيمة "الصحراء": فالعرب عاجزون عن استثمار أراضي فلسطين؛ وهم ليسوا غير سكان كان وجودهم عقيمًا بشكل خاص، وذلك خلافًا للشعوب الأخرى التي سكنت هذا البلد[٢٩]. وخلال سنوات الحرب، سوف ينشر بن جوريون في الولايات المتحدة سلسلة بأكملها من المقالات التي يصور فيها حالة فلسطين. وهو يؤكد في هذه المقالات أن نسبة ٩٠% من الأراضي تعد غير مستغلة وتنتظر شعبًا نشيطًا قادرًا على تحويل هذه الصحراء إلى "جنة عدن"، الأمر الذي سوف يعود بالفائدة على العرب العاجزين عن التصرف بأنفسهم[٣٠]. وبالرغم من مؤثرات ماركسية أو تولستوية، فإن الاشتراكية الصهيونية إنما تتميز بكثير من جوانب نزعة سان سيمونية تبرر سيطرة الإنسان على الطبيعة، وتبرر قدرة الإنسان على خلق ثروات. ودون أن تكون هناك إحالات مباشرة، فإن الاشتراكيين إنما يجدون هنا من جديد خطاب السان سيمونيين الفرنسيين خلال فتح الجزائر، والذين صوروا أنفسهم على أنهم رسل الفعل التمديني الأوروبي وشجبوا الأهالي بوصفهم برابرة عاجزين، ودعوا إلى استيطان جماعي يستند إلى الجدارة والاستحقاق[٣١].

ولا يظل العالم الحضري بمنأى عن هذه التحولات. فهو يعرف، في السنوات التي تسبق ١٩١٤، سلسلة من التطورات التي سوف تكون لها نتائج جد مقيمة.

وغالبًا ما تتحدث شهادات مهاجري **العاليّا** الثانية عن الصدمة التي أحسوا بها لدى وصولهم إلى يافا، المدينة المشرقية التي تبدو لهم قذرة ومعادية.

ويضاف إلى ذلك منذ مستهل عام ١٩٠٨ توتر معين بين العناصر العربية واليهودية في هذه المدينة الآخذة بالتوسع السافر. فمنذ عام ١٩٠٧، يدشن بعض يهود المدينة مشروعًا لإقامة حي يهودي منفصل في الضواحي. وهم يحصلون على دعم نشيط من جانب روبيّن الذي ينجح في حشد أموال من المؤسسات الصهيونية ومن الجمعيات اليهودية ذات الأهداف الإنسانية الخيرية. والنموذج الذي يجري الاقتداء به هو العملية الحضرية الكبرى التي قام بها البارون إمبان في مصر، حيث أنشأ على مشارف القاهرة مدينة هليوپوليس الحديثة.

فجرى شراء بعض الأراضي على بعد مسافة معينة من يافا ثم تم الاضطلاع بتمهيدها. وفي ١١ أبريل/ نيسان ١٩٠٩، بدأ سحب أوراق الحصص بالقرعة بين المكتتبين الستة والستين الأوائل في المشروع. ثم بنيت البيوت في العام التالي وتولى مائير ديزنجوف قيادة المجمّع الحضري. وفي عام ١٩١١، يجري التخلي عن تسمية المدينة الجديدة هرتسليا سعيًا إلى تجنب استثارة سخط السلطة العثمانية. فيتم اختيار اسم تل أبيب، "تل الربيع"، وهو عنوان الترجمة العبرية لرواية ***Altneuland***، رواية هرتسل الطوباوية. وبدفع من جانب ديزنجوف الذي لا يكل، تنمو تل أبيب بسرعة وتضم بالفعل ٢٠٠٠ نسمة في أواخر عام ١٩١٤.

ويندرج إنشاء تل أبيب ضمن منطق التطور الحضري في الشرق الأدني. ذلك أن مدن هذه المنطقة قد تطورت تاريخيًا وفق التقسيم الطائفي للمكان. وفي النويات التاريخية بالفعل، المدينة القديمة أو وسط المدينة، كانت الأحياء تعرَّف بحسب انتمائها الديني، بيد أن أهمية النشاطات التجارية قد خففت من هذا الفصل. وكانت الأسواق القديمة أو الموانئ الحديثة ساحات للتبادلات وللاختلاط الاجتماعي. أمّا النمو الحضري، بالمقابل، فهو يقود إلى إنشاء ضواحي جديدة حيث تكون الغلبة للوحدة الصخرية الطائفية إلى حد بعيد. والمثال المميّز في هذا الصدد إنما يتمثل في بيروت، حيث نجد أن وسط المدينة، وهو موقع التبادل، يعد سنيًّا وروميًّا أرثوذكسيًّا، بينما الضواحي الغربية سنية والضواحي الشرقية مارونية. وفي فلسطين، في القدس، تعرف الضواحي التطور نفسه، حيث نجد توزعًا واضحًا إلى أحياء يهودية وأخرى عربية.

وفي المدن ذات الجماعة السكانية اليهودية ـ العربية المختلطة، يافا وحيفا والقدس، تؤدي نشاطية الهجرة الجديدة إلى أفول للاختلاط الاجتماعي المشترك: وهكذا فإن إرسال المرء أطفاله إلى مدرسة مسيحية، وهو أمر شائع في العصر الحميدي، إنما يصبح خيانة للقضية القومية اليهودية. والحال أن الانفصال المكاني المتنامي بين الطوائف وتعزُّزُ وعي كل جماعة بنفسها إنما يؤديان إلى انحسار مواقع اللقاء. وهذا التطور يميز بشكل خاص الطوائف اليهودية، وهو تطور يتم على حساب النخب المشرقية المسلمة والمسيحية، المتعلقة بنمط التعايش هذا.

الصهيونية الثقافية بين فرنسا وألمانيا

تاريخيًا، قَدَّمَ التحالف الإسرائيلي العالمي أساس التعليم الحديث اليهودي في فلسطين. وقد استعار رجال البارون نموذجه المدرسي، القائم على تعلم الفرنسية، لغة الحداثة في المشرق، لاستخدامها في الشئون الدنيوية، وعلى معرفة العبرية، لاستخدامها في مجال العلوم الدينية. واعتبارًا من مستهل القرن، تبدأ الصهيونية في منازعة برنامج التحالف الإسرائيلي العالمي باعتبارة برنامجًا ليس "قوميًا" بما يكفي. ومن الناحية السياسية، فإن المنظمة، التي تتخذ من باريس مقرًّا لها، إنما تبدو بوصفها أداة بيد السياسة الفرنسية في العالم اليهودي الشرقي.

وفي اللحظة نفسها، يتحرر يهود ألمانيا من وصاية التحالف الإسرائيلي العالمي بالنسبة للنشاطات الدولية. ففي عام ١٩٠١، ينشئون جمعية مساعدة اليهود الألمان، ومصيرها أن تصبح النسخة الألمانية من المنظمة الفرنسية. وهي تنخرط في إنشاء مدارس يهودية ألمانية في الدولة العثمانية وتعتبر نفسها أداة من أدوات سياسة الرايخ الثاني، الذي يسعى إلى تهديد صدارة الفرنسية فيها. وهذا يزعج الأوساط الاستعمارية الفرنسية: فهي ترى في ذلك تهديدًا جديدًا لفرنسا المشرق[٣٢]. والعلاقات بين المنظمة الألمانية والحركة الصهيونية علاقات طيبة. وبما أن يهود فلسطين يعوزهم المال دائمًا، فإنهم يستقبلون باهتمام هذا العون الإضافي في مجال التعليم، وهو مجال على جانب كبير من

الأهمية بالنسبة لهم. ويتم التدريس وفق بيداجوجية أحدث من بيداجوجية التحالف الإسرائيلي العالمي، واللغتان المستخدمتان هما العبرية والألمانية. وفي المعركة بين التحالفيين والصهيونيين في داخل الطوائف اليهودية، تعد المنظمة الألمانية حليفة للصهيونيين ضد هيمنة التحالف والوجهاء.

ويتوافق إنشاء جمعية مساعدة اليهود الألمان مع رغبة لدى اليهود الألمان في التماهي بشكل أعمق مع سياسة بلدهم. على أن هذه الطائفة تحس بانزعاج عميق في لحظة تتكشف فيها معاداة السامية عن كونها قوة رهيبة. والبرهان على ذلك هو تطور الصهيونية في هذا البلد: فمقر الحركة هو الآن في ألمانيا، والاتحاد الصهيوني في ألمانيا إنما يصبح الاتحاد الصهيوني الأهم والأكثر دينامية في أوروبا الغربية. وفي عام ١٩١٢، نجد أنه يضم ١٠٠٠٠ مناضل نشطين بشكل خاص(٣٣). وقدرتهم على التنظيم عظيمة، وهم يقدمون دعمًا متعاظمًا للصهيونية العملية، بالرغم من أن **العاليا** ليست من تنظيم سوى عدد جد قليل من الأشخاص، مثل روبين. وهكذا، فبعد عام ١٩٠٤ وفشل المشروع الأوغندي، يبدو في نظر المراقبين الخارجيين أن الحركة الصهيونية قد عادت إلى الفلك الألماني، كما في العصر الذي سعى فيه هرتسل إلى اجتذاب اهتمام فلهلم الثاني إليها.

وهذا الانطباع يبدو أنه يتأكد خلال المؤتمر الصهيوني العاشر، الذي ينعقد في بال من ٩ إلى ١٥ أغسطس/ آب ١٩١١. فوولفسون، الذي يرى أن الصهيونيين الروس ينازعونه بشكل متزايد باطراد، كان قد أعلن مقدَّمًا عزمه على عدم ترشيح نفسه. فيتشكل ائتلاف أغلبية يضم الصهيونيين الروس والألمان، الذين يتقاسمون مشروع الصهيونية العملية الواحد. ويقدم نوردو تقريره المعتاد عن حالة العالم اليهودي(٣٤). ورؤيته قاتمة. وهو يهاجم بشكل خاص أولئك الذين يماهون الصهيونيين بالسياسة الألمانية، جاعلين منهم أعداء لفرنسا ولبريطانيا العظمى:

> في فرنسا، يجري شجبنا بوصفنا عملاء للحكومة الألمانية؛ ويجري اعتبار الصهيونية شكلاً مريبًا من أشكال رهاب الفرنسيين؛ ويتم تصويرها على أنها تهدف إلى القضاء على نفوذ فرنسا السياسي والمعنوي في بلاد الإسلام. وفي انجلترا، يقال إن الصهيونيين هم أعداء

الانجليز وطليعة الألمان التي تريد دعم قوتها في تركيا على حساب بريطانيا العظمى. وكل من يعرف ولو القليل عن الصهيونية والصهيونيين سوف يضحك من مثل هذه الغباوات. بيد أنها إنما تقال لقراء لا يعرفون شيئًا عنًّا وتجري المراهنة على رهاب الألمان عند الفرنسيين وعلى ارتياب الشعب الانجليزي في ألمانيا. والحال أن هذه الضربة التي وجهها المجرمون إلينا والتي تتمثل في التشهير بنا على أننا عملاء للتوسع الألماني قد نجحت تقريبًا، ولديَّ البراهين على ذلك. فهذه الغباوة المثيرة قد تم أخذها، هنا وهناك، مأخذ الجد، وهناك خطر أن ينشأ مناخ ريبة وتحيزات، ليس من السهل تبديده. وكما ترون، فإننا نولي أهمية كبيرة لعطف الرأي العام في فرنسا وفي انجلترا، وإنه لمن المؤلم أن يجري الافتراء علينا أمام هذا الرأي. بيد أن ذلك لن يقضي علينا البتة.

والاتهام خطير لاسيما أن أوروبا تبدو مرة أخرى على حافة الحرب: فأزمة أغادير كانت قد تفجرت في الشهر السابق وهي ماتزال بعيدة عن أن تكون قد سويت. ويحاول نوردو تهدئة الانزعاجات العثمانية بنفيه وجود نزعة انفصالية يهودية في فلسطين. وتدور المناقشات بهدوء ويتم اختيار قيادة جديدة من خمسة أشخاص. ويتمتع الروس بالأغلبية، حيث يمثلهم في القيادة ياكوبسون وشماريا ليفين وسوكولوف. وتؤول الرئاسة لأوتّو واربورج. أمَّا العضو الخامس فهو ألماني آخر، هو أرثر هانكه. ولأول مرة، كانت العبرية إحدى اللغات المستخدمة في المؤتمر(٣٥).

وفي الشهور التالية، يجري طرح المسألة المدرسية بشكل متزايد باطراد وذلك بوصفها مواجهة غير مباشرة بين فرنسا وألمانيا. وتقرر فرنسا تكثيف إعاناتها للمؤسسات المدرسية الفرانكوفونية في فلسطين مع رفضها مساعدة المدارس اليهودية التي تبدو لها مسرفة في الانحياز إلى الصهيونية وإلى الألمان(٣٦). والحال أن الشهور الستة الثانية من عام ١٩١٢ إنما تجعل هذا الرهان أكثر أساسيَّةً فيما يتعلق بمجمل الدولة العثمانية. ومع نشوب الحرب البلقانية الأولى، فإن مجمل تركيا الأوروبية إنما يعد بسبيله إلى الانهيار. ويحاول التحالف الإسرائيلي العالمي تجنب بلغرة أو هلننة سالونيك، المدينة اليهودية الكبرى، ويتدخل لدى السلطات الفرنسية. وهذا يقود وزارة الشئون

الخارجية إلى تحليل النزاع العام بين التحالف الإسرائيلي العالمي والصهيونية: فمع تقدم هذه الحركة، يتعرض النفوذ الفرنسي على يهود البلقان للضرر[٣٧].

والحاصل أن المنظمة الصهيونية إنما تعتبر نفسها بشكل متزايد باطراد المسئول عن مجمل المسائل اليهودية التي يتم التعامل معها على المستوى السياسي. وهي تتجاوب مع المطالب الصادرة عن الطائفة اليهودية في سالونيك، والمنزعجة من احتمال حدوث سيطرة للروم الأرثوذكس من شأنها أن تكون بالتأكيد أقسى بكثير من سيطرة السلطة العثمانية. وهي تدعو إلى تدويل الميناء والبلد القائم خلفه مباشرة، وذلك وفق نموذج طنجة. وإذا كان المشروع هو عين مشروع التحالف الإسرائيلي العالمي، فإن المحاورين مختلفون: إذ تم إجراء اتصالات مع وزارات الشئون الخارجية النمساوية – المجرية والإيطالية والبريطانية. ويدعو الصهيونيون البلغار، من جهتهم، إلى دمج سالونيك في بلغاريا التي كانت قد جعلت من نفسها، منذ معاهدة برلين، حامية للمصالح اليهودية. بيد أن هذه الجهود الدبلوماسية إنما تظل بلا طائل، وذلك بسبب فشل الدول العظمى في التوصل إلى اتفاق شامل بشأن المسائل البلقانية خلال مؤتمر لندن. وفي نهاية المطاف، نجد أن الحسم العسكري خلال الحرب البلقانية الثانية إنما يسمح لليونان بضم سالونيك في أواخر عام ١٩١٣[٣٨]. ويمثل ذلك بداية أفولٍ، لاسبيل إلى علاجه، للطائفة اليهودية في سالونيك، وهو أفول سيصل إلى ذروته المأساوية مع إبادة النازيين لهذه الطائفة خلال الحرب العالمية الثانية.

وفي مايو/ أيّار ١٩١٣، ترد الدبلوماسية الفرنسية بقوة على مقالات في الصحافة الألمانية تعرض حقوق ألمانيا في امتلاك فلسطين في حالة انهيار الدولة العثمانية[٣٩]: "يبدو أن ألمانيا تريد أن تضاعف نشاطها هناك بتوظيف قوى الصهيونية لحسابها، طوعًا أو كرهًا". ويستشهد قنصل فرنسا في القدس برسالة من روبيّن إلى واربورج:

الحكومة الألمانية تهددنا بأن تسحب حمايتها لمدارسنا اليهودية ولأعمالنا الصهيونية، ما لم نشأ الاندراج بحسم في السياسة الألمانية. فالحكومة عازمة على توسيع مصالحها في فلسطين وزيادة نشاطها بما يجاوز نشاط الأمم الأخرى. وإذا ما سلكنا هذا الدرب، فإن جمعية مساعدة اليهود الألمان (المنافسة الألمانية للتحالف الإسرائيلي) يمكن أن تزدهر

وتحصل على دعم معنوي ومالي من برلين، وإلاّ فسوف تمنى بالخسران... ولا يجب أن تنسى هذا التصريح.

كما يظهر خطر جديد مع مشروع إنشاء جامعة عبرية في القدس تكون منافسة "يهودية ـــ ألمانية" لجامعة سان جوزيف الفرنسية في بيروت:

سعيًا إلى تحقيق هذا المشروع، سوف تتشكل في ألمانيا، بحثٍ من الحكومة، جمعية طبية فلسطينية، وفي المؤتمر الصهيوني القادم، المقرر له أن ينعقد في ڤيينا، سوف تقوم اللجنة القيادية للصهيونيين بالتصويت على زيادة الأرصدة القومية، من ٥ مليون إلى ١٠ مليون مارك، وذلك، بوجه خاص، لأجل إنشاء الجامعة اليهودية في القدس بالاشتراك مع الحكومة.

وعلاوة على المسألة المدرسية، فإن التنافس الفرنسي ـــ الألماني إنما يجري في مجال الحمايات القنصلية. وتشتبه الديبلوماسية الفرنسية بأن ألمانيا تريد مد الحمايات لتشمل جميع اليهود الناطقين بالألمانية (الناطقين باليديّة في الواقع) في فلسطين. وترد الديبلوماسية الفرنسية على ذلك بمد حمايتها لتشمل عدة آلاف من اليهود والمسلمين ذوي الأصل المغربي، على أثر فرض الحماية على المغرب. وتدفعُ قنصليةُ فرنسا في القدس باتجاه أقصى حد من توسيع الحماية. وذلك بالرغم من اعتدال باريس المرتبط بالحساسيات العثمانية والإسبانية (فإسبانيا دولة أخرى حامية للمغاربة)[٤٠]. والمسألة معقدة لاسيما أن هناك إسرائيليين مغاربة مزيفين يتمتعون بحمايات قنصلية إسبانية بينما هم في الواقع يهود نمساويون أو بلقانيون اتخذوا لأنفسهم هذه الأوراق لكي يتحايلوا على القوانين العثمانية بشأن الهجرة. وهم يرغبون في الانتقال تحت الحماية الفرنسية[٤١]:

فهل يجب على العكس من ذلك، سعيًا إلى التمكن، إلى حد معين، من مواجهة التطور الذي اتخذته الأعمال الإسرائيلية ألمانية اللسان، أن نردف بهذا القنصل العام متعاطين يهودًا يمكن أن يشكلوا، في مستقبل يبدو قريبًا، جالية فرنسية يمكنها أن تبرز إلى جانب الجاليات حد المهمة التي قامت باحتواءها قنصليات روسيا والنمسا وألمانيا؟

والحاصل أن قنصلية فرنسا[٤٢]، ضد رأي السفارة الفرنسية في القسطنطينية ــ الأكثر ميلاً إلى مراعاة جانب العثمانيين ــ، إنما تريد "تكوين جالية إسرائيلية فرنسية، تتشكل قاعدتها من المهاجرين من ممتلكاتها في الشمال الأفريقي، وإن كان سينضم إليهم بعض الإسرائيليين فاقدي الجنسية، المقيمين في فلسطين، وغير المقيدين بها في السجل المدني العثماني، والذين من شأنهم أن يطلبوا نيل حمايتها، عن طيب خاطر تمامًا". ففرنسا لا يمكنها الاعتماد على العنصر المسلم في فلسطين، والسكان المسيحيون، "الذين استنزفتهم الهجرة"، لاينمون إلاّ ببطء شديد. وبالمقابل، يمكن للمرء أن يتوقع أن جانبًا كبيرًا من الأراضي والمشاريع الاستثمارية والتجارة، سوف يقع، في مستقبل جد قريب، في أيدي يهود قادمين من الخارج. وهكذا فإن الاستراتيجية المقترحة سوف تسير في اتجاه اقتسام للنفوذ: لألمانيا اليهود الأشكيناز ولفرنسا اليهود السيفارديين.

وفي هذا السياق، ينعقد في فيينا المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (٢ــ٨ سبتمبر/ أيلول ١٩١٣). فنشهد انتصار الصهيونية العملية والصهيونية الثقافية ويدور الحديث في المؤتمر بشكل رئيسي حول التقدم في المنجزات الملموسة، خاصة في مجال التعليم. ويمكننا عندئذ أن نفهم ثناء ليڤين على عمل إدمون دو روتشايلد:

> في حين أن آخرين محظوظين بالثروة، لم يكن لديهم سوى كلمات الاستهزاء والاحتقار لـ"الحالمين" الذين كنّاهم، في نظرهم، فإن هذا الرجل قد منحنا قلبه؛ وكان يدرك أن الإحياء القومي لشعبٍ إنما يتطلب إمكانات بطولية. وقد مرت منذ ذلك الحين ثلاثون عامًا من العمل الشاق. وما كان في العصر الأول فاسدًا قد زال وتبقى بذرة مفعمة بنسغ الحياة. إن البارون إدمون دو روتشايلد كان يكن لشعبه تعلقًا به وإخلاصًا له مساويين لتواضعه. وهو لم يسع قط إلى آيات التكريم الاستعراضية، ولا إلى الفوز بالامتنان. ونحن لا نتذكر هنا عمله لكي نكلله بآيات الفخار التي لم يسع إليها البتة. فهو قد قام بهذا العمل بوصفه ابنًا وفيًّا لشعبه؛ وأدى واجبه بوصفه رجلاً يتمتع بسمو روحي عظيم ولا ينتظر لا ثوابًا ولا شكرًا. وإذا كان قد قُدِّرَ له أن يلقي البذرة الخصبة، فإنه لن يمتنع في المستقبل أيضًا عن احتضان شعبه بحبه المتوهج، ونحن على ثقة بأن الشعب

اليهودي كله سيتمكن في قادم الأيام من توجيه التحية إلى عملٍ واحدٍ من أعظم الرجال.

وبالمقابل، نجد أن سيركين يشجب التطور الجاري: فالمنجزات العملية إنما تتطلب اعتمادًا على تمويلات مستديمة:

من ألوان الصهيونية، لم يبق سوى الأصفر المعدني. لقد أصبحت الحركة الصهيونية حركة جمع للتبرعات وحركة مؤسسات مالية. وقد نمت الروح التجارية في صفوف حزبنا.

أمّا المناقشات الأهم فهي تتصل بإنشاء الجامعة العبرية. وفايتسمان هو مقرر المسألة ويقدم تقريرًا متفائلاً حول إمكانيات تجسيد المشروع. وهو يرى أن مثال جامعة سان جوزيف في بيروت يشير إلى أن بالإمكان الاكتفاء ببداية متواضعة، يتلوها نمو تدريجي للإمكانات. وتتم الموافقة على المشروع ويجري تكليف لجنة بتنفيذه على أحسن وجه. وبُعَيْدَ ذلك، يشتري روبيّن أرضًا في القدس لأجل هذا الهدف.

وإذا كان مقدَّرًا لتكوين جامعة أن يتم في الأمد المتوسط، فإننا نجد، بالمقابل، أن عرض جمعية مساعدة اليهود الألمان إنشاء ليسيه تقاني في حيفا إنما يعد أكثر آنيةً. وهكذا سيتم تأمين الطموحات الاقتصادية للصهيونية في إنشاء اقتصاد صناعي. بيد أن ممولي العملية يشترطون أن تكون الألمانية هي لغة التعليم الأساسية. والمسألة خطرة بشكل خاص، بالنسبة للقوميين اليهود: فإذا ما فازت الألمانية بهذه الوضعية، ففي غضون بضع سنوات سوف يكون الفشل من نصيب الجهود المبذولة لخلق لغة عبرية حديثة. وفي خريف عام ١٩١٣، يدشنون حركة إضراب للمدرسين وللطلاب في مدارس جمعية مساعدة اليهود الألمان سعيًا إلى فرض اللغة القومية التي جرى بعثها. وفي الأسابيع الأولى لعام ١٩١٤، يبلغ التوتر ذروته. والحال أن المسئولين عن المنظمة الألمانية إنما يتهمون الصهيونيين بـ"القومية ـ الشوفينية" وبالرغبة في اختراق المؤسسات الإنسانية الخيرية اليهودية سعيًا إلى فرض أطروحاتهم المتطرفة[٤٣].

ثم إن المسئولين الصهيونيين، وقد عجزوا عن الاستغناء عن الحماية

القنصلية لمدارسهم، يلجأون، عن طريق الكابتن ڤيل، وهو عالم آثار، إلى جس نبض الممثلين الفرنسيين في القدس لكي يقترحوا عليهم إحلال الفرنسية محل الألمانية كلغة ثانية، وذلك في مقابل الحماية الفرنسية(٤٤). ويرى قنصل فرنسا أن القوميين اليهود، "في هذه اللحظة، يعرضون أنفسهم علينا ويطلبون قبولنا لهم. ويجب أن نعرف ما إذا كنا نريدهم وأن نعرف ذلك بوضوح وبسرعة".

وبفضل مساندة من اليهود الأميركيين والروس الذين شاركوا في تمويل معهد حيفا التقاني، يتم التوصل إلى تسوية مع الألمان: أن يتم تقديم جانب متزايد من الدروس بالعبرية(٤٥). وفي اللحظة الي يحرز فيها الصهيونيون هذا الانتصار على الألمان، يقوم إدمون دو روتشايلد بجولة ظافرة في فلسطين: فهذا الرجل الذي استقبله العرب واليهود سواء بسواء في كل مكان، وقدَّم لهؤلاء وأولئك تبرعات سخية، إنما يدعو إلى الإخاء بين العرب واليهود(٤٦).

والحاصل أن حرب اللغات كانت قد حظيت بمتابعة على أعلى مستوى في فرنسا وفي انجلترا(٤٧). وقد لاحظ وزير الخارجية، السير إدوارد جراي، أن الصهيونيين كانوا قريبين من الفرنسيين، ثم من الانجليز، وهم الآن قريبون من الألمان لأن هؤلاء الأخيرين إنما يمثلون النجاح، في نظر الجميع. بينما يرى المسئولون الفرنسيون أنه على أثر العروض التي قدمها الكابتن ڤيل، سيكون بوسع فرنسا السعي إلى توظيف الحركة لحسابها. والحال أن تحركًا قام به ياكوبسون لدى سفير فرنسا في القسطنطينية إنما يدعم تصورهم هذا(٤٨). وفي يوليو/ تموز ١٩١٤، تطلب بعض المدارس اليهودية في القدس الحماية الفرنسية(٤٩). بيد أن الأزمة الدولية الجديدة المنبثقة من حادث الاغتيال الذي وقع في سارايڤو إنما تجهض بداية التقارب هذه بين فرنسا والصهيونية.

ولا يمكن اعتبار الصهيونية العملية والثقافية مشروعًا مستقلاً تمامًا عن الحقل السياسي. فطبيعة النظام السياسي في الشرق الأدنى نفسها، بما ينطوي عليه هذا النظام من لعبة متعددة الأطراف من جانب الدول العظمى سعيًا إلى الفوز بالنفوذ، إنما تؤدي إلى اندراج المشروع الصهيوني اندراجًا لامفر منه في علاقات الحماية القنصلية وعلاقات الامتيازات. واعتبارًا من اللحظة التي تخلق فيها ثورة جماعة تركيا الفتاة حياة سياسية كثيفة في المنطقة، وتظهر فيها الدولة

العثمانية مرة أخرى على أنها توشك على الانهيار، فلا مفر من أن تجد الصهيونية نفسها في مواجهة صعود النزعة القومية العربية ورغبة جماعة تركيا الفتاة في تعزيز التلاحم الداخلي للدولة والأطماع المستجدة التي تخامر الدول العظمى.

العرب والصهيونيون

كما هي الحال في غالبية الولايات العربية في الدولة العثمانية، قوبلت ثورة جماعة تركيا الفتاة استقبالاً جد إيجابي في فلسطين. فالنزعة العثمانية في طرحها الجديد قد ظهرت بوصفها وعدًا بمستقبل أفضل. إلاّ أنه سرعان ما جاء وقت المصاعب والتحرر من الأوهام. وهذا الإحباط المتزايد الذي مس الخواطر إنما يجد ترجمة له في تباعد أليم عن الفكرة العثمانية وفي عودة ظهور الهوية العربية. وهذه ليست قطيعة مفاجئة، فنحن بالأحرى بإزاء سلسلة من المراحل لكل مرحلة منها موضوعها الخاص، وتقود، بشكل يكاد يكون جبريًا، إلى دفع الناس إلى اتخاذ مواقف لم تكن لتخطر ببالهم قبل ذلك بوقت قصير.

وهكذا فاعتبارًا من منتصف عام ١٩٠٩، يتجسد انزعاج الخواطر في انبعاث فكرة الخلافة العربية. وكانت هذه الفكرة قد طرحت بالفعل في القرن التاسع عشر، في كل فترة أزمة، خاصة خلال حملات إبراهيم باشا وخلال مصاعب أعوام ١٨٧٦ــ١٨٨٢. ويمكن اعتبارها مظهرًا من مظاهر تباعد الولايات العربية عن السلطة المركزية. وأصل المسألة له طابع فقهي. فالتراث الديني السنيّ يجعل من الانتماء إلى نسبٍ قريشيٍ (حيث قريش قبيلة النبي) شرطًا لا غنى عنه لممارسة الإمامة الأعظم في الإسلام. وقلّما اهتم السلاطين العثمانيون بذلك الشرط، فتصرفوا كخلفاء، حاملين لقب الخلفاء وممارسين لمهامهم، دون أن يولوا لهذا الشرط أي أهمية خاصة. وتتبدل الأمور في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر. فمع ضياع الأراضي الإسلامية الأولى لصالح الدول الأوروبية، يحصل السلاطين على نوع من الحق الروحي على المسلمين الذين وقعوا تحت سيطرة غير إسلامية. وهم يؤكدون أنهم يريدون توليّ مجمل وظائفهم الخليفية. وبما أن الأسرة المالكة العثمانية ليست ذات نسب قريشي،

نهم يتذرعون بحجتين لإضفاء الشرعية على دعاويهم. وأولى هاتين الحجتين ي أن خليفة القاهرة العباسي الأخير كان قد نقل في القرن السادس عشر إلى سطان العثماني ليس فقط شارات سلطته وإنما أيضًا مجمل وظائفه، وهذه طروحة الخلافة عن طريق النقل. أمَّا الحجة الثانية فهي إنه إذا كانت الخلافة، ن حيث الحق، يجب أن يمارسها قريشي، فإن الظروف تفرض ممارستها من جانب سلطان عثماني، والشيء الأهم هو ممارسة هذه الوظائف ممارسة حقيقية، هذه أطروحة الخلافة بحكم الضرورة.

وبالرغم من هاتين الحجتين المطروحتين لكسب الشرعية، فإن دعوى لسلاطين الخليفية قد ظلت هشة في حال حدوث ادعاء قريشي بالأحقية، ومن هنا الأهمية التي اكتسبتها فجأة الشخصية الأبرز بين أحفاد قريش، أي أمير مكة، شريف المدينة المقدسة (أي حفيد النبي). وحتى مع أن هذا الشريف كان قد اعترف بالسلطان، منذ القرن السادس عشر، خادمًا للحرمين الشريفين (وهو لقب خليفي)، فإنه قد ظل مع ذلك المنظم في الساحة للحج السنوي، وهو أحد أركان الإسلام. ومنذ أواخر القرن الثامن عشر، وجد خصوم السلطان أنفسهم مدفوعين من ثم إلى طرح شريف مكة باعتباره نوعًا من خليفة مضاد أو باعتباره المطالب الوحيد بالأحقية والذي يمكنه، بشكل مشروع، ممارسة الإمامة العظمى.

وكان عبد الحميد قد أسس عمله على نزعة الجامعة الإسلامية، أي على شرعيته الخليفية. وفي مجال السياسة الدولية، سمحت له هذه الشرعية بادعاء أنه الزعيم الديني الأعلى للعالم الإسلامي. وفي مجال السياسة الداخلية، أصبحت الخلافة بمثابة الآصرة الأقوى التي توحّدُ العرب المسلمين بالسلطة المركزية. والحال أن مهندس هذه السياسة العربية كان مستشاره عزت باشا، المسئول عن أكبر مشاريع العهد، سكة حديد الحجاز. وليس هناك ما يدعو إلى العجب في أن القوميين العرب الأوائل في مستهل القرن كالكواكبي المسلم وعازوري المسيحي إنما يستعيدون أطروحة الخلافة العربية.

وبعد ثورة تركيا الفتاة، نجد أن عزت باشا، والذي يرمز إلى النظام القديم، يرحل إلى المنفى في أوروبا تارة وفي مصر تارة أخرى. ويؤدي خلع عبد

الحميد إلى تعديل دستوري مهم يجعل من الخليفة نائبًا عن الأمـــة العثمانيـــة، مسئولاً أمامها، أي أمام البرلمان العثماني. والحال أن هذا البرلمان إنما يضـــم أيضًا غير مسلمين، مسيحيين ويهودًا(٥٠). ويرى المسلمون المحافظون أن هـــذا كفر جديد من جانب رجال جماعة تركيا الفتاة، المتهمين بالفعل بالإلحاد.

ومنذ صيف عام ١٩٠٩(٥١)، جرى تفسير مختلف حركات التمرد البدويـــة واليمنية في شبه الجزيرة العربية على أنها أيضًا تحـــديات للسـلطة الخليفيـــة العثمانية. فهي بمثابة تظاهرة للنزعة القومية العربية ضـــد النزعـــة القوميـــة التركية. ويسود الاشتباه بأن عزت باشا يريد إقامة خلافة عربيـــة فـــي شـــبه الجزيرة. وتنتهز الصحافة المصرية المسألة وتخوض سجالات قوية حول هـــذه الفكرة مع صحافة القسطنطينية(٥٢). وفي خريف عام ١٩٠٩، نجد أن خـــديوي مصر، بالرغم من أنه ليس قريشيًا، يبدو أنه يطرح نفسه كمرشح للخلافة: فيكثر من الحج إلى مكة ليجري إعلانه خليفة محل الخليفة(٥٣). وبما أن مصر محتلة من جانب البريطانيين، وبما أن الخديوي يحتفظ في ذلك الوقت بأفضل العلاقات مع خليفة اللورد كرومر كمعتمد عام، السير إيلدون جورست، فإن هذه المبادرة لا يمكن أن تتحقق إلاّ بموافقة من جانب البريطانيين. وحتى مع أنه لا يحـــدث شيء خلال رحلة الخديوي في شبه الجزيرة، فإن مسألة الخلافة تظل في جدول الأعمال(٥٤). وعلى مدار عام ١٩١٠، يستمر الحديث عن فكرة الخلافة العربية وعن الدسائس المنسوبة إلى عزت باشا(٥٥).

ويستفيد العرب من ذلك لكي يعبروا عن استيائهم من تدابير تتريك الإدارة، خاصة في مجالي التعليم والقضاء. وبالنسبة لرجال جماعة تركيا الفتـــاة، فـــإن المسألة ليست بالفعل مسألة رغبة في تتريك السكان العرب، بل هي بـــالأحرى مسألة تعزيز للمركزة عبر توحيد اللغة الإدارية. ويحلل العرب هذه التدابير عبر نسق مرجعيات دينية: فالأتراك، بإلغائهم استخدام العربية، إنما يعتـــدون علـــى اللغة المقدسة، لغة الله في القرآن. والمسألة هي، بشكل ما، مسألة علامة جديدة على الكفر من جانب جماعة تركيا الفتاة.

وفي خريف عام ١٩١٠، يثور دروز حوران على العثمـــانيين. ويحشـــد هؤلاء الأخيرون إمكانات عسكرية ضخمة سعيًا إلى قمع هذه الحركة الخطـــرة

بشكل خاص، لأن الدروز، منذ منتصف القرن التاسع عشر، إنما يشكلون جزءًا من المتعاطين مع البريطانيين في الشرق الأدنى. وفي اللحظة التي يرضخ فيها الدروز أمام القوة الأكثر تفوقًا، يثور بدو شرقي الأردن بدورهم (مستهل ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٠)، بما يثير رد فعلٍ غريبًا في القدس:

يقول البعض إن الانتفاضة هي بداية ثورة عربية ضد الأتراك، حيكت، بتحريض من الانجليز، من جانب أحمد عزت باشا، وذلك بهدف انتزاع الخلافة من الأتراك؛ وإن الانجليز هم الذين قدموا السلاح لقبائل ابن الرشيد وابن السعود، محرضين هؤلاء الشيوخ على إعلان الخلافة، "التي يجب أن تكون للعرب لأن النبي كان عربيًّا"، ويروي البعض الآخر أن الانجليز، أيضًا، هم الذين يريدون إرغام تركيا على الانسحاب من الحدود الفارسية، بينما يرى بعض ثالث، أخيرًا، يد روسيا في المسألة، سعيًا منها إلى دفع تركيا إلى تبديد أموال القروض ومنعها من ثم من تحصين نفسها في البحر الأسود!

على أن سذاجة خيال الأهالي وميلهم إلى التصديق ليس من شأنهما التقليل من خطورة الوضع، إذا ما فكَّر البدو في الاندفاع باتجاه فلسطين(٥٦).

وللحظة، تخشى القنصليات في القدس من أن تمتد الانتفاضة إلى فلسطين ومن احتمال انحياز سكان السنجق إلى البدو:

مما لا جدال فيه أن النظام التركي عمومًا ونظام جماعة تركيا الفتاة خصوصًا إنما يتزايد كرههما على نحو مطرد في فلسطين، حيث لم يف هذا النظام الأخير إلى الآن بأي من وعوده وحيث يراكم، على العكس من ذلك، وبشكل مجاني، التصرفات الرعناء، فلا يرسل، بقدر ما يمكنه، إلى هذا البلد العربي، سوى موظفين ومسئولين لا يعرفون لغة أخرى سوى التركية. ومتصرف القدس رجل ينطبق عليه هذا القول (بالرغم من أنه، من جهة أخرى، رجل مفعم بحسن النوايا تجاه التنمية الاقتصادية لسنجقه)، بل إن هذا القول إنما ينطبق أيضًا على رئيس محكمة الاستئناف الجديدة، والقاضي والمحاسبجي، إلخ، كما ينطبق على قائد الشرطة وضباط صف الجندرمة!

وهناك أمر بأن تكون جميع الطلبات المقدمة إلى مكاتب الحكومة وإلى المحاكم مكتوبة بالتركية؛ وبحكم قوة الأشياء، فإن هذا الأمر إنما يظل، في الواقع، حبرًا على ورق، لكن مجرد وجوده من حيث المبدأ لا يقلل من واقع أن العرب يشعرون بالاستياء منه(٥٧).

وسرعان ما يتم سحق الانتفاضة، لكن المراقبين إنما يفكرون الآن في إمكانية نشوب تمرد عربي – بدوي انطلاقًا من شرقي الأردن، تدعمه في نهاية الأمر بريطانيا العظمى. وهذا ليس مجرد تكهن صرف، لأن الاستراتيجيين البريطانيين إنما يضعون في حسبانهم هذا الافتراض في حالة نشوب حرب مع الدولة العثمانية.

واعتبارًا من عام ١٩١١، تنتقل فكرة الخلافة إلى المرتبة الثانية في السجالات بين العرب والأتراك. وندخل مرحلة جديدة في سيرورة التباعد فيما بين الشعبين. وهي سيرورة تتعلق بالصهيونية على نحو مباشر.

والحال أن اتخاذ موقف معادٍ للصهيونية من جانب الحركة القومية العربية كان يتميز بمكونين رئيسيين. والمكون الأول فلسطيني بشكل خاص ويرتبط بمسألة بيع الأراضي. وهذه جِدّة نسبية في الموضوع، يجب النظر إليها في علاقتها بـ"اقتحام العمل" الذي طرحته الصهيونية الاشتراكية. فمنذ الربع الثاني من عام ١٩٠٩، ينشر نجيب نصّار في صحيفته **الكرمل** الصادرة في يافا سلسلة من المقالات يهاجم فيها بقوة شراء الصهيونيين للأراضي. وفي عام ١٩١٠، يوجّهُ حاخام القسطنطينية الأكبر شكوى ضده، لكن المحكمة تخلي سبيله، إذ تجد أن الاتهامات التي يوجهها مشروعة. وعمل هذا الناشط إقليمي أساسًا، بيد أن الصحافة السورية تتبنى القضية في أواخر عام ١٩١٠ وتواصل طرحها. والحال أن إحدى الشخصيات الأهم في العالم السياسي العربي، شكري العسلي، إنما تجعل منها موضوع معركة ضد سياسة جماعة تركيا الفتاة(٥٨). وفي رسالة مفتوحة، يهاجم العسلي المنظمات اليهودية، الصهيونية وغير الصهيونية، ذات الهدف الواحد: الانفصال تمامًا عن السكان العرب على المستوى الاقتصادي كما على المستوى السياسي وبناء كيان قومي ذاتي الحكم، وذلك بفضل الحمايات القنصلية، سعيًا إلى التوصل إلى حكم مستقل. وهو يبالغ في تقدير حجم الاستحواذات التي تمت بالفعل و، بشكل متناقض إلى حدٍّ ما، يدافع عن عبد الحميد الذي تمكن من احتواء تقدم الاستيطان اليهودي.

وأمّا المكون الثاني للمعاداة العربية للصهيونية فهو يتعلق بمجمل الأراضي السورية: فبعد مسألة الخلافة، تعد مسألة هذه المناطق المحور الثاني لرفض

سياسة النظام الذي تم تدشينه في ١٩٠٨–١٩٠٩.

فثورة تركيا الفتاة كانت قد أدت إلى مصادرة أملاك عبد الحميد العقارية الشخصية. وكانت هذه الأملاك كبيرة بوجه خاص في فلسطين، حيث كان السلطان قد شكّل لنفسه ملكية عقارية مهمة. ويعلن رجال جماعة تركيا الفتاة اعتزامهم طرحها للبيع أو للتأجير. وتهتم بذلك إيكا وإدمون دو روتشايلد، بينما تحاول مجموعات من رجال الأعمال الشوام في مصر وفي بيروت تكوين شركة عقارية مهمتها تولي إدارة هذه الأراضي بهدف استثمارها، وهذه ممارسة شائعة في مصر. وتسعى المجموعة التي يقودها الدكتور الأصفر إلى تجنيد رساميل من أوروبا لأجل هذا الهدف. وهذا المشروع يستثير احتجاجات حادة من جانب شخصيات عربية تتهم الرجل، مخطئةً، بأنه متواطئ مع الصهيونيين. وينعقد في نابلس اجتماع احتجاج يحمل بشكل له دلالته الاسم الانجليزي *meeting*[٥٩].

وفي أواخر عام ١٩١٠[٦٠]، يخوض رشيد رضا في **المنار** حملة عنيفة ضد الخطر الذي يمثله نفوذ اليهود في داخل جمعية الاتحاد والترقي. فتنمية البلد تعتمد على استخدام رساميل أوروبية، وهذه الرساميل بأيدي اليهود: لذا يجب السيطرة بشكل صارم على استخدامها، وهو استخدام مفيد من جهة أخرى. ويجب حظر بيع الأراضي، وتشجيع الأنماط الأخرى للاستثمار. ويتمثل الخطر الصهيوني في الاستيلاء على الأراضي المقدسة. ونرى في ذلك المماهاة بين اليهودية والرأسمالية الأوروبية، بما يشكل صورة قوية بشكل خاص في ذلك العصر، كما نرى فيه في الوقت نفسه اعترافاً بتبعية الشرق الأدنى الاقتصادية للرساميل الأوروبية.

ويعلن الأصفر أنه مستعد لقبول إدخال بند على العقد يحظر البيع لليهود. وفي عام ١٩١١، نجد أن شركة سورية – مصرية أخرى، هي شركة چورج ليد الزراعية والصناعية المصرية المساهمة، تقترح شراء الممتلكات العقارية السلطانية لإعادة بيعها من أجل تشجيع هجرة عثمانية داخلية: والهدف هو مواجهة رحيل عرب سوريين إلى القارتين الأميركيتين عن طريق "استيطان أهلي" ليس من شأنه أن يطرح مشكلات سياسية[٦١].

والحال أن جميع هذه المشروعات إنما تفترض حشد أموال من أوروبا؛ على أن عدم الاستقرار السياسي العثماني اعتبارًا من عام ١٩١١ إنما يدعو المستثمرين إلى التريث، ولا تجد المسألة تسوية لها إلاّ عند نشوب الحرب العظمى [الأولى]. وفي توازٍ مع المناقشات الخلافية حول الممتلكات العقارية السلطانية، يفكر آل سرسق في بيع جزء من ممتلكاتهم في شمالي فلسطين للصهيونيين. وهنا أيضًا، يشن عرب مجمل سوريا حملة احتجاج كبرى. وبالرغم من ضغوط السكان، تقوم السلطات العثمانية بتسجيل عمليات نقل ملكية الاراضي المتماشية مع الإجراءات القانونية.

والحاصل أن المماهاة التي أصبحت شائعة بين ألمانيا وجماعة تركيا الفتاة والرأسمالية اليهودية والحركة الصهيونية إنما تجعل من معاداة الصهيونية السلاح السياسي بامتياز في أيدي خصوم جمعية الاتحاد والترقي. واعتبارًا من أواخر فبراير/ شباط ١٩١١، تحتدم المناقشات حول هذه الموضوعات في البرلمان العثماني(٦٢). وليس النواب العرب وحدهم الذين يقومون باستخدامها. وتضطر الحكومة إلى اتخاذ مواقف رسمية تشجب الصهيونية. وتفرض بقسوةٍ احترام قرارات حظر البيع، الأمر الذي يدفع السفارات في القسطنطينية إلى توجيه مذكرات شفاهية إلى الباب العالي تدعوه إلى احترام حقوق الأجانب في الدولة العثمانية. وعندما يستأنف النواب العرب الهجمات ضد الصهيونية، في مايو/ أيّار ١٩١١، فإنهم يجدون أنفسهم هذه المرة معزولين. فخلال الفاصل الزمني، كانت جمعية الاتحاد والترقي قد نجحت في أن تكسب إلى صفها فريقًا من المنشقين، كما أن ممثلي الجماعات العرقية الأخرى قد كفوا عن أن يجعلوا من هذه المسألة فرس معركتهم ضد الحكومة. على أن هذه الحملة البرلمانية التي قادها العسلي إنما ترمز إلى مرحلة مهمة في التطور السياسي العربي: فنواب الولايات العربية قد تكلموا باسم المصالح الجماعية العربية، حتى وإن كانوا قد فعلوا ذلك باسم ولاء عربي تجاه خلافة القسطنطينية التي يجب تمييزها عن حكومة تركيا الفتاة(٦٣).

أثر حروب ١٩١١ـ١٩١٣

الحال أن العداوة المتزايدة من جانب النخب العربية حيال نظام جماعة تركيا الفتاة إنما تتغذى على شكايات حقيقية. فالسلطة الجديدة تميل إلى الشك في الموظفين ذوي الأصل العربي، المشتبه بأن لديهم حنيناً إلى العصر الحميدي. وكان سقوط السلطان ــ الخليفة قد أدى إلى تطهير الإدارة على حسابهم. ومن ثم فإن السلطة الجديدة لا تختار عربًا كثيرين وترفض صعود العرب إلى مواقع المسئولية. ووحدهم أولئك الذين أعلنوا ولاءهم الصريح لجمعية الاتحاد والترقي، والذين صاروا رفاق طريق لها، هم الذين يستفيدون من دعم السلطة لهم، شأن عائلة أرسلان الدرزية في لبنان أو أسعد شقير في حيفا.

وكبار الأعيان العرب غير معينين كثيرًا بهذا التطور: فقد جرت العادة على أن يتولوا صلاحيات محلية، مدنية أو دينية، ولم يتخذوا العمل في الإدارة مهنة لهم. على العكس: لقد عززت الثورة وزنهم في المجتمع لأن بوسعهم أن يستخدموا نفوذهم الاجتماعي الكبير في الحياة السياسية المحلية وفي الانتخابات. واعتبارًا من عام ١٩٠٨، أدرك القناصل دور الأعيان الجديد. فلم يعد بوسع ممثلي الدول العظمى أن يكتفوا بالحوار مع محاوريهم المعتادين، موظفي السلطة العثمانيين وزعماء الطوائف غير المسلمة. ومنذ عام ١٩٠٩، تدشن باريس "سياسة إسلامية" قوامها نسج علاقات مع الشخصيات المسلمة الرئيسية سعيًا إلى التمكن من ممارسة نفوذ على هذه الشخصيات. والمرحلة الأولى هي إحصاء الأعيان المسلمين في المناطق السورية. فالمتعاطون القدامى مع الفرنسيين لم يعودوا يكفون. وقد وجد الأعيان سعادة في المشاركة في هذه الطبعة الجديدة من اللعبة وأخذوا يتصورون أن بوسعهم استخدام ممثلي الدول العظمى سعيًا إلى ممارسة ضغوط على السلطة العثمانية. ويتفتت التحالف التقليدي بين القناصل والولاة. وعلى غرار ما كان قائمًا في الجبل اللبناني بالفعل في القرن التاسع عشر، يصبح الأعيان شركاء للقناصل في النزاعات مع السلطات.

وإذا كان كبار الأعيان يجدون أنفسهم مرتاحين في مواقعهم، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لأعضاء الفروع الأصغر الذين كانوا يعملون في الإدارة أو في

الجيش (وهم عراقيون، في هذه الحالة الثانية). وبما أنهم لا يحوزون إمكانات من يكبرونهم سنًا، فقد كانوا قريبين من الممثلين الأوائل للطبقات المتوسطة المسلمة (في التجارة والملكية العقارية الصغيرة) الذين تلقوا تعليمًا حديثًا. وقد شكّلوا، مع هؤلاء الأخيرين، شبيبة متعلمة، بورجوازية ذات مواهب مَثَّلَ التعليم الحديث بالنسبة لها نوعًا من رأس المال. وبشكل متزايد باطراد، أخذوا يجرون دراساتهم في بيروت وفي القسطنطينية وفي الجامعات الأوروبية. لكن منافذ العمل في الإدارة إنما تصبح الآن نادرة. وإمكانات توظيفهم تصبح محدودة بسبب شكوك السلطة فيهم. والحاصل أن هؤلاء الشبان الطموحين هم الخصوم المحتملون لجماعة تركيا الفتاة. ففي استعادتهم للأساليب السابقة التي اتبعتها جمعية الاتحاد والترقي يقومون بدورهم بتكوين جمعيات سرية هدفها التوصل إلى نظام حكم ذاتي للولايات العربية، بما يسمح لهم بأن يجدوا المكانة التي يرون أنها من حقهم. وهذه النزعة الاستقلالية العربية إنما تتخذ شكل مناداة بلامركزة عثمانية، تسير في اتجاه المطالبة الأعم التي يطرحها الليبراليون العثمانيون خصوم جمعية الاتحاد والترقي. ويتحد مجمل هذه التيارات في داخل الائتلاف الليبرالي، الذي تأسس في خريف عام ١٩١١، والذي يطرح نفسه بوصفه الحزب البديل لجمعية الاتحاد والترقي باسم مصالح الأتراك واليونانيين والبلغار والأرمن والألبانيين والعرب.

وبعد مسألة الخلافة ومعاداة الصهيونية، تظهر تيمة جديدة في ١٩١١ـ١٩١٢، تشكل مرحلة ثالثة في انفصال النخب العربية، هي تيمة الإهمال العثماني. فباستعادة أفكار كانت قد كُرِّرَت بالفعل منذ عقود من جانب الرحالة الأوروبيين، يقارن رجال الجمعية "العربية الفتاة" الازدهار القديم للمناطق السورية بالوضع الحاضر، الذي يعتبرونه كارثيًا على المستوى الاقتصادي. وهم ينسبون هذا التأخر في النمو إلى الإدارة العثمانية السيئة. وعندئذ يجري طرح عمل البريطانيين في مصر والذي يعتبرونه مفيدًا كنموذج للعمل. وتورد المصادر القنصلية الفرنسية والبريطانية بصورة متواصلة تصريحات عديدة من هذا النوع. ويرى الفرنسيون في ذلك مبادرات من جانب انجلترا الخبيثة، بينما يرى فيه البريطانيون في القاهرة حافزًا إلى التحرك في هذه المناطق.

والحاصل أن الدور المتزايد الذي تلعبه القاهرة في هذه المناقشة إنما يجد تفسيره في وجود نخبة شامية مهمة، مسيحية ومسلمة، جد مؤثرة في الحياة الاقتصادية والثقافية. وشوام مصر هؤلاء بعيدون عن عدم الاهتمام بالوضع في بلدانهم الأصلية. ونجاحهم المادي يبرر في نظرهم المكانة التي يمكنهم الفوز بها في سوريا: فهم قد أثبتوا كفاءاتهم في أرض المهجر هذه؛ وإذا ما تُركت لهم حرية التصرف، فسوف يثبتون هذه الكفاءات نفسها في أوطانهم. وهم يدعون إلى لامركزة عثمانية من شأنها الحد من الوظائف الممنوحة للسلطة المركزية وإطلاق أيديهم في اتجاه لإحياء الاقتصاد والمجتمع السوريين.

ويتابع خديوي مصر باهتمام تطور القاهرة كمركز للمعارضة لجماعة تركيا الفتاة. فمنذ أمد بعيد، كان أحفاد محمد علي يدعمون كل أشكال المعارضة لسلطة الباب العالي (جماعة تركيا الفتاة قبل عام ١٩٠٨، على سبيل المثال). وكان ذلك، بالنسبة لهم، وسيلة ضغط فعالة على القسطنطينية، و، في نهاية المطاف، أداة لاستعادة سيطرتهم من جديد على الولايات السورية. وهكذا سعى عباس حلمي إلى أن يوظِّف لحسابه المناداة بخلافة عربية. ثم إن تعيين اللورد كتشنر كمعتمد بريطاني في القاهرة لم يكن قد وضع حدًّا لطموحاته. وبالرغم من عزم المعتمد الانجليزي على القضاء على كل شكل من أشكال استقلال الخديوي، فقد كان تلاقي المصالح قائمًا بين هذا الأخير وعدوه اللدود: فالاثنان كانا عازمين تمامًا على فوز مصر بنفوذ قوي، بل وأقوى، على الولايات السورية. وهكذا نشهد تدفق جميع خصوم جمعية الاتحاد والترقي على القاهرة، واثقين من أنهم سوف يتم الترحيب بهم(٦٤). وقد حدث الشيء نفسه بالنسبة لممثلي قوى موجودة في شبه الجزيرة العربية: فزيارة عبدالله، الابن الأكبر للشريف حسين، شريف مكة، قد أثارت الكثير من التعليقات من جانب المراقبين.

وفي سبتمبر/ أيلول ١٩١١، تعلن إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية كيما تتمكن من الاستيلاء على برقة وطرابلس الغرب (ليبيا)، الولاية العثمانية الأخيرة في أفريقيا. وبما أن الإيطاليين يتمتعون بالتفوق البحري بينما يمنع البريطانيون مرور قوات عثمانية عبر مصر، فإن العثمانيين إنما يجدون أن من

المستحيل عليهم إرسال قوات مهمة إلى أفريقيا. على أن عددًا معينًا من الضباط ينجحون في الانتقال إلى ليبيا وينظمون مع العرب المحليين حرب عصابات فعّالة. وفي مجمل المشرق، يجري إغلاق المنشآت الاقتصادية والثقافية الإيطالية، بما يوجه ضربة مميتة إلى وجودٍ قديم.

وفي الولايات العربية، فإن واقع أن جمعية الاتحاد والترقي بسبيلها إلى فقدان أرض عربية ومسلمة في آن واحد إنما يعتبر برهانًا جديدًا على عجز السلطة القائمة. ويعم الإحساس بأن العرب يمكنهم أن يكونوا مدافعين عن الإسلام أفضل بكثير. وإزاء تصاعد المعارضات، تفضل جمعية الاتحاد والترقي استباق الآخرين: ففي يناير/ كانون الثاني ١٩١٢، يجري حل البرلمان وتنظيم انتخابات جديدة؛ وتكثر السلطة من الضغوط عن طريق الإدارة ولجان تركيا الفتاة المحلية؛ وتجري ممارسة أعمال عنف ضد المعارضة. والحال أن النواب العرب الاثنين والعشرين المنتخبين في أبريل/ نيسان ١٩١٢ إنما ينتمون إلى جمعية الاتحاد والترقي، ولا ينجح الائتلاف الليبرالي في الحصول على أكثر من حفنة من المقاعد(٦٥). وفي القدس، نجد أن روحي الخالدي، الذي لم ينفصل عن جماعة تركيا الفتاة، إنما يحتفظ بمقعده؛ وينضم إليه مالك عقاري ثري، كان في السابق ملتزم عشور مشهورًا بممارسته الضغوط على الفلاحين، هو عثمان النشاشيبي، وأحمد أفندي العارف الحسيني، مفتي غزة، المعروف بانتهازيته. وفي عكا، يفوز أسعد شقير، بنيما يفوز حيدر بك طوقان في نابلس. ويرى قنصل فرنسا في القدس أن الحملة الانتخابية كانت ذات طابع خاص تمامًا:

الواقع أنهم قد تم تعيينهم من جانب جمعية الاتحاد والترقي التي لم تدع للناخبين أي سبيل لانتخاب سواهم، وهو ما كانوا سيفعلونه دون شك، إذا ما كانت قد أتيحت لهم إمكانية الإدلاء بأصواتهم بحرية. إلاّ أنه لم يجر ادخار شيء في السعي إلى تأمين فوز المرشحين الذين رشحتهم سالونيك: إبعاد المتصرف وقائد الجندرمة، المشتبه بوجود ميول ليبرالية لديهما، إرسال مندوبين خصوصيين من اللجنة المركزية لإجراء الانتخابات، تحديد الدوائر بشكل تعسفي سعيًا إلى إغراق الناخبين المعروفين بمعارضتهم، إرغام الموظفين، عبر التهديد بالفصل، على شن حملة لصالح مرشحي الجمعية، سوق الناخبين بالقوة إلى صناديق الاقتراع وإجبارهم على استلام بطاقات التصويت التي تخصهم من يدي رئيس

المكتب الذي يقوم هو نفسه، في حالة الامتناع، بملء البطاقة ووضعها في الصندوق مع قيامه، دون أي إجراء آخر، بطرد الناخب المتردد، الذي يتم بذلك اعتبار أنه قد أدلى بصوته على النحو الواجب. وقد حدث هذا بشكل خاص في مركزي غزة والخليل. وفي القدس، كان من شأن توزيع حاذق للدوائر في انتخابات المرحلة الأولى أن يكون كافيًا لضمان فوز مرشحي الجمعية بأغلبية أصوات الناخبين في المرحلة الثانية(٦٦).

وقد اتخذ جميع هؤلاء النواب موقفًا معاديًا للصهيونية بحزم، بما يشكل علامة على تطور الإذهان. وبينما يواصل نَصّار، انطلاقًا من عكا، دعايته، باسم المصالح العثمانية، نجد أن صحيفة جديدة، انشأتها في يناير/ كانون الثاني ١٩١١ في يافا أسرة مسيحية، هي أسرة العيسى، إنما تتخذ نبرة مختلفة. وعنوان الصحيفة كاشف بشكل خاص: **فلسطين**. وبالرغم من أنها تعلن ولاءها لجمعية الاتحاد والترقي، إلاّ أنها تخاطب "الفلسطينيين" وتعارض الصهيونيين بحزم. و"فلسطين" هذه متمايزة تمامًا عن سوريا، حتى وإن كانت تختلط أحيانًا بسنجق القدس وتشمل أحيانًا أخرى مناطق خارجة عنه.

وأصحاب **الكرمل وفلسطين** مسيحيون(٦٧). وفي الولايات السورية الأخرى، تتخذ الصحافة المسيحية مواقف أكثر حيادية في مسألة الصهيونية مع التزامها الولاء للنظام. أمّا الصحافة المسلمة، بالمقابل، فهي معادية للصهيونية ومعادية لجمعية الاتحاد والترقي(٦٨). وهذا يبين أن المعارضة للصهيونية، في فلسطين ذاتها، إنما تتماشى مع شعور بخطر حقيقي يوحّدُ المسلمين والمسيحيين، مع بدء انبثاق هوية فلسطينية متمايزة، في حين أن العداء للصهيونية، في بقية سوريا، إنما يختلط بمجمل الشكايات المتراكمة ضد السلطة المركزية. ويجد ذلك تأييدًا له في واقع أن المشاركة الفلسطينية في الجميعات السرية العربية، بالرغم من الانتقادات الموجَّهَة إلى موقف جمعية الاتحاد والترقي في مسألة الهجرة وبيع الأراضي، إنما تعد أضعف مما في المناطق السورية الأخرى. فمن بين ١٢٦ شخصًا جرى تحديدهم على أنهم انتموا إلى جمعيات سرية قبل عام ١٩١٤ أو قبل عام ١٩١٨، لا نعرف سوى ٢٢ أو ٢٤ أو ٢٥ فلسطينيًا(٦٩). وبالمقابل، فإن واقع أن أكثر من نصفهم (١٣) كانوا من نابلس، في مقابل ٨ من القدس،

إنما يشير إلى أهمية نابلس كمركز للنزعة العربية وإلى انغراس أقل لهذه النزعة في القدس[٧٠]. وهذه الخصوصية النابلسية غريبة لاسيما أنه يبدو أن هؤلاء العروبيين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة بأكثر مما إلى عالم الأعيان، وهو وضع قريب بالأحرى إلى وضع مدينة ساحلية[٧١]. وتفسير ذلك لابد أن يوجد في الدينامية الداخلية للاقتصاد النابلسي، بصناعة الصابون القوية فيه. فتحت الستار الظاهر لنزعة محافظة معلَنة، يتمكن النابلسيون في الواقع من الاستفادة من الأوضاع الجديدة، بل ومن الإمساك بزمامها. وبين من أسسوا في باريس المنظمة السرية الأهم، "العربية الفتاة"، يوجد نابلسي شاب، ينتمي إلى واحدة من كبرى عائلات المدينة، هو عوني عبد الهادي. وبما أنه كان يجري دراساته في باريس، فإنه لا ينتقل مع انتقال القيادة العامة للمنظمة إلى المشرق عشية الحرب [العالمية الأولى].

وتتكشف أصالة فلسطينية معينة قبل عام ١٩١٤: بقاء ولائية عثمانية قوية يضاف إليها وعي إقليمي أكثر وضوحًا مما في الأماكن الأخرى. والحال أن الأحداث السياسية لأعوام ١٩١٢ ـــ ١٩١٤ سوف تعزز هذه الفرادة.

ويصبح السخط عامًّا إلى حد بعيد بحيث إنَّ جمعية الاتحاد والترقي تضطر في يوليو/ تموز ١٩١٢ إلى تسليم السلطة للائتلاف الليبرالي. وبما أن الحكومة الجديدة غارقة في إدارة الشئون الجارية في ظرف صعب بوجه خاص (الحرب مع إيطاليا)، فإنها إنما تبدو عاجزة عن اتخاذ تدابير الإصلاح الإداري التي كان قد تم الوعد بها أثناء الوجود في المعارضة. وفي فلسطين، يبدو أن الإدارة تعتمد موقفًا مناسبًا للمصالح الصهيونية وتصدِّق على تحويلات ملكية الأراضي، الأمر الذي يثير عظيم سخط السكان المحليين[٧٢].

وفي خريف عام ١٩١٢، تتحدَّدُ معالم مخاطر نشوب حرب بلقانية جديدة. فالدول المسيحية المجاورة لتركيا الأوروبية تعقد ائتلافًا فيما بينها وتأمر بالتعبئة العامة لقواتها المسلحة. وتضطر الدولة العثمانية إلى توقيع صلح مهين مع إيطاليا، في ١٧ أكتوبر/ تشرين الأول، كيما تتمكن من مواجهة الخطر الجديد. وغداة ذلك، تعلن الدول البلقانية الحرب. وفي غضون أسابيع قليلة، تنهار أوروبا التركية، وقد تعرضت للهجوم من جميع الجهات: وتبقى هنا وهناك

جيوب مقاومة بينما تهدد القوات البلغارية بالزحف إلى بحر مرمرة. وفي ٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٢، يتم عقد هدنة بين الدولة العثمانية والمحاربين لها بينما يجري عقد مؤتمر في لندن تحت رعاية الدول العظمى.

ويبدو السقوط النهائي للدولة العثمانية وشيكًا، بما يحرك أطماع الدول العظمى. وتبدو ألمانيا منحازة إلى الجانب الخاسر بينما تنزعج فرنسا بالأخص على بقاء نفوذها. لكن انجلترا نفسها تتعرض للشلل من جراء تنافسها البحري مع ألمانيا. فمنذ مستهل القرن، كان عزم الرايخ الثاني على خلق أسطول حربي منافس لأسطول بريطانيا العظمى الحربي قد أدخل تحولاً عميقًا على حالة العلاقات الدولية. إذ بما أن لندن قد فشلت في محاولاتها الرامية إلى التوصل إلى وفاق مع حكومة برلين، فإنها قد عزمت على التقارب مع خصوم ألمانيا. فنجد، في البداية، الوفاق الودي المعقود مع فرنسا في عام ١٩٠٤، ثم تصفية المنازعات الآسيوية مع روسيا في عام ١٩٠٧. وقد أثبتت أزمة أغادير في عام ١٩١١ أن بريطانيا العظمى كانت مستعدة للدخول في حرب إلى جانب فرنسا(٧٣).

وفي أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١١، نجد أن أسكويث، رئيس الوزراء المنتمي إلى حزب الأحرار، يقوم بتعيين ونستون تشرتشل أميرًا أول للبحرية، أي وزيرًا للبحرية. ومهمته واضحة: إعداد البحرية الحربية لاحتمال نشوب حرب أوروبية. وخلال أزمة أغادير، كانت البحرية الحربية قد أعلنت عجزها عن تأمين الحماية الضرورية، في مواجهة الأسطول الألماني، لنقل عدة فرق من الجيش البري إلى فرنسا(٧٤). وفي فبراير/ شباط ١٩١٢، يجري اتخاذ القرار الأساسي: إن انجلترا يجب أن تسحب أسطولها من البحر المتوسط سعيًا إلى التمتع بأقصى قدر من القوة النارية في بحر الشمال. وقد أجريت مع الفرنسيين مناقشات على مستوى "تقاني" من الناحية النظرية. وبينما ينسحب الانجليز من البحر المتوسط، يغادر الفرنسيون المحيط الأطلسي لكي يتمركزوا في غربي البحر المتوسط سعيًا إلى تغطية انتقال الجيش الفرنسي في أفريقيا إلى فرنسا في حالة ظهور خطر الحرب. وفي هذا الوضع، يحمي الأسطول البريطاني الساحل الفرنسي على المحيط الأطلسي وعلى بحر المانش. ودون أن

يكون قد تم اتخاذ أي التزام سياسي، فإن بريطانيا العظمى إنما تجد نفسها في الواقع في وضع حرب في حالة قيام فرنسا بتعبئة قواتها. وهذا، على الأقل، هو الرهان الجسور الذي أقدمت عليه الدبلوماسية الفرنسية.

وفي مايو/ أيار ١٩١٢، يلتقي تشرتشل اللورد كتشنر في مالطة(٧٥). وكانت المناقشات بين الرجلين عاصفة: فالمعتمد البريطاني يرى أن الانسحاب من البحر المتوسط إنما يعني ضياع مصر ومالطه وقبرص، وتآكل الوجود البريطاني في الهند والصين وأستراليا سوف يترتب حتمًا على الرحيل عن قناة السويس. فانجليزيو مصر يرون أن الخطر، الموجود بالفعل منذ عام ١٩٠٦، إنما يتعزز. ولم يعد من الوارد القيام بإنزال خلف مؤخرات الجيش العثماني، وذلك بالنظر إلى عدم وجود أسطول. وضرورة احتياز فلسطين كموقع أمامي لصد المهاجمين إنما تفرض نفسها عليهم.

وحتى مع أن أسكويث يوافق على إبقاء قوة بحرية في مالطه، إلاّ أن البحر المتوسط يصبح منطقة فعل ممتازة للفرنسيين. فمع فرض الحماية على المغرب ومع برنامج العمل الذي طرحه الجنرال ليوتي والخاص بالقيام تدريجيًا بمد السيطرة الفرنسية على المغرب عبر "الانتشار انتشار بقعة الزيت"، فإن فرنسا إنما تصبح مطلقة اليدين في شرقي البحر المتوسط في اللحظة التي تنشب فيها الحرب البلقانية الأولى.

وفي مستهل صيف عام ١٩١٢، كانت باريس قد أرسلت واحدًا من أفضل خبرائها في مسائل الشرق الأدنى، ألاَ وهو دوفرانس، وزير فرنسا في مصر، وذلك للقيام بمهمة استطلاعية في سوريا. والحال أن پول كامبون، السفير لدى لندن، إنما يجد أن استنتاجاته مرضية بشكل خاص. وقد كتب إلى پوانكاريه في ١٠ يوليو/ تموز ١٩١٢، قائلاً:

فيما يتعلق بنشاط الانجليز في سوريا، أسعدني أن السيد دوفرانس قد وجد أن النتائج أدنى من مخاوفه. والحاصل أن المناقشات التي تثيرها الآن في انجلترا مسألة البحر المتوسط إنما تسمح بتقييم طابع هذا النشاط. ومن الواضح أنه ليس في اللحظة التي أضعفت فيها الحكومة البريطانية وضعها العسكري في البحر المتوسط، إلى درجة إثارة احتجاجات من جانب الرأي العام، يمكن للمرء أن ينسب إليها أطماعًا سياسية في سوريا وأن ينسب إليها

المشروع، ولو الغامض، والخاص بإدخال هذه الولاية يومًا ما في مجال نفوذها في الشرق. أمّا الطموحات والمبادرات التي أتيحت لنا فرصة رصد بعض أماراتها فهي من فعل أفراد بالفعل. وهذا لا يقلل من وجوب أخذنا لها في الحسبان، وذلك بسبب المنافسة التي قد تحدثها لنا[٧٦].

وتستفيد الدبلوماسية الفرنسية من الظرف لكي تحصل على اعتراف بالصدارة الفرنسية في سوريا. والحال أن كولوندر، ممثل فرنسا في بيروت[٧٧]، إنما يتعامل مع الوضع بوصفه "ثمرة ناضجة في متناول من يريد قطفها" (١٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٢). بيد أن الجار المصري هو الذي يبدو في وضع أفضل لقطفها: فمنذ إعلان الهزائم العثمانية في البلقان، نجد أن الأعيان، في سوريا كما في فلسطين، يكثرون من التأكيدات العلنية أو الخاصة المؤيدة لربط الولايات العربية بمصر تحت سلطة الخديوي الإسمية وتحت سلطة الانجليز الفعلية. ويشتبه الفرنسيون بأن البريطانيين يشجعون هذه الحركة[٧٨]. وتحصل باريس على تأكيدات من لندن، أعلنها بوانكاريه في ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٢، أمام مجلس الشيوخ:

السيد رئيس المجلس: ... لست بحاجة إلى إبلاغ مجلس الشيوخ بأن لنا مصالح تقليدية، في لبنان وسوريا خاصةً...

السيد دو لامارزيل: رائع!

السيد رئيس المجلس: ... وأننا عازمون على فرض احترامها (رائع! رائع!)

ويسعدني أن يكون بوسعي إضافة أنه دون مبرر بالمرة جرى تخيل وجود مالا أدري أي خلافات بين الحكومة الانجليزية وبيننا فيما يتعلق بهذه المسألة.

فقد أعلنت الحكومة الانجليزية لنا بمودة بالغة أنها ليست لها في هذه المناطق لا نية التحرك ولا مخططات سياسية من أي نوع (رائع!)

ونحن أنفسنا جد عازمين على الحفاظ، في آسيا، على وحدة أراضي الدولة العثمانية. بيد أننا لن نتخلى عن أي من تقاليدنا، ولن نتنكر هناك لأيٍّ من التعاطفات التي كسبناها، ولن نسمح بأن يتعرض للتهديد هناك أيّ من مصالحنا (رائع! رائع!).

وبالنسبة لفرنسا، ليس ضم سوريا سوى أسوأ ما يكون. فاهتمامها الأساسي إنما يكمن في صون النظام المشرقي، حيث تمارس الدول العظمى سيطرة مشتركة وحيث الفرنسيون أنشط الشركاء.

والحال أن تصريح پوانكاريه إنما يضع حدًّا للتصريحات المؤيدة لمشاريع الاتحاد بين سوريا ومصر. واعتبارًا من يناير/ كانون الثاني ١٩١٣، تصبح تيمة الإصلاح الرامي إلى تحقيق اللامركزية سائدة في بيروت (الجمعية الإصلاحية) وفي القاهرة (حزب اللامركزية الإدارية العثماني). ويبدو أن العرب الفلسطينيين يضعون أنفسهم هذه المرة تحت تصرف السوريين الآخرين ويسيرون في اتجاه حكم ذاتي قريب من الاستقلال. وهذا هو ما يلاحظه قنصل فرنسا في القدس في نهاية الشهر:

وصلتني تأكيدات [...] بأنه، منذ بعض الوقت، وبدفع من أحد المحرضين، ويدعى شاكر أفندي، الذي ينتمي إلى واحدة من عائلات القدس الثلاث أو الأربع الكبرى، وهي عائلة الحسيني، جرى خلق حركة وأنها تنمو داعيةً إلى حكم ذاتي للبلدان العربية التي يجب لها أن تدير نفسها بنفسها، مع بقائها جزءًا من الدولة العثمانية.

ومن جهة أخرى، فإن الحركة قد ولدت في دمشق (التي سوف تصبح عاصمة المملكة القادمة)، ثم امتدت بالتتابع إلى بغداد واليمن وحلب وبيروت وحيفا وطرابلس وصيدا ونابلس وأخيرًا، منذ شهور قليلة، إلى القدس، حيث انعقدت اجتماعات سرية، جد متكررة، عند واحد أو آخر من الأعيان المنتمين إلى الحركة؛ وأغلبهم أفراد من عائلة الحسيني (بينهم المفتي) وبعض الأفراد من عائلتي الخالدي والنشاشيبي، والذين قرَّبَ بينهم كره العدو المشترك. وعلاوة على ذلك، إذا ما توجب عليَّ تصديق شخص آخر ممن يزودونني بالمعلومات، فإن اجتماعات أخرى، سرية أيضًا، قد انعقدت، لأجل هدف لم يتمكن المصدر من تحديده لي أو لم يشأ أن يفعل ذلك، وحضرها، على العكس من ذلك، أفراد ينتمون إلى عامة الناس.

والبنود الرئيسية لبرنامج الأوائل هي: الحكم الذاتي الإداري لجميع البلدان العربية؛ تخصيص جميع الإيرادات المحلية، بما في ذلك إيرادات الجمارك، لتحسين أحوال البلاد؛ دفع نسبة ١٠ % من هذه المبالغ للحكومة التركية لصرفها على وجوه النفقات العمومية المشتركة؛ أن يكون جميع الموظفين عربًا، شأن جميع الضباط والجنود أيضًا؛ في حالة تعرض

تركيا للهجوم، يهب جميع العرب إلى الوقوف في وجه عدو الإسلام.
والشعارات هي: بلاد العرب للعرب والكره للأجنبي(٧٩).

على أن القنصل إنما يرى في هذه الحركة يد انجلترا.

وتسعى حكومة الائتلاف الليبرالي إلى طرق جميع الأبواب. فطموحًا منها إلى الاعتماد على قوة اليهود المفترَضَة في العالم، تتجه إلى الحركة الصهيونية سعيًا إلى الحصول على دعمها لدى الدول العظمى. وهي تعد بأن تنظر بعين الرضا إلى شراء الصهيونيين لأراضٍ في فلسطين. وقبل أن يتاح لها الوقت لاتخاذ قرار، تقوم جمعية الاتحاد والترقي بانقلاب وتستولي على السلطة (٢٣ يناير/ كانون الثاني ١٩١٣). ويجري استئناف المناقشات حول تيمة المساعدة المالية التي يمكن لليهود تقديمها للدولة العثمانية. ويشدّدُ الحاخام الأكبر علنًا على ضرورة إلغاء قرارات الحظر التي تمس اليهود في فلسطين.

تفاهم أم نزاع، ١٩١٣ــ١٩١٤؟(٨٠)

نظرت الشخصيات السياسية العربية غير الفلسطينية إلى الصهيونية على أنها تمثل خطرًا بسبب موالستها المشتبه بها مع جماعة تركيا الفتاة بأكثر مما بسبب نشاطها المباشر في فلسطين. والحال أن أسطورة قوة اليهود الخفية، خاصة قوتهم المالية، كانت أسطورة رائجة. وقد رأى بعض مسئولي حزب اللامركزية الإدارية العثماني في القاهرة أنه سوف يكون بالإمكان فصل الصهيونيين عن رجال جماعة تركيا الفتاة والتوصل إلى تحالف معهم. وخارج هذا الحرص التاكتيكي، نجد أن تفكيرًا أعم إنما يفضي عندئذ إلى ما سوف يكون نزعة قومية عربية. فهذه النزعة لا يمكن أن تقتصر على المسلمين، بل لابد لها أن تنفتح على الأقليات. والدعوة التوحيدية تشمل المسيحيين واليهود بالضرورة. وكما لاحظنا بالفعل، فإن المسيحيين غير الفلسطينيين قد تبين بجلاء أنهم أقل عداوة من المسلمين للصهيونية. وبعضهم، الأمر الذي أثار عظيم دهشة الصهيونيين ــ المسارعين إلى اتهامهم بمعاداة السامية بسبب تأثير المبشرين ــ، إنما يرون في اليهود، صهيونيين وغير صهيونيين، وسيلة للتوصل إلى ندية

سياسية مع المسلمين ضمن إطار مؤسسات سورية يدخل عليها الإصلاح في اتجاه اللامركزية. وبشكل موازٍ، نجد أن الأعضاء المسيحيين في الجمعية الإصلاحية البيروتية يقدمون إلى قنصل فرنسا مقترحات تؤيد فرض حماية فرنسية على سوريا(٨١).

وفي عام ١٩١٣ هذا، يتم بالفعل طرح المسألة الحاسمة للنزعة القومية العربية: أيجب لها أن تكون نزعة يعقوبية من الطراز الفرنسي، الأمر الذي يهدد بأن يؤدي إلى غلبة كاسحة من جانب المسلمين، أم يجب أن تكون تكييفًا جغرافيًا للنزعة العثمانية مع نزعة طائفية معزَّزة؟ وهذه المناقشات لاتخص العرب وحدهم، فنحن نلقاها أيضًا في كل مكان تخلي فيه الدولة العثمانية المكان لدول تخلفها(٨٢).

وبعض الممثلين العرب ينفتحون على الممثلين الصهيونيين في القاهرة سعيًا إلى توضيح أفضل لمواقف الطرفين. والحال أن المكتب الصهيوني في القسطنطينية، بعد أن حصل على موافقة القيادة الصهيونية في برلين، إنما يرسل إلى القاهرة في أبريل/ نيسان ١٩١٣ سامي هوخبرج، أحد محرري صحيفة *Le Jeune-Turc*. وهو يقابل عشرين من أعضاء حزب اللامركزية والجمعية الإصلاحية البيروتية. ويتم التوصل إلى تفاهم شفاهي(٨٣):

١) بما أن لجنة القاهرة توافق من حيث المبدأ على الهجرة اليهودية إلى سوريا وإلى فلسطين، وبما أنها على تفاهم مع الصهيونيين، فإنها سوف تجعل من واجباتها العمل من أجل تقارب للعالم العربي مع العالم الإسرائيلي والاضطلاع، عبر الدعاية الشفاهية وعن طريق الصحافة العربية، بتبديد جميع التحاملات التي راحت إلى الآن في العالم العربي فيما يتعلق بموضوع الهجرة اليهودية والتي تحول دون التقارب العربي ــ الإسرائيلي.

٢) وفي المقابل، سوف تجعل صحيفة *Le Jeune-Turc* من واجباتها دعم قضية الحركة العربية بقدر ما أن هذه القضية سوف تظل متماشية مع وحدة أراضي الدولة [العثمانية]. وسوف تبذل صحيفة *Le Jeune-Turc* كل ما بإمكانها من جهد لكي تفعل الصحف الأوروبية (خاصة الألمانية)، التي هي على علاقة بها، الشيء نفسه.

وهذا التفاهم الشفاهي ليس في تصورنا (في تصوري وفي تصور أعضاء لجنة القاهرة) غير تبادل للخدمات هدفه تمهيد الساحة وبالأخص تنوير الرأي العام العربي الذي كان إلى

الآن لا يحوز سوى معلومات مغلوطة عن هدف ومرامي الصهيونية، وذلك سعيًا إلى اتفاق كامل في المستقبل.

وقد جرى استكمال هذا التفاهم بقرار للّجنة (جرى تسجيله في محضر) يتعلق بموقف اللجنة من الإسرائيليين العثمانيين وبتصريحات رفيق بك العظم، رئيس اللجنة، والموجَّهَــةُ إلى النشر في صحيفة *Le Jeune-Turc* وفي الصحف العربية، وهي تصريحات تتعلــق بالهجرة اليهودية وبالتدابير التقييدية من جانب الحكومة. وقد تليت هذه التصريحات ووافق عليها الأعضاء المؤثرون الآخرون في لجنة القاهرة.

كما يعد هوخبرج بعمل كل شيء من أجل تشجيع التوجه إلــى الرســاميل اليهودية سعيًا إلى تنمية الولايات العربية.

وكان لابد لهذه المناقشات من أن تثير بعض التوترات بين أعضاء حــزب اللامركزية. فرشيد رضا، وهو أحد محركيه الأكثر نشاطًا، إن كان يوافق على استخدام للرساميل اليهودية لصالح تنمية الولايات السورية، فإنه لايخفي عداوته الشرسة للصهيونية، التي يتهمها بالرغبة في إنشاء دولة يهودية في فلســطين، ويتحدث عن تكوين جمعيات سرية للتصدي لها. ويذكر دوفرانس في تقرير له من القاهرة بتاريخ ٢٨ فبراير/ شباط:

أكد الشيخ رشيد رضا هذه المعلومات لشخص أعرفه. وفي محادثة أخرى أجراها وتم نقل ما دار فيها إليّ، برهن على ما لديه من مشاعر معادية للسامية سافر العداء وأعلن أنه إذا كانت فرنسا قد خسرت المسلمين، فما ذلك إلاّ لأنها ضحت بهم لصالح الإسرائيليين في الجزائر عبر مرسوم كريميو[٨٤].

وسرعان ما تصبح مسألة العلاقات مع الصهيونيين موضوعًا للشقاق فــي داخل حزب اللامركزية[٨٥].

وفي تلك الأثناء، تنشب الأعمال الحربية من جديد في البلقان (٣ فبرايــر/ شباط ١٩١٣). وفي ٣٠ مايو/ أيّار، تضطر الحكومة العثمانية إلى أن تقبل في لندن ضياع تركيا الأوروبية. وفي يونيو/ حزيران، نجد أن الائتلاف الليبرالي، بتشجيع من السفارة البريطانية في القسطنطينية على ما يبدو، يحــاول القيــام

بانقلاب. ويؤدي فشله إلى الحظر الفعلي للمعارضة. فندخل في نظام ديكتاتورية. وفي الشهر نفسه تبدأ الحرب البلقانية الثانية، والتي تنشب فيما بين ظافري الأمس. وبلغاريا هي الخاسر الأكبر. وفي يوليو/ تموز ١٩١٣، تستعيد القوات العثمانية تراقيا الشرقية. وفي أغسطس/ آب ١٩١٣، تضع معاهدة بوخارست نهاية للأعمال الحربية.

ولا يمكن فهم المناقشات بين العرب والصهيونيين إلاّ ضمن هذا الإطار الأعم. وفي تواز مع اتصالات هوخبرج، نجد أن ممثلي حزب اللامركزية، بمن في ذلك المسلمين بينهم، يتوجهون إلى الفرنسيين بالنداء مطالبينهم بتقديم دعمهم السياسي، وذلك مع إبداء عداوتهم للحل المتمثل في حماية فرنسية. وبما أن السلطات العثمانية قد أصابها الانزعاج، فإنها تأمر بحل الجمعية الإصلاحية البيروتية (١٠ أبريل/ نيسان ١٩١٣). وعندئذ يدعو اللامركزيون إلى عقد مؤتمر في باريس.

ويشن ممثلو جمعية الاتحاد والترقي حملة في صفوف الرأي العام تتهم اللامركزيين بالرغبة في خيانة الدولة العثمانية والخلافة. ويرد اللامركزيون بالأسلوب نفسه، حافزين مواقف مساندة لهم. ومن بين إجمالي ٣٨٧ توقيعًا بالمساندة، نجد أن ١٣٩ توقيعًا قد جاءت من فلسطين، بينها ٤٤ توقيعًا جاءت من نابلس.

وينعقد المؤتمر العربي في باريس من ١٨ إلى ٢٣ يونيو/ حزيران ١٩١٣. ولا تثار مسألة الصهيونية (وبالمقابل، يجري شجب هجرة اللاجئين الأتراك القادمين من البلقان). وفي الأيام التالية، يجري استئناف المناقشات بين هوخبرج وياكوبسون من جهة، واللامركزيين من الجهة الأخرى. وهي لا تقود إلى شيء. وتسعى الحكومة العثمانية إلى استعادة الإمساك بزمام الأمور وتقدم عددًا معينًا من التنازلات إلى العرب، خاصة في موضوع استخدام اللغة العربية في الإدارة. وبما أن اللامركزيين يحصلون بذلك على ترضيات، فإنهم يصبحون أقل احتياجًا إلى الصهيونيين.

وفي فلسطين، نجد غضبًا من واقع أن المؤتمر لم يتحدث عن الصهيونية. وتدعو صحيفتا **الكرمل** و**فلسطين** إلى عقد مؤتمر عربي آخر في نابلس، تتمثل

مهمته هذه المرة في مناقشة "الخطر الصهيوني". وبما أن مسألة الأملاك العقارية السلطانية تظل دائمًا في جدول الأعمال، فإنه يجري اقتراح تكوين "شركة وطنية فلسطينية": وهنا يمكن لكلمة "وطنية" أن تحيل إلى وطن عثماني أو عربي أو فلسطيني على حدٍّ سواء. والحال أن هذا التشديد على انتماء فلسطيني إنما ينشأ من بداية تَشَكُّلٍ في موقف العرب الآخرين. وتتردد السلطات العثمانية فيما يتعلق بالمسلك الذي يتوجب عليها اتباعه. فالسلطة المركزية بسبيلها إلى التفاوض على قرض من سوق باريس وتسعى إلى التصالح مع كبار الممولين اليهود. فتبدو متسامحة مع النشاطات الصهيونية، بيد أنها تضطر إلى مواجهة سخطٍ يتزايد رسوخًا باطراد دائمًا من جانب العرب الفلسطينيين. والحال أن دعاة الحكم الذاتي العرب، والذين سرعان ما خابت آمالهم من جراء محدودية تنفيذ تعهدات جماعة تركيا الفتاة، إنما يجتهدون عبثًا في إقناع حكومة باريس بأن تجعل القرض العثماني مشروطًا بتلبية المطالب العربية. والعسلي واحد من أولئك الذين يسعون إلى اللعب بهذه الورقة الفرنسية ضد السلطة المركزية(٨٦).

ويشكل التفاوض على القرض العثماني جزءًا من مجموعة من المناورات السياسية ـ الاقتصادية الكبرى بين الدولة العثمانية والدول العظمى. ومنذ بداية صيف عام ١٩١٣ إلى بداية صيف عام ١٩١٤، تجري تسوية جميع المنازعات فيما بين الدول العظمى في داخل الدولة العثمانية. فمن الناحية الفعلية، يتم تقسيم الدولة العثمانية إلى مناطق اقتصادية مميَّزَة. وهكذا تتجه فرنسا إلى الفوز باعترافٍ بصدارتها في سوريا وفي فلسطين (إذ يجري، مثلاً، منحها امتياز إنشاء ميناء في المستقبل في المياه العميقة قبالة يافا)، بينما تحصل ألمانيا على الأناضول الجوانية وتحصل بريطانيا العظمى على بلاد الرافدين (اتفاقيات حول سكة حديد بغداد ووضعية الكويت واستغلال البترول وحدود شط العرب).

وفي خريف عام ١٩١٣، نجد أن الصحافة الفلسطينية، التي تولي أهمية متزايدة باطراد للسياسة الخارجية (فهي تنشر العديد من المقالات الإعلامية حول الاجتماعات الصهيونية في أوروبا)، تلحظ المكانة المميَّزة الممنوحة لفرنسا. وتسلك صحيفة **الكرمل** كما لو أنها تحصل على إعانة مالية من

الفرنسيين (وهو ما يتمناه أيضًا نائب القنصل في حيفا) وتدعو الفرنسيين إلى تنمية الاقتصاد المحلي*:

بما أن حكومتنا تعتبر نفسها ملزمة بالفعل بأن تمنح فرنسا امتيازات خاصة بموانئ وبسكك حديدية وبمشاريع اقتصادية أخرى في سوريا، سعيًا إلى أن تحصل منها على الأموال الضرورية لجيشها ولموظفيها وللدفاع عن أدرنه وتراقيا، وبما أن الدول العظمى الأوروبية تتفاهم مع فرنسا كيما لا تقف في وجهها، فمن غير الممكن لنا أن نحرم فرنسا من امتيازاتها الاقتصادية: فنحن نعتقد أن أي مقاومة من جانبنا سوف تلحق الضرر بمصالحنا نحن. والواقع أن الدول العظمى الأوروبية قد أصبحت عملية، وهي لا تهتم إلاّ بمصالحها الاقتصادية، ولا تقرر اللجوء إلى القوة إلاّ عندما تجد أن هذه المصالح عرضة للتهديد، بينما تسعى، في الحالة العكسية، إلى توفير نفقاتها النقدية وعدم التفريط في أرواح جنودها. ومن ثم يتوجب علينا الاجتهاد في كسب المعارف وفي تحسين الأحوال الاجتماعية لمجتمعنا، وفي تطوير شئوننا، وفي جعل أنفسنا جديرين بتعاون فرنسا المالي معنا، وهو تعاون يجب لنا استخدامه في تكوين شركات زراعية ومنجمية وتجارية وشركات للسكك الحديدية، ولن نتخلف عن الارتقاء وعن أن نصبح أقوياء؛ وسوف تصبح حكومتنا قوية بنا، بينما سيكون للرساميل الفرنسية نصيبها من مكاسبنا. لذا يجب أن نحذر من الوقوف في وجه المصالح الاقتصادية الفرنسية ويجب أن نتعلم من الفرنسيين كيف يمكن تحقيق الازدهار لبلد من البلدان، وكيف يمكن إنشاء وتسيير الشركات.

وإذا كانت فرنسا ترغب في كسب ثقة السكان، فلتعمل على تبديد مخاوفهم من تدخلها السياسي ولتدعم الحكومة العثمانية في سياستها الخارجية ولتساعدها في إصلاح إدارتها الداخلية ولتسارع إلى التنشيط الاقتصادي للسكان بإنشاء بنوك ائتمان عقاري تقوم بتسليف السكان بنسبة فائدة مئوية متواضعة، ولتقم بتنشيط الحياة الثقافيةللبلد بإنشاء مدارس للتعليم العام ومدارس زراعية وتقانية، مع تدريس كافٍ للغة العربية، ولتتجنب مساعدة الصهيونية التي سيكون نموها ضارًا بالحكومة التركية وبالأمة العثمانية، كما سيكون ضارًّا بمصالح فرنسا.

ونحن نأمل في أن تنتهج فرنسا النهج نفسه في بلاد الرافدين(٨٧).

* ترجمة عن الفرنسية، لتعذر العثور على الأصل العربي. ـــ م.

أمّا الصحيفة الأخرى، **فلسطين**، التي تصدر في يافا، فهي تواصل نضالها ضد الصهيونية، التي أصبحت الآن معروفة بشكل أفضل فأفضل. ويجري نشر تقارير جيدة عن النزاع بين اللغتين العبرية والألمانية. وتتم ترجمة تصريحات صهيونية كتصريحات أوسيشكين. وتجري المقابلة بين النصوص الحقيقية الصادرة عن الحركة الصهيونية والتصريحات المهدّئة التي يدلي بها ممثلوها إلى الصحافة العثمانية. وتقوم صحافة القاهرة، خاصة **المنار**، بإعادة نشر المقالات. وتُضاف إليها تعليقات. ونبرتها عنيفة بشكل خاص:

تفسير الاهتمام الذي تثيره في القاهرة هذه المسألة هو العدد الضخم للسوريين المقيمين في مصر وواقع أن بعض صحف تركيا تصوِّرُ العمل الصهيوني على أنه عمل خطير على الدولة العثمانية ويمكن أن يقود إلى إنشاء دولة يهودية مستقلة من شأنها تمزيق الوحدة الترابية للبلدان العربية.

وأيًّا كان الأمر، فإن صحف مصر قد قامت في البداية بإعادة نشر المقالات المنشورة في صحافة سوريا حول موضوع الصهيونية؛ ثم قامت بعد ذلك بالتعليق على هذه المقالات وعبرت عن آراء شخصية: والحال أن الحملة التي بدأت في الصحف السورية المسيحية إنما تخاض اليوم أيضًا في الصحف العربية والإسلامية. فيجري اتهام يهود فلسطين، المدعومين والمسنودين بقوة من جانب إخوتهم في الديانة في العالم كله، بالقيام على نحو منهجي بإقصاء ملاّك الأرض بجميع أشكال الوسائل، سعيًا إلى القيام بشراء البلد حرفيًا قطعة وراء قطعة، لكي يقوموا فيما بعد بإنشاء الدولة اليهودية عليها. كما يجري اتهام الحكومة العثمانية وخصوصًا الأعضاء المؤثرين في جمعية الاتحاد والترقي بتشجيع هذا التمزيق الجزئي للدولة العثمانية، من باب السعي وراء المصلحة الشخصية. ويجري حث العناصر المسيحية والمسلمة في سوريا وفلسطين على توحيد جهودها للتصدي للغزو التدريجي الذي يقوم به يهود قادمون من الخارج يشترون جميع الأملاك الريفية التي يقومون من ثم بطرد العمال الزراعيين المسلمين أو المسيحيين البسطاء منها. ويشار أخيرًا إلى أمثلة عديدة، دقيقة إلى هذا الحد أو ذاك، على الطرد التعسفي لمسلمين ولمسيحيين من جانب إسرائيليين، تواطأت معهم السلطات المحلية(٨٨).

وفي أبريل/ نيسان ١٩١٤، تتعرض صحيفة **فلسطين** لتعطيل عن الصدور

لأيام قليلة، وذلك، فيما يبدو، على أثر تدخل من جانب هنري مورجنتاو، السفير الأميركي لدى القسطنطينية، وهو يهودي غير صهيوني[٨٩]. وعندما تعاود الصحيفة الصدور، تقوم بالتمييز بوضوح بين الصهيونيين الذين يريدون أمة يهودية منفصلة عن الأمم الأخرى واليهود الذين يشكلون "عنصرًا عثمانيًا شقيقًا"[٩٠]. وهذه الصحيفة تعتبر أيضًا موالية للفرنسيين[٩١].

وفي انتخابات أبريل/ نيسان ١٩١٤، لايسمح بالترشح إلاّ لمرشحين يقبلون الانتماء إلى جمعية الاتحاد والترقي. وبما أن رجال جماعة تركيا الفتاة لا يتمتعون إلاّ بأهمية محلية ضعيفة، فإنهم يسمحون بترشيح شخصيات ممثِّلة اتخذت كلها، بهذه الدرجة أو تلك من القوة، مواقف معادية للصهيونية مع إعلان ولائها للدولة العثمانية في الوقت نفسه. والحال أن النواب الثلاثة المنتخبين من السنجق إنما ينحدرون من العائلات الكبرى في القدس: راغب بك النشاشيبي، وهو مهندس، وفيضي العلمي (رئيس المجلس البلدي من عام ١٩٠٦ إلى عام ١٩٠٩) وسعيد بك الحسيني (وهو نائب من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٢).

وفي الشهر نفسه، يزور فلسطين وفد من القيادة الصهيونية. فيخاطب سوكولوف الصحافة العربية، داعيًا إلى تفاهم أفضل فيما بين العرب واليهود: فهؤلاء الأخيرون هم أيضًا ساميون يعودون إلى وطنهم حاملين معهم كفاءات أوروبية، الأمر الذي سوف تكون له قيمة ضخمة بالنسبة للسكان من الأهالي. ويعاود اللامركزيون الموجودون بالقاهرة اتصالاتهم بالصهيونيين، فيجري الحديث عن إمكانية عقد مؤتمر يتم فيه، هذه المرة، تمثيل العرب الفلسطينيين. بل إن رشيد رضا نفسه إنما يبدو متحمسًا لفكرة تكوين تحالف بين الصهيونيين والعرب ضد جمعية الاتحاد والترقي. وفيما يتعلق بسوكولوف، فإنه يلتقي في بيروت الشخصيات السياسية العربية الرئيسية: شكري العسلي، عبد الوهاب الانكليزي، عبد الرحمن الشهبندر، محمد كرد علي. وهم يبدون موافقين على مناقشة إمكانية التوصل إلى تفاهم في نهاية المطاف.

ويقوم كل طرف من الطرفين بالتحضير للمؤتمر. والحال أن السلطات العثمانية، وقد علمت بالأمر، إنما تبدو معادية لعقده. فهي تخشى من قيام ائتلاف يهودي ـــ عربي ضد السلطة المركزية. ويبدو أنّ لدى الفلسطينيين الذين وافقوا

على المشاركة في المؤتمر فكرة واضحة عما يريدون. فجدول الأعمال الذي يقترحونه هو أن يوضح الصهيونيون، داعمين توضيحهم بالبراهين، أهدافهم وأساليبهم فيما يتعلق باستيطان فلسطين، على أن يصوغ العرب في ضوء ذلك مطالبهم لمعرفة ما إذا كان بوسع الصهيونيين قبولها. والمقصود بالأحرى هو التمكن، مرة وإلى الأبد، من إثبات استحالة التوفيق بين أهداف الصهيونية والمصالح العربية والعثمانية. وترى القيادة الصهيونية الشرك المنصوب لها وتخشى بشكل موازٍ من رد فعل السلطات. فتعين لحضور المؤتمر شخصيات مرتبتها ثانوية سعيًا إلى تجنب إلزام المنظمة الصهيونية بصفتها هذه بأي شيء. والحال أن هذه الاعتبارات إنما تؤدي، بالرغم من تحديد مكان انعقاد المؤتمر ـ ببرومانة، في لبنان ـ، إلى تأخير موعده إلى شهر أغسطس/ آب ١٩١٤...

حصاد عصر

يمثل صيف عام ١٩١٤ قطيعة مفاجئة. فحتى إذا كان عدد من المعاصرين قد تسنى لهم تصور أن حربًا أوروبية عظمى توشك أن تنشب، فإن أحدًا لم يتخيل طبيعة هذه الحرب، بما انطوت عليه من حشد كاملٍ لطاقات المجتمعات الأوروبية. وسوف ينتج عن ذلك، علاوة على سلسلةٍ من تبديلات المواقف والتحالفات السياسية، تسارع شديد للتطورات الجارية.

وفيما يتعلق بالمشرق وبمسألة فلسطين، عشية الحرب العظمى [الأولى]، نجد أن النظام القائم، الذي هو نوع من السيطرة الضمنية والسافرة فيما بين الدول العظمى والدولة العثمانية، هو القاعدة. على أن بالإمكان رصد انتقال تدريجي من موقف تتعامل فيه الدول العظمى مع المجال العثماني بوصفه كُلاً متجانسًا إلى موقف آخر يبدأ فيه تقسيم هذا المجال إلى مناطق نفوذ خاصة. إلاّ أن النزاعات المختلفة، المتعلقة بمصالح الدول العظمى في الدولة العثمانية، كانت قد سويت خلال الشهور القليلة التي تفصل انتهاء الحرب البلقانية الثانية عن ابتداء الحرب العالمية الأولى: وإذا كانت الصراعات الإمبراطورية والإمبريالية قد مَثَّلَتْ عوامل واضحة في الاتجاه إلى الحرب، فإن الحرب العالمية لا تندلع بسببها. وإذا كانت التعارضات قد بقيت، فقد كان ذلك نتاج

مبادرات من جانب "رجال في الساحة" تضطر السلطات المركزية إلى كبحهم بصورة منتظمة. وسوف يشخصُ بول كامبون يومًا ما هذه الظاهرة بأنها *morbus consularis* "المرض القنصلي".

على أن المشرق إنما يبدو، في مستهل عام ١٩١٤، كمجال مسيَّس بشكل مفرطٍ، مع تشابك قوى سياسية يبدو أن من الصعب دومًا تحليله. وهذا التشابك والتشوش في الأوضاع المحلية هو ثمرة انعدام للتحديدات في تعريف العوامل والهويات.

بيدَ أن انقضاء قرن كامل من التاريخ إنما يسمح باستيعابها على نحو أفضل: فثورة ١٩٠٨ قد رمزت إلى استكمال سيرورة القضاء على النظام القديم الشرقي: ذلك أن برنامج جماعة تركيا الفتاة المعلن — والذي يتمثل في إلغاء التمايزات الطائفية سعيًا إلى إقامة مجتمع أفراد متساوين ضمن أمة عثمانية — قد أنهى الحل الوسط الحميدي. وباسم الاتحاد والترقي، فإن رجال جماعة تركيا الفتاة قد فتحوا صندوق باندورا النزعات القومية: فالجماعات الطائفية، بعيدًا عن أن تكون رواسب عصر بائد، إنما تعد كيانات كلية دينامية آخذة بالتحول المستديم. وهي تستند إلى الدول العظمى، التي تمكنت الآن من دمج المجال العثماني بالكامل في اقتصاد — عالم تسيطر عليه أوروبا. وبما أنها قد فازت بحكم ذاتي فعلي وقانوني كبير، بفضل تعاطيها مع الأوروبيين، فإنها لم تعد مهتمة بما تقترحه عليهم الدولة العثمانية التي دخل عليها التجديد. وفي اللحظة التي تتردد فيها فيما يتعلق بالخيار الذي يجب أن تقدم عليه، فإنها ترى في الصهيونية إمكانية الانتقال من الطائفة إلى الأمة.

ورغبة جماعة تركيا الفتاة هي توطيد أركان الدولة بتعزيز مركزتها السياسية والإدارية، الأمر الذي استثار احتجاجات فريق من النخب العربية. وفي الوقت نفسه، فإن القسطنطينية عازمة على النضال ضد آليات التدخل الأجنبي، خاصة ضد نظام الامتيازات. وهناك في تلك اللحظة تقارب تاكتيكي بين أعضاء النخبة الرافضة وممثلي الدول العظمى. وفي عين اللحظة التي تبدأ فيها صياغة الخطابات القومية، يجري الدخول في مساومة خطرة مع المصالح الأجنبية، التي يجري الاعتراف، أيضًا، بضرورتها، أكان بالنسبة لاستيراد

الرساميل أم بالنسبة للعون التقاني والإداري. وهذا التشابك الأول إنما يعقّده تشابك ثان: خلافات فعلية بين القوى السياسية الإسلامية والمسيحية، يجري التستر عليها باللجوء إلى خطاب يتحدث عن ضرورة الإصلاحات التي يجب الاضطلاع بها. واعتبارًا من عام ١٩٠٨، يتبنى المشروع الإسلامي — العربي الأساليب التي سبق أن استخدمتها الطوائف غير المسلمة: الدخول في لعبة النفوذ والتعاطي مع الغرب سعيًا إلى التمكن من تحقيق غاياتها حيال السلطة المركزية، من الناحيتين السياسية والاقتصادية على حدٍّ سواء.

وإلى هذا أيضًا يضاف وزن الإسلام السياسي، الذي يتدخل على مستويين يتشابكان: فمن جهة، تعتمد جماعة تركيا الفتاة دومًا على التضامن الإسلامي حول خلافة القسطنطينية، ويتماشى هذا الخطاب مع حساسية فعلية لدى النخب المسلمة العربية في الشرق الأدنى. وإذا كانت الصهيونية يمكن أن تعني لغير المسلمين الانتقال من الطائفة إلى الأمة وأن تبدو كحليف ممكن، خارج فلسطين على الأقل، فإنها في نظر المصلحين الدينيين برهان على فعالية تضامن ذي طبيعة دينية: فإذا أمكن الحديث عن "شعب يهودي"، فمن الممكن الحديث عن "شعب مسلم". وهي تصبح مصدر إلهام لتعزيز تلاحم العالم الإسلامي كما تصبح خطرًا في الأمد المتوسط أو في الأمد البعيد.

ومن جهة أخرى، تهدد الخلافة دومًا باستخدام سلاح الحرب المقدسة، الجهاد، ضد الإمبراطوريتين الكبريين اللتين يتألف أغلب سكانهما من المسلمين: بريطانيا العظمى وفرنسا. والحال أن ألمانيا الإمبراطورية، التي استولى عليها نوع من الافتتان بالإسلام، إنما تراهن كثيرًا على هذا السلاح الذي تعتبره سلاحًا مدمِّرًا، في حالة نشوب حرب مع منافستيها الأوربيتين. وعندئذ تبلور هاتان الأخيرتان "سياستين حيال الإسلام"، يتم تعريف أولاهما انطلاقًا من الهند، بينما يتم تعريف ثانيتهما انطلاقًا من الشمال الأفريقي، سعيًا إلى التصدي لهذا الخطر[٩٢]. واعتبارًا من عام ١٩٠٨، خلافًا لما كانت عليه الحال في أي وقت مضى، يجري الانكباب على الدراسة والمراقبة الدقيقتين لتطورات العالمين الإسلامي العثماني والعربي، و، بما أن هناك مطالبة فعلية بتدخل غربي، يجري العمل على كسب النخب المسلمة.

وفي هذه "اللعبة الكبرى"، تظهر اليهودية، على حدٍّ سواء، بوصفها رهانًا كما بوصفها قوة، محلية وعالمية في آن واحد. وكان القرن التاسع عشر قرن المفارقات بالنسبة للطوائف اليهودية. فبما أنها قد وقعت في شباك حركات التحديث ــ الاستيعاب ــ التحرير، فقد فقدت آلياتها التقليدية الخاصة بالتنظيم، والمميزة للنظم القديمة. ففي الغرب، انقسمت هذه الطوائف فيما يتعلق بمسائل الأرثوذكسية والليبرالية. والحال أن اليهود، وقد عرفوا نموًّا ديموغرافيًا من المؤكد أنه واحد من أكثر حالات النمو الديموغرافي قوة في العالم القديم، قد شهدوا اتخاذ تشتتهم الجغرافي أبعاد العالم كله: حيث امتد إلى القارتين الأميركيتين وإلى أفريقيا الجنوبية وإلى مناطق الجنوب والشرق الأقصى (الطائفة اليهودية في شنغهاي). وفي اللحظة التي تبلغ فيها الدياسبورا حدودها القصوى، عبر فعل مفارقٍ انطوى عليه الاندماج في المجتمعات المسيحية الليبرالية والذي يشهد تبنّيَ النماذج الكنسية للكاثوليكية وللپروتستانتية، ينشأ نمط جديد للتضامن اليهودي، هو ما يسمى بالتضامن العالمي، والذي يحذو في الواقع حذو النموذج التبشيري للكنائس المسيحية. وكما أن كنيسة فرنسا تسعى في آن واحد، في أعمالها التبشيرية، إلى خدمة الاتجاه العالمي للكاثوليكية وإلى مد نفوذ فرنسا إلى ما وراء البحر، فإن التحالف العالمي الإسرائيلي إنما يعد عالميًّا وفرنسيًا في آن واحد. والطابع نفسه نجده أيضًا في المؤسسات المشابهة التي تنشأ في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وألمانيا والنمسا ــ المجر.

والنزعة القومية اليهودية نتاج آخر للقضاء على النظام القديم: فهي، في أوروبا الشرقية، نتيجة لتحررٍ ــ تحديثٍ دون استيعاب، وهي نتيجة ترتبط بواقع أن تكوين الهويات القومية الجديدة في أوروبا الشرقية إنما يتم على أساس الدين كما على أساس اللغة. أمّا في أوروبا الغربية، فإن النزعة القومية اليهودية نتيجة لمعاداة السامية. وهكذا فمع الهجرة الكبرى ليهود أوروبا الشرقية إلى الغرب (وبشكل إضافي إلى الجنوب)، تنشأ "مسألة يهودية" تزعم الصهيونية أنها الحل الإيجابي الوحيد لها.

وعلى المستوى المحلي، نجحت الصهيونية، عبر استخدام نظام الامتيازات، في تحقيق انغراس حقيقي، اكتسب الآن دينامية خاصة. وحتى إذا كان

المهاجرون الصهيونيون من أوروبا الشرقية لا يشكلون غير شريحة (مهمة) من السكان اليهود في الأرض المقدسة ـ فمن الناحية العددية، لابد أن اليشوف المتدين والسيفارديين الذين وصلوا مؤخرًا يوازنونهم ـ، فإنهم قد نجحوا، بعد تحسسات أليمة للدرب، في ترسيخ صيغ أصيلة للتنظيم وللاستيطان تسمح لهم بكسب الهيمنة على مجمل يهود فلسطين وبالنظر إلى المستقبل نظرة تتميز بما يكفي من الثقة. وبما يشكل علامة لاتخطئها العين، فإنهم يبدأون في التحدث عن "المسألة العربية". ويتمثل كاشف آخر للنجاح المحلي في أن الصهيونية قد أخذت مكانها في لعبة ثلاثية الأطراف مع السلطة المركزية ودعاة الحكم الذاتي العرب، وهي لعبة تندرج هي نفسها في التنافسات على النفوذ من جانب الدول العظمى، كما توضح ذلك العلاقات بين الصهيونية وألمانيا وفرنسا في عام ١٩١٤.

وعلى المستوى العالمي، فإن الطوائف اليهودية تعد في وضعٍ مفارقٍ قوامه الخضوع لنظام اضطهاد من جانب الدولة أو مواجهة حركة معادية للسامية ينيخ كلكلها بشكل مؤلم على الخواطر، بينما تبدو هذه الطوائف في الوقت نفسه، على مستوى استيهامي بأكثر من كونه مستوى واقعيًا، وكأنها تتمتع بقوة خفية رهيبة قادرة على التأثير على مصائر العالم: والبرهان على ذلك هو الأسلوب الذي كان قد تم به تفسير ثورة تركيا الفتاة. وفي العلاقات الدولية قبل عام ١٩١٤، لا تستمد الصهيونية قوتها من إمكاناتها، وهي بالأحرى إمكانات محدودة في نهاية المطاف، بقدر ما تستمد هذه القوة من نسق التمثيلات الذهنية لدى غير اليهود، والذين ينسبون لها أهمية لا تتناسب مع قدراتها على الفعل، وهي قدرات جد ضعيفة. ثم إن الحرب العالمية سوف تزيد من تضخيم هذه الظاهرة.

وبشكل ما، تظهر فلسطين في عام ١٩١٤ كمنطقة صغيرة، ليست أكبر من محافظة أو محافظتين فرنسيتين، تتردد فيها بكثافة غير معروفة في أي مكان آخر أصداء التعريفات المسيحية والإسلامية واليهودية للقوى القومية الرئيسية آنذاك. وفي لحظةٍ تتخذ فيها النزعة القومية قيمة مطلقة ومقدَّسة، بما يشكل نتيجة لمائة وستةٍ وعشرين سنة تفصل الثورة الفرنسية عن الحرب العظمى [الأولى]، فإن الأرض المقدسة ـ أو التي أصبحت من جديد مقدسة لدى

الشعوب المنتمية إلى الديانات التوحيدية الثلاث الكبرى ـ إنمـــا تمثـــل رهانًـــا جوهريًّا تتقاطع فيه المصالح المادية والچيوسياسية للبعض وللبعض الآخر وقوة المخيالات الثقافية والسياسية على حدٍّ سواء. والحال أن الحرب العالمية الأولى والأعوام التي تعقبها إنما تشكل البرهان على ذلك.

الهوامش

المختصرات

AIU: Alliance israêlite universelle

MAE: Ministère des Affaires étrangières (Paris)

MAE, Names: Ministère des Affaires étrangières (Names)

PRO: Public Record Office (Londeres)

استهـــلال
العام ١٧٩٩

(1) Sur la question, H. Laurens, *L'expédition d'Égypte, 1798-1801*, nouvelle édition, Paris, Point Seuil, 1997.

(2) Gabriel Baer, «Jerusalem's Families of Notables and the Wakf in the Early 19th Century», in David Kushner (ed.), *Palestine in the late Ottoman Period, Political, Social and Economic Trasnformation*, Brill, Leyde, 1986, pp.109-122.

(3) Ensemble du dossier dans H. Laurens, «Le projet d'État juif attribué à Bonaparte», n°33, automne 1989, pp.69-83. Jacques Derogy, Hesi Carmel, *Bonaparte en Terre sainte*, Paris, Fayard, 1992.

(4) Voir les exemples cités par Jacques Godechot, «La Révolution française et les Juifs», in Bernhard Blumenkranz et Albert Soboul (ed.), *Les Juifs et la Révolution française*, Paris, Franco-Judaïca-Les Belles Lettres, 1989 (2e édition), pp.47-70.

(5) Ben Halpern, *The idea of the Jewish State*, Havard University Press, Cambridge Massachusetts, 1969, p. 250.

(6) Gershon Scholem, *Le messianisme juif*, Paris, Calman-Lévy 1974; Arthur Mandel, *The Militant Messiah or the Flight from the Ghetto, The story of Jacob Frank and the Frankist Movement*, Humanities Press, New-Jersey, 1979;

[7] Mayir Vreté, «The Restoration of the Jews in English Protestant Thought, 1790-1840», *Middle Eastern Studies*, 8, 1972, pp. 3-50.

(٨) يجد القارئ قائمة القبائل البدوية وسلائلها في كتاب مصطفى مراد الدبَّاغ، **القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦.

الكتاب الأول
أوروبا تصوغ العالم وشرقٌ آخذٌ بالتحول
١٧٩٨ـ١٩١٤

الفصل الأول
تحرير يهود أوروبا

[1] Simon Schwarzfuchs, *Du Juif à l'israélite, Histoire d'une mutation*, Paris, Fayard, 1989, pp.125-126.

[2] Sur le mouvement dit de «civilisation», voir Henry Laurens, *Le Royaume impossible, La France et la genèse du monde arabe*, Paris, Armand Colin, 1990, pp.11-27.

(٣) حول مفهوم المجتمع شبه المحايد، انظر:

Jacob Katz, *Hors du Ghetto, L'émancipation des juifs d'Europe (1770-1870)*, Paris, Hachette, 1984, pp.44-63.

ولا يجب قصر هذا المفهوم على حالة العلاقات اليهودية ـ المسيحية وحدها، فهو يُعَرِّفُ الوضع الأقصى للأشكال الجديدة للتشارك الاجتماعي والتي تضع نفسها عن قصدٍ خارج الهيراركيات الاجتماعية التقليدية، كالجمعيات الفكرية والأكاديميات الإقليمية والمحافل الماسونية.

[4] Cité par Schwarzfuchs, *Du Juif à l'israélite*,...pp.81-82.

[5] Je m'appuie ici sur l'édition de 1988 chez Flammarion avec une précieuse introduction de Rita Hermon-Belot.

(6) Abbé Grégoire, Essai sur la régénération..., op. cit., P. 119.

(7) Ibid. P.120.

(8) Cité par Schwarzfuchs, *Du Juif à l'israélite*,...p.147.

(9) Dans la discussion du colloque de Bernhard Blumenkranz et Albert Soboul, *Les Juifs et la Révolution française*, ..., pp.218-220.

(10) *Ibid*, p.211.

(11) *Ibid.* p.223.

(12) David Landes, *Banquiers et Pachas, Finance internationale et impérialisme économique en Égypte*, Paris, Albin Michel, Paris, 1993, pp.34-35.

(13) Cité par Béatrice Philippe, *Être juif dans la société française*, Paris, Pluriel, 1979, p.186.

(14) Léon Poliakov, Histoire de l'antisémitisme, III, De Voltaire à Wagner;, Paris, Calmann-Lévy, 1968.

(15) Sur ces questions, voir le très beau texte de François Delpech, «Notre Dame de Sion et les Juifs, réflexions sur le père Théodore Ratisbonne et sur l'évolution de la congrégation de Notre Dame de Sion depuis les origines» repris dans son volume posthume, Sur les Juifs, Études d'histoire contemporaine, Presses Universitaires de Lyon, 1982, pp. 321-371.

(16) Mario Rossi, «Emancipation of the Jews in Italy», Jewish Social Studies, XV, 1953, pp.113-134.

(17) David Sorkin, The Transformation of German Jewry, 1780-1840,, Oxford University Press, 1987.

(18) Michael A. Meyer, Response to Modernity, A History of the Reform Mouvement in Judaism,, Oxford University Press, 1988.

(١٩) بقدر ما نتقدم في القرن، فإن الحاخامات، الذين دخل عليهم الإصلاح والأرثوذكسيون على حدٍّ سواء، والذين قاموا بدراسات عليا علمانية إلى جانب دراساتهم الدينية الصرفة، إنما يعدون عديدين بشكل متزايد باطراد.

[20] Michael A. Meyer, op. cit., p.252.

[21] Michael A. Meyer, op. cit., pp.387-388.

[22] Israel Finestein «Jewish emancipationists in Victorian England: self-imposed limits to assimilation», Todd M. Endelman, «German Jews in Victorian England: a Study in drift and defection» in Jonathan Frankel et Steven J. Zipperstein, Assimilation and Community, the Jews in nineteenth-century Europe, Cambridge University Press, 1992, pp.38-87.

[23] Polly Pinsker, «English Opinion and Jewish Emancipation (1830-1860)»; Jewish Social Studies, XIV (1952), pp;51-94.

[24] Daniel Gutwein, The Divided Elite, Economics, Politics and Anglo-Jewry, 1882-1917, E..J. Brill, 1992.

[25] Synthèse générale dans Artur Eisenbach, The Emancipation of the Jews in Poland, 1780-1870, Oxford, Basil Blackwell, 1991.

[26] Evolution générale décrite dans François Fejtö, Requiem pour un empire défunt, Histoire de la destruction de l'Autriche-Hongrie, Paris, Seuil, 1993.

[27] Simon Doubnov, Histoire moderne du peuple juif, Paris, Payot, 1933, T. I, p.552.

[28] Le grand livre d'Anatole Leroy-Beaulieu, L'Empire des Tsars et les Russes, Paris, Robert Laffont, "Bouquins", 1990 (premières éditions 1881-1898) donne le cadre général des évolutions russes au XIXe siècle.

[29] Eli Lederhendler, The Road to Modern Jewish Politics, Political Tradition and Political Reconstruction in the Jewish Community of Tsarist Russia, Oxford University Press, 1989.

الفصل الثاني

فلسطين والتحولات العثمانية

(١) بالنسبة لمجمل تاريخ وجغرافية فلسطين، تعد **الموسوعة الفلسطينية**، دمشق، ١٩٨٤، والصادرة في أربعة مجلدات، أداة مفيدة للبحث.

(2) Dominique Chevallier, La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe, Paris, Geuthner, 1971,, en particulier, pp.90-105 «Le tribut et l'aventure gouvernementale de l'Emir Bachir».

(3) Mordechai Abir, «Local leadership and Early Reforms in Palestine, 1800-1834» in Moshe Ma`oz, Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jérusalem, Magnes Press, 1975, pp.284-310.

(٤) يجري إرجاع هذه الائتلافات إلى الفتح العربي نفسه؛ والواقع أن الإحالة إنما تحيل إلى عرب الشمال في مقابل عرب الجنوب (بشبه الجزيرة). وفي مصر ولبنان، تختفي هذه الائتلافات في القرن الثامن عشر، وذلك على أثر الانتصار الحاسم لفريق على الفريق الآخر. وتعبر هذه النزاعات في آن واحد عن تراث سلالي عربي وتوزيع تقليدي لأنساق ثقافية على مجموعات سلالية.

(5) Ce que montre magnifiquement Beshara Doumani dans son grand livre, Rediscovering Palestine, Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1700-1900, University of California Press, 1995.

(6) Adel Manna, « les révoltes populaires en Palestine », Revue d'Études Palestiniennes, nouvelle série, III, printemps 1995, pp. 76-77.

(7) Sur les voyageurs européens au XIX e siècle, voir Naomi Shepherd, The Zealous Intruders, From Napoleon to the Dawn of Zionism __The Explorers, Archeologists, Artists, Tourists, Pilgrims and Missionaries Who Opened Palestine to the West, Harper and Row, San Francisco, 1987.

(8) Sur cette période, les travaux de l'historien libanais Assad Rustum sont essentiels, voir The Royal Archives of Egypt and the origins of the Egyptian Expedition to Syria 1831-1841, Beyrtouh 1941 (en arabe) et Béchir II entre le Sultan et le Khédive (en arabe) première édition 1956 et deuxième édition, Librairie St. Paul Beyrouth 1985 (tomeVI des oeuvres d'Asad Rustum).

(9) Yitzhak Hofman, « The Administration of Syria and Palestine under Egyptian Rule », in Moshe Ma`oz, *Studies on Palestine ....*, pp. 311-333.

(10) Pour une description de la révolte, voir Baruch Kimmerling et Joel S. Migdal, *Palestinians, The Making of a People*, Havard University Press, 1994, pp. 6-11.

(11) Henry Laurens, *Le Royaume impossible...*, p. 102.

(12) Barbara Tuchman, *Bible and Sword, How the British came to Palestine*, Londres, Papermac, 1982 (première édition 1956), p. 175.

(13) Texte dans Nahum Sokolow, *History of Zionism*, Londres, 1919, T.II, pp. 229-231.

(١٤) من كوشليه، قنصل فرنسا في مصر، إلى باريس، ٥ مارس/ آذار ١٨٤٠: "صدمتني بشكل خاص الإفادة التي قدّمها لي قنصل الملك في بيروت، والتي تذهب إلى أن مسيحيي ودروز ويهود لبنان قد شكلوا جمعية للدفاع عن الجبل وإلى أن الأمير بشير قد جرى استبعاده من هذا الحلف الدفاعي". في:

Edouard Driault, *L'Égypte et l'Europe, la crise de 1839-1841*, T.II, p.168, Le Caire, 1930.

(15) Texte de la déposition dans Driault, *Ibid*, II, pp.226-227.

(16) Léon Poliakov, *Histoire de l'antisémitisme, III, de Voltaire à Wagner*, Paris, Calman-Lévy, Paris, 1968, pp.360-361.

(17) Béatrice Philippe, *Op. Cit..*, pp.200-202.

(18) Texte dans Driault, *Op. Cit.*,III, p.178.

(19) Adel Ismail, *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban*, Beyrouth, 1976, tome VI, p.255.

(20) *Ibid.* pp. 283-284:

من السيد دو بيرتو، المكلف بمهمة في بيروت، إلى جيزو، ٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٤٠: "لانجلترا مشروع آخر، كنت قد أشرت إليه منذ وقت بعيد، وهو مشروع ما عاد عملاؤها هنا يخفونه. وقوامه إحياء مملكة إسرائيل.

"والحال أن لجنة، برئاسة الدكتور كيث [وهو مؤلف كتاب جد شعبي في انجلترا، حول تحقق النبوءات]، كانت في سوريا قبل أربعة أشهر. وكانت، من الناحية الظاهرية، موفدة من جانب الكنيسة الإسكتلندية، بيد أنها كانت مزوَّدةً أيضًا بتعليمات من الحكومة

الإنجليزية التي كلفتها بجمع معلومات عن حالة اليهود في فلسطين وإمكانية إعادة اليهود المنتشرين في كل أوروبا هناك.

"تحرير انجلترا للجبل، والجبل هو سوريا، لأن أي سلطة لا يمكنها البقاء على الساحل لو كانت في حرب مع سكان الجبل، وفتح انجلترا أبواب فلسطين أمام ملايين الإسرائيليين الثماني الموجودة في أوروبا [...] هاتان هما الوسيلتان اللتان تريد بهما بريطانيا العظمى إحلال نفوذها محل النفوذ الذي نتمتع به هنا".

(21) Traduction officielle française. Ensemble du texte avec commentaire in Henry Laurens, *L'Orient arabe, arabisme et islamisme de 1798 à 1945*, Paris, Armand Colin, 1993, pp.61-65.

ويستخدم النص العثماني الصيغة التالية: "... من المسلمين والشعوب الأخرى". ومصطلح الشعب هنا هو الملّة، ويبدو أن هذه هي المرة الأولى التي يجري فيها استخدام مصطلح الملّة بمعنى الجماعة الطائفية.

(22) Texte du firman qui condamne l'accusation de crime rituel comme « préjugé suranné » et demande aux autorités judiciaires d 'assurer aux Juifs une protection complète dans Avram Galante, *Histoire des Juifs de Turquie*, Istanbul éditions Isis 1985 (reprint), T. VII pp.341-342.

وقد جرى تجديد الفرمان في عام ١٨٦٥ على أثر اتهامات جديدة بارتكاب جرائم شعائرية، وهي اتهامات صادرة عن يونانيين.

(23) Tuchman, *Op. Cit.*, p.196.

(24) Isaiah Friedman, «Lord Palmerston and the Protection of Jews in Palestine, 1839-1851», *Jewish Social Studies*, vol. XXX, 1968, pp. 23-41.

(25) Guizot, *Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps*, Paris, 1864, T. VI, pp.73-74.

(26) Mayir Verete, «A Plan for the Internationalization of Jerusalem, 1840-1841,» *Asian and African Studies*, 12, 1978, pp.13-31.

(27) Adel Ismail, *Documents diplomatiques...*, T. XXV, Beyrouth, 1980, p.95. Ensemble des textes pp.95-98.

(28) A. L. Tibawi, *British Interests in Palestine, 1800-1901,* Oxford University Press, 1961, pp.43-91.

(29) Tudo Parfitt, *The Jews in Palestine, 1800-1882*, Londres, Royal Historical Society, 1987.

(30) Excellent dossier dans Joseph Hajjar, *L'Europe et les destinées du Proche-Orient, II, Napoléon III et ses visées orientales*, Damas, Édition Tlass, 1988. En ce qui concerne la position des Grecs-Orthodoxes, voir Nicéphore Moschopoulos, *La Terre Sainte, Essai sur l'histoire diplomatique des Lieux saints de la chrétienté*, Athènes, 1957.

(31) François Charles-Roux, *France et Chrétiens d'Orient*, Paris, Flammarion, 1939, p.170.

(32) Hajjar, *Op. Cit.*, p.353.

(33) Hajjar, *Op. Cit.*, pp.387-388.

(34) Hajjar, *Op. Cit.*, p.397.

(35) Analyse et commentaire dans Henry Laurens, *L'Orient arabe...*, pp.67-70.

(36) Sur l'organisation du judaïsme ottoman à travers l'histoire voir Walter. Weiker, *Ottomans, Turks and the Jewish Polity, A History of the Jews of Turkey,* University Press of America, Inc. Boston, Londres, 1992.

(37) Adam Garfinkle, "On the Origin, Meaning, Use and Abuse of a Phrase", *Middle Eastern Studies*, Vol. 27, n°4, octobre 1991, pp. 543.

(38) Hajjar, *Op. Cit.*, II, pp.768-769. Michael J. Pragai, *Faith and Fulfilment, Christian and the Retun to the Promised Land*, Londres, Valentine , Mitchell,1985, pp.40-56, pp.63-80.

(39) Texte dans Nahum Sokolow, *History of Zionism*, Londres, 1919, T.II, pp. 259-261.

(40) Texte dans Nahum Sokolow, *History* ...,I, pp. 263-265.

(41) Livre de base, André Chouraqui, *L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance juive contemporaine*, Paris, Presses Universitaires de France, 1965.

(42) Daniel Amson, *Adolphe Crémieux, L'oublié de la gloire*, Paris, Seuil, 1988, pp.306-307.

(43) Aron Rodrigue, *De l'instruction à l'émancipation, Les enseignants de l'Alliance israélite universelle 1860-1839*, Paris, Calman-Lévy, 1989, p.19.

(44) Zoja Szajkowski, «Conflicts in the Alliance Israélite Universelle and the Founding of the Anglo-Jewish Association, the Vienna Allianz and the Hilfsverein», *Jewish Social Studies*, Vol. XIX, 1957, pp. 29-50.

(45) Moshe Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine, The Impact of the Tanzimat on Politics and Society*, Oxford, Clarendon Press, 1968, pp. 33-34. Ouvrage pionnier sur cette question.

(46) Butrus Abu-Manneh « The Establishment and Dismantling of the Province of Syria, 1865-1888 », in John P. Spagnolo (ed.), *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective, Essays in Honour of Albert Hourani*, St. Antony's College Oxford, Ithaca Press, 1992, pp. 7-26.

(47) Sur le conseil de Jérusalem dans les décennies 1840-1850, voir Benjamin Braude, « Councils and Community: Minorities and the *Majlis* in *Tanzimât* Jerusalem », in *The Islamic World, From Classical to Modern Times, Essays in Honor of Bernard Lewis*, The Darwin Press, inc; Princeton New Jersey, 1991, pp. 651-660.

(٤٨) انظر بحث عبد الكريم رفيق التفصيلي عن غزة، **الفئات الاجتماعية والثروات والسلطة في غزة في أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر**، في:

Studia Palestina, Studies in honour of Constantin K. Zurayk, Beyrouth, Institut d'études palestiniennes, 1988. pp. 83-126.

(49) David Kusnezr, «Intercommunal Strife in Palestine during the Late Ottoman Period», *Asian and African Studies*, (18) 1984, pp.187-224.

(50) Naomi Shepherd, *Op. Cit.*, pp.140-169.

(51) Alexander Schölch, *Palestine in Transformation* , Institute of Palestine Studies, Washington, 1993, pp.199-209.

(52) Sur la sédentarisation progressive de la Transjordanie, voir l'ouvrage de base de Raouf Sa'd Abujaber, *Pionners over Jordan, The frontier of Settlement in Transjordan, 1850-1914*,Londres, Tauris and Co, 1989.

(53) Alexander Schölch, «Le développement économique de la Palestine: 1856-1882» *Revue d'études palestiniennes*, 10, 1984, pp.93-113.

(54) Alexander Schölch, *Palestine...*, pp.110-117.

(55) Jacques Weulersse, *Paysans de Syrie et du Proche-Orient*, Paris, Gallimard, 1946, p. 37.

(56) Alexander Schölch, «The Demographic Development of Palestine, 1850-1882», *International Journal Middle East Studies*, 17 (1985), pp. 485-505.

(57) Justin McCarthy, *The Population of Palestine, Population statistics of the late Ottoman Period and the Mandate*, The Institute for Palestine Studies, Columbia University Press, New-York, 1990, p. 10.

(58) Ruth Clark, "Transportation in Nineteenth Century Palestine: Reintroduction of the Wheel" in Ruth Clark (ed.), *The Land that became Israel, Studies in Historical geography*,Yale Universiy Press, The Magne Press, 1990, pp. 57-76.

(59) Alexis Carmel, «The activities of the European Powers in Palestine, 1799-1914», *Asian and African Studies*, 19 (1985, pp.43-91.

(60) Arnold Blumberg, *Zion before Zionism 1838-1880*, Syracuse University Press, 1985.

(61) 20 mai 1875, MAE, Turquie, Jérusalem, XIII, Consul de France au Ministre, 68. élection du patriarche orthodoxe, le candidat hellène est élu contre le candidat russe.

(٦٢) يجد القارئ تركيبًا ممتازًا حول ألمانيا وفلسطين، في كتاب علي محافظة، العلاقات الألمانية ـ الفلسطينية، ١٨٤١ـ١٩٤٥، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.

(63) Naftali Thalmann, "Introducing Modern Agriculture into Nineteenth-Century Palestine: The German Templers." Ruth Clark (ed.), *The Land...*, pp. 90-104.

(64) Naomi Shepherd, *Op. Cit.*, pp.175-180.

(65) Voir Bernard Montagnes, *Exégèse et obéissance , Correspondance Cormier-Lagrange*, Paris, Gabalda, 1989/

(66) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 2ème trimestre 1868, pp.55-66.

(67) Archive AIU, France A 6-7, Netter à l'Alliance, le 19 juillet 1871

(68) 14 août 1871, Netter à l'Alliance, Archive AIU, France A 6-7.

(69) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 2 eme semestre 1870 et 1 er semestre 1871.,Extraits de lettres de Netter, p.20, 4 juin 1871.

(70) 24 mars 1875, Netter à Schamasch, Archive AIU, France A 6-7.

(71) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 2 eme semestre 1874, p.42.

(72) Rapport au Board de Londres de MM. Montagu et Asher, *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1er semestre 1875., p.71.

(73) Rapport sur l'école agricole de Jaffa lu par M. Charles Netter, *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1er semestre 1874, pp.92-96.

(٧٤) مجمع روما التبشيري.

(75) MAE, Turquie, Jérusalem, XIII, 307, Consul de France au Ministre.

(76) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1er et 2 eme semestres 1879, pp.22-24.

(77) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1er semestre 1880, pp.51-53.

(78) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1er semestre 1880, pp.11-13.

(79) Discours du Grand-Rabbin de France Isidore à l'assemblée générale de l'Alliance, *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1er semestre 1881, pp.41-43.

ويحدث النوع نفسه من الفشل في بريطانيا العظمى في عام ١٨٧٥ بمناسبة جمع تبرعات على شرف مونتفيوري: إذ لم يتم جمع سوى ١٢٠٠٠ جنيهًا. انظر:

Cecil Bloom, « Samuel Montagu's and Sir Moses Montefiore's Visits to Palestine in 1875 », *The Journal of Israeli History*, Vol. 17 number 3 Autumn 1996, pp.pp.263-282.

(80) 7 juin 1876, MAE Turquie, Jérusalem, XIII, 224, Consul de France au Ministre.

(81) 18 janvier 1877, MAE, Turquie, Jérusalem, XIII, 309, Consul de France au Ministre.

(82) 19 novembre 1879, MAE, Turquie, Jérusalem, XIV, 176 et suivantes.

(٨٣) ومن هنا قلة الإشارات إلى الأعيان في المراسلات القنصلية، وهو ما يتعارض تعارضًا سافرًا مع الفترة السابقة.

(84) 15 juillet 1880, MAE, Turquie, Jérusalem, XIV, 279, Patrimonio à Paris.

(٨٥) شارل لافيجيري، مؤسس جمعية المبشرين في أفريقيا، المسمين بـــ"الآباء البيض".

(86) 12 janvier 1881, MAE, Turquie, Jérusalem, XIV , 346-347,Patrimonio, Consul de France au Ministre.

(٨٧) وهذا محسوس بشكل خاص عندما نتصفح معجمًا بيوجرافيًا للشخصيات الفلسطينية، كمعجم عادل منّاع، **أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠-١٩١٨)**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٩٥، (الطبعة الأولى، ١٩٨٦). ويمكن استكماله بمعجم محمد عمر حماده البيوجرافي، الأعَمّ، والذي يغطي مجمل الفترة الإسلامية، **أعلام فلسطين**، في ثلاثة مجلدات، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٥.

الفصل الثالث

التضامن اليهودي ومعاداة السامية والصهيونية

(1) Cité par Victor Nguyen, *Aux origines de l'Action Française, Intelligence et politique à l'aube du XXe siècle*, Paris, Fayard, 1991, p.318.

(2) Cité par Victor Nguyen, *Aux origines..*, p. 482.

(3) André Chouraqui, *L'Alliance Israélite* ... pp.81-100. Fritz Stern, *L'or et le fer, Bismarck et son banquier Bleichröder*, Paris, Fayard, 1990. p.445 et suivantes.

(٤) وصف الفظائع في نشرات التحالف الإسرائيلي العالمي لعام ١٨٧٧. وهي تتميز بالطبيعة نفسها التي تميزت بها الفظائع المرتكبة في زماننا في يوغوسلافيا السابقة.

(٥) كانت عضوية الجمعية الأولى مفتوحة أمام المتمسكين باليهودية التي دخل عليها الإصلاح، وهو ما لم تكن عليه الحال بالنسبة للجمعية الثانية.

(6) Texte des articles 5, 20, 27, 34, 35 , 43 et 44 concernant la fin des discriminations religieuses dans l'ensemble des pays balkaniques dans le *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1 er semestre 1878, pp.57-59.

(7) Henry Laurens, «Le concept de race dans le *Journal asiatique* du XIXe siècle», *Journal asiatique*, 1988, 3-4, pp.371-381.

(٨) على سبيل المثال، **يوميات الأخوين جونكور**، ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٦٢: "كلمة تقول كل شيء عن اليهود، تسلّطُ الضوء على ثرائهم وحالات صعودهم في عالم وعصر مال، تشير إلى أن المال ساميّ. قال ميريس لسان ڤيكتور إنّه في مدرسة اليهود التي كان تلميذًا بها في بوردو، لم تكن هناك جائزة للتفوق في الحساب، فكلهم يستحقونها".

Journal des Goncourt, Paris, Robert Laffont, coll. " Bouquins", 1989, I, p.867.

(9) Moshe Zimmermann, *Wilhem Marr, The Patriarch of Antisemtism*, Oxford University Press, 1986.

(10) Léon Poliakov, *Histoire de l'antisémitisme, L'Europe suicidaire, 1870-1933*, Paris, Calmann-Lévy, Paris, 1977, pp.54-56.

(11) Journal des Goncourt, T.II,

رد فعل على قراءة **فرنسا اليهودية** لدريمون، ص ١٢٤١، ١٧ أبريل/ نيسان ١٨٨٦: "بالنسبة لي، أنا الذي صرخت بأعلى صوتي منذ عشرين عامًا قائلاً إنه لو لم تكن عائلة روتشايلد تلبس الأصفر لأصبحنا عاجلاً، نحن المسيحيين، خدمًا، عبيدًا، في درك العبودية الأسفل، سبَّبَ لي كتابُ دريمون قدرًا من الذعر بما تضمنه من إحصاءات وحصر لقواهم الخفية".

وص ١٢٢٤، ٢٠ أبريل/ نيسان ١٨٨٦:

"أعتقد أن فرنسا اليهودية لدريمون سوف يؤدي، في وقت جد قريب، إلى تحديد المال اليهودي بوصفه هدفًا لكراهية رأس المال، التي تعد الآن مشتتة إلى حدٍّ ما وغير محدَّدة".

(12) Francis R. Nicosia, « Zionism and Palestine in Anti-Semitic Thought in Imperial Germany », *Studies in Zionism*, Vol. 13, n°2 (1992), pp. 115-132.

(13) Moshe Zimmermann, *Wilhem Marr,...* pp.86-88.

(14) Analyse très pertinente chez Anatole Leroy-Beaulieu, *Israël chez les nations*, Paris, Calmann-Lévy, 1983 (réédition du texte de 1893).

(15) Sur ces thèmes, Zeev Sternhell, *Maurice Barrès et le nationalisme français*, Édition, Complexe 1985.

(١٦) التعادل بين معاداة السامية ومعاداة الإكليريكية هو أطروحة ــ لوروا ــ بواليو. وبيير بيرنباوم يعارض هذه الأطروحة. وحول أعمال العنف المعادية للإكليريكية في زمن قضية دريفوس، انظر:

Danielle Delmaire, « Entre socialisme et catholicisme, le Nord » in Pierre Birnbaum (éd.), *La France de l'Affaire Dreyfus*, Paris, Gallimard, 1994, pp.154-183.

(17) C'est la thèse de Pierre Birnbaum dans *La France aux Français, Histoire des haines nationalistes*, Paris, Seuil, 1993.

(18) Sur l'importance des mutations historiques du nationalisme, voir le grand livre d'Eric Hobsbawm, *Nations et nationalisme depuis 1870*, Paris, Gallimard, 1992.

(١٩) "ألا يسره أن "الشعوب المتمدنة" في جنوبي أوروبا لم تتوصل إلى الكتاب المقدَّس إلاّ عبر الكنيسة؟ وهكذا فإن "الكتابات الشرقية المشوَّشة" قد جرى "الحذف منها وإعادة صياغتها وتبديل مواقعها" عن قصد، على نحو ما نكتشفها في أعجوبة ابتهالات القدَّاس وجميع كتب الفروض الكنسية"، نقلاً عن:

Victor Nguyen, *Aux origines...*, p. 600.

(20) Emmanuel Todd, *L'invention de l'Europe*, Paris, Seuil, 1990, pp.260-262.

(21) Voir le grand livre d'Edouard Conte et Cornelia Essner, *La quête de la race, une anthropologie du nazisme*, Paris, Hachette, 1995.

(22) Sur ces notions, voir Zeev Sternhell, Mario Szajder, Maia Ashéri, *Naissance de l'idéologie fasciste*, Paris, folio histoire, 1994, en particulier les pages 31-35.

(٢٣) على سبيل المثال، في المجر في عام ١٨٨٢. فيجمع التحالف الإسرائيلي العالمي آنذاك آراء أكبر العلماء الأوروبيين كرينان لإثبات بطلان هذا الاتهام،

Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle, 1er semestre 1883, pp.26-31.

(24) Sur Bernard Lazare, voir Pierre Vidal-Naquet, «Sur une réédition (à propos de Bernard Lazare, *L'Antisémitisme, son histoire et ses causes*)» in *Les Juifs, la mémoire et le présent*, II, Paris, La Découverte, 1991, pp.85-87 et Jean-Denis Bredin, *Bernard Lazare, de l'anarchiste au prophète*, Paris, Édition de Fallois, 1992.

(25) David Vital, *The Origins of Zionism*, Oxford University Press, 1975, p.29.

(26) Bruce F. Pauley, *From Prejudice to Persecution, A History of Austrian Anti-Semitism*, The University of North Carolina Press, 1992, p.59.

(27) Alan Levenson, « German Zionism and Radical Assimilation Before 1914 », *Studies in Zionism*, Vol. 13, n°1 (1992), pp. 21-42.

(28) John D. Klier, «The pogrom paradigm in Russian History», in John D. Klier et Shlomo Lambroza (ed.), *Pogroms: anti-jewish violence in Modern Russian History*, Cambridge University Press, 1992, pp.13-38.

(29) L. Michel Aronson, «The anti-Jewish pogroms in Russia in 1881», in John D. Klier et Shlomo Lambroza (ed.), *Pogroms...*, pp.44-61.

(30) Léon Poliakov, *Histoire de l'antisémitisme, l'Europe suicidaire, 1870-1933*, Paris, Calmann-Lévy, 1977, pp.107-115.

(31) Jack Wertheimer, *Unwelcome Strangers, East European Jews in Imperial Germany*, Oxford University Press, 1987, pp.11-12.

(32) Jack Wertheimer, *op. cit.*, p.14.

(٢٣) لعناصر من الجيل الثاني عمومًا، وذلك سعياً إلى إخضاعها للتجنيد.

(34) Jack Wertheimer, *op. cit.*, *passim.*

(35) Roberta Strauss Feuerlicht, *The Fate of the Jews*, Quartet Books, Londres, 1983, pp.70-71.

(36) Ira Rosenswaike, «The Jewish Population of Argentina, Census and Estimates, 1885-1947», *Jewish Social Studies*, Vol. XXII, 1960, pp.195-214.

سيرتفع عدد السكان الريفيين إلى ٣٣٢١٥ نسمة في عام ١٩٢٥، بيد أنه سوف يهبط بعد ذلك (٢٥٧٩٦ نسمة في عام ١٩٣٤).

(37) Daniel Gutwein, *The Divided Elite,...*p.13.

(38) Béatrice Philippe, *Être juif dans la société française*, édition Montalba, Livre de poche Pluriel, Paris, 1979, p.225. Voir aussi du même auteur, *Les Juifs à Paris à la Belle Époque*, Paris, Albin Michel, 1992.

(39) Bruce F. Pauley, *From Prejudice...*, pp.23-26.

(40) Alexander Orbach, «The Russian Jewish Community», in in John D. Klier et Shlomo Lambroza (ed.), *Pogroms:* , pp.137-163.

(41) Il en existe une très belle édition scientifique française faite par René Poznanski, Paris, Cerf, 1989.

(42) Voir le livre d'Henri Minczeles, *Histoire générale du Bund, un mouvement révolutionnaire juif*, Paris, Éditions Austral, 1995.

(43) Ezra Mendelsohn, «The Jewish Socialist Movements and the Second International, 1889-1914: the Struggle for Recognition», *Jewish Social Studies*, Vol. XXVI, 1964, pp. 131-145.

(44) Très belle synthèse sur ces questions, Enzo Traverso, *Les marxistes et la question juive*, Paris, La Brèche-Pec, 1990.

(45) Ben Halpern et Jehuda Reinharz, « The Social Sources of Zionism », *Studies in Zionism*, Vol.8, n°2 (1987), pp.151-172.

(46) Shlomo Avineri, *Histoire de la pensée sioniste*, Paris, J.C. Lattès, 1982, p.100.

(47) Joseph Klausner, *Menahem Ussishkin, Sa vie et son oeuvre*, Édition de la terre retrouvée, Paris, 1946, pp.8-9.

(48) David Vital, *The Origins of Zionism*, Oxford University Press, 1975, p.161.

(49) Texte dans Ben Halpern, *The idea of the Jewish State*, Havard University Press, 1969, pp.262-263.

(50) Sur Oliphant et Disraeli (lord Beasconfield) voir Stanley Weintraub, *Disraeli, A Biography*, Londres, Hamis Hamilton, 1993, pp.604-605.

(51) Ali Ihsan Bagis, « Jewish Settlement in Palestine and Ottoman Policy, in Sinan Kuneralp ed., *Studies on Otoman Diplomatic History, T.IV*, Istanbul éditions Isis, 1990, pp.35-40.

(52) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 2 eme semestre 1881 et 1 er 1882, pp.14-15.

(٥٣) بالمقابل، في فرنسا، يقبل المعادون للسامية مواجهة خصومهم اليهود في مبارزة، معترفين بذلك بكونهم بشراً.

(54) Robert S. Wistrich, *The Jews of Vienna in the Age of Franz Joseph*, Oxford University Press, 1990, pp.347-380.

(55) Bernard Michel, *Nations et nationalismes en Europe centrale XIXe-XXe siècle*, Paris, Aubier, 1995, pp. 8-9.

(56) Alex Bein, The Origin of the Term and Concept "Zionism", *Herzl Year Book*, volume II, Herzl Press, New-York, 1959, pp. 11-26.

(57) Robert S. Wistrich, *The Jews...*, pp.381-420.

(58) Très nombreuses bibliographies dont Steven J. Zipperstein, «Ahad Ha'am and the politics of assimilation», in Jonathan Frankel et Steven J. Zipperstein, *Assimilation...*, pp.344-365., David Vital, *The Origins ...*, pp.187-200. Voir aussi son recueil de textes choisis et traduits en français par A. Gottlieb, *Au Carrefour*, Paris, Librairie Lipschutz, 1938.

(59) Cité par Doubnov...*Histoire moderne du peuple juif*, Paris, Payot, 1933, T. II, pp. 771-772.

(60) Citation prise dans Shlomo Avineri, *Op. Cit.*,pp. 169-172., voir aussi un extrait plus long dans Ilan Halevi, *Sous Israël, la Palestine*, Paris, Le Sycomore, 1978, pp.111-118.

(61) Sur cette question, voir le forum sur Ahad Haam dans le numéro de *Jewish History* qui lui est consacré (Vol.4, n°2, 1990 pp.25-96).

(62) Ben Halpern, *The idea of the Jewish State*, Havard University Press, 1969, p. 102.

(63) Joseph Klausner, *Menahem Ussishkin..*, p.23.

الفصل الرابع

فلسطين زمن العاليّا الأولى

(1) Israël Margalith, *Le baron Edmond de Rothschild et la colonisation juive en Palestine*, Librairie Marcel Rivière, Paris, 1957, p.171.

(2) Cité sans date par Jean-Marie Delmaire, *De Hibbat-Zion au sionisme politique*, Lille, ANRT, 1990, p. 123.

(3) 23 mars 1882 *Archives Israélites*, XLIIIe Année, n°12, pp.92-93..

(4) Lettre de Netter du 14 avril 1882, Archive AIU, France A 6-7.

(5) Netter à Loeb, 11 avril 1882, Archive AIU, France A 6-7.

(6) Isidore Cahen rédacteur des *Archives israélites*, 42e année, n°7, 17 février 1881,

(7) H. Prague, *Archives israélites*, 42e année, n°48, 1er décembre 1881.

(8) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 2 eme semestre 1882, p.37.

(9) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 2 eme semestre 1882, pp.16-17.

(10) Israël Margalith, *Le baron Edmond de Rothschild et la colonisation juive en Palestine*, Librairie Marcel Rivière, Paris, 1957, p.71.

(11) A. L. Tibawi, *British Interests in Palestine 1800-1891*, Oxford University Press, 1961, pp. 207-208.

(12) Archive AIU, France A 6-7, Netter à Loeb le 20 septembre 1882.

(13) Julien Weill, *Zadoc Kahn (1839-1905)*, Paris, Alcan, 1912, pp. 108-109.

(14) MAE, Nantes, Jérusalem, A, 136. Correspondance entre Hirsch et Langlais en décembre 1882.

(15) Sur la situation catastrophique de Samarine avant l'intervention d'Edmond de Rothschild, voir «Les colonies roumaines en Palestine», *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1er semestre 1883 pp.16-26.

(16) Simon Schama, *Two Rothschild and the Land of Israel*, Collins, Londres, 1978, p.68.

(17) D'où l'importance des sources françaises pour l'histoire de cette période. Ran Aaronsohn en a fait l'inventaire, « French Archives as a Source for the Study of France-Holy Land Relations », in Davis M., Ben Arieh y (eds.), *With Eyes toward Zion*, III : Western Societies and the Holy Land, Praeger, New-York, 1991, pp. 130-136.

(18) 20 décembre 1883, Lettre du Comité régional de l'Alliance à Constantinople à Hirsch, directeur de l'École à Mikveh Israël, Margalith, *Op. Cit.*, p.204.

(١٩) المراسلات الديبلوماسية بين القسطنطينية وبيروت وباريس لا تسمح بتقدير التوزيع الطائفي بين الجزائريين المسلمين واليهود بالنسبة لمجمل الأراضي السورية.

(20) MAE, Turquie, Beyrouth, XXX, 114-115, 30 mars 1887, Consul de France à Beyrouth à M. le Ministre des Affaires étrangères

(21) MAE, Nantes, Jérusalem, A, 136. Correspondance entre le Consulat de France à Jérusalem et l'Ambassade à Constantinople en mai 1884.

(22) M. Patrimonio, Consul général à Beyrouth à M. Jules Ferry, Président du Conseil et Ministre des Affaires étrangères , Margalith, le 2 avril 1885, *Op. Cit.*, p.187.

(23) *Bulletin de l'Alliance Israélite Universelle*, 1er semestre 1884, pp.26-27.

(24) *L'Alliance Israélite Universelle publié à l'occasion du vingt-cinquième anniversaire de sa fondation, célébré le 1er mars 1885*, p.52.

(25) MAE, Nantes, Jérusalem, A, 136.Correspondance entre le consul de France et le gouverneur de Jérusalem, septembre 1887 et correspondance entre le consul et l'ambassade.

(26) Turquie, 1888, Israël Margalith, *Le baron Edmond de Rothschild et la colonisation juive en Palestine*, Librairie Marcel Rivière, Paris, 1957, pp. 202-203.

(27) MAE, Nantes, Jérusalem , A, 136, 25 décembre 1882, Pétition d'Israélites de Jérusalem au Consul général de France à Jérusalem protestant contre l'interdiction d'acquérir des biens immeubles à Jérusalem, ce qui menace de les ruiner.

(28) MAE, Turquie, Jérusalem, XXV,21-22, 18 janvier 1893, Consul de France au Ministre.

(29) Neville J. Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I*, University of California Press, 1980, p.9. C'est l'ouvrage de référence sur la question.

(30) MAE, Nantes, Jérusalem, A, 136. Correspondance entre le consulat de France à Jérusalem et l'ambassade à Constantinople.

(31) MAE, Nantes, Jérusalem, A, 136.

(32) MAE, Nantes, Jérusalem, A, 136. M. Bapst, chargé d'affaires de France à Constantinople à M. Delcassé, ministre des Affaires étrangères le 25 février 1901.

(33) Vision générale dans Dan Giladi, « The agronomic Development of the Old Colonies in Palestine », in Moshe Ma'oz (ed.), *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jérusalem, 1975, pp.175-189 et Ran Aaronsohn, « Building the land : stages in First Aliya Colonization,(1882-1904) » *The Jerusalem Cathedra*, 3, (1983) ppL. 236-279.

(34) Simon Schama, *Two Rothschild...*, p.88.

(35) Simon Schama, *Two Rothschild..*, p. 92.

(36) Israël Margalith, *Le baron...*, p.94.

(37) Israël Margalith, *Le baron...*, pp.174-175.

(38) Simon Schama, *Two Rothschild..*, pp.131-132.

(39) Ran Aaronsohn, « Vines and Wineries in the Jewish Colonies: Introducing Modern Viticulture into Nineteenth-Century Palestine », *Studies in Zionism*, Vol. 14, n°1 (1993), pp.31-52.

(40) Simon Schama, *Two Rothschild..*, pp.129-134.

(41) Israël Margalith, *Le baron...*, p. 171.

(42) Julien Weill, *Zadoc Kahn (1839-1905)*, Paris, Alcan, 1912, pp.138-143 et pp. 221-223.

(43) 16 février 1898, MAE, Nouvelle série, Syrie-Liban, CVI.,Consul général de France à Beyrouth à M. le Ministre des Affaires étrangères

(44) PRO FO 78/5479. Mars 1900 correspondance concernant la ICA.

(45) AIU, Israël, IV, E, 11, 29 janvier1900, Antébi au président de l'Alliance.

(46) Simon Schama, *Two Rothschild..*, p.156.

(47) 13 janvier 1904, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CIX, 127, *Note pour le Ministre au sujet de la protection de certaines oeuvres israélites en Orient*.

(48) Derek J. Penslar, *Zionism and Technocracy, The Engineering of Jewish Settlement in Palestine, 1870-1918*, Indiana University Press, 1991, p.31.

(49) Yossi Katz, « Agricultural Settlements in Palestine », 1882-1914, *Jewish Social Studies*, n°1-2, 1988-1992, pp.63-82.

(50) Ran Aaronsohn, "Cultural Landscape of Pre-Zionist Settlements", Ruth Clark (ed.), *The Land that became Israel, Studies in Historical geography*,Yale Universiy Press, The Magne Press, 1990, pp. 147-163.

(51) Anita Shapira, *Land and Power, the Zionist Resort to Force, 1881-1948*, Oxford University Press, 1992, pp. 56-63. Un grand livre qui dépasse le cadre de la simple historiographie de la question de Palestine.

(52) 2 novembre 1904, MAE, Turquie, Palestine, 131. Wiet gérant du Consulat à Paris.

(53) MAE, Nantes, Jérusalem, B, carton 40.

(54) AIU, Israël, IV, E, 12, 27 mars 1901, Antébi au président de l'Alliance.

(55) Ran Aaronsohn, « Colonialisme, colinzation and settlement in Israel as a colonial enterprise », paper prsented at the Ninth International Conference of Historical Geographers, Perth, Western Australia, July 2-10 1995, *Space and Place, Mirrors of Social and Cultural Identities* edited by Dominique Vaneste, Institut Catholique de Louvain pp. 131-136. Et du même, « Settlement in Eretz Israël __ A colonialist Enterprise. ''Critical Scholarship and Historical Geography », *Israel Studies*, Vol. 1. N°2 (1996) pp. 214-229. Je remercie M. Aarosohn de m'avoir fourni ces documents et, même si je ne suis pas d'accord avec lui, je considère comme inappréciable sa contributionà l'histoire de la région durant cette période.

(56) Sur une histoire générale du pan-islamisme, voir Jacob M. Landau, *The Politics of Pan-Islam, Ideology and Organisation*, Clarendon Press, Oxford, 1990.

(57) Norman A. Stillman, *The Jews of Arab Lands in Modern Times*, The Jewish Publication Society, Philadelphia, New-York, 1991, pp.33-34.

(58) *L'Asie française*, septembre 1903, *La situation en Syrie et l'intervention américaine.*

(59) 13 septembre 1903, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CIX, 105 et suivants, L'Ambassadeur de France à Constantinople à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères.

(60) Justin McCarthy, *The Population of Palestine, Population statistics of the late Ottoman Period and the Mandate*, The Institute for Palestine Studies, Columbia University Press, New-York, 1990, p. 10.

(61) Haim Gerber, *Ottoman Rule in Jerusalem, 1890-1914*, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 1985, p.74.

(62) Buheiry (Marwan R.), « The Agricultural Exports of Southern Palestine », *Journal of Palestinian Studies* , 10 (1981) n°40, pp.61-82. Charles Issawi, « The trade of Jaffa, 1825-1914 », Hishma Nashabé (ed.) *Studia Palaestina, Studies in*

honour of Constantine K. Zurayk, Beyrouth Institute for Palestine Studies, 1988, pp.42-51.

(63) James Reilly, « Peasantry of Late Ottoman Palestine », *Journal of Palestinian Studies* , 10 (1981) n°40, pp.61-81.

(64) Jacques Thobie, *Intérêts et impérialisme français dans l'Empire ottoman, (1895-1914)*, Publication de la Sorbonne, Imprimerie Nationale, Paris, 1977 pp.158-161 et pp.329-331 et pp.397-398. du même « Relations internationales et zones d'influence: les intérêts français en Palestine à la veille de la première guerre mondiale », in *La France et l'Est méditerranéen depuis 1850*, Istanbul, Isis, 1993, pp. 377-395.

(65) David Kushner, « The Ottoman Governors of Palestine, 1864-1914 », *Middle Eastern Studies*, vol. 23, juillet 1987, n°3, pp.274 -290.

(66) 13 janvier 1891, MAE, Turquie, Jérusalem, XXII, Consul de France à l'ambassade de Constantinople.

(67) 25 novembre 1895, MAE, Turquie, Jérusalem, XXVII, 177.

(68) 27 janvier 1896, MAE, Turquie, Palestine, I, 19, Consul de France à Ambassadeur à Constantinople.

(69) 27 mai 1890, MAE, Turquie, Jérusalem, XX, 184 et suivantes; Dossier correspondant, MAE, Nantes, Jérusalem , B, 54.

(70) Sur l'administration ottomane à l'époque hamidienne voir Joseph S.Szyliowicz, « Changes in the Recruitment Patterns and Career-Lines of Ottoman Provincial Administrator During the Nineteenth Century » in Moshe Ma'oz (ed.), *Studies...* pp.249-283 et Carter Vaughn Findley, *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire, The Sublime Porte 1789-1922*, Princeton University Press, 1980, *Ottoman Civil Officialdom, a social history*, Princeton University Press, 1989.

(71) Ruth Kark, « The Jerusalem Municipality at the End of Ottoman Rule », *Asian and African Studies* 14 (1980), pp.117-141.

(72) L'étude essentielle de ce sujet est le livre de Gerber déjà cité.

(73) J. Weulersse, *Paysans...*, pp. 99 et suivantes.

(74) Sur la *musha'* en Palestine les deux articles éclairants de Scott Atran, « Démembrement social et remembrement agraire dans un village palestinien » *L'Homme* 96 oct.-déc.1985, XXV (4), pp.11-135, « Le Masha'a et la question foncière en Palestine, 1858-1948 » *Annales Economies Sociétés Civilisations*, n°6, novembre-décembre 1987, pp. 1361-1389

(75) Gerber, *Ottoman Rule..*, pp.206-215.

(76) Gerber, *Ottoman Rule..*, pp.237-239.

(77) 12 novembre 1897, MAE, Turquie, Palestine, II, 129 et suivantes.

(78) 26 mars 1894, MAE, Turquie, Beyrouth, XXXVIII, Consul de France à Beyrouth à M. le Ministre des Affaires étrangères.

(79) 15 juillet 1897, MAE, Turquie, Palestine, II, 12.

(80) 10 mars 1892, MAE, Turquie, Jérusalem, XXIV, Consul de France au Ministre.

(81) Sur l'ensemble de ces questions, l'ouvrage très précieux de Joseph Hajjar, *Le Vatican, la France et le catholicisme oriental (1878-1914)*, Paris, Édition Beauchesne, 1979.

(82) 8 septembre 1898, MAE, Turquie, Palestine, 131.7.

(83) 2 avril 1897, MAE, Nantes, Constantinople, Ambassade, Correspondance avec les Echelles, Jérusalem, 1895-1900.

(84) 24 juillet 1898 MAE, Nouvelle série, Syrie-Liban, CVI.Consul de France à Beyrouth à M. le Ministre des Affaires étrangères 88 et suivantes.

(85) 10 octobre 1899, MAE, Turquie, Palestine, 131.62 et suivant. Consul général Auzépy à Paris.

(86) 27 mai 1901,MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CVIII, 46, Consulat de France à Alep à M. le Ministre des Affaires étrangères .

(87) 27 janvier 1905, MAE, Nantes, Constantinople, Ambassade, Correspondance avec les Échelles, Jérusalem, 1905-1911: *levée de 1700 redifs en Palestine à la suite de la révolte des wahhabites en Arabie.*

(88) 20 juillet 1905, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CIX, 240 et suivant, Consul de France à Damas à Rouvier.

(89) 31 juillet 1905, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CIX, 244.Le Consul général de France en Syrie à Son Excellence M. Rouvier, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères à Paris. *Du Mouvement national arabe.*

(90) août 1905, *L'Asie française,* Le mouvement arabe.

(٩١) عزة دروزة، **مذكرات**، المجلد الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣، ص ص ١٧٧ــ١٧٨. وتعد كتابات عزة دروزة التاريخية مصدرًا لا يقدر بثمن غنيًا بالمعلومات. وعلاوة على **المذكرات**، يمكن الرجوع إلى عمليه السابقين، الأقل تفصيلاً والأكثر تميزًا بـ"اللغة الجامدة للدعاية السياسية"، **نشأة الحركة العربية**، دمشق، ١٩٤٩ (أعيد نشره جزئيًا في مختارات عزة دروزة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨، ص ص ٣٢٧ــ٥٣٣) **وحول الحركة العربية الحديثة**، ٥ مجلدات، صيدا، ١٩٥٠ــ١٩٦١. وقد كتب هذان النصان بشكل أساسي أثناء وجود عزة دروزة في المنفى في تركيا خلال الحرب العالمية الثانية. انظر كذلك عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، صيدا، ١٩٥١ (أعيد نشره عدة مرات دون إشارة إلى مكان أو تاريخ النشر).

(92) L'étude la plus complète sur la crise de 1906 et ses conséquences est celle de Rashid Khalidi, *British Policy towards Syria and Palestine 1906-1914*, Londres, Ithaca Press, 1980. Dossier très complet dans MAE, Nantes, Le Caire, 131. Voir aussi *l'Asie française* de 1906.

(93) Lettre de Paul Cambon (alors ambassadeur à Londres) à son fils, le 14 mai 1906, *Paul Cambon, Correspondance,* Paris, 1940, T.II, pp. 216-217.

(94) A son fils le 27 mai 1906, *Ibid.*p.217.

(95) 31 décembre 1906, MAE, Nouvelle série Égypte, X, 91, Consul général à Paris, Klobukowsky, *entretien avec Cromer.*

(96) *Op. Cit.*

(٩٧) المكلف بهذه الاستطلاعات هو هانكي، الذي سوف يصبح فيما بعد سكرتير لجنة الدفاع عن الإمبراطورية ثم سكرتيرًا لأجهزة قيادية مختلفة. انظر:

Stephen Roskill, *Hankey, Man of Secrets, Vol. 1, 1877-1918*, Londres Collins, 1970, p. 82

الفصل الخامس

هرتسل ونشأة الصهيونية السياسية

(1) Cité par Nelly Wilson, *Antisemitism and the problem of Jewish identity in late nineteenth-century France, Bernard-Lazare*, Cambridge University Press, 1978, pp. 220-221.

(2) Remarquable biographie marquant toutes les évolutions psychologique du personnage dans Ernst Pawel, *Théodor Herzl ou le labyrinthe de l'exil*, Paris, Seuil, 1992. Elle a servi de fil conducteur pour la rédaction de ce chapitre.

(3) Pawel, *Op. Cit.*, p.76.

(٤) تحظى هذه الأطروحات بتأييد رجال كمورًا الذي يحيي عمل نوردو: "بلى، كلهم "منحطون": من البارناسيين والرمزيين، المنحطين والأنانيين، المتصوفة قبل الرافائيليين والمتصوفة التولستويين، والإبسنيين والمولعين بڤاجنر، إلى أولئك المتحمسين للعلوم الطبيعية والذين يتصورون أن كلمات "الصحة" و"العلم" و"الطبيعة" تتميز في حد ذاتها بقيمة وأنه يكفي تسجيلها على الورق الأبيض أو طبعها على مطبعة دوّارة لكي تنبثق منها فضائل عجيبة! إن هؤلاء الناس كلهم هم بالفعل أناس كلاميون ومنحطون. ومصيرهم الهلاك. بل إنهم أموات بالفعل". نقلاً عن:

Victor Nguyen, *Aux origines...*, p.570.

(5) Raphael Patai et Harry Zohn, *The Complete Diaries of Theodor Herzl*, Herzl Press and Yhomas Yoseloff, Londres-New-York, 1960, I, pp.5-6.

(6) Henry J. Cohn, "Theodor Herzl's Conversion to Zionism", *Jewish Social Studies*, XXXII n°2 (avril 1970), pp.101-110. Yoram Mayorek, « Herzl and the Dreyfus Affair », *The Journal of Israeli History*, vol. 15 n°1 (1994), pp.83-90.

(7) *The Complete Diaries*, I, pp.14-30.

(8) Sur l'hommage d'Hitler envers Lueger, voir Maria Steinert, *Hitler*, Paris, Fayard, 1991, pp.42-43.

(9) Interview de M. le Grand Rabbin de France, Zadoc Kahn, *L'Univers israélite*, 53e année, n°1, 24 septembre 1897, pp.9-13.

(10) Maurice Wohlgelernter, *Israel Zangwill*, Columbia University Press, 1964.

(11) Joseph Fraenkel, « Colonel Albert E. W. Golsmid and Theodor Herzl », *Herzl Year Book*, volume I, Herzl Press, New-York, 1958, pp. 145-153.

(12) *The Complete Diaries*, I, p.282.

(13) Il en existe plusieurs éditions en français, dont la dernière, celle de Claude Klein (Éditions La Découverte, 1990) présente une meilleure traduction ainsi qu'une précieuse annotation et un remarquable commentaire.

(14) En anglais dans le texte.

(15) En anglais dans le texte.

(16) *Op. Cit.*, p.47.

(17) *Op. Cit.*, p.44.

(18) Dans son interview déjà cité de septembre 1897.

(19) David Vital, *The Origins...*, p.276.

(20) *The Complete Diaries*, I, p.352.

(21) *The Complete Diaries*, I, p.310.

(22) Claude Duvernoy, *The Prince and the Prophet*, Christian Action for Israel, Jérusalem, 1979, pp.22-23.

(23) N.M. Gelber, « Philipp Michael de Newlinsky, Herzl's Diplomatic Agent », *Herzl Year Book*, volume II, Herzl Press, New-York, 1959, pp. 113-152.

(24) *The Complete Diaries*, I, pp.345-346.

(25) *The Complete Diaries*, I, pp.362-363.

(26) Sur cette question voir la synthèse Mim Kemal Öke, « The Ottoman Empire, Zionism and the Question of Palestine », *International Journal of Middle East Studies*, 14 (1982), pp. 329-341.

(27) Pawel, *Op. Cit.*, pp.278-279; *The Complete Diaries*, I, pp. 378-379.

(28) Silâhi R. Sonyel, *Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire*, Turkish Historical Society Printing House, Ankara, 1993, p.313.

(29) En français dans le texte, *The Complete Diaries*, I, p.430.

(30) Pawel, *Op. Cit.*, pp.287-288; *The Complete Diaries*, I, pp421-422.

(31) Stephan Zweig, *Le monde d'hier, souvenirs d'un Européen*, Paris, Bellfond, 1993, p.138.

(32) *The Complete Diaries*, II, p.519.

(33) Julien Weill, *Zadoc..*, p. 189.

(34) 4 avril 1897, MAE, Nouvelle série, Égypte, VII, 21, Consul général de France en Hongrie, *visite de Mustafa Kamil effendi qui a réussi à faire publier un mémorandum dans la presse*. 30 mai 1897, MAE, Nouvelle série Égypte, 1, 16..,Cogordan à Paris; plusieurs dépêches sur ce thème. Le journal du parti colonial français *l'Afrique française* suit aussi les activités du nationaliste égyptien en Europe.

(35) *The Complete Diaries*, II, p.527.

(36) Sur les projets britanniques et leur échec, voir Stuart J. Cohen, *British Policy in Mesopotamia, 1903-1914*, Londres, Ithaca Press, 1976.

(37) *The Complete Diaries*, II, p.537 et p.555.

(38) Yohanan Manor, *Naissance du sionisme politique*, Archives, Paris, 1981, p.112.

(39) *L'Univers israélite*, 52e année, n°51, 10 septembre 1897, p.776.

(40) *L'Univers israélite*, 52e année, n°50, 3 septembre 1897, p.747-748.

(41) *The Complete Diaries*, II, pp.593-594.

(42) En français dans le texte.

(43) Théodore Herzl, *Journal 1895-1904, le fondateur du sionisme parle*, morceaux choisis et présentés par Roger Errera, Calman-Lévy, 1990, p. 155.

(44) Ben Halpern, *The idea of the Jewish State*, Havard University Press, 1969, p.144.

(45) David Vital, *Zionism, the Formative Years*, Clarendon Press, Oxford, 1988, pp.21-22.

(46) *L'Univers israélite*, 53e année, n°1, 24 septembre 1897.

(47) Julien Weill, *Zadoc...*, p.193.

(48) *L'Univers israélite*, 53e année, n°50, 2 septembre 1898, p.767-769., n°51, 9 septembre 1898, p.794-797, d'après le *Temps*.

(49) *The Complete Diaries*, II, pp.667-668.

(50) *The Complete Diaries*, II, p.671.

(51) *The Complete Diaries*, II, pp.672-673.

(52) *The Complete Diaries*, II, pp.691-693..

(53) *The Complete Diaries*, II, pp.730-732.

(54) Isaiah Friedman, *Germany, Turkey and Zionism, 1897-1918*, Oxford, Clarendon Press, 1977, pp.74-78.

(55) Pawel, *Op. Cit.*, pp.363-64.

(56) Claude Duvernoy, *The Prince..*, p.69.

(57) Cité par Nelly Wilson, *Antisemitism and..*, p.245.

(58) *L'Echo sioniste*, 1ere année n°1, 5 septembre 1899. Compte-rendu analytique des débats dans le numéro suivant.

(59) *Archives israélites*, 60, n°34, 24 août 1899, pp.273-274 et n°35, pp.280-281. Citation d'un «sioniste de la vieille école»p.280.

(60) Bernard Lewis, *Islam et laïcité*, Paris, Fayard, 1988, pp.305-306.

(61) "Le congrès sioniste", *L'Univers israélite*, 55 n°49 pp.721-723, n°50, pp.757-759, n°51 pp.790-792; n° 52, pp. 820-822.

(62) Z. Szajkowski, «Jewish Emigration Policy in the Period of the Rumanian "Exodus" 1899-1903», *Jewish Social Studies*, XIII, 1951, pp.47-70.

(63) *The Letters and Papers of Chaim Weizmann*, Series B, Papers, I, pp.3-4, Israel Universities Press, Jerusalem, 1983. L'intervention de Weizmann est notée par le correspondant de *L'Univers israélite*.

(64) *The Complete Diaries*, III, p.976.

(65) *John L. Stoddard's Lecture, Constantinople, Jerusalem, Egypt*, Boston, 1898, pp.220-221.

النص الكامل: "في مكان مشحون إلى هذا الحدّ بالذكريات الكلاسيكية والدينية كفلسطين، فإن من الوارد، حتى بالنسبة لإنسان لا يسري في عروقه دم عبري، أن يخامره حلم يتعلق بمستقبل هذا الشعب غير العادي. فلتفترضوا حلاً لـ"المسألة الشرقية". ولتفترضوا اجتماع أمم الأرض في مجلس، مثلما اجتمعت في برلين قبل سنوات قليلة. ولتفترضوا اختزال حجم ملكوت السلطان المحكوم البائس. ولتتخيلوا حكم بعض أجزائه من جانب مختلف الدول العظمى الأوروبية، مثلما تُحكَمُ مصر الآن من جانب انجلترا. ولتتصوروا أن تلك الأمم المسيحية، مدفوعةً بحسٍّ المروءة، يجب أن تقول لهذا الجنس الذي قامت، او قام أسلافها، باضطهاده لزمن طويل: "خذوا وطن أجدادكم من جديد. ونحن نضمن لكم استقلاله ووحدة أراضيه. وهو أقل ما يمكننا فعله لأجلكم بعد قرون البؤس هذه كلها. ولستم كلكم تريدون الذهاب إليه، لكن كثيرين منكم سيودون ذلك. وفلسطين لا تعيل الآن سوى ستمائة ألف نسمة، إلاّ أن بوسعها بسهولة، عبر الزراعة المناسبة، أن تعيل مليونين ونصف مليون إنسان. إنكم شعب بلا وطن، وهناك وطن بلا شعب. فلتتحدوا. ولتحققوا أحلام شعرائكم وأنبيائكم القدامى. عودوا. عودوا إلى أرض أبراهام".

(66) Adam Garfinkle, "On the Origin, Meaning, Use and Abuse of a Phrase", *Middle Eastern Studies*, Vol. 27, n°4, octobre 1991, pp. 539-550.

(٦٧) هذا هو ما يستفاد من نص متأخر يرجع إلى عام ١٩١٩ تحيةً لماكس نوردو: "إن فاعل الخير الإنساني الشهير، اللورد شافتسبري، وليس هو، السيد زانجويل، هو أول من

قال: 'فتلعطوا الوطن الذي بلا شعب للشعب الذي بلا وطن'. ويحدثوننا الآن عن ستمائة ألف نسمة من الجنس العربي أساسًا. فهل يكذّبُ ذلك قول اللورد شافتسبري؟ إن السكان ليسوا شعبًا.

(MAE) Levant Palestine 1918-1929 XVII, *Le Peuple Juif* revue hebdomadaire de la Fédération Sioniste de France, le 3 octobre 1919.

(٦٨) يورد Avram Galante في كتابه:

Histoire des Juifs de Turquie (T. IX, réédition Isis 1985, pp. 175-188)

وفقًا لمصادر حاخامية القسطنطينية، مضمون حديث بين هرتسل وعبد الحميد بتاريخ يونيو/ حزيران ١٩٠٢، إلاّ أنه يبدو من السياق أننا بإزاء اللقاء الأول بين الرجلين.

(٦٩) في الصيغة التي أوردها جالانت (ص ص ١٨٠ــ١٨١)، قال هرتسل: "إنني لا أطالب بالحكم الذاتي الداخلي لفلسطين، مثلما هي الحال مع مصر. ولا بتغيير للعَلَم، مثلما هي الحال مع جزيرة ساموس، إنني أطالب بمنح فلسطين نظامًا مماثلاً لنظام جزيرة كريت". وكانت كريت تتمتع بعدد من الامتيازات، بينها مساواة بين اللغتين التركية واليونانية وتمثيل مناسب للأتراك ولليونانيين في الإدارة. والحال أن الإشارة إلى كريت، الجزيرة التي تعد مصدر أزمات لا تنتهي، لم يكن فيها ما يستميل السلطان. وقد أعرب هذا الأخير عن سخطه للحاخامية الكبرى بعد رحيل هرتسل.

(70) *The Complete Diaries*, III, pp.1109-1136.

(71) Pawel, *Op. Cit.*, pp.425-429.

(72) Jehuda Reinharz, *Chaim Weizmann, The Making of a Zionist Leader*, Oxford University Press, 1985, pp.101-103.

(73) *The Complete Diaries*, III, p.1256 et p. 1267.

(74) *Revue de l'Orient Chrétien*, 1902, *Le sionisme et la Turquie*, note de Lammens sur le congrès sioniste de Bâle du 26 décembre 1901, pp. 334-335

(75) Cité par Nelly Wilson, *Antisemitism and..*, p.246.

(76) *The Complete Diaries*, IV, pp.1290-1310.

(77) Silâhi R. Sonyel, *Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire*, Turkish Historical Society Printing House, Ankara, 1993, p.315.

(78) Raphael Patai, Herzl' Sinaï Project, Herzl Year Book, volume I, Herzl Press, New-York, 1958, pp. 106-144.

(79) *The Complete Diaries*, IV, pp.1361-1371. Pour les documents britanniques qui indiquent une version des événements parfois différente de celle du *Journal*, voir Oscar K. Rabinowicz, «Herzl and England», *Jewish Social Studies*, XIII, 1951, pp.25-46 et PRO FO 78/5479.

(80) *The Complete Diaries*, IV, p.1382.

(81) Silâhi R. Sonyel, *Minorities and* ... pp.316-317.

(82) *The Complete Diaries*, IV, pp.1446-47.

(83) PRO FO 78/5479/499

(84) Shlomo Lambroza, «The pogroms of 1903-1904», in in John D. Klier et Shlomo Lambroza (ed.), *Pogroms:* , pp.191-247.

(85) Norman Cohn, *Histoire d'un mythe, la «conspiration» juive et les protocoles des sages de Sion*, Folio Histoire, Paris, 1992 (réédition de l'édition Gallimard de 1967), un classique. Voir aussi, le livre de Pierre-André Taguieff, *Les Protocoles des Sages de Sion*, Paris, Berg, 1992, moins intéressant dans la mesure où il confond l'analyse historique avec celle du discours.

(86) Keneth Young, *Arthur James Balfour*, Londres, G. Bell and Sons, Ltd, 1963, p. 257.

(87) Oskar B. Rabinowicz, «The Aliens Bill and Jewish Immigration to Britain, 1902-1905», in Walid Khalidi (Ed.), *From Haven to Conquest, Readings in Zionism and the Palestinian Problem Until 1948*, Washington, The Institute for Palestine Studies, 1987, pp.97-114.

(88) Pawel, *Op. Cit.*, p.466.

(89) *The Complete Diaries*, IV, pp.1519-1545;

خاصة رسالة هرتسل إلى اللورد روتشايلد والتي يطلب إليه فيها التحرك من أجل أن توقف الصحافة الموالية لليهود هجماتها على روسيا (ص ١٥٣٨).

(90) Zosa Szajkowski, «Paul Nathan, Lucien Wolf, Jacob H. Schiff and the Jewish Revolutionnary Movements in Eastern Europe (1903-1917)», *Jewish Social Studies*, vol. XXIX, 1967, pp. 3-26 et pp. 75-91.

(91) Compte-rendu complet des débats dans un numéro spécial de l'*Écho sioniste* de 1903 consacré exclusivement au congrès.

(92) Jehuda Reinharz, *Chaim Weizmann, The Making of a Zionist Leader*.., pp.169-170.

(93) Texte dans *L'Univers Israélite*, vol.59, 1903, n°4, pp.104-106.

(94) *The Complete Diaries*, IV, pp.1550-54, pp.1568-70, pp.1573-74., pp.1584-85, pp.1587-88.

(95) *The Complete Diaries*, IV, pp.1602-1603..

(96) Stephan Zweig, *Le monde d'hier*,..., pp.142-143.

الفصل السادس
نشـــأة المسألة العربيـــة

(1) Ben Gourion, *Du rêve à la réalité*, Stock, Paris, 1986, pp.60-65.

(٢) ينشر الكواكبي هذه المجموعة من النصوص تحت عنوان أم القرى. وفي الطبعة التي صدرت مؤخرًا لأعمال الكواكبي الكاملة والتي أعدها محمد عمارة (القاهرة، ١٩٧٥)، نجد تعليقات إضافية من جانب الكواكبي. وهكذا، ص ٣٥٧، في بيان فضائل العرب، تحيل ملاحظة الكاتب إلى المسلك الأحدث للعرب الذين، على سبيل المثال، لم يشاركوا في مذابح الأرمن. وهو يشير إلى هجرة اليهود إلى البلدان العربية، والتي تشكل برهانًا على السمو الأخلاقي لهذه البلدان (الملاحظة ٧١٤).

(٣) يبين الزعيم القومي المصري محمد فريد، في إعداده لمؤتمر بروكسل الذي عقد في سبتمبر/ أيلول ١٩١٠، أن المؤتمرات "أحسن واسطة للتفاهم والمناقشة، وما الحج إلى بيت الله الحرام إلاّ مؤتمر إسلامي دوري [...]، ولقد أوجد الإسرائيليون شيئًا من هذا القبيل بتأسيسهم الجمعية الصهيونية [...]، لكننا أهملنا كل شيء من أمور ديننا، حتى الأمور الاجتماعية، ولو استعمل الحج لما وُضع له، لما وصل التفرق بالمسلمين إلى هذه

الدرجة". النص في عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥، ص ٢١٧ (الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤١).

(4) Pawel, *Op. Cit.*, p.336.

(5) Yosef Gorny, *Zionism and the Arabs, 1882-1948*, Clarendon Press, Oxford, 1987, pp.30-33.

(6) Pawel, *Op. Cit.*, p.445.

(7) Jehuda Reinharz, *Chaim Weizmann, The Making of a Zionist Leader..*, pp.139-144.

(8) 30 juin 1904, MAE, Turquie, Palestine, 131. 189 Consul général à Paris.

(9) Minczeles, *Histoire générale du Bund, un mouvement révolutionnaire juif*, p.76.

(10) *Ibid*, pp. 146-148.

(11) Discours de 1904 à New-York repris dans « le problème arabe » in Israel Zangwill, *La voix de Jérusalem*, Paris, 1926, pp.200-201.

(12) Anita Shapira, *Land and Power...*, p.46.

(13) Joseph Klausner, *Menahem Ussishkin..*,pp.47-48.

(14) David Vital, *Zionism, the Formatives Years..*, pp.405-407; Yosef Gorny, *Zionism..*, pp.35-37.

(15) *L'Univers Israélite*, Vol. 60, 1905, pp. 625-627. Voir aussi Archives israélites 10 août 1905.

(16) Anita Shapira, *Land and Power...*, pp.46-48.

(17) Chaïm Weizmann *Letters..*, IV p. 216 et p. 219.

(18) Robert G. Weisbord, «Israel Zangwill's Jewish Territorial Organization and the East African Zion», *Jewish Social Studies*, vol. XXX, 1968, pp. 89-108.

(19) *L'Univers israélite*, Vol. 62, 1907, pp. 718-724. et 755-758: discours de Zangwill lors d'une assemblée générale à Londres.

(20) Discours de 1910 repris dans *Les Voix d'Israël* Paris, 1926, pp.201-202.

(21) Maurice Wohlgelernter, *Israel Zangwill*, Columbia University Press, 1964, pp. 158-174 et discours de 1907.

(22) Jaoa Medina and Joel Barromi, « The Jewish Colonization Project in Angola », *Studies in Zionism*, Vol. 12, n°1 (1991), pp.1-16.

(23) David Vital, *Zionism, the Formatives Years..*, pp.467-475.

(24) Isaiah Friedman, «The Austro-Hungarian Government and Zionism: 1897-1918», *Jewish Social Studies*, XXVII (1965), pp. 147-167 et pp. 236-249.

(25) Exposé de la doctrine dans Alain Dieckhoff, *L'invention d'une nation, Israël et la modernité politique*. Paris, Gallimard, 1993, pp.90-104.

(26) David Vital, *Zionism, the Formatives Years..*, pp.385-390.

(27) David Vital, *Zionism the Crucial phase*, Clarendon Press, Oxford, 1987, p.19.

(28) 12 juillet 1903, AIU, Israël, V, E, 14, Antébi au Président.

(29) 14 septembre 1903, AIU, Israël, VI, E, 14, Antébi au Président.

(30) 13 janvier 1904, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CIX, 127,Note pour le Ministre au sujet de la protection de certaines oeuvres israélites en Orient; Approuvée par Delcassé, contacts pris avec Leven et Big.

(31) *L'Univers israélite*, 62e année, n°49, 23 août 1907, pp. 716-718.

(32) Discours de Weizmann in *The Letters and Papers of Chaim Weizmann*, volume I, series B, *Papers*, Israel Universities Press, 1983, pp.65-71.

(33) Yosef Gorny, *Zionism and the Arabs..*, pp.41-66.

(34) Weizmann, *Papers*, I, pp. 71-73.

(35) Ben Gourion, *Du rêve à la réalité*, Paris, Stock, 1986, p.24.

(36) Michel Bar-Zohar, *Ben Gourion*, Paris, Fayard, 1986, p.40.

(37) Shabtai Teveth, *Ben Gurion and the Palestinian Arabs from Peace to War*, Oxford University Press, 1985, pp.10-13.

(38) Gershon Shafir, *Land, labor and the origins of the Israeli-Palestinian Conflict*, 1882-1914, Cambridge University Press, 1989, pp.59-90. Voir aussi le riche article

de Jean-Marie Delmaire, « Travail Juif, travail arabe durant la première vague d'immigration », *Cahiers de la Méditerranée* 29/30, décembre 1984, juin 1985, pp. 49-76.

(39) *Arab Bulletin*, II, 1917, pp. 388-392.

وهي لسان حال الاستخبارات البريطانية خلال الحرب.

(40) Voir les listes de métiers exercés par les immigrants juifs à Jaffa et Jérusalem dressées par le Consul de France en 1908 dans le grand rapport sur l'économie de la Palestine déjà cité, MAE, Nantes, Jérusalem, B, carton 40.

(41) Anatole Leroy-Beaulieu, L'Empire des Tsars et les Russes, texte de la quatrième édition de 1897-1898 repris dans la précieuse réédition Bouquins Robert Laffont, Paris, 1990.

ملاحظات عديدة حول الشبيبة الروسية خاصة فيما يتعلق بـ"المزاج الثوري". وحول النساء، انظر ص ١٥٥: "المرأة الروسية، التي تشعر أنها ند للرجل، بحكم ذكائها وشخصيتها، مدفوعةٌ إلى المطالبة بهذه المساواة، بما تنطوي عليه من مزايا ومثالب: المساواة في التعليم وفي العمل، المساواة في الحقوق، المساواة في الواجبات. وقد رأينا، وأحياناً ما يكون ذلك في الأسر الميسورة، أن البنات أو النساء المتزوجات يستثمرن اعتدادهن بأنفسهن في توفير ما يكفيهن بأنفسهن، ويتطلعن إلى كسب عيشهن دون اعتماد على أزواجهن أو على آبائهن. وقد سارعت النساء والبنات بالأخص إلى اقتحام جميع الأعمال المتاحة لجنسهن، وذلك دون أن يعزفن عن المطالبة له بمنافذ جديدة في التوّ والحال. والحال أن اشتهاء التعليم، واشتهاء العلم نفسه، كان أحد ثمار هذا الميل إلى الاستقلال الأدبي والمادي. وقد تدافعت البنات إلى الالتحاق بالمدارس وبالثانويات وبالجامعات. واقتحم بعضهن مجال دراسة اللغات الكلاسيكية، واتجه عدد أكبر منهن إلى دراسة العلوم الطبيعية وإلى الطب. [حاشية: تحت تأثير أسباب اقتصادية أو أدبية مماثلة، نجد أن هذه الحاجة نفسها إلى الاستقلال، وهذا السعي إلى الاعتماد على الذات قد ظهرا لدى البنات من أصل يهودي. وبين الطالبات المسجلات في عام ١٨٧٨ لدراسة الطب، نجد أن البنات اليهوديات يشكلن نسبة ٣٢%. والحال أن هذه النسبة التي لا تكف عن الارتفاع قد بلغت نحو ٣٤% في عام ١٨٧٩، أي ما يزيد على ثلث الإجمالي. وتفسير

هذه النسبة هو أن المهنة الطبية، وذلك بفضل الموانع القانونية أو بسبب العادات، تكاد تكون المهنة الوحيدة المتاحة لليهوديات]".

(٤٢) بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٦، يهاجر ٤٠٠٠٠٠ يهودي من روسيا إلى الولايات المتحدة،

Histoire du sionisme, Paris, Calmann-Lévy, 1973, p.76.

(43) 27 octobre 1904, MAE, Turquie, Palestine, 131. 197, Wiet Gérant du Consulat à Paris.

(44) Neville J. Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I*, University of California Press, 1976, pp. 23-26. C'est l'ouvrage de référence pour ce qui concerne l'attitude ottomane.

(٤٥) تلك، مثلاً، حالة مجلتي لازي فرانسيز وريفي دي موند ميزيلما.

(46) Ces deux versions sont données dans la *Revue du Monde Musulman*, juillet 1908, pp. 514-520.

(47) C'est celle que donnent Jacques Derogy et Hessi Carmel, dans *Le siècle d'Israël*, Paris, Fayard, 1994, pp. 148-149.

(48) David Farhi, *Ottoman Attitude towards Jewish Settlement in Palestine after the Revolution of the Young Turks, 1908-1909*, in Moshe Ma'oz ed., *Studies on Palestine* ..., pp. 190-210.

(49) Anita Shapira, *Land and Power...*, pp.49-50.

(50) 24 août 1908, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXI, 114, Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Pichon, Ministre des Affaires étrangères. 31 août 1908, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXI, 123, Le vice-consul de France à Jaffa à Son Excellence M. le Ministre des Affaires étrangères. 4 septembre 1908, MAE, Nouvelle Série, Turquie, Syrie-Liban, CXI, 128, Le vice-consul de France à Jaffa à Son Excellence M. le Ministre des Affaires étrangères.

(٥١) خليل السكاكيني، كذا انا يا دنيا، بلا مكان، ١٩٨٢، ص٤٣.

22 septembre 1908. MAE, Nantes, Constantinople, Ambassade, Correspondance avec les Echelles, Jérusalem, 1905-1911. *Activité du comité Jeune-Turque ou société Watanié de Jérusalem.*

(٥٢) عزة دروزة، مذكرات، المجلد الأول، ص ص ١٧٩ــ١٨٥: وصف لمجمل الثورة في فلسطين. وفي الصفحات التالية، حديث عن التنافسات الانتخابية.

(53) Neville J. Mandel, *The Arabs and Zionism..*, p.64.

(54) 21 août 1908, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXI, 108, Le Consul général de France à Beyrouth à Son Excellence M. Constans, Ambassadeur de France à Constantinople. Réactions au changement de régime. Neville J. Mandel, *The Arabs and Zionism..*, p. 66.

(55) 16 octobre 1908, MAE, Nantes, Jérusalem B, 55, M. Coulomb, Vice-Consul de France à Jaffa, à M. Gueyraud, Consul général de France à Jérusalem , *Boycottage du vapeur « Euterpe », manifestations anti-autrichiennes.*

(56) Voir l'intéressante étude contemporaine des faits de René Pinon, « Une forme nouvelle des luttes internationales, le boycottage » in *L'Europe et la Jeune-Turquie*, Paris, 1911, pp.250-294.

(57) 19 novembre 1908, MAE, Nouvelle Série, Turquie, Syrie-Liban, CXI, 238,Le vice-consul de France à Jaffa à Son Excellence M. le Ministre des Affaires étrangères: Boycottage des marchandises autrichiennes transportées par navires allemands par les portefaix; faiblesse des autorités devant la violence des mariniers.

(58) 21 novembre 1908, MAE, Nouvelle Série, Turquie, Syrie-Liban, CXI, 240,Le vice-consul de France à Jaffa à Son Excellence M. le Ministre des Affaires étrangères.

(59) 8 octobre 1908,MAE, Turquie, Palestine, 132, 65 et suivantes, Consul général de France à Jérusalem à M. Le Ministre des Affaires étrangères, *sur les candidats aux élections ottomanes.*

(60) Neville J. Mandel, *The Arabs and Zionism..*, p.67; 30 décembre 1908, Nouvelle série, Turquie, politique intérieure, VI. 41, *Résultat des élections ottomanes.*

(٦١) **وليد الخالدي، كتاب السيونيزم أو المسألة الصهيونية لمحمد روحي الخالدي المتوفيّ سنة ١٩١٣، في:**

Studia Palestina, Studies in honour of Constantin K. Zurayk, Beyrouth, Institut d'études palestiniennes, 1988. pp. 37-81.

(62) 5 octobre 1908 MAE, Nantes, Constantinople, Ambassade, Correspondance avec les Echelles, Jérusalem, 1905-1911.

(63) 12 octobre 1908 MAE, Nantes, Constantinople, Ambassade, Correspondance avec ls Echelles, Jérusalem, 1905-1911 Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Constans Ambassadeur de la République à Constantinople.

(64) 19 octobre 1908, MAE, Turquie, Palestine, 132. 68: Consul général de France à Jérusalem à M. Le Ministre des Affaires étrangères.

(65) 21 novembre 1908, MAE, Turquie, Palestine, 132. 79 et suivantes (en particulier 97-98 réponse de Beyrouth), Chevandier de Valdrome, chargé d'affaires de France en Égypte à M. Pichon, Ministre des Affaires étrangères.

(٦٦) انظر يوميات خليل السكاكيني في شهر أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٠٨، اقتباس ورد بكتاب **كذا أنا يا دنيا**، ص ٤١.

(٦٧) ٢٣ مارس/ آذار ١٩٠٩،

MAE, Nouvelle série, Turquie Palestine, CXXXII, 116-118.

من قنصل فرنسا العام في القدس إلى صاحب المعالي السيد بيشون، وزير الشئون الخارجية في باريس: "لا يخفي الهيللينيون رغباتهم في الانتقام، أمَّا العرب، وقد أفقدهم نجاحهم صوابهم، فلن يكونوا إلاَّ أكثر تطلُّبًا في مطالبهم، وذلك بعد الهدنة التي تم عقدها بشكل ضمني إلى حين انقضاء الموسم السياحي، الذي يعد استغلاله الصناعة الوحيدة في البلد.

(68) Derek Hopwood, « « The Resurrection of Our Eastern Brethren » (Ignatiev) Russia and Orthodoxe Arab Nationalism in Jerusalem », in Moshe Ma'oz ed., *Studies on Palestine...*, pp.394-407.

(69) Yehoshua Porath, « The Political Awakening of the Palestinians Arabs and their Leadership Towards the End of the Ottoman Period », in Moshe Ma'oz ed., *Studies on Palestine ...*, pp. 351-381.

(70) 20 janvier 1909. MAE,Nantes, Constantinople, Correspondance avec Jérusalem,MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXII, 17 et suivantes. Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Pichon Ministre des Affaires étrangères.

(٧١) في ذلك العهد، توجد بالفعل منظمة عربية في القسطنطينية، هي "المنتدى العربي"، بيد أنها ذات اتجاه ليبرالي. وقد يتعلق الأمر هنا بجمعية الاتحاد الإسلامي، وهي منظمة معادية لجمعية الاتحاد والترقي تُطَوِّرُ نزعة شعبوية إسلامية كفاحية، انظر:

Paul Dumont et François Georgeon, « La Mort d'un Empire » p.582 in Robert Mantran ed., *Histoire de l'Empire ottoman*, Paris, Fayard, 1989, pp. 577-647.

(72) 23 mars 1909, MAE, Nouvelle série, Turquie Palestine, CXXXII, 116-118.Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Pichon, Ministre des Affaires étrangères à Paris.

(73) 12 mai 1909, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 55, Le vice-consul de France à Jaffa à M. Gueyraud, Consul général de France à Jérusalem.

(74) 14 mai 1909, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 55, Le vice-consul de France à Jaffa à M. Gueyraud, Consul général de France à Jérusalem.

(75) Ben Gourion, *Du rêve à la réalité..*, pp. 29-30.

(76) Anita Shapira, *Land and Power...*, pp. 70-71.

(77) Neville J. Mandel, *The Arabs and Zionism..*, pp. 66-70. Sur Nassar, voir Qustandi Shomali, « Nagib Nassar, l'intransigeant », *Revue d'études palestiniennes*, nouvelle série, n°2 (hiver 1995), pp. 80-90.

حول هذه الأحداث، عزة دروزة، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ١٩٨.

(78) Gershon Shafir, *Land, labor and the origins of the Israeli-Palestinian Conflict*, 1882-1914, Cambridge University Press, 1989, pp.137-143.

(79) Voir par exemple les premières pages du livre de Ze'ev Schiff, *A History of the Israeli Army*, 1874 to the Present, Sidgwick & Jackson, Londres, 1987.

(80) Anita Shapira, *Land and Power...*, pp.75-78.

(81) 28 juillet 1909, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 55. Le Vice-Consul de France à Jaffa à M. Gueyraud, Consul général de France à Jérusalem, *Meurtre d'un prêtre arménien.*

(82) 12 juin 1909, MAE, Nouvelle série, Turquie Palestine , CXXXII, 151-152. Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Le Ministre des Affaires étrangères à Paris.

الفصـــل السابع
نشأة الرهـــان الفلسطيني

(1) MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXXI, 24-26.

(2) Yehoshua Porath, « The Political Awakening.., pp.371-372; Neville J. Mandel, *The Arabs..*, pp.61-62.

(3) David Farhi, *Ottoman Attitude..*, pp. 197-210. Neville J. Mandel, *The Arabs..*, pp.71-75.

(4) Norman A. Stillman, *The Jews of Arab Lands...*, pp.65-67.

(5) David Vital, *Zionism the Crucial phase..*, pp. 25-26.

(6) Esther Benbasa, *Une diaspora séfarade en transition, Istanbul XIX-XX e siècle*, Paris, Cerf, 1993, pp.86-91. Ouvrage de base sur le judaïsme ottoman à l'époque des Jeunes-Turcs.

(7) David Vital, *Zionism the Crucial phase..*, p.55.

(8) Ben Halpern, *The idea of the Jewish State*, Havard University Press, 1969, pp.265-266. David Vital, *Zionism the Crucial phase..*, pp.26-32. Voir aussi *Le Siècle* du 17 décembre 1909, repris dans *L'Univers Israélite* du 14 janvier 1910 pp. 551-554: Entretien avec Wolffsohn.

(9) Shabtai Teveth, *Ben Gurion and the Palestinian..*, pp.22-23.

(10) Sur les inquiétudes britanniques concernant le sort de la Mésopotamie, Stuart A. Cohen, *British Policy in Mesopotamia 1903-1914*, Ithaca Press, Londres, 1976.

(11) Stuart J. Cohen, « Israel Zangwill's Project for Jewish Colonization in Mesopotamia: Its Context and Character », *Middle Eastern Studies*, 16 (1980), pp. 200-208.

(12) Sur la réalité des rapports entre les Jeunes-Turcs, les Juifs et les Franc-Maçons, voir Bernard Lewis, *Islam et Laïcité, La naissance de la Turquie moderne*, Paris, Fayard, 1988, pp.457-458. Du même *Sémites et Antisémites*, Paris, Fayard, 1987, pp.173-174.

(13) Jacob Landau, « The « Young Turks » and Zionism: somme comments », in Jews, Arabs, Turks, sélecte Essays, The Magne Press, The Hebrew Universitu, Jerusalem, 1993, pp.169-177.

(14) Esther Benbasa, *Une diaspora séfarade.., passim.*

(15) Livre essentiel sur ce personnage, Esther Bendassa, *Un grand rabbin séfarade en politique, 1892-1923*, Presses du CNRS, Paris, 1990,.

(16) Neville J. Mandel, *The Arabs..*, pp.83-84.

يستشهد بصحيفة عربية للّجنة المركزية السورية. ولا تظهر هذه التيمات في مطبوعاتها الصادرة بالفرنسية.

(17) Elie Kedourie « Young Turks, Freemasons and Jews » *Middle Eastern Studies* VII, 1971, pp.89-104.

(18) Silâhi R. Sonyel, *Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire*, Turkish Historical Society Printing House, Ankara, 1993, p.320.

(19) Mim Kemâl Öke, « Young Turks, Freemasons, Jews and the Question of Zionism in the Ottoman Empire », *Studies in Zionism*, vol. 7, n°2 (1986), pp.199-218.

(20) Esther Benbasa, *Une diaspora séfarade...*, pp. 173-180.

(٢١) يكفي تصفح أعمدة مجلة كمجلة **لافريك فرانسيز**، لسان حال الحزب الاستعماري، لإدراك إلى أي مدى كانت المساعدة العامة ضرورية لتنمية الزراعة الفرنسية في الشمال الأفريقي.

(22) Derek J. Penslar, *Zionism and Technocracy, The Engineering of Jewish Settlement in Palestine, 1870-1918*, Indiana University Press, 1991, pp. 60-79.

(23) Gershon Shafir, *Land, labor ...*, pp.152-159.

(24) Sources déjà citées plus « the picture in 1907 » discours à Vienne le 27 février 1908 in Arthur Ruppin, *Three Decades of Palestine, speeches and paper on the upbuilding of the Jewish National Home*, Jérusalem 1936, pp. 1-14. Voir aussi Arthur Ruppin, *Memoirs, Diaries, Letters*, Londres, 1971.

(25) Derek J. Penslar, *Zionism and Technocracy..*, pp.80-99.

(26) Norman A. Stillman, *The Jews of Arab Lands..*, p. 67.

(27) Arthur Ruppin, *The Agricultural Colonisation of the Zionist Organisation* in Palestine, Londres, 1926, p.50; Gershon Shafir, *Land, labor ...*, pp.90-122.

(28) Henry Near, *The Kibbutz Movement A History*, Oxford University Pres, 1992, I, p. 42.

(٢٩) انظر محادثات السكاكيني مع صهيوني لا يرد اسمه، **كذا أنا يا دنيا**، فبراير/ شباط ١٩١٤.

(30) Shabtai Teveth, *Ben Gurion and the Palestinian Arabs, from Peace to War*, Oxford University Press, 1985, pp.26-30.

(31) H. Laurens, *Le Royaume impossible, la France et la genèse du monde arabe*, Paris, Armand Colin, 1990, pp.67-68.

(32) *L'Asie française*, octobre 1910, *Levant: La propagande allemande et les Israélites de Turquie.*

(33) Isaiah Friedman, *Germany, Turkey and Zionism, 1897-1918*, Clarendon Press, Oxford, 1977, pp.127-131.

(34) *L'Univers israélite*, 25 août 1911, pp.750-754.

(35) David Vital, *Zionism the Crucial phase..*, pp.56-61.

(36) 17 juillet 1912, MAE, Nantes, Jérusalem, A, 137. L'ambassadeur de France à Constantinople à M. Guy, gérant le Consulat général de France à Jérusalem. *Au sujet du collège israélite dirigé par le Dr. Segal.*

(37) 30 décembre 1912, MAE, Turquie, Palestine, 137, 17 et suivant.

(38) N. M. Gelber, «An attempt to Internationalize Salonika, 1912-1913» *Jewish Social Studies*, XVII (1955), pp.105-120.

(39) 17 mai 1913, MAE, Nouvelle série, Turquie Palestine, CXXXV, 107-108. Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Le Ministre des Affaires étrangères à Paris.

(40) 28 décembre 1912, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 13.L'ambassadeur de France à Constantinople à M. Gueyraud Consul général de France à Jérusalem. 6 mars 1913, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 13, L'ambassadeur de France à Constantinople à M. Gueyraud

(41) 28 mai 1913, MAE, Nouvelle série, Turquie-Palestine, 135, 112-114. Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Bompard, Ambassadeur de la République française à Constantinople

(42) 17 juin 1913, MAE, Nouvelle série, Turquie-Palestine, 135, 131-134,Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Le Ministre des Affaires étrangères à Paris.

(43) *L'Univers israélite*, 13 février 1914, pp. 485-486.

(44) 3 mars 1914, Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Doumergue, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères , à Paris MAE, Nouvelle série, Turquie-Palestine, CXXXV, 201-204. Attribution à Londres, Berlin, Vienne, Pétersbourg, Rome, M. Puigaud. MAE, Nantes, Jérusalem, A, 137. *Au sujet des sionistes, tendances françaises.*

(45) *L'Univers israélite*, 13 mars 1914, pp. 583-584.

(46) 6 mars 1914, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXXIV, 51, M. Coulondre, gérant du consulat général de France à Beyrouth à Son Excellence M. Doumergue, président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères; *L'Univers israélite*, 20 mars 1914, pp. 605-607.

(47) 11 avril 1914, MAE, Turquie, Palestine, 135. L'Ambassadeur de la République à Berlin à Son Excellence M. le Ministre des Affaires étrangères. *Au sujet des sionistes et de leur tendances françaises.*

(48) 29 mai 1914, MAE, Nouvelle série, Turquie Palestine, CXXXV, 236, L'ambassadeur de France à Constantinople à M. Le Ministre des Affaires étrangères. *Au sujet du sionisme. Démarche de M. Jacobson.*

(49) 7 juillet 1914, MAE, Nantes, Jérusalem, A, 137. L'ambassadeur de France à Constantinople à M. Gueyraud, Consul général de France à Jérusalem.

(50) 3 juillet 1909, Nouvelle série, Turquie, politique intérieure, VI, 99; Le chargé d'affaires à Constantinople (Boppe) au Ministre des Affaires étrangères.

(51) *L'Asie française*, juillet 1909, *Les Révoltes en Arabie.*

(52) *L'Asie française*, août 1909, *La question du khalifat arabe.*

(53) *L'Asie française*, octobre 1909, *Turcs et Arabes: le khalifat orthodoxe.*

(54) *L'Asie française*, décembre 1909, *La mésintelligence entre les Turcs et les Arabes.*

(55) *L'Asie française*, février 1910, *Le pèlerinage du khédive.--La scission entre les Arabes et les Turcs. L'Asie française,* mars 1910, *Levant: Les Arabes et les*

Turcs.L'Asie française, juin 1910 *Levant, Les polémiques entre les Arabes et les Turcs. L'Asie française*, août 1910, *L'antagonisme des Arabes et des Turcs.*

(56) 9 décembre 1910, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXIV, 137. Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Pichon, Ministre des Affaires étrangères à Paris. Dossier complet, H. Laurens, « Chronique d'une révolte annoncée: la révolte arabe de Kérak en décembre 1910 » Revue d'études palestiniennes, nouvelle série n°8 été 1996, pp. 9-78 et n°10 hiver 1996, pp. 82-96.

(57) 15 décembre 1910, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXIV, 156 et suivante, Le Consul général de France à Jérusalem au M. Le Ministre des Affaires étrangères Paris.

(58) Neville J. Mandel, *The Arabs..*, pp.85-92.

(٥٩) عزة دروزة، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ١٩٩.

(٦٠) أرباب الأقلام في بلاد الشام ومشروع الأصفر، المجلد ١٤، العدد ٩، ص ص ٧١٣_٧١٥.

(61) 14 septembre 1911, MAE, Nouvelle Série, Turquie, Palestine, CXXXIII, 149-150. Arthur Guy, Vice-Consul de France à Caïffa, à Son Excellence Monsieur de Selves, Ministre des Affaires étrangères. Entreprises agricoles en Palestine.

(62) Neville J. Mandel, Tiie Arabs and Zionism..., op. cit., pp. 93-116, analyse détaillée des débats.

(63) Samir Seikaly, « Shukri al- 'Asali : a Case Study of a Political Activist », in Rashid Khalidi, Lisa Andersen, Muhammad Muslih, Reeva S. Simon, *The Origins of Arab Nationalism*, New York, Columbia University Press, 1991, pp. 73-96.

(64) 28 février 1912, MAE, Nouvelle série, Egypte, XVIII, 128, M. A. Defrance, Ministre de France au Caire, à Son Excellence M. R. Poincaré, Président du Conseil, Ministres des Affaires étrangères à Paris: *l'Égypte, la Turquie et la question arabe.*

(65) Rashid Ismail Khalidi, « The 1912 Election Campaign in the cities of *Bilad al Sham* », *International Journal Of Middle East Studies*, 16 (1984), pp. 461-474.

(66) 4 mai 1912, MAE, Turquie, Palestine, 134.Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. R. Poincaré, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères à Paris: *Au sujet des élections dans le sandjak de Jérusalem.*

(٦٧) حول تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، **الصحافة العربية في فلسطين [١٨٧٦ـ١٩٤٨]**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦.

(68) Neville J. Mandel, *The Arabs..*, pp.127-131.

(69) Yehoshua Porath, « The Political Awakening of the Palestinians Aarbs and their Leadership Towards the End of the Ottoman Period », in Moshe Ma'oz ed., *Studies on Palestine* ..., p. 370. 22 est l'estimation de Dawn, 24 celle de Porath, Muslih lui avance 25.

(70) Mohammad Muslih, *The Origins of Palestinian Nationalism*, Columbia University Press, 1988, pp.97-98.

(71) Sur la liaison entre classes moyennes et villes littorales dans le mouvement arabe voir Rashid Khalidi, « Ottomanism and Arabism in Syria before 1914 : A Reassessment », in Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih, Reeva S. Simon, *The Origins of Arab Nationalism*, Columbia University Press, New-York, 1991, pp. 50-69.

(72) 2 septembre 1912, MAE, Turquie, Palestine, 134.Le gérant du Consulat général à Jérusalem à SE M. le Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères. *Le Mutessarif de Jérusalem et le sionisme.*

(73) Sur la politique britannique au moment de la crise d'Agadir, Elie Halévy, *Histoire du peuple anglais au XIXe siècle, Epilogue II, Vers la démocratie sociale et la guerre, 1905-1914*, Paris, Hachette, 1975, pp.409-424.

(74) Randolph S. Churchill, *Winston Churchill 1901-1914*, Paris, Stock, 1969, pp.472-471.

(75) Robert K.. Massie, *Dreadnought, Britain, Germany and the Coming of the Great War*, New-York, Random House, 1991, p.824.

(76) 10 juillet 1912, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXVI, 281 et suivante,, Paul Cambon à M. Poincaré, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères.

(77) 12 novembre 1912, M. Coulondre, gérant le consulat général de France à Beyrouth à M. Poincaré Président du Conseil, ministre des Affaires étrangères. Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du Proche-Orient du XVIIe siècle à nos jours...*, Beyrouth, 1979, XIX, p.114.

(٧٨) دون أن يكونوا مخططين بالضرورة،

Rashid Khalidi, *British Policy towards...*, pp.262-263.

(79) 31 janvier 1913, Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence Monsieur le Ministre des Affaires étrangères. MAE, Nouvelle série, Turquie-Palestine, CXXXV, 36-37. MAE, Nantes, Constantinople, Correspondance avec Jérusalem. *Du sentiment public en Palestine.*

(80) En ce qui concerne les relations entre Arabes et sionistes pour cette période, Mandel reste l'ouvrage le plus précieux, que l'on peut compléter par Neil Caplan, *Futile Diplomacy, Vol.I, Early Arab-Zionist Negotiatiosn Attempts, 1913-1931*, Londres, Frank Cass, 1983, pp.10-27 et Yaacov Ro'i, « The Zionist Attitude to the Arabs 1908-1914 », *Middle Eastern Studies*, 4 (1968), pp.198-242.

(81) Le 12 mars 1913, Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques..*, pp. 361-365.

(٨٢) بهذا المعنى، لم تكن أحداث التسعينيات المأساوية في البوسنة غير تجسيد محلي لهذه الإشكالية الأعم.

(83) Central Zionist Archives Z3 114.

وأنا أشكر السيدة رينا كوهين التي وافتني بالنص الكامل للوثيقة. وقد دارت المفاوضات بالفرنسية.

(84) 24 mars 1913, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 71, L'Ambassadeur de France à Constantinople à M. Gueyraud, Consul général de France à Jérusalem.

(٨٥) انظر في هذا الموضوع سهيلات الريماوي، "حزب اللامركزية الإدارية العثماني"، في الحركة العربية القومية في مائة عام، عمّان، ١٩٩٧، ص ص ٩٥ـ١٢٨.

(86) Adel Ismail , *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban* , Beyrouth , 1979 , T XX , p 310-316.

(87) 20 septembre 1913, MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXXII, 97, Le vice-consul de France à Caïffa à Son Excellence M. Pichon, Ministres des Affaires étrangères: *extrait de presse du 9 septembre 1913.*

(88) 15 mai 1914, MAE, Nantes, Jérusalem, A, 137. MAE, Nouvelle série, Turquie, Syrie-Liban, CXXIV, 115. Defrance, Ministre de France en Egypte à Son Excellence M. Doumergue, président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères.

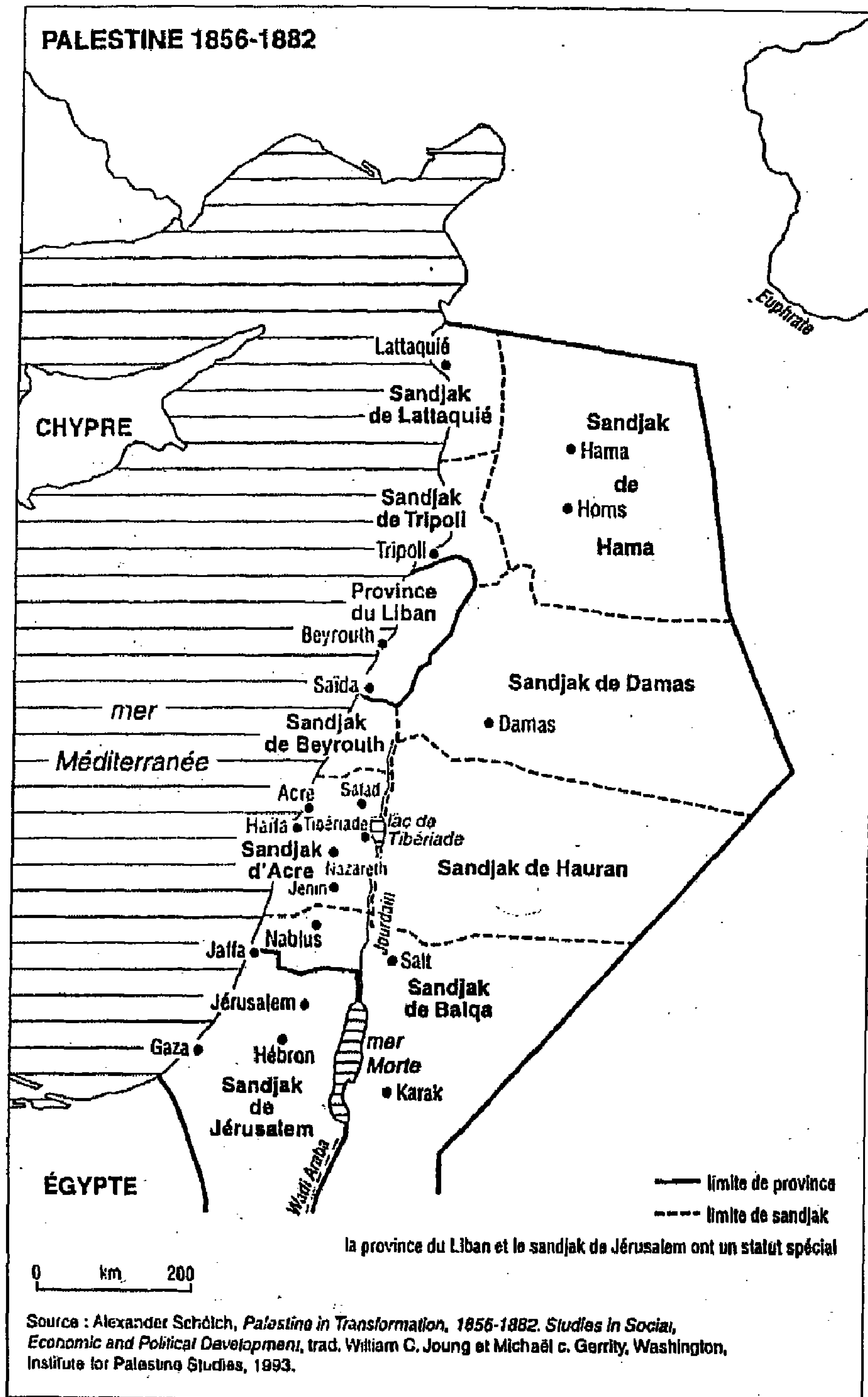
(٨٩) اعتادت الولايات المتحدة إرسال سفراء يهود إلى القسطنطينية. وهناك كانت مشكلات العلاقات الاجتماعية التي تواجههم أقل بشكل سافر مما في البلدان الأوروبية، حيث كانت معاداة السامية قوية. وبحسب التراث الأميركي، فإن مناصب السفير هذه كانت بمثابة شكر على المساندة الممنوحة للحزب الموجود في السلطة.

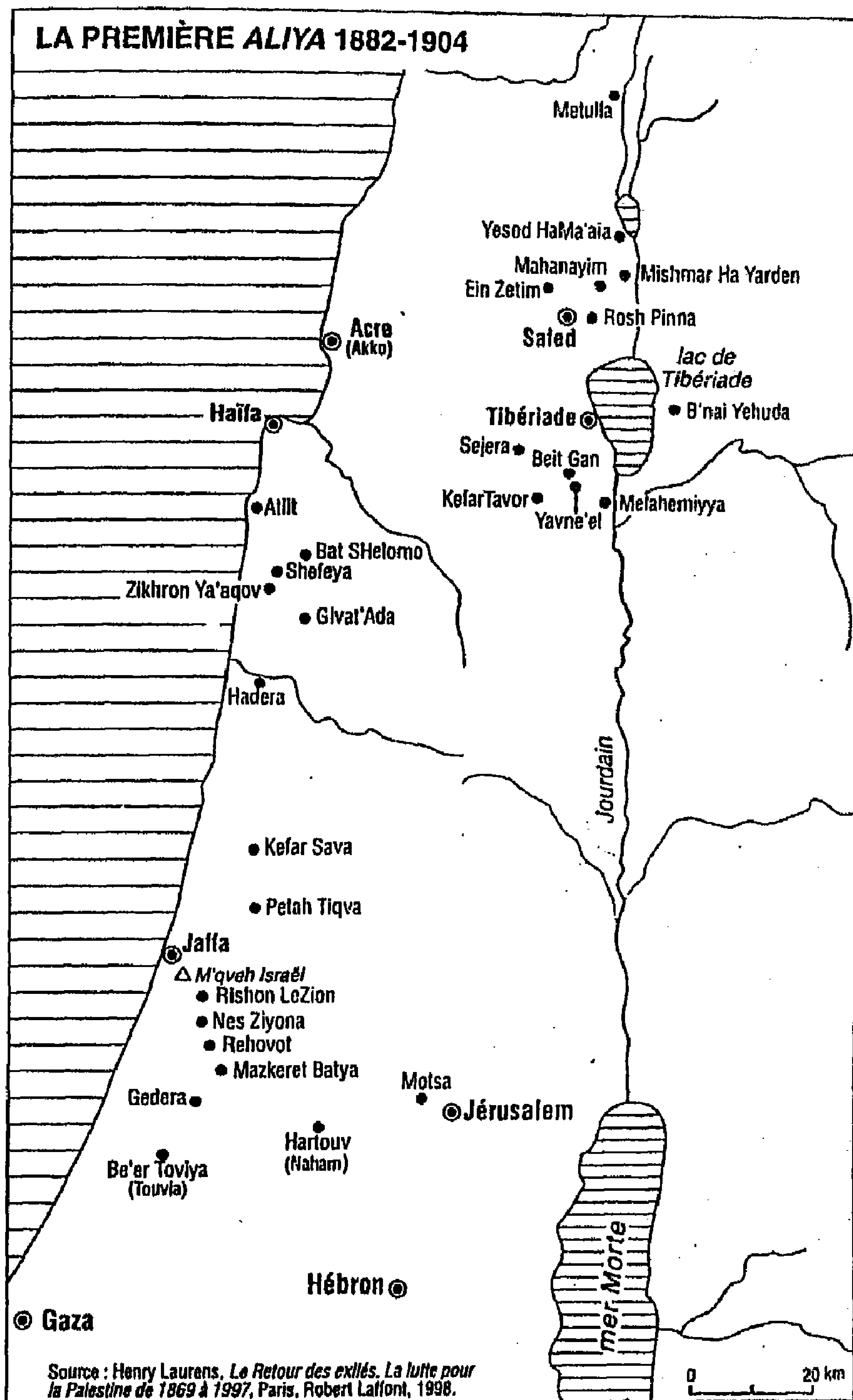
(90) Neville J. Mandel, *The Arabs..*, pp.180-181.

(91) 23 mai 1914, MAE, Nouvelle Série, Turquie, Syrie-Liban, CXXIV, 119, Le vice-consul de France à Jaffa à à Son Excellence M. le président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères.

(92) Voir H. Laurens, « La politique musulmane de la France: caractères généraux » *Maghreb-Machrek*, n°152 avril-juin 1996, pp. 3-13 (article présentant un ensemble de collaborations sur ce thème).

خرائـــط


PALESTINE 1856-1882
CHYPRE
Lattaquié
Sandjak
de Lattaquié
Sandjak
Hama
de
Homs
Hama
Sandjak
de Tripoli
Tripoli
Province
du Liban
Beyrouth
Saïda
Sandjak de Damas
Damas
mer
Méditerranée
Sandjak
de Beyrouth
Acre
Safad
Haïfa
Tibériade
lac de
Tibériade
Sandjak
d'Acre
Nazareth
Jenin
Sandjak de Hauran
Nablus
Jaffa
Jourdain
Salt
Sandjak
de Balqa
Jérusalem
Gaza
Hébron
mer
Morte
Karak
Sandjak
de
Jérusalem
Wadi Araba
ÉGYPTE
Euphrate
limite de province
limite de sandjak
la province du Liban et le sandjak de Jérusalem ont un statut spécial
0 km 200
Source : Alexander Schölch, *Palestine in Transformation, 1856-1882. Studies in Social, Economic and Political Development*, trad. William C. Joung et Michaël c. Gerrity, Washington, Institute for Palestine Studies, 1993.



Source : Henry Laurens, *Le Retour des exilés. La lutte pour la Palestine de 1869 à 1997*, Paris, Robert Laffont, 1998.

LES COLONIES JUIVES EN PALESTINE EN 1914

Metulla (1896)
Yesod HaMa'ala (1883)
Mishmar Ha Yarden (1884)
Ein Zetim (1891)
Mahanayim (1898)
Peqi'in
Safed
Rosh Pinna (1882)
Acre
mer Méditerranée
Migdal (1910)
lac de Tibériade
Shefar'am
(1914) Kfar Hittim
Tibériade
B'nai Yehuda (1891)
Haifa
(1908) Mizpa
(1902) Sejera
Poriyya (1912)
Vilayet de Beyrouth
(1913) Sharona
(1903) Bet Gan
Kinneret (1908)
Deganya (1909)
Atlit (1903)
(1901) Masha
Yavne'el (1901)
Bitanya (1913)
Menahemiyya (1902)
Tel'Adas (1913)
Shefeya (1891)
Merhavya (1911)
Bat SHalomo (1889)
Zikhron Ya'aqov (1882)
Vilayet de Syrie
Givat'Ada (1903)
Beisan
Karkur (1913)
Gan Shemu'el (1896)
Hadera (1890)
Jourdain
Nablus
Ein Hai (1914)
Kfar Saba (1903)
Petah Tiqva (1878)
Tel Aviv (1909)
Ein Gannim (1908)
Jaffa
Miqve Yisra'el (1870)
Nahalat Yehuda (1914)
Rishon LeZion (1882)
Ben Shemen (1906)
Nes Ziyyona (1882)
Be'er Ya'aqov (1907)
Rehovot (1890)
Qalandiyya (1914)
Eqron (1883)
Hartuv (1907)
Dilb (1913)
Gedera (1884)
Kfar Uriyya (1912)
Artuf (1895)
Moza (1894)
Jérusalem
Be'er Toviyya (1887)
mer Morte
Mutasarriflik de Jérusalem
Hébron
0 20 km
Gaza
Ruhama (1911)
Beersheba

Source : Neville J. Mandel: *The Arabs and Zionism before World War First*, Berkeley-Los Angeles-London, University of California Press, 1976

■ Villes et villages avec d'anciennes communautés juives
○ Colonies de peuplement juif

المحتويات

شكر وتقدير ٧

استهـــــلال: العام ١٧٩٩ ٩

الكتاب الأول
أوروبا تصوغ العالم وشرقٌ آخذٌ بالتحول
١٧٩٨ـــ١٩١٤

الفصل الأول: تحرير يهود أوروبا ٢٣

الثورة الفرنسية واليهود٢٤، الخصائص العامة للتحرير٣٠، تحرير يهود أوروبا الغربية: الحالتان الإيطالية والألمانية٣٧، تشكل اليهودية الأميركية٣٩، اليهودية البريطانية٤١، يهودية أوروبا الشرقية٤٣، لمحة ديموغرافية موجزة٤٧

الفصل الثاني: فلسطين والتحولات العثمانية ٤٩

فلسطين في مستهل القرن التاسع عشر٥٠، الاحتلال المصري٥٣، التدخل الأوروبي٥٥، عودة النزعة الألفية البروتسانتية إلى الظهور٥٧، قضية دمشق٥٩، رهان القدس٦٢، مسألة الأماكن المقدسة٦٧، تحرير غير المسلمين٦٩، التحالف الإسرائيلي العالمي٧٤، تحولات فلسطين٧٨، الأوروبيون في فلسطين٨٧، شارل نيتّر ومدرسة يافا الزراعية٩١، يهود فلسطين٩٥، فلسطين في مستهل العصر الحميدي٩٧، حصاد عصر١٠٣

الفصل الثالث: التضامن اليهودي ومعاداة السامية والصهيونيةُ ١٠٥

مؤتمر برلين١٠٥، الأزمة المعادية للسامية في ثمانينات القرن التاسع عشر: أوروبا الغربية١٠٧، الأزمة المعادية للسامية في ثمانينيات القرن التاسع عشر: أوروبا الشرقية١١٨، الهجرة الكبرى١١٩، تحولات اليهودية الروسية١٢٥، بدايات الصهيونية١٢٨، أحاد هاعام والصهيونية الروحية١٣٥

الفصل الرابع: فلسطين زمن العاليّا الأولى ١٣٩
بدايات العاليّا الأولى وعمل الإسرائيليين الفرنسيين١٣٩، ظهور إدمون دو روتشايلد على خشبة المسرح١٤٣، رد فعل السلطات١٤٧، المستوطنات الزراعية للعاليّا الأولى١٥٢، تنظيم الييشوف١٦٠، استيطان دون استعمار؟١٦٥، المشرق الحميدي١٦٦، عبد الحميد والدول العظمى١٧٠، فلسطين الحميدية١٧٣، فلسطين الحميدية في العلاقات الدولية١٨٤

الفصل الخامس: تيودور هرتسل ونشأة الصهيونية السياسية ١٩٣
الفرد والتاريخ١٩٣، بحثًا عن مُحَاوِر١٩٥، دولة اليهود١٩٨، الاتصالات السياسية الأولى٢٠٢، مؤتمرا بال الأوّلان٢٠٦، هرتسل وألمانيا الإمبراطورية٢١٥، لندن والقسطنطينية٢١٩، مذابح ١٩٠٣ ـ ١٩٠٦ والمسألة الأوغندية٢٢٩، المؤتمر الصهيوني السادس٢٣٤، أيام هرتسل الأخيرة٢٣٦

الفصل السادس: نشأة المسألة العربية ٢٤١
شرق أم غرب؟٢٤٢، ردود الفعل العربية الأولى والمواقف الصهيونية الأولى٢٤٤، توضيح أهداف الصهيونية٢٤٩، الترابيون٢٥٥، الصهيونية بعد موت هرتسل٢٥٨، العاليّا الثانية وفلسطين٢٦٢، حوادث يافا٢٦٩، ثورة تركيا الفتاة وفلسطين٢٧٤، استئناف التوترات٢٨٠

الفصل السابع: نشأة الرهان الفلسطيني ٢٩١
جماعة تركيا الفتاة والصهيونيون٢٩٢، ابتكار نمط جديد للاستيطان الريفي والمنجزات الحضرية الأولى٣٠٠، الصهيونية الثقافية بين فرنسا وألمانيا٣١١، العرب والصهيونيون٣١٩، أثر حروب (١٩١١ـ١٩١٣)٣٢٦، تفاهم أم نزاع، ١٩١٣ـ١٩١٤؟٣٣٦، حصاد عصر ٣٤٤

للمترجم

تأليف:

ـ **تروبادور الصمت**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤.

ـ **مرايا الانتلجنتسيا**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥.

ـ **مبدأ الأمل**، دار حور، القاهرة، ١٩٩٦.

ترجمة:

ـ ز. أ. ليفين: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر**، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨.

ـ ط٢ تحت عنوان: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر والشام**، شرقيات، القاهرة، ١٩٩٧.

ـ ز. أ. ليفين: **التنوير والقومية. تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧.

ـ جورج حنين، **لا مبررات الوجود**، أصوات، القاهرة، ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كامل).

ـ تيموثي ميتشل، **استعمار مصر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

ـ ك. پ. كافافي: **قصائد**، دار إلياس، القاهرة، ١٩٩١.

ـ تيموثي ميتشل، **مصر في الخطاب الأميركي**، مؤسسة عيبال، نيقوسيا، ١٩٩١.

ـ ترفيتان تودوروف، **فتح أمريكا، مسألة الآخر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٢.

ـ ط٢، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ روبير مانتران (إشراف): **تاريخ الدولة العثمانية**، جزءان، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣.

ـ فيليب فارج ويوسف كرباج: **المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤.

ـ ادواردو جاليانو: **الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية. تاريخ مضاد**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

ـ توماش ماستناك: **الإسلام وخلق الهوية الأوروبية**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥.

ـ ط٢، الملتقى، مراكش، ٣، ١٩٩٩.

ـ هنري لورنس وآخرون: **الحملة الفرنسية في مصر. بونابرت والإسلام**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥.

ـ توماش ماستناك: **أوروبا وتدمير الآخر. الهنود الحمر والأتراك والبوسنويون**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٥.

ـ چورچ حنين: **أعمال مختارة**، منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٦.

ـ ط٢ (مزيدة) تحت عنوان: **منظورات**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

ـ تيموثي ميتشل: **الديموقراطية والدولة في العالم العربي**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٦.

ـ زكاري لوكمان: **خطاب الأفندية الاجتماعي، ١٨٩٩-١٩١٤**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٧.

ـ چان-كلود جارسان: **ازدهار وانهيار حاضرة مصرية: قوص**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.

ـ هنري لورنس: **المملكة المستحيلة. فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.

ـ هنري لورنس: **بونابرت والإسلام. بونابرت والدولة اليهودية**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٨.

ـ چويس منصور: **افتح أبواب الليل**، منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٨.

ـ عبد الله الشيخ موسى: **الكاتب والسلطة**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ فرنان برودل: **هوية فرنسا**، المجلد الأول: **المكان والتاريخ**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ فرنان برودل: **هوية فرنسا**، المجلد الثاني: **الناس والأشياء**، المجلس الأعلى للثقافة، الجزء الأول ٢٠٠٠، الجزء الثاني ٢٠٠٠.

ـ صفاء فتحي: **إرهاب**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ هنري لورنس: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا (١٦٩٨-١٧٩٨)**، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ برنار نويل: **لسان أنّا**، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ هنري لورنس: **كليبر في مصر، المواجهة الدرامية مع بونابرت**، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ جاك دريدا وصفاء فتحي: **دريدا... من جهة أخرى**، فيلم تسجيلي، أخبار الأدب، القاهرة، ٢٠ فبراير/ شباط ٢٠٠٠.

ـ برنار نويل: **حالة جرامشي**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

ـ أندريه ريمون: **المصريون والفرنسيون في القاهرة (١٧٩٨-١٨٠١)**، عين، القاهرة، ٢٠٠١.

ـ نوربرت إيلياس وآخرون: **التمدن بين الاجتماع والتاريخ**، متون عصرية في العلوم الاجتماعية، ٢، القاهرة، ٢٠٠١، (بالاشتراك مع إيمان فرج).

ـ شارل بودلير: **سأم باريس**، الكتابة الأخرى، القاهرة، ديسمبر، ٢٠٠١.

ـ ميشيل بالار: **الحملات الصليبية والشرق اللاتيني**، عين، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ آلان جريش وطارق رمضان: **حوار حول الإسلام**، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ هنري لورنس: **المغامر والمستشرق**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ توماش ماستناك: **السلام الصليبي**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ جاك بيرك: **أيُّ إسلام؟**، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٤.

ـ ريشار جاكمون: **بَيْنَ كَتَبَةٍ وكُتَّاب، الحقل الأدبي في مصر المعاصرة**، دار المستقبل العربي، القاهرة، ٢٠٠٤.

ـ هنري لورنس: **المشرق العربي في الزمن الأمريكي. من حرب الخليج إلى حرب العراق**، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٥.

ـ ايف ميشو (إشراف) **جامعة كل المعارف: ما المجتمع؟**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (بالاشتراك مع آخرين)، (تحت الطبع).

ـ ايف ميشو (إشراف) **جامعة كل المعارف: ما الثقافة؟**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (بالاشتراك مع آخرين)، (تحت الطبع).

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٣٨ / ٢٠٠٦

مسألة فلسطين

المجلد الأول ١٧٩٩-١٩٢٢

اختراع الأرض المقدسة

الكتاب الأول ١٧٩٨-١٩١٤

فى العام ١٧٩٩، يدخل جيش نابوليون بونابرت فلسطين؛ فيكون ذلك بداية لإعادة اكتشاف الأرض المقدَّسة، التى تفتح منذ ذلك الحين أبوابها، تدريجيا، أمام الغربيين. وسوف تذهب الدول العظمى إلى حد التحارب فيما بينها لأجل فرض حمايتها على الأماكن المقدسة، بينما يُجرى علماء الآثار عمليات تنقيب لإثبات صدق نص الكتاب المقدس الذى كان النقد التاريخى قد نال منه.

عندئذ تصبح مسألة فلسطين الصغيرة رهان صراعات سياسية ونزاعات علمية. بينما تتحول هى نفسها تحولا ملحوظًا خلال القرن التاسع عشر الطويل الذى يتميز بإصلاحات تحديثية للدولة العثمانية. وبوصفها مجتمعًا مشرقيًا، تكتشف فى مستهل القرن العشرين الأشكال الأولى للنزعة القومية.

ومن التعارض بين العلم والدين تولد النظرة التاريخية إلى النص المقدَّس والتى تعتبر الشعب اليهودى فاعلاً فى التاريخ. واعتبارًا من عام ١٨٨٠، فى الوقت الذى تستنفد فيه الليبرالية الأوروبية نفسها، يؤدى صعود مختلف أشكال معاداة السامية إلى مولد التعبير عن نزعة قومية يهودية ستكون الصهيونية شكلها الأكثر جذرية.

ويحدثنا هذا المجلد عن الكيفية التى أمكن بها، بفضل "الإسرائيليين" الفرنسيين، قيام الاستيطان اليهودى الأول. ومنذ سنوات العقد الأول للقرن العشرين، تبدأ الصهيونية فى الاصطدام بالنزعة القومية العربية الفلسطينية. وخلال الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨)، ينتهج الفرنسيون والإنجليز سياسة مترددة ومتناقضة هدفها أن تكفل لهم الفوز بالمساندة من جانب العالمين اليهودى والإسلامى، اللذين تجرى المغالاة فى تقدير قوتهما الحقيقية. ومن عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٢، يحصل البريطانيون بالفعل على انتداب على فلسطين، إلا أنه، فى اللحظة التى تصدِّق فيها عصبة الأمم على ميثاق الانتداب المذكور (يوليو/ تموز ١٩٢٢)، يتكشف بجلاءٍ تضارب الالتزامات المنصوص عليها، وذلك بالرغم من ترتيب سياسى يتميز بالدهاء.

ومن عام ١٧٩٩ إلى عام ١٩٢٢، تصبح أرضُ الديانات المقدَّسةُ القديمة الأرضَ المقدَّسةَ للأ… الإحساس بأن العالم يتحرر من الأوهام، كلما زاد تعزُّز قدسية هذه المنطقة لتصبح هذه الـ… أعمال عنف جديدة.

عمل هنرى لورنس أستاذًا للتاريخ بجامعة باريس IV ثم بالمعهد القومى للغات والحضار… وتولى بعد ذلك إدارة مركز دراسات وبحوث الشرق الأوسط المعاصر ببيروت وهو الآن أستا… التاريخ المعاصر للعالم العربى بالكوليچ دو فرانس. نشر مؤخرًا "شرقيات"، ٣ أجزاء (دا… القومى للبحث العلمى، باريس، ٢٠٠٤).



تصميم الغلاف: هبة حلمى

